نقلها إلى العربية
د. صالح سعداوي صالح

والدي السلطان
عبد الحميد الثاني

مذكرات
الأميرة عائشة عثمان أوغلي

دار البشير
للنشر والتوزيع

والدي السلطان
عبد الحميد الثاني

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤١١ هـ - ١٩٩١ م

دار البشير للنشر والتوزيع
مركز جوهرة القدس التجاري
العبدلي
عمان - الأردن
هاتف: (٦٥٩٨٩١) / (٦٥٩٨٩٢)
فاكس: (٦٥٩٨٩٣) / تلكس (٢٣٧٠٨)
ص.ب (١٨٢٠٧٧) / (١٨٣٩٨٢)

والدي السلطان عبد الحميد الثاني

مذكرات

الأميرة عائشة عثمان أوغلي

نقلها إلى العربية
د. صالح سعداوي صالح

أشرف على إعداد الطبعة العربية وقدم لها
أ. د. أكمل الدين إحسان أوغلي

دار البشير

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الترجمة العربية

لقد كان من دواعي فخرنا واعتزازنا أن تُقَدِّم اليوم هذه الترجمةُ العربية لكتاب «والدي السلطان عبد الحميد» إلى مثقَّفِي العالم العربي، والمعنيين بالتاريخ فيه، بفضل المبادرة العلمية التي قام بها صديقنا الأستاذ الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلي، الذي قام بالإشراف على إصدار هذه الطبعة العربية التي تمتاز بدقة التعبير، وبالمقدمة المُوجَزة الهامة عن حياة السلطان عبد الحميد، والتي قام بترجمة النص فيها الدكتور صالح سعداوي. ويَطِيب لنا أن نُعبِّرَ للأستاذ الدكتور إحسان أوغلي عن شكرنا لمبادرته هذه، وللجهود التي بذلها من أجل أن تخرج هذه الطبعة العربية على أكمل وجه، كذلك إلى المترجم على مساهمتة العلمية القيمة.

وهذا الكتاب ـ مع بُعده الواضح عن المسائل السياسية ـ يعتبر واحداً من الأعمال الهامة؛ إذ تحدَّثت فيه المرحومة والدتنا الأميرة عائشة بلسان صادق، ونظرة وُدِّية عن خواطرها وحياتها، فكشفت عن أيامها الحُلوة والمرة، وأبانت عن عادات البلاط العثماني وتقاليده في الحِقْبة الأخيرة، كما كشفت من ناحية أخرى عن تفاصيل الحياة اليومية لوالدها السلطان عبد الحميد وبعض أفكاره وشخصيته.

ولا شك أن السلطان عبد الحميد قد استطاع ـ خلال سلطنته التي

استمرت ما يزيد على ثلاثة وثلاثين عاماً، وصادفت المرحلةَ المحمومة للدول الاستعمارية - أن يُطيل في أجَل الدولة العثمانية بما جُبِل عليه من ذكاء فطري، وموهبة سياسية، ويقدم بذلك أكبر خدماته وإنجازاته للأمة التركية والأمة العربية على السواء.

ولأجل هذا فإننا على ثقة تامة بأن هذا الكتاب سوف يَلقى من الترحيب في العالم العربي ما يليق به.

عمر نامي وعثمان نامي
استانبول ١٣/ ١٠/ ١٩٨٨م

□□□□□

تقـديم

السلطان عبد الحميد الثّاني هو أول سلطان عثماني يُكتب عنه مثلُ هذا القدر من المؤلفات، ظهرت بين مؤيد ومعارض، وخاصّة في الأيّام التي أعقبت خلعه عن عرش السلطنة العثمانية والخلافة الإسلامية. وكما هي العادة إثر تغيير نظام الحكم بالقوّة، وتبديل شكل الإدارة، إذ يقوم البعض بشنِّ حملات التشنيع على رجال الحكم السابقين وتجاوز حدود العدل والإنصاف. وهذا بالضبط ما حدث ضد السلطان عبد الحميد، فقد أُلقيت عليه تبعاتُ كثيرٍ من الأخطاء، وأُلصقت به العديد من الاتّهامات. وقد بدأت هذه الحملة فور صدور الفتوى بخلعه؛ وهي الفتوى التي وضعها «حمدي أفندي»، وراح يعدد فيها الافتراءات والاتهامات، إذ ذكر فيها أن السلطان عبد الحميد حذف بعض المسائل الشرعية المهمة من كتب الشريعة. وأنّه مزّق هذه الكتب وأحرقها، وحرّض على فتنةٍ كادت تقلب خزانة الدولة رأساً على عقب، وأنّه كان من ثَمَّ سبباً في مقاتلة الناس بعضهم بعضاً. . .

ونحن هنا لا ندّعي للسلطان عبد الحميد فضلاً ليس له، أو نلصق به إثماً لم يقترفه، فهو لا شكّ بشر مثلنا، قد يخطىء ويصيب. وعلى المؤرخ وهو يترصَّد حركة الأحداث ويَرقُبها أن يتوخّى العدل، فيسجل المثالب والعيوب، كما يرصد المزايا والإيجابيات، فليس أخطر على التاريخ من كتابته إرضاءً لأهواء

ومنافع شخصية زائلة، أو كتابته وقوعاً تحت تأثير أيديولوجيّات وأفكار سياسية مرحلية.

والكتاب الذي نقدمه اليوم للقارىء العربي هو ترجمة للمذكرات التركية كتبتها الأمير عائشة بنت السلطان عن والدها وحياته في القصر، وألقت الضَّوْءَ على جانب لم نكن نعرفه من خلال الكتب التي تناولته قبلها، إذ بسطت الحديث عن عاداته ومشاربه وتربيته وأسلوبه في حديثه ومأكله ومشربه وملبسه، وغير ذلك من الجوانب المهمّة التي تساعدنا على استكمال الوجه الآخر لصورة السلطان وحياته الاجتماعية.

كما وجدناها تحكي أيضاً بعض الأحداث السياسية التي اطلعت عليها عن كثب. فالمذكرات من هذه الناحية جديدة كلّ الجِدَّة في موضوعها، مما يجعل الكتاب شيئاً جديداً، ومصدراً يمكن إضافته إلى قائمة المصادر التي دارت حول هذا الموضوع.

ولترجمة هذا الكتاب إلى العربية قصة وَدِدْتُ لو ذكرتها وأنا بصدد الحديث عنه: فقد كان أحد الأمراء الأفاضل من إحدى العائلات المالكة في العالم العربي في زيارة لمركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية الذي أُديره، وفي حفل عشاء أقمناه وحضره بعض الوزراء الأتراك ووالي إستانبول، بادَرَني الأمير بالسؤال عن رأيي في السلطان عبد الحميد الثاني، والنقاش الذي ما يزالُ دائراً حول شخصيته، ومن هنا بدأ الحديث، ورُحْنا نتجاذَب أطرافه.

وذكرت يومها من بين ما ذكرت: أن السلطان عبد الحميد الثاني شخصية ماتزال جديرةً بالبحث والدرس، على أن يُراعِيَ الباحثون طبيعة العصر والظروف التي نشأ فيها السلطان عبد الحميد، وظهر فيها على مسرح السياسة العالمية، وذلك من خلال الوثائق والمصادر الموثوقة، وأن يكون البحثُ شاملاً لكل

جوانب شخصيته، كأن نتناوَلَه ـ مثلاً ـ أباً وربَّ عائلةٍ، ثم عَلاَقاتِه بالمحيطين به من رجالات الدولة العثمانية وكبار الشخصيات الأجنبية، والأهداف التي كان يترَسَّمُها، ومدى النجاح الذي حققه في كثير من المجالات التي استهدف من ورائها محاولة النهوض بالبلاد، كأن نتناول ـ مثلاً ـ أعمالَه في المجال التعليمي، ونحاول التعرف على إنجازاته فيه. فلا شك أن إلقاء الضَّوْء على كل هذه الأمور وإبرازها للعِيَان، سوف يكون من شأنه الكشفُ عن جوانبَ تستحق التقدير في حياة السلطان عبد الحميد، بل وتدعو لِلفَخَارِ.

وبينما نحن على هذه الحال، بادَرَني الأمير بالسؤال عن كتاب يمكن أن يكون مِفتاحاً لفَهْم شخصية السلطان عبد الحميد، وعوناً للكشف عن الجانب الاجتماعي والنفسي في حياته، فأشرتُ عليه بكتاب ابنته الأميرة عائشة، فهذا الكتاب يُعَدُّ شهادةً تاريخية من شاهدة عِيان عاشَت إلى جِوار السلطان، واطَّلَعَتْ على دقائِقَ ربما لم يعرفها الكثيرون ممَّن ألَّفوا وكتبوا عن حياته. على أنني في الوقت نفسه لا أنحاز إلى الأميرة وأدافعُ عن آرائها أمام القارىء العربي، ولكنني أدعوه لقراءة هذه المذكرات مراعياً الظروفَ النفسية التي عاشتها الأميرة وهي تكتبها.

وعلى الفَوْر طلب مني الأميرُ أن نقوم بترجمة هذا الكتاب من التركية إلى العربية، فأَحَلْتُ أمر الترجمة إلى تلميذي وزميلي الدكتور صالح سعداوي، أحد الباحثين بالمركز، فهو أهل لها، وخيرُ من يقوم بإنجازها.

وبينما يقومُ المترجم بتبييض ما كتب، اتفق أن زارَ المركز أحدُ الأساتذة العرب، وطلب مِلِحّاً أن يطَّلعَ على الترجمة ويتصفحها، ولم نجد أمامنا إلا الاستجابةَ للضيف وتلبيةَ طلبه. غير أنه بعد أن تصفَّح الترجمة سجّل في دفترٍ لديه بعض الملحوظات، فلما عاد إلى البلد الذي يُقيم فيه كتب مقالاً عن

السلطان عبد الحميد وعن الترجمة، ضَمَّنها بعض الفقرات التي نقلها دون أن يشير إلى صاحب الترجمة، ثم نشر المقال في مجلة عربية نُكِنُّ لها كل الاحترام والتقدير. ثم توالَتِ التعقيبات في المجلة نفسها على مقال الأستاذ، حتى أثار ذلك الاهتمامَ في العالم العربي حول أصل الترجمة، وشجَّعَ أحدهم على نشر بعض الفصول منها بالعربية في مجلة عربية أخرى.

أما كتابنا هذا فقد رأينا أن نصدِّر له بنَبْذةٍ عامة عن السلطان عبد الحميد الثاني، استقيناها من مصادرَ موثوقةٍ، وتناولنا فيها الحديث عن الظروف السياسية والاقتصادية التي واكبت ظهور السلطان عبد الحميد في الداخل والخارج، ثم تحدثنا عن بعض آرائه في السياسة والاقتصاد، وأشرنا إلى تطلعاته ومحاولاته للنهوض بالبلاد، رَغْمَ كثافة الضغوط المختلفة التي كانت تَحُولُ بينه وبين تحقيق كل أهدافه، وأشرنا كذلك إلى بعض أعماله وإنجازاته في بعض المجالات، ثم أشفَعْنا ذلك بالحديث عن الجانب النفسي في حياته، والظروف التي نشأ فيها وتأثيرِها بعد ذلك على تحركاته وقراراته.

ولم نَنْسَ في خاتمة هذه النبذة العامة أن نُلحق بها ثَبتاً لبعض الكتب والدراسات الهامة التي تناولت السلطان عبد الحميد، لعلها تفيد القارىء المتطلع إلى المزيد أن يَلْجَأ إليها إذا شاء.

هذا، واللهُ المستعانُ، فهو نِعمَ المولى ونعم النصير.

ا.د. أكمل الدين إحسان أوغلي

مدير عام مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي ورئيس قسم تاريخ العلوم بكلية الآداب جامعة استانبول

نبذة عامة عن السلطان عبد الحميد الثاني

وُلِد السلطان عبد الحميد الثاني في ١٦ شعبان ١٢٥٨هـ/ ٢١ سبتمبر (أيلول) ١٨٤٢م. ووالده هو السلطان عبد المجيد (١٨٣٩ - ١٨٦١م)، وأمه تيرمزكان قادين أفندي.

اعْتَلَى عرشَ السلطنة العثمانية في آخر أغسطس عام ١٨٧٦م عَقِبَ خلع أخيه الأكبر مراد الخامس (١٠ شعبان ١٢٩٣هـ/ ٣١ أغسطس ١٨٧٦م)، واستمر في حكم الدولة العثمانية مدةً بلغت ثلاثةً وثلاثين عاماً، ثم خُلِع عن العرش في السابع والعشرين من إبريل (نيسان) عام ١٩٠٩م، وأمضى بقية حياته في سلانيك، ثم في قصر بكلربكى في إستانبول، إلى أن تُوفِّي في العاشر من فبراير (شباط) عام ١٩١٨م.

وتقول المصادر التي تحدثت عن السلطان عبد الحميد الثاني: إنه لم يَنَلْ في صباه قدراً كافياً من التعليم، إلا أنه كان ذكياً فَطِناً، وماهراً في إخفاء مقاصده وأفكاره عن الآخرين. وكان على الرَّغْم من قدرته على الاستفادة من الأوضاع السائدة، وتوظيف التيارات الجارية آنذاك، إلا أنه لم يكن يَثِقُ أيام وِلايته للعهد في أحدٍ من رجالات الدولة، وربما يَرجِعُ السبب في ذلك إلى وفاة أمه وهو في سن الصبا، واطلاعه في ذات الوقت على أساليبِ رجالات الدولة في ضرب بعضهم بعضاً، ونفاق المقربين من السلطان.

«فلم يكن يأمَنُ لأحدٍ، ولكنه يحاول الظهور بمظهر الآمن، إذ كان يعتقد اعتقاداً راسخاً أن أصدق خدمه لن يتردَّدَ لحظة في أن يعمل ضده مقابل نَفْعٍ بسيط يأتي من هنا أو هناك.

وقد حكى رشيد باشا ـ أمين العاصمة [إستانبول] الأسبق ـ لشريف باشا قوله: «ذات يوم قال السلطان (عبد الحميد) لي: «ليس لي أدنى ثقةٍ في أحد، فقد كان هناك رجل يُدْعَى ضيا بك، تخصَّص في لعب الداما، وكان يلعبها مع عمي (السلطان) عبد العزيز، وينال عطفه وإحسانه، وفَوْرَ الانتهاءِ من اللعب يخرج من هناك ويأتي إلى أخي مراد أفندي (السلطان فيما بعد)، ويُقَلِّدُ له عمي في حركاته»[1].

ولما بدأت تظهَرُ على السلطان مراد الخامس علامات فُقْدان التوازن النفسي، بَرَزَ عبدُ الحميد. وكان الصدرُ الأعظم مدحت باشا آنذاك شخصيةً

---

(١) نقلنا هذه الفقرة، وفقرات أخرى تالية، عن مقالة بالتركية كتبها المرحوم ابن الأمين محمود كمال اينال بعنوان «حول السلطان عبد الحميد» نشرت بعد وفاته في مجلة حياة التاريخية (جلد ١٣ لسنة ١٩٧٧). والمعروف عن ابن الأمين أنه أستاذ جليل من أسرة فاضلة، تخصص في السير والفهرسة. ولد في استانبول ١٨٧٠م، ووالده هو المهردار محمد أمين باشا. بدأ حياته الوظيفية في دائرة الصدارة العظمى، فعمل في قلم المكتوبي وفي «إدارة الايالات الممتازة». وفي عام ١٩٠٩م عقب نزول السلطان عبد الحميد عن العرش كُلِّف بتصنيف الأوراق التي خلفها السلطان عبد الحميد في سراي يلديز، ثم ترأس عام ١٩٢٤ «هيئة تصنيف الأوراق التاريخية»، واستطاع إعداد التصنيف الذي يحمل اسمه حتى الآن في أرشيف رئاسة الوزراء العثماني باستانبول. وفي عام ١٩٢٧ عين مديراً لمتحف الآثار التركية الإسلامية الذي أسسه هو عام ١٩١٤، واستمر في هذه الوظيفة حتى أُحيل إلى المعاش عام ١٩٣٥. وقد وهب مكتبته الثرية بكتبها ومخطوطاتها النادرة إلى مكتبة جامعة استانبول. توفي عام ١٩٥٧م.

عُرفت بنفوذها القوي في أواخر عهد السلطان عبد العزيز وعهد السلطان مراد الخامس، وزعيماً لمؤيدي الحركة الدستورية والحياة النيابية، فكلفته هيئة الوكلاء (الوزراء) بقرارٍ صَدَرَ عنها بالتفاوض مع عبد الحميد الذي وعده آنذاك بتأييده للدستور، مما جعلهم يُعَجِّلُون بخلع السلطان مراد ودعوته لاعتلاء عرش السلطنة العثمانية.

وقد تولّى السلطان عبد الحميد الحكم وكانت الدولةُ العثمانية تَمُرُّ بمرحلة من أصعب مراحلها، إذ أخذت الضغوط الخارجية الواقعة عليها أبعاداً خطيرة، فكانت أوربا ـ وهي تَمُوجُ وتضطرب منذ أن هَزَمت بروسيا فرنسا وأقامت الاتحاد الألماني (١٨٧١م) ـ تبحث عن توازن جديد للقُوى.

هذا بالإضافة إلى تطور الحركات القومية والانفصالية في البلقان نتيجةً للتأثيرات القادمة من عواصم أوربا المختلفة، والجو المعتم الذي خلق مناخاً مناسباً لانتشارها؛ فبالإضافة إلى حركات العصيان التي كانت بدأت في البوسنة والهرسك وبلغاريا في الأيام الأخيرة من حُكم عبد العزيز، كان هناك استياء ضدَّ الصِّرْب والجبل الأسود اللذين أشعَلا الحرب في عهد مراد الخامس. وعلى الرَّغْم من أن الجيش التركي كان قد حقق بعض الانتصارات الهامة ضد الصِّرب، إلا أن الدولة وَجَدَتْ نفسها مُرغَمة على قَبُول اقتراح إنجلترا بعقد مؤتمر في استانبول لدراسة المسألة الشرقية من جديد، وقَبُول الاحتجاج الذي قدَّمَته روسيا حول إيقاف الحرب فوراً مع الصرب وعقد الهُدنة.

وإلى جانب هذا كانت الدولة العثمانية تمر بأزمة مالية خطيرة، بَلَغت حدّاً يَصعُبُ احتمالُه، فتجاوزت الديون الخارجية التي استدانتها الدولة بين أعوام ١٨٥٤ ـ ١٨٧٤م، والفوائد التي ترتَّبت عليها نِصفَ الإيرادات، هذا فضلاً عن القروض الداخلية.

وكانت الفوضى تُسيطر على عاصمة الدولة، إذ لم يكن قد تكوَّنَ بعدُ نظامٌ معلوم لإصدارِ قرار سياسي لا يرتَبِطُ بالأشخاص، ويعمل وَفْقاً لمبادىء وأصولٍ معينة وُضِعت من قبل. فعَقِب وفاة الصدر الأعظم عالي باشا (١٨٧١م) ظهر فراغ في السلطة جعل كبار الباشوات والسلطان عبد العزيز (١٨٦١ ـ ١٨٧٦م) يَسعَوْنَ للتنافس على مَلْئِه.

ولما صدر القرار في أكتوبر ١٨٧٥م بتأجيل سداد الديون الخارجية أحدَثَ ذلك ردُّ فعلٍ قوي في الأوساط الأوربية، وبدأت تدورُ الأفكار حول أن الدولة العثمانية قد بات إنقاذُها أمراً مستحيلاً، وأنه يَجِبُ اقتسامُ أملاكها. وبدأ البُلغار والصّرب والكروات يضاعفون نشاطهم ضدَّ الدولة، بينما خرجت الشعوبُ المسلمة في حواضِرِ العالم الإسلامي في مظاهرات عارمة ضد الأوربيين، مما حَدَا بالدول الكبرى أن تُعلِنَ إلى الدولة العثمانية في ١٣ مايو ١٨٧٦م بنواياها في التدخل فيما لو عَجِزَت عن حماية أرواحِ وأموالِ الرعايا المسيحيين والأوربيين.

وقد يَسَّرَ هذا الوضع على الصدر الأعظم مدحت باشا وزملائه أمرَ خَلْعِ السلطان عبد العزيز، وكانوا يُخطِّطُون له منذ مدة، فخلعوه عن العرش في ٣٠ مايو ١٨٧٦م، وبعد مرور خمسة أيام من خلعه قيل: إنه انتحَرَ، وأجلسوا بعدَه مراد الخامس. غيرَ أنَّ التطور السريع في الأحداث أوقعه في رُعبٍ شديد، فلما أعلن الصّرب والجبل الأسود الحرب على الدولة العثمانية بتحريضٍ من روسيا في يوليه (تموز)، تحوَّلَ الرعبُ الذي استولى على السلطان إلى حالة عصبية حالت بينه وبين القُدرة على إدارة دَفَّةِ الأمور في الدولة، فخُلِع عن العرش، واعتلاه أخوه السلطان عبد الحميد الثاني في ٣١ أغسطس ١٨٧٦م.

في مثل هذه الظروف الصعبة جاء عبدُ الحميد إلى الحكم، وكان يعرف

كيف يُقنعُ الآخرين، ويُوفِّقُ بين آرائهم. وقد خففت هذه المَزِيَّةُ في طبعه من وَطْأة الرعب الذي سيطر على قلوب الناس في عاصمة الخلافة، واستطاع الجيشُ العثماني بعد مدة وجيزة هزيمةَ الصرب والجبل الأسود، ثم شَرَع يتقدم نحو بلغراد. ونتيجةً لذلك سارعت روسيا بتقديم احتجاج إلى الدولة العثمانية طالَبَتْها فيه بسرعة إيقاف العمليات الحربية، وأيَّدَتْها في ذلك الدول الكبرى في أوربا، ومن ثَمَّ تقرَّرَ عقد مؤتمر في استانبول للتفاوض حول الوضع في البلقان. وكان قصدُهم من وراء ذلك إعادةَ النظر في سياساتهم الشرق أوسطية بناءً على موازين القُوى التي تغيَّرَت في أوربا، ومحاولة التوفيق بين مصالحهم المتباينة.

وفي ٢٥ ديسمبر ١٨٧٦م عُقِدَ المؤتمر في الترسانة، وصدرت عنه القرارات التي تُجبِر الدولة العثمانية على تقديم تنازلات هامة في البلقان، فلم تقبلها بعد مفاوضات طويلة. وكان لهذا الرفض سببان رئيسيان، إذ كانت تدخلات الأوربيين المتزايدة في شؤون الدولة العثمانية، وتحولها إلى شكل يُخِل بالشرف، عاملاً في إثارة ردود الفعل القوية بين صفوف العثمانيين، فضلاً عن أن موقف إنجلترا لم يكن واضحاً، فقد كان الإنجليز يوقِّعون من ناحية على البيانات التي تُجبر العثمانيين على مزيد من التنازلات، ويَسعَوْن من ناحية أخرى للإعراب سرّاً عن عزمهم في تأييد العثمانيين ماليّاً على الأقل فيما لو اشتعلت الحرب.

وهنا يجب أنْ نَذكُر الكلمة التي ألقاها مانوق قرا أفندي الأرمني نائب حلب في مجلس المبعوثان الأول رفضاً لسياسة روسيا في محاولتها فرض الحماية على المسيحيين داخل الولايات العثمانية، إذ قال: «لقد فهمنا من البرقية التي قُرِأت علينا بالأمس، والتي أبرَقَ بها القائم بالأعمال في بترسبورغ أن روسيا قدَّمَت مذكرة هددت فيها بأنها تستعد للحرب ضدَّ الدولة العثمانية

السلطان عبد الحميد الثاني في أوائل أيام حكمه

(صورة من أرشيف مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستانبول)

العظيمة، بل وأنها اعتبرت القائم بالأعمال نفسَه عدواً. إنَّ هذه الدولة تُعِد العُدَّة منذ سنوات طويلة للهجوم على دولتنا، وتتحيَّن الفرص لذلك، وكانت مادة حماية السُّلافيين هي الفرصة التي فتَّشت عنها في المرة الأخيرة لاستغلال مواطنينا المسيحيين في منطقة الروملي. والآن نَفهَمُ من البرقية أنَّها تريد وضع جميع المسيحيين تحت حمايتها، وأنا باعتباري واحداً من المِلَّة الأرمنية التي هي قسم كبير من المسيحيين القاطنين في الدولة العثمانية، فإنني أُمَثِّلُ أيضاً جميع المسيحيين، ولهذا السبب فإن لي الحقَّ في التعبير عن رأيي في هذا الموضوع: إن الملة الأرمنية تعيش منذ خمس مئة سنة في كَنَفِ الدولة العثمانية، وقد نالت كل الحقوق التي وَدَّت نيلَها في ظل هذه الدولة. صحيح إن هناك بعض الأوضاع غير المناسبة في بعض الإيالات، إلا أن الدولة قامت بما رأته ضرورياً في هذا الموضوع تَبَعاً لظروف كل وقت.

ونعلن نحن الأرمن والمسيحيين أننا لسنا في حاجة لحماية روسيا، وأودُّ أن تُعلَن وتُنشَر كلمتي هذه باسم كل الملل القاطنة في ولاية حلب بصورة خاصة. إننا لا نقبل بأي صورة وفي أي وقت الحمايةَ التي تدَّعِيها روسيا علينا، ولسنا في حاجة إليها، ونرفضها باذلين حتى النهاية كلَّ التضحيات بالمال والروح، وقوفاً ضد تدخلها غير المشروع.

إن الطلقة الأولى التي تُطلَق في وجهها سوف تكون من سلاح إخوتنا في الدين المسيحي الذين تطلب حمايتهم زُوراً وبهتاناً من أجل إشعال الفتن. إننا لم ننفصل في أي وقت عن إخوتنا المسلمين، وليس لدينا النيةُ على ذلك». (تصفيق حاد).

وجاءت بعد ذلك كلمةُ الحاج حسين أفندي نائب سوريا فقال: «إذا كان محسوبكم لا يُجيد التركية كما ينبغي فأعتقد أن لي عذراً مقبولاً. أيها السادة،

إن محسوبكم نائب سوريا، وهو البلد الذي يَضُمُّ مِللاً مختلفة أكثر من أي مكان آخر، وخاصةً من المسيحيين على اختلاف مذاهبهم، إلا أننا نعيش إخوة في ظِلِّ الشريعة، وفي ظِل السلطنة، وهو أمر أدركتُه في الولايات الأخرى أيضاً.

إن حماية السلافيين ذريعة، مثلُها مثل حماية المسيحيين، نلاحظها منذ عام ونصف، ويعلم المسيحيون في سوريا ما هو المَقصِد من وراء اختلاقها، فهم يقولون: لا نريد حمايةً، فلنا سلطان وشريعة، ولنا قوانين، فإذا أصابنا مكروه لَجأْنا لحمايتهم وبلغناها.

لقد وصلتُ إلى هنا ورأيتُ ـ ولله الحمد ـ أن جميع الرعايا العثمانيين على هذا الرأي. واليوم أيها النواب المحترمين وقد عَبَّرتُم عن آرائكم في هذه الهيئة العالية أشكركم، إننا نستطيع الحفاظ على استقلالنا في ظِلِّ سلطاننا ورجال دولتنا وجنودنا.

سادتي، هل وَصَل إلى روسيا عريضة من المسيحيين، أو أَرسَل إليها أحد من النواب، وهل طلب أحد منهم الحماية، حتى يَنهَض الروس لمؤازرة هذه الدعوى؟ لقدقيل: إن بعض المخربين ذهبوا إلى هناك، ولكن هل عَدِمَت الدول الكبرى مثل فرنسا وإنجلترا وألمانيا الحَمِيَّة حتى تدركها روسيا وحدها؟ عليها أن تُنظِّف بيتها أولاً ثم تنظر للخارج».

ونتيجةً للتطورات التي نَجَمت عن رفض العثمانيين لقرارات ذلك المؤتمر اشتعلت الحرب التركية الروسية في ٢٤ إبريل (نيسان) ١٨٧٧م، واستمرت عشرة أشهر دون هَوَادة، لم يَحصُل العثمانيون خلالَها على عون من أحد، فكانت النتيجة أن هُزِموا فيها، وتقدم الروس حتى بلغوا (يشيل كوي) إحدى ضواحي إستانبول، وكان انتصار الروس سبباً في اتفاق الدول الأوربية الأخرى على المشاركة في وضع شروط الصلح.

وفي تلك الأثناء قامت إنجلترا بخلق موقف صعب، فاحتلَّت قبرص (يونيه/ حزيران ١٨٧٨م)، وتَمَّت مفاوضات الصلح في برلين (يوليه/ تموز ١٨٧٨م)، وانحسرت بمقتضاها مكتسبات الروس، غير أن الأوربيين اتفقوا على أن تقوم النمسا والمجر باحتلال البوسنة والهرسك، وعدم معارضة فرنسا في احتلالها لتونس إذا وَجَدت الفرصة مواتيةً لذلك. (خلقت فرنسا هذه الفرصة عام ١٨٨١م).

وشَرَع السلطان عبد الحميد يؤسس في السراي جهازاً لجمع المعلومات يكون قادراً على متابعة التطورات الديبلوماسية عن كثب، كما بدأ يَحصُر في يده كلَّ أدوات السياسة الخارجية. وقد كانت القوى الخارجية على درجة كبيرة من النشاط والفعالية داخلَ أراضي الدولة العثمانية، حتى إن سيطرة السلطان على الشؤون الخارجية شَكَّلت واحداً من أهم المصادر لزيادة قوته في الداخل، أضِفْ إلى ذلك أن نُظُم الإدارة في الدولة العثمانية نفسها كانت من الأساس مصدراً آخرَ لتعاظم هذه القوة، فلم يكن النظام الدستوري الجديد بالقدر الذي يَحُدُّ منها إلا قليلاً.

فعندما تَولَّى السلطان عبد الحميد مقاليد الحكم، كان الموضوع الذي انشَغلَت به الأوساط السياسية، وأوساط المثقفين العثمانيين هو إقامة حكم دستوري، وكان رأي الصدر الأعظم مدحت باشا هو أنه إذا تحقق الحكم الدستوري، وتَشكَّل مجلس يَعترِفُ بوضع جديد للمسيحيين، ووُضِعَت الضمانات الدستورية للمساواة بين رعايا الدولة دون النظر إلى أديانهم، فلا شَكَّ أن ذلك سوف يُخَفِّفُ من وطأة الضغوط الديبلوماسية التي تمارسها الدول الأوربية على الدولة العثمانية. وقبل انعقاد مؤتمر الترسانة كان بعضُ المثقفين ورجال الدول يؤيِّدُون هذا الرأي، غير أن القَصدَ من إعلان الدستور لم يكن ديبلوماسياً محضاً، بل كانت هناك حاجة ماسَّة لربط إدارة الدولة وعجلة إصدار

القرار السياسي بمبادىء ونُظم محددة، أضِف إلى ذلك أنه كانت الحاجة قد ظهرت بشكل واضح إلى ضرورة بناء الدولة على أسس اجتماعية أكثرَ صلابةً عن طريق المشاركة التي تتوفر لنواب الشعب في صياغة القرار السياسي.

في مثل هذه الظروف الداخلية والخارجية أصدر السلطان عبد الحميد أول دستـور للدولـة العثمـانية، عُرِفَ وقتها بالقانون الأساسي، وعُرِفَت الفترة التاريخية التي واكبته باسم: عهد المشروطية الأول.

وقد أُعلِنَ هذا القانون الأساسي بعد جهود مكثفة (١٨٧٦م)، وكان من أخَصِّ خصـائصـه اتسـاعُ الصلاحيات الممنوحة للسلطان، ورَغْم أن مبادىء العمل في إدارة الدولة قد تَمَّ تحديدها، ووضِعَت الضمانات التي تؤكد حياد المؤسسات القضائية وتَحمي حقوق الإنسان الأساسية، إلا أن دستور ١٨٧٦ جعل السلطان خلال هذا الإطار العام هو المصدر الوحيد للسلطة.

وهناك مَنْ يرى أن الدستور كان من صُنع مدحت باشا، بينما يرى البعض الآخر أنه من صنع عبد الحميد نفسه، ويمكننا القول: إن الدستور جاء نتيجة لاتفاق وتنسيق ظهر عَقِبَ مناقشات ودراسات جَرَتْ بين صفوف المثقفين ورجال الدولة المعنيين وبين عبد الحميد، والدليل على ذلك أن السلطان عبد الحميد لم يواجَه بمعارضة قوية عندما أعمَلَ المادة ١١٣ المشهورة من الدستور، ونَفَى بها مدحت باشا المعمار الأول الذي شارك في إعداد هذا الدستور، كذلك لم يكن هناك ردّ فعل يمكن أن يوصف بأنه هام عندما أصدر عبد الحميد قراره بِحَلِّ مجلس المبعوثان الأول في تاريخ الدولة العثمانية لأجل غير مُسَمّىً.

وكان المجلس قد اجتمع دورتين: إحداهما بدأت في ١٩ مارس/ آذار، وانتهت في ٢٨ يونيه/ حزيران عام ١٨٧٧م، والثانية بدأت في ٣١ ديسمبر/ كانون الأول ١٨٧٧م، واستمرت حتى ١٤ فبراير/ شباط ١٨٧٨م. وقام النواب

القـادمـون من شتى ولايات الـدولة خلال الدورة الأولى بأعمال إيجابية، ولم يتـورَّعُوا عن انتقاد رجال الدولة، وزادت في الدورة الثانية التي صادفت نهاية الحرب التركية الروسية حِدَّةُ الانتقادات حتى شَمَلَت السلطان نفسه، غير أنه لا السلطان ولا الغالبية العظمى من رجالات الدولة كانوا قادرين على هَضم هذه الأمـور، بالإضافة إلى أن المناقشات التي كانت تدور بين النواب المسلمين والنـواب المسيحيين تحـوَّلَت خلال التـوتُّـرات التي أسفرت عنها الهزيمة في الحـرب التركية الروسية إلى صِدَامات عنيفة من حين لآخر، وصلت إلى حَدِّ تهديدِ وحدة الدولة، مما جعل السلطان يستخدم صلاحياته لحل المجلس.

فقد كان إيمانُ السلطان عبد الحميد آنذاك أن المجتمع العثماني لم يكن نَضَـجَ بعـد بالـدرجة التي تؤهِّلُه لخوض هذه التجربة، بالإضافة إلى أنه كان واضحاً وضوحَ الشمس أن رجال الدولة لم يكونوا قد استعدوا بعد لتدخل الشعب في السياسة، وكان الأهالي أنفسُهم لايزالون يَرَوْنَ الدولة فوق المجتمع، وأنها مصدر كل السلطات. وقد استطاع السلطان عبد الحميدلهذه الأسباب نفسها أن يواصـل حكم الدولة بنفس النظام الذي اتبعه أجدادُه على مدى ستة قرون، وتوطَّدَ له هذا النظام اعتباراً من عام ١٨٧٨م، وحافظ على فعاليته مدة طويلة.

وكان استمراره في اتِّباع هذا النظام الفَرْدي موجَّهاً لأهداف معينة، يأتي في مقـدمتها انتهاجُ سياسة خارجية تقوم على أساس الحِيَاد، وتوطيد عَلاَقات الصداقة مع الدول المجاورة، وسياسة داخلية ترمي إلى تطوير المَرَافق العامة، وزيادة حجم الإنتـاج، وتوسيع الوِعاء الضَّريبي، والإسراع قبل كل شيء في تسديد الديون الخارجية ضمن برنامج محدد، وانتهاج سياسة مالية من شأنها وضع الدولة العثمانية في الموضع الذي يَلِيقُ بها.

أمـا الهـدفُ الثـاني فهو يتوخَّى سياسة تثبيت أُسُس الدولة على قواعدَ

اجتماعيةٍ أكثر اتساعاً؛ عن طريق وضع خطة تعليمية تُعطَى فيها الأولوية للمسلمين، وتَكسب تأييدَهم كنوع من تحقيق التوازن بين الرعايا.

وكان هدفُه الثالث هو إقامةَ نظام قضائي فَعَّال يُمكِنُه كسبُ ثقة الأهالي، وتأسيس نظام إداري قوي تمتَدُّ خدماته العامة إلى أوسع نطاق، وعلى رأسها استتبابُ الأمن والأمان بين الأهالي، بالإضافة إلى تقوية الرقابة الموجَّهة من أجهزة الدولة على هذه المؤسسات.

وأثبت بذلك أنه كان مُصلحاً قديراً، وإدارياً ذا دراية واسعة بشؤون الحكم، وسياسيّاً من الطِّراز الأول.

لقد أدرك السلطان عبد الحميد أن هناك نقصاً كبيراً في عدد المثقفين المدنيين القادرين على إدارة الوظائف الفنية غير العسكرية، فسَعَى للتوسُّع في نشر هذا التعليم على جميع مستوياته، وحاول إيجادَ نوع من التوازن بين التعليمَيْن: العسكري والمدني، فأنشأ كلياتٍ ومدارسَ عاليةً، ومعاهدَ فنية يمكن لخِرِّيجيها أن يُسهِموا في النهوض بالدولة، مع الاهتمام في الوقت ذاته بالتعليم العسكري واستقدام البعثات العسكرية من شتى دول أوربا، وخاصةً ألمانيا.

واهتَمَّ بكلية الإدارة المدنية (مُلكيه مكتبى) التي أنشأتها الدولة على عهد والده السلطان عبد المجيد عام ١٨٥٩، فأعاد تنظيمها وتطعيمها بمناهج عصرية، وفتح أبوابها للوافدين من شتى ولايات الدولة العثمانية، حتى أصبحت المدرسة مركَزاً ثقافياً هاماً، وأرضاً صالحة لنُمُوِّ الأفكار الحديثة، إذ عمل بها وتخرَّج فيها عدد كبير من المثقفين العثمانيين الذين تركوا بصماتٍ واضحةً فيما بعدُ على الحياة الفكرية والسياسية في تاريخ الدولة العثمانية.

ونذكر من المدارس العليا التي أنشأها السلطان عبد الحميد: المدرسة

السلطانية للشؤون المالية (١٨٧٨م)، ومدرسة الحقوق الشاهانية في السنة نفسها، ومدرسة الفنون الجميلة (١٨٧٩م)، ومدرسة التجارة (١٨٨٢م)، ومدرسة الهندسة المدنية (١٨٨٤م)، ومدرسة الطب البَيْطري (١٨٨٩م)، ومدرسة الشرطة (١٨٩١م)، ومدرسة الجَمَارك (١٨٩٢م)، ومدرسة الطب (١٨٩٨م)، وغيرَها من المدارس العالية الأخرى التي بَلَغَ عددُها آنذاك ثمانِيَ عشرةَ مدرسةً.

وترك السلطان عبد الحميد المدارسَ الدينية التقليدية تؤدِّي رسالتها التعليمية في تدريس العلوم الدينية واللغة العربية دون أن يتدخَّلَ في شؤونها، بل أنشأ إلى جانبها عدداً كبيراً من مدارسِ الرُّشدية (الإعدادية المتوسطة) بلغ عددُها في ولايات الدولة العثمانية تسعاً وعشرين مدرسة. كما أنشأ عدداً من المدارس الثانوية، كانت أشهرَها المدرسة السلطانية في (غلطة سراي) في استانبول.

ورأينا العديد من المدارس الأخرى التي أنشأها عبد الحميد طِبْقاً لأحدث وسائل العصر، ثم توَّجَ أعمالَه في هذا الحقل بإنشاء جامعة استانبول عام ١٩٠٠م. وتطلَّبت المدارسُ المدنية إنشاءَ عدد من دُورِ المعلمين حتى بَلَغ عددها في عهده ثمانياً وثلاثين كلية معلِّمين في استانبول وحواضر الولايات العثمانية الأخرى.

وإنَّ نظرةً سريعة في كتاب المؤرخ الأمريكي ستانفورد شو لَجَدِيرة أن توضح إلى أي مدى تقدَّمت الحركة التعليمية في عهد السلطان عبد الحميد.

بل ولم يقتصر اهتمامه على الولايات التركية فحسب، فرأَينا كليةَ الطب في دمشق، وكليةَ الحقوق في بيروت وغيرها من الولايات.

وقد ظَفِر التعليم العسكري بأوفى عناية من السلطان عبد الحميد، إذ دَعَم

الكليات التي كانت قائمة، وأنشأ مدارسَ حربية في أدرنة ومناستر ودمشق وبغداد وغيرها. وأنشأ مدرسةً للبحرية العسكرية وأخرى للبحرية التجارية، حتى فاق عددُ الخريجين في المدارس العسكرية كافة المدارس العليا المدنية.

وعلى المستوى الخارجي فقد كان عبدُ الحميد مدركاً عَقِبَ تَولِّيه مقاليد الحكم أن الدولة العثمانية أضعفُ من أن تواجِهَ التهديدات الروسية بالحرب، وخاصة بعد أن زاد نُفوذُ الروس نتيجة لسياستهم في فرض الحماية على شعوب البلقان وتحريضهم المستمر على الثورة ضد العثمانيين.

كان السلطان عبد الحميد يُؤمن إيماناً راسخاً بأن الدولة العثمانية لكي تستجمع قُواها لا بُدَّ لها من وقت كاف، ومن ثَمَّ فهي في أمس الحاجة إلى سلام، ويؤمن في الوقت نفسِه بأن الحروب ـ حتى ولو انتهت بالنصر ـ عِبءٌ ثقيل على كاهل دولة أنهكتها الحروب مثل الدولة العثمانية. ولهذا اعتبر التعايش مع الدول المجاورة ـ وفي مقدمتها روسيا واليونان ـ ضَرورةً مُلِحَّة لا غِنى عنها؛ فأقام عَلاقاتٍ صداقةٍ متينة مع روسيا، غير أنه لم يُفلح رَغْم كل جهوده في الحفاظ على السلام مع اليونانيين، واضطر لخوض الحرب ضدهم بعد هجومهم عام ١٨٩٧م، واستطاعت الجيوش العثمانية أن تحقِّقَ خلال شهر واحد نصراً سريعاً، وتتقدَّمَ حتى مشارف العاصمة أثينا، إلا أن تدخُّلَ الدول الأجنبية أجبر العثمانيين على الاكتفاء بتعويضات زهيدة.

وكان السلطان عبد الحميد مؤمناً أن أعظم خطر موجَّهٍ ضد وجود الدولة العثمانية إنما يأتي من إنجلترا؛ ففي أزمة عام ١٨٧٦ ـ ١٨٧٨م تخلَّت إنجلترا عن العثمانيين وتركتهم وحدهم أمام الروس، رَغْمَ كل وعودها التي قطعتها على نفسها، بل وراحت تتساوم مع الدول الأخرى من وراء ظهر العثمانيين، واحتلت مصر عام ١٨٨٢م بعد أن وضعت يدها على جزيرة قبرص.

لقد كانت إنجلترا تتصرَّفُ على هذا النحو بعد أن تأكدت من قوة نفوذها الـذي حققتـه خلال عهـد التنظيمات على رجال الدولة العثمانية، وكان رأيُ السلطان عبد الحميد هو أنه إذا لم يتحطَّمْ هذا النفوذُ بشكل أو بآخر، فإنه سوف يشكِّل خطوة أُولى نحو تمزيق الدولة من جهة، وتحويلها من جهة أخرى إلى مستعمرة للإنجليز مِثل ما فعلوا في الهند.

لقد كان السلطان عبد الحميد مُصِراً على النضال ضد الإنجليز، فشَرَع في إقامة علاقات طيبة مع الروس، وتقرَّب من ناحية إلى ألمانية، وسعى من ناحية أخرى إلى عدم إثارة المعارضة الفرنسية، حتى استطاع أن يكسَبَ تأييد هذه القُوى، ونجح في اتباع سياسة توازن متأنِّية تعتَمِدُ على حسابات دقيقة، كان من نتيجتها أن أزَاحَ إلى حدٍّ ما السيطرةَ الإنجليزية عن الدولة العثمانية.

وفي عام ١٨٨١م تشكلت «إدارة الـديون العمومية» المشهورة، وكانت شركةً تمثِّلُ مجموع الدائنين، تجمع موارد الدخل المعينة الموضوعة لمواجهة الـديون، ثم تقوم بتوزيعها على الدائنين. وكانت الفكرة التي تدور في رأس السلطان عبد الحميد ـ وهو يدخل في أول اتفاق مع هذه الإدارة ـ هي التوصل إلى السُّبُل التي ترفع من شأن الدولة من الناحية المالية، والإسراع في التخلص من عِبء هذه الـديون الثقيلة التي مهَّـدَتِ السبيل أمـام الضغـوط الأجنبية، والحقيقةُ أن السُّمعة المالية للدولة العثمانية تحسنت بالفعل في الأسواق الأوربية خلال فتـرة وجيزة، إلا أن المستفيد من ارتفـاع قيمة سندات الديون هو إدارة الديون نفسها، وذلك نتيجة لبعض الأخطاء التي تضمَّنَها الاتفاق المُبْرَمُ بين الطرفين.

وقد استمرَّ هذا الوضع دون تصحيح لمدة طويلة رَغْمَ ثِقَل حجم الديون، إذ كان مجمـوعهـا مع فوائدها يشكل ٣٠٪ تقريباً من الدخل، ومع ذلك فقد

استطاعت الدولة أن تُسَدِّدَ ما يزيدُ كثيراً عن ديونها.

وهناك ظاهرة أخرى عُرِف بها عهد السلطان عبدالحميد: وهي أن العالَمَ بأسرِه كان يعيش خلال أعوام ١٨٧٨ - ١٩٠٠م أزمةً اقتصادية طاحنة، وكانت الدولة العثمانية هي أكثر الدول تأثُّراً بها، إذ انخفضت أسعار قسم كبير من صادراتها في الأسواق العالمية، وضَعُفَتْ قدرتها على المنافسة.

وفي الوقت الذي كانت فيه الدول الأخرى قادرة على حماية نفسها عن طريق إقامة الحواجز الجُمركية على وارداتها، كان العثمانيون عاجزين تماماً عن فعل ذلك بسبب الامتيازات الأجنبية، فتوقَّفَت حركة الاستثمار والتنمية، وانخفض الإنتاج الزراعي، وتعثَّرَ تحصيلُ الضرائب المقررة على الحاصلات الزراعية التي تمثِّلُ قسماً كبيراً من موارد الدخل.

ونذكرُ هنا أن السلطان عبد الحميد رغم هذه الضائقة المالية لم يُفَرِّطْ في أراضي الدولة، وردُّه على مَن يُدعَى فيليب نيولينسكي Philip Newlinski حتى يُبلغه للدكتور ثيودور هَرتزل الذي شاءَ أن يشتَرِيَ أرض فلسطين مقابل قيام اليهود بسدادِ ديون الدولة العثمانية، خيرُ دليلٍ على ذلك، إذ قال له: «إذا كان السيد هرتزل صديقاً لك بقدر صداقتك لي، فقل له: أن لا يتقدَّمَ خَطْوةٍ ثانية في هذا الموضوع، إنني لا أبيعُ أرضاً حتى ولو كانت شبراً واحداً، لأن هذا الوطن ليس مُلكي، بل هو ملك لأمَّتِي، فقد رَوَّتْه بدمائها، وقبل أن يَنفَصِلَ عنا لا بدَّ أن نَغمُرَه بدمائنا مرة ثانية. إن أبنائي من العساكر من فِرَقِ سوريا وفلسطين قد استُشهدوا جميعاً في حرب (بلاونه)، وظلوا بأسرهم في ساحة القتال مُصِرِّين على أن لا يعودوا. إن الإمبراطورية التركية ليست ملكي، بل ملك الأمة التركية، فلا أَمنَحُ أحداً قط قطعةً من أرضِها، ودَعِ اليهودَ يحتفظوا بملايينهم؛ فعندما تتفتَّتُ إمبراطوريتي يمكنهم أن يستولوا على فلسطين دون مقابل؛ ولكن، عندئذٍ فقط

تتمزَّقُ أجسادنا، ولا إخالُني أرضى عن عملية جراحية تُجرَى لجسد مازال يَنبضُ بالحياة»[٢].

وكان السلطان عبد الحميد يرى أن الإنقاذ الحقيقي للدولة إنما يأتي من زيادة الإنتاج الزراعي، غير أنَّ عبء الديون الخارجية والامتيازات الأجنبية من ناحية، والأزمة الاقتصادية التي يَمُرُّ بها العالم من ناحيةٍ أخرى، كانت كلُّها حجرَ عثرة أمام محاولاته.

ووجدت الدولة إزاء هذا الوضع أن الحل هو في التركيز على «نظام الامتياز»، بمعنى تمويل مشروع معين مقابل «احتكار» إدارته لمدة معينة. والحقيقة أن حملات هامة قامت في شتى أنحاء البلاد في ظِلِّ هذا النظام، ومعَ انفراج الأزمة الاقتصادية العالمية، وخاصةً بعد عام ١٩٠٠م، وبداية ارتفاع أسعار المنتوجات الزراعية، أمكن للدولة العثمانية تحقيقَ زياداتٍ هامة في الإنتاج والتصدير.

ومع كل هذا، كانت الرَّقَابةُ الحكومية على هذه المكاسب، ونَصيبُ الدولة منها، قليلاً، بسبب نظام الامتياز الذي ذكرناه. وعلى الرَّغْم أنه كان هناك حرص شديد على أن تُمنَح هذه الامتيازات للرعايا العثمانيين بالقدر الذي تَسمَحُ به تقنية العمل، إلا أن ذلك لم يَحُلْ دون ظهور سوق للامتياز، انفتح من جَرَّائها مجال واسع لانتشار الرَّشوة والمحسوبية، ولم تكن هناك فرصة للحَيْلولة دون حصول الشركات الأجنبية على أغلب الامتيازات، بل إن محاولة كل مجموعة

---

(٢) انظر: Dr. Mim Kemal Öke: Siyonzim ve Filistin sorunu (1880 – 1914), Ist. 1982, s. 52. فقد درس هذا الموضوع اعتماداً على الوثائق العثمانية والبريطانية. ومذكرات الدكتور تيودور هرتزل:
Dr. Theodor Herzl (ed. R. Patar): The complete Diaries of Theodor Herzl, London 1960, p. 378, Yasar Kutluay: Türkiye ve Siyonizm, Ist. 1973, pp. 108 – 109.

من الشركات الأجنبية ذات الجِنسية الواحدة في حشدِ امتيازاتها في مناطقَ معيَّنةٍ من البلاد، مَهَّدَ السبيل أمام الدول الأجنبية للتنافس على اقتسام مناطِقِ النفوذ الاقتصادي فيما بينَها داخلَ حدود الدولة العثمانية.

ولا شك أن إقامَة خطٍّ سكك حديد الحجاز، الذي يبدَأُ من محطة حيدر باشا في إستانبول، وينتهي عند المدينة المنورة بالأراضي الحجازية، لَهُو أَحَدُ الإنجازات الهامة التي أولاها السلطان عنايته الخاصة، ونقرأ في مذكراته السياسية ما يلي: «إن التنافس الذي نَراه بينَ الدول العظمى على إقامة السكك الحديدية داخل أراضي الإمبراطورية لَهُو أمرٌ يدعو للغرابة، ويَبعَثُ على الشك. ومهما حاولت الدول العظمى كتمانَ اعترافها، فإن السكك الحديدية لا تَحمِل أهمية اقتصادية فحسب، بل تحمل في نفس الوقت أهمية سياسية. أمَّا التنافس على خط حديد بغداد فقد بدَأ يأخُذ صورة قبيحة، والدول الأربع العظمى داخلةٌ في هذا، والسادة السُّفَراء يحاربون بعضهم بعضاً من خلف ستار، مستخدِمين في ذلك كل الوسائل الممكنة. ومشاهدة هذا المنظر شيء ممتع حقاً.

إن الإنجليز والفرنسيين يَفقِدُون وَقارَهم، والألمان هم الأحسن تصرفاً هذه المرة أيضاً. إن الصحف الإنجليزية والفرنسية، بل وحتى الروسية، لا تتورَّعُ عن اختلاق الأكاذيب حتى تجعَلَنا نشك في الألمان. وقد علمتُ عن خط حديد بغداد أن غالبية من الموظفين ذوي الرتب العالية يَحصُلون على هدايا قيمة، ومن الطبيعي أن حصولهم عليها ليس لسواد عيونهم!

وعلى الرغم من أن الموقف المتردد لأوستريا (النمسا) والمجر يبدو غريباً في هذا الموضوع، إلا أنه يجب علينا أن لا ننسى أن لهما مصالحَ مشتركةً مع ألمانيا، فإذا كان مد خط الأناضول حتى بغداد مُهمّاً بالنسبة لدولة من الدول الثلاث، فهو لا شك بنفس القدر من الأهمية لَدَى الأخرى؛ إن قسماً كبيراً من

الركاب ومن أمتعة البريد سوف يُنقَل عن طريق أوستريا. وسوف تكون محطة حيدر باشا [في استانبول] - كما هي من قبل - نقطةَ البداية في الطريق إلى الهند. إن هاتين الدولتين من دول أوربا الوُسْطى سوف تَسعَيَان لتأييدنا حتى ولو كان ذلك مقابلاً لأن تقبِضَ كلتاهما على مفتاح الطريق، ويجب علينا أن نعمَلَ للحصول على مساعدتهما، ولا يمكن أن يَنسَحِبَ نفس الشيء على الفرنسيين.

إن استمرار سيادتنا على المضايق وإستانبول أمر لا يعنيهما بقدر رغبتهما في أن تكونا دولتين جرمانيتين، وقد حَصَلَتا بفضل مؤامرات «مُطرام أفندي» على امتياز خط بيروت - حوران، وربما تقومان فيما بعدُ بإنشاء الخط الذي يقطَعُ ما بين الرافدَيْنِ، وبهذه الصورة يكون طريق الهند قد انفتح.

لقد انتقدني البعض عندما منحتُ امتياز إنشاء خط حديد الأناضول للبنك الألماني، وذلك بدعوى أنني منحتُه بشروط غير مناسبة رغبةً في الحصول على مساندة الإمبراطورية الألمانية في المجال السياسي، إن المقدار الذي تعهَّدْنا بدفعه عن كل كيلو متر في الاتفاق مرتفع حقاً، غير أن تنبُّؤات أصحاب الكرامات بأن السكك الحديدية سوف تُفلِسُ قد صارت شيئاً لا يصدِّقُه أحد.

وقد جاء في التقرير السنوي الأخير (١٨٩٩م): أن هناك توازناً بين الإيراد والمصروفات. ويمكننا أن نتعشَّم أن لا تبقى هناك ضرورة خلال مدة وجيزة جداً للمقدار الذي تعهدنا به عن كل كيلو متر.

وإخالُني محاسِباً لا بأس به؛ فقد أثبَتَتْ حساباتي الشخصية هذا، وإنني لعَلَى يقين أن خط حديد الأناضول أمر على درجة كبيرة من الأهمية، ليس فقط بالنسبة للبنك الألماني، بل ولنا أيضاً. وبما أن الألمان تجشَّمُوا بعض المخاطر، فمِنَ الطبيعي جداً أن يستفيدوا من المكسب، ورَغْمَ هذا فإن نصيب

الأسد باقٍ لنا.

لقد فهمتُ من التقارير المقدَّمة أن المناطق التي يمر بها الخط الحديدي تزداد غنىً يوماً بعد يوم، وهو أمر ييسر لنا الحصولَ على أراضٍ مناسبة لتوطين المهاجرين المسلمين (من أوربا). وقد ارتفع مجموعُ الإيرادات المحصَّلَة من الولايات التي يمُرُّ بها خط الأناضول إلى ٥٠٠,٠٠٠ ليرة عثمانية، ونتيجة لذلك بلَغَ حجم التأمينات المسددة عن كل كيلو متر ١٥٠,٠٠٠ ليرة عثمانية. ويُفهَمُ مما قيل أن عدد الركاب مرتفع إلى حد ما، ولكن المهم هو نقل البضائع، وأرى أن الأرقام الخاصة بها دليل واضح على ذلك. لقد كنا نَنقُل البضائع قديماً على ظهر الجِمال، وكان نقل طن القمح آنذاك من ولاية أسكيشهر إلى محطة حيدر باشا في استانبول يكلِّفُنا ٣٠٠ قرش (٦٠ فرنكاً)، أما اليوم فهو يكلفنا ٧٠ قرشاً (١٤ فرنكاً).

وكان يصعُبُ علينا قديماً نقلُ المحاصيل الزراعية من المناطق النائية داخل البلاد، ومن ثَمَّ كانت تَتلَفُ في مواطنها. ولهذا السبب أيضاً، كان الفلاح لا يزرَعُ بجوار المكان الذي يعيش فيه إلا ما يُمكِنُ له بيعُه هناك، أمَّا اليوم ـ وبفضل وسائل النقل الرخيصة ـ فقد صار الفلاح قادراً على زرع الكمية التي يريدها من المحاصيل، بعد أن أصبح واثقاً من إمكان بيعها. ويقال الآن: إن خطَّ الأناضول تَمَّ تنظيمه بصورة طيبة، وإن مخازن الحبوب تُقام باستمرار بالقرب من محطات السكك الحديدية، لقد حقَّقَ هذا الخط نتائج مُطَمْئِنة فاقَت ما كنا نتعشَّمُه.

وعلينا أن نشكُرَ الله أنْ كلَّلَ أعمالنا بهذا القدر من النجاح. إننا في تقدُّمٍ، بل ونتقدم بسرعة، ولا يُنكر هذا إلا من عَمِيَت بصيرته».

وإزاء خطر تقسيم البلاد، كان هناك تدبير فكَّر فيه السلطان عبد الحميد

منذ البداية: وهو إعطاءُ الأولوية للرعايا المسلمين، الذين كان يعتَبِرُهم السلطان الدعم الاجتماعي الطبيعي للدولة، وحاول بهذا النهج أن يستخدم بشكل منظَّمٍ تلك الإمكانيات المحدودة في يده، فراح يَبعَثُ موظَّفِيه الإداريين ذوي الخبرة العالية إلى الولايات التي تَضُمُّ أغلبيات مسلمة، وعلى رأسها الأناضول وسوريا، وجعل الأولوية في إقامة المنشآت والمؤسسات التعليمية لهذه المناطق.

وقد وصل الأمر بالسلطان عبد الحميد ـ من أجل توسيع قاعدة الدعم القادم من العناصر المسلمة ـ أن حاول الاستفادة من الطرق الصوفية ،وهي إحدى اللَّبِنَات الأساسية في البِنية الاجتماعية لبعض البلدان الإسلامية، مما كان سبباً في انتعاش هذه الطرق منذ عام ١٨٨٠م حتى عام ١٩٠٨م. واجتمع مشايخُها في استانبول، وخُصِّصَت لهم كل الإمكانات، حتى تحوَّلَت هذه الطرق ـ بعد أن صارت شبكة تغطِّي البلاد من كل جانب ـ إلى تشكيلات فعَّالة في يد السلطان، تقومُ بوظيفة الدعاية ونقل المعلومات.

كما حاول السلطان عبد الحميد أيضاً كسبَ تأييد رؤساء العائلات ذوي النفوذ والعشائر الكبيرة خارج استانبول ممَّن آمن بصدق إخلاصهم للدولة، فكان يحاول جَذْبَ العائلات ذات النفوذ في مناطق معينة إلى المشاركة في إدارة دَفَّةِ الحكم، أو أن يتجنَّبَ بحذر المساسَ بمصالحها من خلال نوع من التسامح.

وقد كان السلطان عبد الحميد مدركاً أن المناطق التي تَقطُنها أغلبيات مسيحية سوف تَخرُج إن عاجلاً أو آجلاً من حَوْزَةِ الدولة العثمانية، ويُعِدُّ نفسه لذلك. هذا في حين أنه لم يكن يسمَحُ بحال من الأحوال برُجْحانِ كِفَّةِ المسيحيين الذين يَقطُنون مناطق تُسيطر عليها أغلبيات مسلمة، فكان يتابع باستمرار وعن كثب التطورات الناتجة عن المحاولات الانفصالية التي تقومُ بها

المنظَّمات الأرمنية، ويَدعَمُ في السر والعلن العناصر المحلية المؤيدة للدولة.

وقد كان السلطان عبد الحميد ضد التعصب الديني، يناهض الأفكار الدينية التي تخالِفُ ما يراه صحيحاً، حتى إن هذه الأسباب دَفَعَتْ كثيراً من المتعصبين إلى الانضمام إلى المعارضة التي ظَهَرت ضده، وحاول الغربيُّون استغلالَ هذا الوضع، فقاموا بتأييد وتقوية ذوي الأفكار الدينية الأخرى المعارضة للسياسة الإسلامية التي كان يقومُ بها السلطان.

وقد تقدَّمت في عهد عبد الحميد نُظُمُ إدارة الدولة، فقويت مؤسسات القضاء والأمن الداخلي والمؤسسات التعليمية، إذ كانت المحاولات التي بَدَأت في عهد السلطان محمود الثاني وعهد «التنظيمات» ـ مستهدِفةً إقامة كِيان إداري معاصر، وجهاز قضائي في الدولة ـ قد تَمَّ ربطُها في عهد السلطان عبد الحميد بمبادىء وأسس ثابتة.

اهتمت الدولة بالتعليم كما ذكرنا سابقاً؛ فأقامت مختلف المدارس التخصصية العالية، ووسَّعت المدارس القديمة، مستهدفةً من وراء ذلك تنشئة جيل من الخبراء والموظفين ذوي الكفاءة العالية، يُمكِنهم تحمُّلُ أعباء القيام بالخدمة في المرافق العامة التي بدأت تتسع قاعدتها باضطراد. كذلك أوْلى السلطانُ عبد الحميد التعليم الأوَّلي والمتوسط عنايةً خاصة حتى يقوم بتغذية المدارس السابقة من ناحية، ويرفع المستوى التعليمي العام في المجتمع من ناحيةٍ أخرى، بُغْيَةَ أن يتحقق نوع من التكيف مع النظم القائمة.

وتوازياً مع التطورات الحادثة في مجال التعليم نَشِطَتْ أيضاً حركة طباعة الكتب والجرائد والمجلات، وزاد عددها بشكل لا يقارَنُ بالعهد السابق على عهد عبد الحميد. ورَغْم أن هذه المطبوعات لم تكن لتَفْسَحَ المجال لمحاورات فكرية عميقة، بسبب الرَّقابة المكثفة عليها، إلا أنها ساعدت على انتشار عادة

القـراءة بين النـاس، وقـامت بمهمـة التعـريف ببعض التـطورات المعـاصرة والأحداث الجارية في العالم.

وكانت أقوى معارَضَةٍ ناهضَت السلطان عبد الحميد والدولة والنظام القائم هي تلك الطبقة المثقفة التي ظَهَرت وتكوَّنَت بين طلاب وخريجي المدارس التي أقـامها عبد الحميد نفسه، وعمل على تطويرها بقصد تنشئة جيل من الخبراء والموظفين ذوي الكفاءة العالية لإدارة مرافق الدولة.

فقد بدَأ هؤلاء في انتقاد شكل النظام، ولم تكن الجوانب التي أصابوا فيها الرأي بالقليلة، فالزيادة في الإمكانيات المالية للدولة لم تكن قادرةً على ملاحقة التطور الحادث في المرافق العامة، وبالتالي في ملاحقة النُّضْج الفكري الذي وصل إليه الموظفون، ولهذا كان يحدُث من حين لآخر أن يتأخَّر صرفُ قسم من رواتبهم، أو تتـأخـر كلها، مما كان يُعرِّضُهم لمواقفَ حرجةٍ، هذا فضلاً عن مواضع خلل جاد كانت أيضاً موجودة في الجهاز الإداري للدولة، وكان السلطانُ هو صاحب الكلمة في جميع القرارات السياسية الهامة، بل وفي بعض الأمور الإدارية الاعتيادية، وكان كلما تشعبت أعمال الجهاز الإداري زاد حجمُ الأعمال المؤجَّلة، وكـانت العَلاقات بين مؤسسات الحكم غير واضحة، فقد كان في مقدور البعض ـ وخاصةً السفراء والولاة ـ أن يتجاوَزُوا الصَّدْر الأعظم والوزراء ومديري الإدارات ويتَّصِلُوا مباشرة بالسَّراي، حتى كان ذلك عاملاً على إعاقة حركة العمل، وإضعاف الإحساس بالمسؤولية.

ولم تكن هنـاك رقابة تنظيمية معينة على الأجهزة العُلْيا، والشيء الذي يحدِّدُ مسار الأمور ويُعيِّن أبعادَها هو إرادة السلطان، وهذا أيضاً ساعد على أن تظهـر في العـاصمة قِلَّةٌ حاكمة من الباشوات كانت ـ نتيجة لقَرابتها للسلطان والسـراي ـ تقوم بمتابعة المصالح الخاصة بفئات شديدة التبايُن والاختلاف.

وعندما يُصبحُ الأمر على هذا النحو يكون من العسير مجابهة المحسوبيات وما يَنتج عنها من مخالفات. أما ردُّ الفعل الحادث بين طبقات الشباب من كبار الموظَّفين والبيروقراطيين والضباط فكان آخذاً في الاتساع، وكانت هذه المواجهة تزداد حِدَّةً كلما لجأ السلطان عبد الحميد إلى سُبُل الضغط في استخدام نظام الرقابة والشرطة والمخابرات من أجل السيطرة على المعارضة.

ولما جاء عام ١٩٠٠م بدأت تزدادُ حدة التناقضات التي ظهرت في ذلك العهد، بينما بدأت التدابير الاقتصادية تُعطِي ثمارها، غير أن أكثر المستفيدين منها كانوا هم أصحابَ الديون على الدولة، أي: الأوربيون وشركاؤهم، وكانت القدرةُ المالية للدولة موضوعة تحت وَطأة الرُّهون، ومواردُها تحت رقابة الأجانب. وكانت طبقةُ النبلاء والأغنياء المدعومة في عهد عبد الحميد والمسيطرة على الأراضي والمخزون النقدي، تَسعَى للحصول على نصيب أكبر من مقاليد الحكم، ومن ثَمَّ كانت تُعطِي أذناً صاغية ـ يوماً بعد يوم ـ لصوت المعارضة.

اتسع نطاق الجهاز الإداري وتطور، إلا أن مشاكله أيضاً كانت تتضخَّمُ بنفس الحجم. وكان كلما ازداد عددُ الخريجين من المؤسسات التعليمية عاماً بعد عامٍ ازداد بنفس القدر عددُ المثقفين والموظفين الذين يريدون الإجابات على أسئلتهم الكثيرة. أما الضغوط المكثفة والمتزايدة للحيلولة دون ذلك، فكانت تتناقَضُ بشكل صارخ مع النظام القضائي المراد تطويرُه تطبيقاً لمبادىء دستور عام ١٨٧٦م، الذي كان يُعَدُّ سارياً آنذاك من الناحية الرسمية، وفي النهاية بدأت تظهر في تلك الأعوام بوادرُ الحرب العالمية الأولى، ودخلت دول أوربا العظمى في تكتلات قوية فيما بينها، مما جعل سياسة عبد الحميد الخارجية أضعف من أن تواجِهَها.

وفي تلك الأثناء كان أعضاء «تركيا الفتاة» يناهِضون عبد الحميد في بعض العواصم الأوربية وفي القاهرة، وبدأت الجرائد والمجلات التي أصدروها هناك - وشَرَعُوا يُدخِلونها سراً إلى البلاد - تُحدِثُ تأثيراً قوياً بين الأهالي، كما تكاثفت الجمعيات والمنظمات السرية بين الشبان داخل البلاد وخاصة بين ضباط الجيش، وكان أكثر هذه المنظمات قوة وتأثيراً «جمعية الاتحاد والترقِّي».

وقد ظهرت المعارضة ضد عبد الحميد في شكل تمرُّدٍ عسكري قاموا به في يونيه/ حزيران ١٩٠٨م، وبدأت تتعاظَمُ هذه الحركة بسرعة بين الوحدات العسكرية في ولايتي مناستر وسلانيك من ولايات البلقان، وكان الحل الوحيد أمامَ السلطان لكي يَحُولَ دون تحول هذا التمرد إلى حرب داخلية دامية أن أعلن إعادةَ الدستور بكل مواده في **٢٣** يوليه/ تموز من نفس العام.

وكان إعلان الدستور الثاني (مشروطيت) حَدَثاً قابله الناس بمظاهرات الفرح الضخمة في إستانبول وعواصم الولايات الأخرى، بل وفي القرى والنجوع، ووضح آنذاك أن قطاعاً من سكان المدن والطبقات المتوسطة على الأقل كانوا يُرحِّبُون بالحكم الدستوري.

والحقيقة أن دستور عام ١٩٠٨م لم يتغيَّر عن سابقه، فكان ينص على أن السلطان هو مصدر السلطات، ومع ذلك صفَّقَ الناس لعبد الحميد في هذه المرة أيضاً على أنه سلطان يمنَحُ الدستور لرعاياه، غير أن الوضع كان مختلفاً، فقد كانت جمعية الاتحاد والترقي - التي تعتمد في تكوينها بصورة خاصة على الضباط الشبان والموظفين - عنصر توازن ضدَّ السلطان والباشوات القدامى.

بَيْد أن جمعية الاتحاد والترقي كانت تفتَقِرُ إلى برنامج سياسي معين، وظلَّتْ قوة مستترة، .وفضلت توسيع فعاليتها داخل صفوف الجيش والجهاز الإداري، فتوصَّلَت إلى السبل التي تضمَن لها انتخاب «المبعوثين» من

أنصارها، وسيطرت بالتالي على «مجلس المبعوثان». أضِفْ إلى ذلك مظاهرات القوة الغاشمة التي كانت تقوم بها الجمعية، والضغوط التي تمارسُها على الحكومة نتيجة لسيطرتها على المجلس، فقد مهَّدَتِ السبيل لأن تفقِدَ تأييد المجتمع لها خلال مدة وجيزة، حتى تحوَّلت المعارضة ضدها إلى مظاهرات عارمة جسدتها «حادثة ٣١ مارت» (١٣ إبريل/ نيسان ١٩٠٩م).

فقد تمرَّدَ أغلب ضباط وعساكر الجيش الأول في استانبول الذي تربَّى على النظم التقليدية القديمة، وهذه الحركة التي وحدت بين تكتلات متباينة كانت غير رافضة للنظام الدستوري، كما كانت في نفس الوقت غير راضيةٍ عن حكم عبد الحميد، وكان تفرُّق أغلبية أعضاء «مجلس المبعوثان» آنذاك، والاستقالة الجبرية للحكومة، أمراً جعل مهمة إخماد التمرد تَقَعُ على عاتق السراي، أي: على السلطان وحده.

وفي تلك الأثناء عَلِم ضباط الجيش الثالث ـ وهم من أعضاء الاتحاد والترقي المرابط في سلانيك ـ بالأحداث في استانبول، فجمعوا ما استطاعوا من الوحدات النظامية والمتطوعة تحت ما عرف باسم «جيش الحركة» وساروا به على استانبول، وبدؤوا يَدخُلُونها يومَي الثالث والعشرين والرابع والعشرين من إبريل/ نيسان. وكان من نتيجة الجهود المكثفة التي بَذَلها السلطان عبد الحميد وبعض رجال الدولة وبعض رجال الدِّين المعتَبرين أن أمكن إقناع أغلبية المتمردين بتسليم أسلحتهم دون الدخول في صدامات، أما الذين رَفَضُوا ترك السلاح فقد قام جيشُ الحركة بالقضاء عليهم في صدام دامٍ، وسيطر على الموقف تماماً مساء الرابع والعشرين من نفس الشهر.

ويقول المؤرخ المعاصر ابن الأمين حول تفصيلات هذه الحادثة: «في الحادي عشر من إبريل ١٩٠٩م أصدَرَ الضباط [المنتسبون إلى جمعية الاتحاد

والترقي] أوامِرَهم إلى جميع الجنود بأن لا يتَّصِلوا برجال الدين، وأنه لا مكانَ للدين في الجندية، وأنه لا سلطانَ على أحد غير الله، وأن السلطان والأهالي في قبضة جمعية الاتحاد والترقي. فلما عَلِمَ بذلك بعضُ الأشخاص، توجَّهوا إلى الباب العالي وسألوا الصدر الأعظم حسين حلمي باشا عن ذلك، وأخبروه بأن هذا الأمر قد يُسفِرُ عن عواقبَ وخيمة، واقترحوا عليه سحب هذه الأوامر. وفي صباح (٣١ مارت) ١٣ إبريل تجمَّعَت كتائبُ القناصة في ميدان أياصوفيا، وراحوا يتصايحُون ويُطلِقون النار في الهواء ويرددون:

«نُريد الشريعة... ولا نريد الصدر الأعظم حسين حلمي باشا، ورئيس مجلس المبعوثان أحمد رضا بك، وعزل ناظِرَي الحربية والبحرية».

وعند المساء أرسل إليهم السلطان باشكاتب المابين جواد بك ليُبلِغَهم أنه تم تغيير الصدر الأعظم وناظر الحربية، وصُدُور العفو عنهم واتباع أحكام الشريعة من بعد. وكانت النتيجة أن تفرَّقت جموعُهم.

وفي الرابع والعشرين من إبريل وَصَل من سلانيك «جيش الحركة» الذي تكوَّنَ من وحدات مختلفة وقيادة الفريق أول محمود شوكت باشا، ثم احتَلَّ استانبول، وأُعلِنت الأحكام العُرفية، وأُقيمت المحاكم العسكرية، وتَمَّ إعدام عدة أشخاص من الجنود، والأهالي وكبار الشخصيات ممن لهم عَلاقة بالحادثة المذكورة.

غير أن جمعية الاتحاد والترقي رأت أن تُلقي مسؤولية الحادثة على السلطان عبد الحميد، وتستغل ذلك في خلعه عن الحكم. هذا في حين أن السلطان لم يكن له يد في الحادثة من قريب أو بعيد، وكان من الضرورة أن تحصُلَ الجمعية على فتوى تتمكن بها من خلعه، فاستَفتَوْا أحد النواب المُعمَّمِين من مجلس المبعوثان، وهو شاب يُدعى ألمالي حمدي أفندي،

وأصدر «المجلس الوطني» الذي تشكَّل آنذاك، من مجلس المبعوثان والأعيان قراره التالي: «إنه في اليوم السابع من شهر ربيع الثاني عام ١٣٢٧هـ الموافق يوم الثلاثاء الرابع عشر من نيسان عام ١٣٢٥ (رومي) (٢٧ إبريل ١٩٠٩م) الساعة السادسة وخمس دقائق (الساعة ١٣,٣٢ بالتوقيت الحالي)، واعتماداً على أدلة الترجيح وشكل الخلع المكون من شِقَّين، والوارد في الفتوى الموقَّعة من شيخ الإسلام محمد ضيا أفندي، والتي قُرِئت على الهيئة المجتمعة باسم «المجلس الوطني العام» المشكَّل من الأعيان والنواب، تقرَّر إسقاطُ السلطان عبد الحميد الثاني عن عرش السلطنة العثمانية والخلافة الإسلامية، وتولية ولي العهد الشرعي محمد رشاد أفندي مقامَي السلطنة والخلافة باسم السلطان محمد الخامس».

لقد كانت البلاد على أعتاب حرب داخلية، وتولَّى جيشُ الحركة الحكم في ظل الأحكام العرفية، وكانت المشكلة في نظر ضباط الجيش هي ـ عدا إثبات قدرة جمعية الاتحاد والترقي ـ العمل على إعادة «هيبة الدولة» من جديد، غير أن موقع الجيش داخل أجهزة الدولة واستيلاء جمعية الاتحاد والترقي على السلطة بالكامل كان كفيلاً بإقامة نظام أوتوقراطي جديد خلال مدة وجيزة.

وهكذا خُلِع السلطان عبد الحميد الثاني عن العرش، ثم نُفِي إلى سلانيك. وبعد أن مَكَث هناك ثلاث سنوات ونصف تحتَ الحراسة نُقِل أثناء حرب البلقان إلى «قصر بكلربكى» في استانبول، وظل فيه يتابِعُ انهيار الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى حتى تُوفِّي في الأيام الأخيرة من الحرب في العاشر من فبراير/ شباط ١٩١٨م.

□□□□□

أما عن الجانب النفسي في حياة السلطان عبد الحميد؛ فقد اتفقت أغلبُ المصادر التاريخية التي تناوَلَت حياته أنه كان دائمَ الشك في المحيطين به، فلا يطمئن لأحد، ويتجنَّبُ منذ صغره الحديثَ مع الآخرين شاغلاً نفسَه بأعماله الخاصة، وهواياته في الزراعة وتربية الحيوان في قصرَيْه الكائنين في «كاغد خانه» و «ماصلاق» في استانبول. أما أخوه مراد أفندي «السلطان مراد الخامس» فكان مشتغلاً بِلقاء الشباب والشعراء من مؤيدي الحرية، يحاول استقطابهم وكسب تأييدهم.

وفي هذا الموضوع يقول ابنُ الأمين في مقالته المذكورة: إنه سَمِع من ممدوح باشا ناظر الداخلية السابق أن مراداً عندما كان وليّاً للعهد كان يأتي لزيارته بعضُ المنافقين يعرضون عليه خدماتهم، ويبايِعُونه على السلطنة والخلافة، وكان هو الآخر يَسعَدُ لذلك، فيتوجَّهُ بالحديث إلى أخيه عبد الحميد أفندي (السلطان فيما بعد) ويقول له: «أخي، اليوم أيضاً كسبنا رجلاً مهماً من بين النابهين». وكان عبدُ الحميد يُنصتُ إليه مصطنِعاً الفَرْحة، ويَرُدُّ عليه بما يزيد سعادته، غير أنه كان يضمُّ أسماءَ هؤلاء الزائرين المتكالبين على ضمان مستقبلهم إلى قائمة الساقطين من نظره، فلما اعتَلَى العرش لم يَعْبَأْ بهم.

ويقول أحمد رشيد بك، الذي عمل أربع عشرة سنة في أمانة المابين، ثم وزيراً للداخلية، في كتابه «تواريخ حية»:

«لقد كان حقاً ليِّنَ الجانب، مثابراً شَفُوقاً. وعلى الرَّغْم من عِلَّةِ الوهم التي سيطرت عليه، إلا أنه كان ساكناً واثقاً من نفسه، متواضعاً بفِطرته، وهي خصال كانت من فضائله التي لا يَعرِفُها الكثيرون، بل وأنكروها عليه. وكان عفيفاً بكل معاني الكلمة، فلم نسمَع أنه طَمِع في مال الآخرين، أو انتهك أعراضَهم. وكان في حياته الرسمية مُجِدّاً لا يعرف الكلل، وفي حياته الخاصة منضبطاً

يُقتَدى به، لا يُرهِق خزانة الدولة مثل بعض أسلافه، بل سعى دائماً لمواجهة نفقات السلطنة من راتبه الخاص المعروف باسم (تخصيصات سنية)».

ويومَ اعتلاء السلطان عبد الحميد عرشَ السلطنة العثمانية، دُعِي لإقامة مراسمه أمام باب السعادة ـ الباب الثالث المفتوح على قسم الأندرون، أي: القسم الداخلي في سراي طوب قابي ـ كما جَرَتِ العادة منذ القديم، إلا أنه خَشِي أن يتعرض أثناء ذلك لمؤامرة يدبرها مؤيدو السلطان السابق مراد الخامس، فطَلب ـ خلافاً للعادة ـ أن تَتِمَّ المراسم داخله وليس أمامه، غير أن الصدر الأعظم رشدي باشا لم يَرْضَ بذلك، وأصرَّ على إقامتها في موضعها القديم.

فقد كانت مسألة وجود السلطان مراد من بين المسائل التي احتاط لها، إذ كان هناك نفر من الذين لا يفكرون إلا في مصالحهم الشخصية، يخترعون له أحداثاً وهمية عن أخيه السلطان مراد ومؤيديه، كما كان أعضاء الجهاز الذي شكَّله عبد الحميد نفسه بقصد جمع المعلومات يُلَفِّقُون من ناحية أخرى وقائع لا أساس لها تشوِّشُ عليه ذهنه، حتى إن قبوله خوض الحرب ضد روسيا عام ١٨٧٧ ـ ١٨٧٨م كان من النتائج المشؤومة التي أسفر عنها ذلك التشويش.

وقد نقل ابن الأمين عن محمود جلال الدين باشا قوله: **«إن كتابات مؤيدي السلطان مراد التي أَلقت الرعب في قلوب الأهالي، وأفسدت على السلطان عبد الحميد راحته، جَعَلت الناس يتَّفِقُون على دخول الحرب ضد روسيا، وأَقنعوا السلطان عبد الحميد بقولهم: إن تطلعات الأهالي تتجه هذا الاتجاه، ولن ينمحي تأييدهم للسلطان مراد من الأذهان ما لم نحقِّقْ لهم هذه الآمال، وعلى هذا النحو أعلن عبد الحميد الحرب على روسيا، وكانت لا تفترق شيئاً عن الانتحار، إذ بدَّدَتْ قدرة الدولة وجعلت الأمة في حال يُرثَى لها».**

وينقل عن نفس الرجل قولَه: إن السلطان كان ينوي الذهابَ إلى ميدان المعركة عَقِبَ نشوب الحرب، إلا أن الوكلاء (الوزراء) حالوا بينه بقولهم: «إن مؤيدي السلطان مراد لا يزالون يُواصِلون كتاباتهم من أجل إعادته إلى عرش السلطنة، وليس من الصواب أن يبتعد سلطاننا عن العاصمة»، وبذلك أَثْنَوْه عن عزمه.

ومما يُعرَف عن السلطان عبد الحميد في الأيام الأولى من حكمه أنه كان يتحرَّكُ بحرية، ويحاول الاتصال بالناس هنا وهناك، فقد رُوي أنه ذهب ذات يوم من شهر رمضان إلى جامع أياصوفيا، وجلس في إحدى المقصورات، وتحدَّثَ مع كلٍّ من رشدي باشا ومدحت باشا، إلا أن نفراً من المتفيهقين من ذوي التعصب الأعمى والفكر الجامد، بدلاً من أن يَسعَدُوا ويشكروا السلطان على أنه يخالط الناس ويجالسهم ويصلي معهم فيرَوْنَه ويراهم، راحوا يُلقون أقوالاً تعكِّرُ على الناس صفو تفكيرهم مثل قولهم: «إن رشدي باشا ومدحت باشا كافران، أجلسهما السلطان أمامه وعليه القميص الإفرنكي، يتحدثون في الجامع. ولسوف يَقضُون على الأمة الإسلامية بأحكام تصدر عن نواب ليسوا من المسلمين».

ولم يكن السلطان يتحدَّثُ آنذاك إلى الوزراء ورجال الدولة فحسب، بل كان يتحدث أيضاً إلى الأدباء والكتاب المنادين بالحرية ويتعاطَى معهم الأفكار؛ ففي اليوم الثامن لاعتلائه العرش استقبل الأديب التركي المشهور نامق كمال (١٨٤٠ ـ ١٨٨٨م) وتحدَّث معه ما يزيد على الساعة، وقال له يومها: **«لقد كان أخي مراد الخامس ـ يمنَحُه الله العافية ـ يخفي دائماً نواياه عني، ولم يكن ليَرْضَى أبداً أن تكون لي معك علاقة خاصة، فانظر اليوم لحكمة الله، كيف يَرقُد الآن عاجزاً عن أن يتعرَّفَ عليك، وكيف أصبح أخوه الذي ستر عنه أفكارَه وغار منه واسطةً لتحقيق الأهداف التي لم يُوَفَّق هو لتحقيقها. لقد دخلتُ «دائرة البُردة**

الشريفة»(٣) فتضرَّعتُ وسجدت لله شكراً من قلبي على أن جعلني سبحانه مظهراً لهذا اللطف (أي إعلان الدستور)، وأدعوك بحق الله يا كمال بك أن نعمل سوياً حتى نجعَلَ هذه الدولة في حال أحسن مما هي عليه».

لقد كان السلطان عبد الحميد هكذا في بداية حكمه، ثم صار إلى ما صار عليه بالوشايات المفسدة ورسائل التهديد، حتى حَبَس نفسه داخل السراي، وصار لا يبرَحُه أو يرى أحداً إلا العاملين معه، إذ كانت التفارير التي تُنقل إليه ـ عن أن والدة السلطان مراد ورجالها سوف يُشعِلون فتنة ـ كثيرة ومتنوعة، بحيث تجعل كامل العقل يخرج عن طَوْرِه، أو على الأقل يتسلح بالحيطة والحذر كما فعل السلطان عبد الحميد. فقد كان خلع سلطانين قبله هما عبد العزيز ومراد، والمصائب التي حَلَّت بهما بعد الخلع، ثم وجود من قاموا بذلك وتهديدهم لهم، وتحريض نواب مجلس المبعوثان عليه، وكأن البلاد تحكم بالدستور منذ مئات السنين؛ كلها أمور أشعَلَت مخاوفه، وهو الجالس حديثاً على عرش دولة تُحكَم منذ قرون عدة بحكم مطلق.

وقد ظهر البلاء الأعظم في نشوب الحرب التركية الروسية، وتبديدها لطاقات البلاد، وتقدم الروس حتى مشارف العاصمة استانبول التي باتت تَعجُّ بالمهاجرين المسلمين الفارِّين من الروملي أمام تقدم الروس، ثم قيام من يُدعى «علي سعاوي» بحركته المشهورة لإعادة السلطان مراد إلى العرش، إذ تَستَّرَ في زي امرأة وهجم برجاله المسلحين على «دائرة ولي العهد» في السراي ،غير أنهم قَبَضوا عليه وسِيق للمحاكمة، ولا شك أن هذه الحادثة ومثيلاتها كانت سبباً جعل السلطان عبد الحميد يَعدَمُ ثقته في الآخرين، ويبالغ في شكوكه ومخاوفه.

---

(٣) هي الدائرة التي تضم آثار الرسول ﷺ في سراي طوب قابي، ومن بينها بردته، وهي تُعرف بالأمانات المقدسة، وتعرف الدائرة التي تضمها باسم «خرقه ء شريف دائره سى».

ومن ناحية أخرى فقد كانت كتابات الفارِّين إلى الدول الأجنبية ممن بهرتهم حضارة الغرب، وكتابات الأجانب أنفسهم، والمحاولات الخاصة بخلعه والقضاء عليه من الداخل أو الخارج، أموراً لا يجبُ علينا إهمالُها بحالٍ من الأحوال حين نتعرض للحكم على شخصية السلطان عبد الحميد؛ فقد ظهر من القائمة التي عُثر عليها في برشلونة عقب مقتل ملك إيطاليا، ومحاولة اغتيال شاه إيران في باريس، أن الإرهابيين وضعوا اسم عبد الحميد ضمنها وقرَّروا اغتياله. ونعرف أيضاً حادثة انفجار القنبلة التي دَبَّرَها الإرهابيون الأرمن وتعرَّض لها في الحادي والعشرين من يوليه (تموز) ١٩٠٥م عندما كان يَهُمُّ بالعودة إلى سراي يلديز عقب أداء مراسم تحية الجمعة في جامع حميدية، فقُتِل فيها بعض الجنود والأهالي، كما أُصيب البعض بجروح خطيرة.

وعلى الرَّغْم من أنه كان يخرج أيام الجمعة لأداء مراسم التحية المعتادة، ويخرج مرةً في السنة لزيارة «البُردة الشريفة» في سراي طوب قابي، ومرتين للمشاركة في مراسم الاحتفال بالعيدين، إلَّا أن البعض لم يتورَّعُوا فيما بعدُ عن الحيلولة بينه وبين ذلك.

ومما نقله ابنُ الأمين عن الصدر الأعظم السابق توفيق باشا قوله:

«دُعِيت ذات صباح إلى السراي، فلما دَخَلتُ غرفة الباشكاتب [سكرتير أول المابين] تحسين باشا وجدت حسن باشا قائد منطقة بشيكطاش يَجلِسُ حزيناً مكتئباً، ولأن بيننا مودة قديمة سألته عن سر حُزْنه فقال: قدَّم أحدهم تقريراً سرياً بأن والده - أحد الموظفين المتقاعدين في بشيكطاش - يقوم بحفر نفق تحت منزله ينتهي عند السراي.

فلما صَدَر الفرمان السلطاني بالتحقيق، ذَهبتُ بنفسي ووجدتُ أن مجاري مياه المنزل المجاور لمنزل ذلك الرجل مسدودة، وأنه يقوم بتنظيفها،

فاستَدْعَيْتَ ولدَه الذي قدَّم التقرير وحققت معه، وحَزِنت كثيراً لأنْ أرى ولداً يُلَفِّق هذا الكذب ضد والده، فحبسته في السرداب. غير أن الولد توسَّلَ إلى أحد الحراس أن يعطيه ورقة ومظروفاً ليكتب إلى والديه حتى لا يَنشَغِلوا عليه، فرقَّ له الحارس وأعطاه ما أراد، فكتب الولد ما كتب، ثم طلب من الحارس أن يسلِّمَ الخطاب لصاحب الحانوت المقابل، وهو سوف يقومُ بتوصيله لوالديه، وبالفعل قام الحارس بذلك.

وإذا بالخطاب الذي كتبه الولد تقريرٌ آخر شاء أن يقدِّمَه في حقي هذه المرة، وقال فيه أنني أمرت الحراس بضربِه عندما علمت بمدى إخلاصه لأفندينا السلطان، ولم أقدِّم له طعاماً، وأنه يطلب المدد من السلطان. ولأن صاحب الحانوت عميل للسراي هو الآخر قام بتقديم التقرير في الحال، وعليه دُعِيت أنا هنا للتحقيق معي، وهم الآن يضيِّقُون عليّ الخِنَاق بعد أن سَمِعوا من السلطان تعليقه بقوله: «كيف يؤذي شخصاً أبَانَ عن إخلاصه لي؟ ما معنى هذا؟ لا بد أن له قصداً من وراء ذلك».

والآن دخل الباشكاتب ليَعرِضَ على السلطان أجوبتي، ولننظر ما الخبر، وكيف سيكون عقابي. وفي تلك الأثناء دُعِيت أنا للمُثُول بين يدي السلطان، ولا أعلَم ماذا حدث لحسن باشا بعد ذلك».

وعندما كانوا يَنقُلون السلطان عبد الحميد من منفاه في ولاية سلانيك إلى استانبول، قال مُعبِّراً عن خوفه على حياته: إنه لن يُغادِرَ الباخرة إذا حدث ووصلت ليلاً.

وحكى شريف باشا أحد الذين صَحِبُوه إلى استانبول فقال:

«اقترب مني نوري آغا (مصاحب السلطان) وسألني عما إذا وَصَلت الباخرة عند المساء فهل سنغادرها؟ فأجبتُه بأن الأمر ليس معلوماً الآن. وعليه

أبْلَغَنـا أن السلطان يريدنـا، فذهبت إليه أنا وعارف حكمت باشا، ووجه إليَّ الخطاب سائلاً عن موعد وصول الباخرة إلى استانبول، فقلت له: إنه إذا عَبَرت الباخرة هذا المساء مَضِيق «جناق قلعه» يمكننا أن نَصِلَ استانبول غداً مساءً. وهنا صرَّح لي أنه لن يغادر الباخرة ليلاً بحال من الأحوال، حتى أنه استَحلَفَنِي بالله سائلاً: «هل لديكم مثل هذه التعليمات؟».

وإزاء هذا الوضع لم أستَطِع بالطبع أن أُخفِي عليه الحقيقة، وقلت له: إن برقيةً وصلت مساءَ أمس إلى والي سلانيك تضمَّنَتِ الأمر بدخول الباخرة إلى استانبول قبل مغيب الشمس بساعة ونصف الساعة.

وعلى الفـور بادَرَني بقـولـه: «ألم أقل ذلك! إنه مخطَّط، أنا لن أغادر الباخرة ليلاً بحال من الأحوال، إنه ليل وقد يحدُث فيه كل شيء... فقد تنزَلِقُ قدم الإنسان، ويسقُط في البحر، أو يرتطم قارب بآخر... والحوادث كثيرة. أضِفْ إلى ذلـك أن جسمي لا يتحمَّـل هذا، وأولادي وعيالي لا يستـطيعون مغادرتها... وعليه فسوف أظلُّ بالباخرة إذا حدث ووصلت ليلاً».

وقد حاولنا إقناعه بشتى الوسائل والضمانات، إلا أنه كان يُصِرُّ على أن هناك مؤامرة مدبرة للاعتداء على حياته.

وقال يومَها: «كم من النوائب حَلَّت بي، وكم تعرضت لمؤامرات، ولكنَّ الله حَفِظَني منها جميعاً. ولا بد أنكم لا تعرفون ذلك، إنهم يضللونكم. وهل يليق هذا في حق الإخوة؟ إنني لا أتطلَّعُ إلى عرشه، ولا أطمع في تاجه، فقد خَدَمْتُ الـدولة ثلاثة وثلاثين عاماً، حاربت فيها اليونان، ولم أقتَرِض مالاً من أحد، بل ضحَّيْتُ فيها من مالي الخاص، وأعتقد أنَّكم تعلمون كيف كان الجزاء على كل هذه الخدمات؟ هل سطَوْتُ على خزانة الدولة؟ وأموالي الخاصة كيف توفَّـرت لي؟ عنـدمـا اعتليتُ عرش السلطنة كنت أملِكُ ستين ألف ليرة. وقد

استطعت بعد ذلك وبهمة آغوب باشا ناظر خزانة الخاصة أن أقتَصِدَ مبلغاً آخر، أضمن بـه مستقبـل أولادي أولاً، وأسـاعـد منه الدولة عند الحاجة ثانياً، فقد ساعدتُ الدولة في حرب اليونان مثلاً.

وقد كان من بين القادمين لإعلاني بقرار النزول عن العرش خليعٌ يقال له: عارف باشا(٤) أخذته إلى جانبي وكان مايزال صغيراً، وقلت له يوم جاءني لتبليغ قرار الخَلْع: إنني أترُكُ الدولة دون أن يَنَال أحد من استقلالها، والتعرض لجزء من أجـزائهـا، أو الإخلال بمعاهداتها، ماذا وصل إليه حالُها الآن؟! قهر الله باسمه القهار كلَّ المتسببين في ذلك.

إنني ـ لو حَدَث ودعوني مرة ثانية، وهو أمر بعيد الاحتمال كما تعلم ـ لن أُلبِّيَ دعوتهم، فلست طفلاً حتى أقبل مثل هذه المسؤولية. ثم لماذا يتجنَّبُونَني إلى هذا الحد؟ إنني رجل آثرُ العُزلة.

وخلاصة القولِ: أني لن أغادر الباخرة ليلاً، وأُقِرُّ أمام الله أني نادم على مغادرتي سلانيك، فقد ارتكبتُ خطأً. ورجائي منكم أن تُبرِقوا من «جناق قلعة» وتجدوا حلاًّ لذلك، فليس سهلاً أن تقولوا لي من الباخرة: في أمان الله. ثم تَمضُون، وتنتهي مهمتكم عند ذلك!».

وعلى الرغم من كل الضمانات التي قدَّمها شريف باشا مع كل الأدب

(٤) يقول ابن الأمين هو صهر آتشي محمد باشا، وكان السلطان عبد الحميد عندما تولى العرش حديثـاً وقـام بزيارة تفقـدية للأسطول قد رآه، وسأل آنذاك عمن يكون، فلما علم ألحقه برجـالـه، وظـل يرقيه حتى وصـل رتبـة مشير بحـري. ويروى أنـه كان من الجـواسيس المشهورين، وآخر وظائفه قيامه بتدريس الإنجليزية في المدرسة الثانوية العسكرية «قله لى عسكري ليسه سى». وعقب إعلان الدستور قام مثل بقية أقرانه فانقلب على عقبيه في وجه الطرف الآخر، واقترح عليهم أن يكون واحداً من بين المكلفين بمهمة إبلاغ السلطان عبد الحميد بقرار الخلع عن العرش.

والاحترام إلا أنه قال:

«إنني أثقُ فيك، ولو قلتَ عكس ذلك فسوف أحزَنُ لهذا، ولكن اعلَم يا بني أن لي تجارِبَ كثيرة، وأَمْرٌ مثل هذا يمكن أن يحدث أمام أعينكم أنتم، ثم يقال: إن الفاعل مجهول».

وللإنصاف فإن إصرار السلطان عبد الحميد على عدم مغادرة الباخرة ليلاً لهُوَ من الاحتياط أكثر مما هو من الوسوسة كما ادَّعى البعض، ففي الليل متسع لكل الاحتمالات، ولا يستطيع أحد أن يُنكِرَ أنه كان محقاً في بعض أوهامه، كما كانت له أيضاً أوهام لم يُصِبْ فيها، وكان لها تأثيرها الواضح على إدارته للدولة.

على أن السلطان عبد الحميد رَغْمَ كثرة الحوادث التي تعرَّضَ لها، ورغم كثرة التقارير السرية التي كانت تَرِدُ إليه من كل جانب، إلا أنه كان لا يأخذها على عَلاَّتها، فيأمر بالتحقيق فيها أولاً ليعرف مدى صدق ما جاء فيها. وقد كتب ابنُ الأمين بعض أحداث هذه التقارير بحكم وظيفته واطِّلاعه على وثائق السراي فقال:

«عُرِف عن وحيد بك ابن مختار باشا، وأحد المديرين السابقين في قلم الآمدي بالباب العالي، أنه كان ماهراً في طَهْيِ الأكلات الشهية، وأن له في ذلك هواية خاصة. وذات مساء دعا زملاءَه في العمل لتناول الطعام في داره، غير أن واحداً من رجال المخابرات في السراي سَمِعَ بذلك، فبادَرَ بإرسال تقرير سري إلى السلطان بأسلوب أهاج به أعصابه، وعليه ذهب موظَّفو السراي إلى الرجل في داره، وكان الضيوف يتأهبون لتناول الطعام، فاقتادوهم وصاحب الدار إلى السراي، وجَرَى التحقيق معهم، وكان من بينهم رجل يُدعى سعيد أفندي، قال عند التحقيق معبراً عن جزعه وصفاء طويته: «لقد قالوا لنا: إن هناك طعاماً شهياً

فذهبت، وليتني أكلتُ غائطاً ولا تناولت هذا الطعام». وكانت النتيجة أن أمر السلطان بمنحه خمسين ليرة، وإرسال السلام إلى الآخرين ثم إخلاء سبيلهم».

ويقول ابنُ الأمين: كان يتردَّدُ على منزلنا لفيف من العلماء والأدباء والشعراء مرتين في الأسبوع، نتبادل الحديث في كل فن، وكنا أنا ووالدي المهر دار أمين باشا وأخي توفيق بك نتحدَّثُ مع الضيوف بأغلظ القول عن السلطان عبد الحميد داخل المنزل وخارجه، ومن الطبيعي أن تطير التقارير في حقنا إلى السراي. وكنت أنا وأخي نكتُب المقالات الخطيرة آنذاك، وصدَرَ لي من أعمال شبابي كتاب باسم «صَبيح» كتبوا عنه تقريراً سرياً قالوا فيه: «إنه ليس قصة تاريخية، بل هو أشبه ببيان ثوري». وصدر الفَرَمان السلطاني بجمعه من الأسواق، وحَرَقُوا قِسماً منه، وأحمَدُ الله أن حَفِظَنا فلم يدعونا أحد للتحقيق والمساءلة.

ويقول رشيد بك في مذكراته:

من الأشياء التي شهدتها حادثةٌ وَقَعت صباح يوم خميس، إذ جاءنا خِطَاب بالشفرة من سفارتنا في بوخارست ففتحناه، وإذا بكاتبه يقول: «جاءنا فلان من رومانيا وأخبرنا سرّاً أنه إذا حدث وذهب جلالةُ السلطان يوم الجمعة القادم إلى جامع تكية الشاذلية لأداء مراسم تحية الجمعة المعتادة فسوف يتعرَّضُ لمؤامرة، إذ سمعتُ أنهم وضعوا متفجرات في المجاري المجاورة للجامع». وها نحنُ نعرض عليكم الأمر والمسؤولية على المخبِر.

ثم يقول رشيد بك: «وكاتب هذا الخطاب هو كاظم بك أحد كتبة المابين القدامى، وهو رجل يُقَدِّرُ شرف وظيفته، وإنسان صادق الكلمة مستقيم السلوك، وكان معذوراً في تبليغ هذا التقرير، لأنه أولاً إذا لم يسارع بإيصاله فسوف يكون شريكاً في الجُرْم، وثانياً لأن موظف الدولة أيّاً كان لا يستطيع أن يفعل غير ذلك.

ومع أن التقرير لم يُفصِح عن القصد والجهة التي قدمته، إلا أن الباشكاتب (سكرتير عام المابين) ثريا باشا اضطر لعرضه على السلطان في الحال. وبعد أن أمر السلطان بإجراء التحريات اللازمة وتفتيش المجاري ليلةَ الجمعة، توجَّه في الصباح إلى الجامع وأدّى الصلاة ومراسم التحية هناك، غير أنه لم يذهب ثانية إلى هذا الجامع.

والمعروف عن شيخ الشاذلية ظافر أفندي أنه كان رجلًا لا يُؤذي أحداً، ولا يتدخَّلُ في شؤون الدولة، وكان مؤمناً ورعاً. وكان أبو الهُدى الصَّيّادي يُقِيم عند مرقى «سرنجه بك» في مقابل تكية الشاذلية، ويَغبِط الشيخ ظافراً علناً على عطف السلطان عليه. ويبدو أنه أرسل هذا الإخبار الكاذب إلى بوخارست حتى يَحرِمَ الشيخ ظافراً نيل الشرف الذي حرم هو من نيله. وأدرك المطَّلِعون على خفايا الأمور أنه أجبر السفارة على تقديم الأخبار من هناك، وأنه شاء تخويف الشيخ ظافر بهذا الطريق الملتوي، آملًا أن يَسقُطَ من نظر السلطان، وأعتقد أن السلطان أيضاً كان يدرك ذلك، ولكن مهما كانت طبيعة فهمه لهذا فإن أبا الهدى الصيادي قد حقق بُغْيَته».

ولا شك أن هذه الوثيقة تُثبت أن السلطان عبد الحميد لم يكن كما ذهب البعض هَلُوعاً موسوساً، بل تثبت أنه كان حكيماً محتاطاً في تحركاته، إذ أمر أولاً بالبحث عن المتفجرات، ثم ذهب إلى الجامع غير متهيب. أما عن انقطاعه فيما بعدُ عن الذهاب إلى الجامع والتكية ولقاءِ الشيخ ظافر، فربما يَرجِعُ إلى أن السلطان أدرك أن أبا الهدى الصيادي يَغارُ من الشيخ، فلم يَشَأْ أن يغضبه وهو الذي استعان به في إرسال الدراويش إلى تركستان والهند، والتنغيص على الروس والإنجليز، واستخدمه عيناً له على خصومه، بل وفي التباحث سراً مع الإنجليز.

غير أن العَلاقة بين السلطان عبد الحميد وبين الصيّادي كانت واحداً من الأخطاء التي أخذها معظم المؤرخين على السلطان، إذ كان الرجل أفّاقاً يكره أن يَظفَر أحد غيره بثقة السلطان، فأوغر صدره ضد الآخرين، وحال بدسائسه ومكائده بينه وبين المخلصين(٥).

ويذكر شريف باشا في كتابه السابق: أنه بعد خلع السلطان عبد الحميد عن العرش شاعت بين الناس كثير من الادعاءات التي لا أساس لها ضد السلطان، سواء عن قصد أو عن جهل، وأنه على الرغم من أن هناك كثيراً من رجال الدولة الذين شهدوا عهده واطّلعوا على خفايا الأمور داخل السراي وخارجه، إلا أن أحداً منهم لم ينهض ويكذب هذه الادعاءات، فيروي الصدق ويؤدي حق النعمة التي عاشَ فيها من قبل، بل على العكس هَبُّوا يؤلِّفون كتباً سمَّوها «مذكرات»، وهي ليست إلا مغالطات كتبوها رغبةً في الظهور أمام أصحاب السلطة والجاه في العهد الجديد بمظهر المؤيد، فانتقدوا عهد عبد الحميد، وزَيَّفوا الحقائق حتى يستُروا سيئاتهم القديمة من ناحية، ويحافظوا على مصالحهم الشخصية من ناحية أخرى.

ولا شك أن جمعية الاتحاد والترقي أفسَحَت المجال لمثل هذه الكتابات بعد أن سَيْطَرت على مقاليد الحكم، مما كان سبباً في تشويه صورة السلطان عبد الحميد وعهده، ناهيك عن الكتابات التي كان يُرَوِّجُ لها الأجانب، خدمة لأهداف سياسية معينة.

وبعد، فهذه هي بعضُ الجوانب عن السلطان عبد الحميد الثاني، رغم كل الضغوط الداخلية والخارجية التي تعرَّضت لها الدولة العثمانية في عهده، والضغوط التي تعرض هو شخصياً لها.

---

(٥) لمزيد من المعلومات عن دسائس الصيادي انظر: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، عبد العزيز محمد الشناوي، ط القاهرة ١٩٨٣، جـ٣، ص١٢١٣.

ببليوغرافيا مختارة حول السلطان عبدالحميد

Abdurrahman Şeref ve Ahmed Refik: Sultan Abdülhamid-i saniye dair, İstanbul 1918.
Abdülhamid II: Siyasî Hatıratım, İst. 1974.
Ahmed Midhat: Zubdat al-Haka'ik (İstanbul, 1294-1295).
Ahmed Sâib: Abdülhamid'in evail-i saltanatı, Mısır, 1326.
Akşin, S.: 31 Mart Olayı, İstanbul, 1972.
Ali Haydar Midhat: Midhat Paşa, İstanbul, 1325.
'Ali Nizami Paşa: Hatırat (Paris, 1878).
A. de la Jonquire: Hist. de l'empire ottoman (V. Duruy, Hist. universelle, Paris 1881), s. 567 v.d.; Dustur-i hamidiye (frns. trc. Nicolaides).
Bayur, Yusuf Hikmet: Türk İnkilabı Tarihi, I, İstanbul, 1940.
Bayur, Yusuf Hikmet: Türk İnkilabı Tarihi, I, II, 1940-1953.
Berkes, N.: Türkiye'de Çağdaşlaşma, 1973.
Bozdağ, İsmet: Abdülhamid'in Hatıra Defteri, İst. 1975.
Brunswik, Benoît: Le Traite de Berlin, Paris, 1878.
Davison, H.R.: Reform in the Ottoman Empire, 1856-1876.
Deringil, Selim: II. Abdülhamid'in Dış Politikası, Tanzimat'tan Cumhuriyet'e Türkiye Ansiklopedisi, Fasikül 10, ss. 304-306.

Devereux, R.: The First Ottoman Constitutional Period, 1963.
Firuz Ahmed: İttihat ve Terakki, İst. 1974.
Firuz Ahmed: İttihat ve Terakki, 1908-1914, İstanbul 1971.
Giacometti: Mes'uliyet (İstanbul, 1294-1877).
Goryanov, Serge: Devlet-i Osmaniye ve Rusya siyaseti, trc., İstanbul 1331 (mütercimleri Ali Reşat ve Macar İskender).
İbnülemin, Mahmud Kemal: Abdülhamid-i sanî'nin notları (TOEM, XVI, s. 60, 89, 152)..
İbnülemin, Mahmud Kemal: Sultan Abdülhamid'e Dair, Hayat Tarih Mec., Sayı 6, 7, 8, Haziran, Temmuz, Ağustos 1977.
İbnülemin, Mahmud Kemal: Osmanlı Devrinde Son Sadrazamlar, 1940-1953.
İhsanoğlu, Ekmeleddin: "The Ottoman Medicine School in Damascus 1903-1918". **The Historical Foundations of Arab Medicine The Western Influence.** Dublin, 11-13 December, 1985, 28 p.
İslam Ansiklopedisi: Abdülhamid II maddesi, I.C., s. 76.
Karal, E. Ziya: Osmanlı Tarihi, VIII, 1962.
Kodaman, B.: Abdülhamid Devri Eğitim Sistemi, 1980.
Koloğlu, Orhan: Abdülhamid Gerçeği, İst. 1987.
Kushner, D.: Türk Milliyetçiliği'nin Doğuşu, 1979.
Lewis, B.: Modern Türkiye'nin Doğuşu, 1970.
Mahmud Celâleddin Paşa: Mir'at-ı Hakikat, İstanbul, 1326.
Mahmud Cevad: Maarif-i Umumiye Nezareti tarihçe-i teşkilât ve icraatı, İstanbul, 1328.
Mahmud Muhtar: Maziye bir nazar, İstanbul 1341.
Mardin, Ş.: Jön Türkler'in Siyasî Fikirleri, 1895-1908 (2. bas.) 1983.
Ortaylı, İ.: II. Abdülhamid Döneminde Osmanlı İmparatorluğu'nda Alman Nüfuzu, 1981.
Osman Nuri: Abdülhamid-i Sâni ve Devr-i Saltanatı, 3 cilt, 1911.
Osman Nuri: Abdülhamid-i Sani'nin Devr-i Saltanatı, İstanbul 1927.
Pakalın, M.Z.: Son Sadrazamlar ve Başvekiller, 5 cilt, 1940-1949.
Said Paşa: Hatırat, İstanbul 1328.
Stanford J. Shaw: History of the Ottoman Empire and Modern Turkey, (2 Volume, 1976-1978).

Süleyman Paşa Zade Sami, Süleyman Paşa: Umdat al-Hakâ'ik, İstanbul, 1328.
Symposium on the History of Modern Arabic Medicine, Dublin, 12-13 December, 1985.
Türk ve Dünya Ünlüleri Ansiklopedisi: (Abdülhamid II) maddesi I.C., s. 46.
Us, Hakkı Tarık: Meclis-i Mebusan, ilk devre müzakere zabıtları (1877-1293), İstanbul, 1940.

إحسان أوغلي، أكمل الدين: «المؤسسات الصحية العثمانية في سوريا في العهد العثماني الأخير». بحث قدم إلى المؤتمر السنوي الثالث عشر لتاريخ العلوم عند العرب (معهد التراث العلمي العربي) جامعة حلب ١٩٨٩.

مقدمة الطبعة الثانية

بعـد أن عانت ثمـانية وعشـرين عامـاً من عذابـات الغُـربـة (١٩٢٤ - ١٩٥٢م)، عادت الـوالـدة عائشـة عثمان أوغلي (١٨٨٧ - ١٩٦٠م) فكتبت مذكراتِها في كتاب أسمته «والدي عبد الحميد»، نشرته أولاً مجلة «الحياة» على حلقات، ثم ظهر بعد ذلك في كتاب (١٩٦٠م). ولكنها انتقلت إلى رِحاب ربها قبل أن تشهَدَ ذلك الترحيب والاهتمام الذي لقيه الكتاب؛ إذ احتَلَّ خلال مدة وجيزة مكانه في قائمة مراجع جميع الكتب التركية والأجنبية التي تحدَّثت عن السلطان عبد الحميد الثاني أو عن عصره، وصار مرجعاً تقليديًّا يرجع إليه كل باحث في هذا المجال.

ونرى - ونحن نعيد طبع هذا «الكتاب المرجع» الذي نَفِدت طبعاته منذ مدة طويلة - أننا مَدِينين بواجب الشكر إلى «دار سلجوق للنشر»، وإلى معمر شاهين بك، وإلى كلٍّ من حسن علي كوك صوي وأغور درمان على ما بَذَلُوه من جهد في إعداد الطبعة الثانية.

وقـد قمنا بإضافة بعض الهوامش والتعليقات والصور حتى تساعد على إيضاح بعض الأوصاف والخصال التي نَسِيَها البعض من ماضينا القريب، وقد صار تاريخاً إلى الأبد نَحكِيه لأجيالنا الجديدة حكاياتٍ عابرة رغم أنه قريب قرب الأمس. والتعليقات التي أضفناها في الهوامش نحن «الأَخَوان نامي» وضعنا في

نهايتها حرف (ن). ولا يسَعُنا إلا تقديم الشكر للسيدة أمينة ساطعة طوران إحدى قريباتنا التي ساعدتنا على تذكر بعض التواريخ.

لقد تربَّت والدتنا على النظام التركي الإسلامي، وأتمَّت تعليمها، فكانت تملك روحاً فنية، ترسم لوحات جميلة، وتؤلِّفُ ألحاناً غربية، وتعزف البيانو. واستطاعت حتى أيامها الأخيرة أن تحافظ على ذاكرتها، وهي قوية في الأصل، ثم شَرَعَت في كتابة مذكراتها في البيت الذي كانت تقيم فيه عند سفح «سرنجه بك» في بشيكطاش مع والدتها مشفقة قادين أفندي، واستطاعت أن تنتهي منها خلال فترة وجيزة.

وقد احتَفَظْنا في مكتبتنا بمسَوَّدات الكتاب التي كتبتها بالحروف العثمانية القديمة، وأهم ما يميز هذه المذكرات أنها كتبتها بلغة تركية بسيطة حية لا تَشُوبُها شائبة، وأنها بقدر الصدق فيها، جَسَّدت عادات وتقاليد السراي التي نسيناها تماماً في أيامنا هذه، وما كان يجري فيه من بروتوكولات ومسامرات واحتفالات، وكَشَفَت لنا عن الوجه الحقيقي للسلطان عبد الحميد بكل دقائقه.

عمر نامي وعثمان نامي

استانبول ـ مارس/ ١٩٨٤

□□□□□

مقدمة المؤلفة

يسـرني أن أقـدِّمَ نفسي إليكم فأنـا عائشة عثمان أوغلي ؛ عاشرة أولاد السلطان عبد الحميد الثاني وسادسة بناته، ولدت عام ١٨٨٧م في سراي يلديز بإستانبول، ووالدتي هي مشفقة قادين أفندي، رابعة زوجاته.

وقد عشتُ منذ فتحت عيناي على هذه الدنيا، أياماً حلوة سعيدة، ومرت عليَّ أيام قضيتها مع الآلام والأحزان. ومثل كل إنسان، أُؤمن بالقدر الذي يصنَعُ السعادة والتعاسة، وأُؤمن بما نسميه «الطالع».

نشأت على تربية تركية حقيقية، واعتقادٍ ديني متين، ولم أنسَ ما حييت أني جئت من نسل الغازي عثمان، التركي ابن التركي، وحملت بين جوانحي على الدوام ذلك الفَخَار الناشىء من خدمات أجدادي العظام التي قدَّموها للبلاد والأمة.

وأشعـر الآن بحـاجتي الشديدة إلى التعبير عما أُحِسُّ به من سعادة إذ التقيت أخيراً بوطني الحبيب، بعد أن عشت حياة تَعِسة في فرنسا، عانيت فيها آلام الفِراق والحنين إلى وطني العزيز قرابة ثلاثين عاماً. وأرى من الواجب عليَّ الآن مقابل هذه الفرحة العظيمة تقديم شكري إلى حكومة الجمهورية الحالية على ما اتَّصفت به من عدل ورحمة.

إن الدعاء لأمتنا التركية بالسلامة والسعادة دُستور للحياة اتخذَتْه عائلتنا

الأميرة عائشة عثمان أوغلي بنت السلطان عبد الحميد الثاني

(صورة من أرشيف مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستانبول)

بشبابها وشيوخها خلال فترة الثلاثين عاماً هذه، ولم يَنْسَ أفراد العائلة أنهم أتراك أولاد أتراك، ورضوا بأقدارهم.

إن قصـدي من كتـابة هذه المذكرات هو أن أترُكَ لأمتي الحبيبة تذكاراً متواضعاً، وأن أحكي شيئاً عن حياتنا الماضية في السراي، ورغبتي في أن أُقدِّمَ لها خدمة بسيطة أشرَحُ من خلالها الأحداث التي وقعت في العهد الأخير من تاريخنا، وكنت أحدَ شهودها. وقد قمت تلبيةً لرغبة بعض الأصدقاء الأعِزَّاء، وتشجيعهم لي، وقولهم بأن كتابة هذه المذكرات هي خدمة للتاريخ، بتسجيل كل ما علمته ورأيته وسمعته.

إن أعـظَم وأقـدس دَيْنٍ في عنقي، هو الـدعاء لأمتي ووطني بالسعادة والخلود حتى نَفَسي الأخير. حَفِظ الله الأمة التركية وحفظ الجمهورية ورعاهما على الدوام...

عائشة عثمان أوغلي

القسم الأول
والدي وسراي يلديز

والدي وسراي يلديز

كان المـرحوم والدي متوسط القامة، يَميلُ شعر رأسه ولحيته إلى اللون الكستنـائي الغـامق، كثيف شعر الرأس إلا في قمتها، وكان محدب الأنف، بالشكـل الذي يحمِل سِمَةَ آل عثمان، وعيناه شهلاوان بين الزُّرقة والخُضرة، تحيط بها بعض الحلقات، أما نَظَراتُه فكانت تَنُمُّ عن الذكاء والحساسية، ليس بكثيف الحـواجب، وذلك أيضاً وصفٌ تميز به آل عثمان، وجبينُه عريض عالٍ يُنبِىءُ عن ذكاء حاد، أما شفتاه فلم تكن بالغليظة ولا بالرقيقة، أبيض الوجه يميل إلى اللون الوردي، أما جسمه فكان أكثرَ بياضاً من وجهه؛ فهو يشبه تقريباً لون العاج، ويغطِّي صدرَه وذراعيه شعر خفيف، يداه متوسطتا الحجم متناسقتان، أما قدماه فلم تكونا كبيرتين ولا صغيرتين.

كان صوتُه جَهورياً قوياً، تستعذِبُ كلماته وأنت تسمعه، وكان قادراً على شرح أفكاره ومراميه بأفصح العبارة وأرقِّ الكلمات، تشهد في حركاته وتصرفاته وَقارَ السلطنة وبهاءها. وخلاصةُ القول أنه كان نمطاً من أنماط الأسرة العثمانية[1].

كان والدي بسيطَ الملبس على الدوام، ولا يستهويه التظاهر في أي أمرٍ

---

(١) انظر: عبد الرحمن شرف: سلطان عبد الحميد ثاني: صورت خلعي (عثماني)، استانبول ١٩١٨، مطبعة الهلال ص٣.

من الأمـور، يرتـدي رداءً رمادياً وهو في الحريم السلطاني، ومعطفاً من نفس اللون، ولأنه كان يعشَقُ هذا اللون كثيراً، فقد صار وكأنَّما اختصَّ وتميَّز به. أما في المناسبات الرسمية فكان من الطبيعي أن يرتَدِي بزَّته الرسمية، وكان عند استقبـاله السفراء والباشوات، في الاستقبالات الخاصة، يرتدي رداءً ومعطفاً أسود أو كُحلي، مع ربطة عنق من نفس اللون. ونادراً ما كان يعلق دبوساً واحداً من اللؤلؤ أو البلاتين البسيط، كما كان يستخدم زوجاً من أزرار الكم؛ إما من البلاتين الأملس، أو من الذهب.

وكان وهو يعمل في ورشة نِجارتِه، يلبَس في الأوقات التي ينشغل فيها برسم اللوحات والصبغ بالبوية بنطلوناً من القطيفة، وقميصاً قد شمَّر أكمامه.

وكان يلبَس أثناء نومه قميصاً من الكتان الأبيض يَنزِلُ حتى ركبتيه مشقوقاً من الجـانبين، ويلبَس فوقـه عندما تدعو الضرورة، سروالاً مع ربطة عنق من قماش أبيض أو لون آخر فاتح، ويلبس عليه سترة، فيستقبل من يستقبله بهذا الشكل.

وكـانت بعض ملابس نومـه من الصـوف الأبيض تشبه «البيجاما»، أما منـاديله فكـان معظمهـا من الكَتَّـان الأبيض وبعضها ملون. وكانت صدريَّته المزركشة وكل قمصانه وملابسه تأتيه عن طريق سفير السلطنة في باريس منير باشا(٢)، يرسلها إليه، فيهدي هو ما يجده لائقاً من هذه القمصان والصدارات القادمة من أوربا إلى أولاده من الشباب.

لم يلبس في حياته قميصاً طويلاً أو سترة من الصوف، وفَوْرَ نهوضه من الفراش صباحاً يرتدي معطفاً من فراء السَّمُّور مُبَطَّناً بقماش بني ويدخل الحمام،

---

(٢) قام السفير التركي في باريس صالح منير باشا (١٨٥٩ ـ ١٩٣٩م) بمهمة سفير برن وبروكسل إضافة إلى وظيفته (ن).

وفي أيام البرد الشديد كان يلبَس هذا المعطف فوق ملابسه ويجلس به.

وقد دَأَب على استعمال منديله بشكلٍ غايةً في النظافة، وكان يقص قطع الشاش ويستخدمها ثم يأمر بحرقها بعد استعمالها، أما فراشه فكان من الكَتَّان الأبيض. وكانت عصاه من خشب أصفر مستو، يأخذها في يده عند الخروج إلى حديقة السراي، ولا يستخدمها في غير ذلك.

أما أحذيته فكانت تشبه «البوتين» طويلة الساق ذات كعب خفيف، يصنعها له «قوندره جي باشي» أي: رئيس صانعي الأحذية في السراي، وبعد أن عاد من سلانيك كان ثاني إخوتنا وأكبر الذكور محمد سليم أفندي يرسل له هذه الأحذية، وهذا النوع يُستَخدم معه أحذية أخرى تُلبَس فوقه حتى تحميه من الطين والبلل. وأيامَ ذهابه إلى الصيد كان يستخدم حذاءً أطول من هذه الأحذية، وإذا ركب حصانه عَلَّق بالحذاء مِهمازاً، وحينما ينهض في الصباح يدخل الحمام وقد لبس خُفًّا من الجلد اللامع مبطناً بلون أبيض، غير أن أحداً لا يراه بهذا الخف إلى أن ينام في المساء. وكانت جواربُه خليطاً من الصوف والحرير قصيرة، أما في الصيف فكانت من القطن الأبيض.

وكان يتوضأ في اليوم ثلاثَ أو أربعَ مراتٍ، ويؤدي صلاته بانتظام، وسجادة صلاته مصنوعة في مصنع «هركه»، يَحمِلُها معه أينما ذهب، وكان يقول: «إن إقامة الصلاة على الحرير ليست جائزة»، وكانت سُبحته المصنوعة من العقيق لا تغادر جيبه أبداً، وفي أصبعه خاتم من الذهب فَصُّه من العقيق الأبيض، لم يره أحد يَلبَسُ غيره، وكان شيخ الحرم المكّي الحاج أمين باشا أهدى له الخاتم والسُّبحة من مكة المكرمة قبل أن يتولى السلطنة، وظَلَّ يحمِلُها منذ ذلك الوقت حتى وفاته، الخاتم في أصبعه والسبحة في جيبه. وهذا الخاتم يوجد اليوم في أصبع والدتي.

وقد تعوَّد ـ منذ أيام ولايته العهد ـ أن يستخدم ساعة ذهبية كبيرة (كرونومترية)، يضعها دائماً في جيب صدريته.

وكانت ملابسُ أيام الجمعة وبِزَّاته الرسمية ونياشينه وسيفه تُحْفَظ في دائرة رئيس المسؤولين عن الأثواب الـ «أثوابجي باشي»، وعندما يريد ارتداء أحدها يطلبها من الأثوابجي باشي فيحضرها إلى غرفة السلاملك فيلبسها والدي بمساعدته.

والدة أبي

حينما كان يتحدَّثُ والدي عن أمه كان يقول: «أمي المسكينة تركتنا وهي في سن الشباب، خيالُها أمامَ عيني دائماً، لن أنساها ما حييت، فقد كانت تحبني كثيراً، وكانت تجعلني أجلِس أمامها طوال مرضها وحسبها أن تنظُرَ إلي، ولم تكن ترضى لنفسها أن تُقبِّلَني، رحمة الله عليها».

كانت جدتي «تيرمزكان قادين أفندي» أمّاً لأميرين وأميرة، فكانت الأميرة نعيمة أولَ أطفالها، أُصيبت في مارس ١٨٤٣م بمرض الجُدَري فتوفيت وعمرها عامين ونصف، وثاني أطفالها هو والدي، أما الثالث فهو الأمير محمد عابد أفندي، تُوفِّي في مايو ١٨٤٨م ولم يبلغ من العمر سوى شهرين على وجه التقريب. وقد أطلق والدي هذين الاسمين على كل من أخي الأمير محمد عابد أفندي، وأختنا الأميرة نعيمة.

كانت جدتي «تيرمزكان قادين أفندي» مشهورة بين «قلفاوات» السراي القديمات برقتها وظَرْفِها وجمالها، إذ يذكر كل من رآها أنها كانت خضراء العينين، وشعرها طويل أشقر، ذات بشرة شفافة بيضاء، نحيفة القَوَام، دقيقة الخصر، جميلة اليدين والساقين، وقد روت القلفاوات الجركسيات القديمات في السراي من أهل بلدتها أنها من قبيلة شابصة، وكان والدي أيضاً يقول عن

بنات شابصة: «من قوم والدتي».

أُصيبت جدتي المسكينة بمرض السلّ وهي في ريعان شبابها، وتوفيت في قصر «بكلربكي» بعد أن نقلوها إليه لتغيير الجو، وقد كان جسدها النحيف، وإنجابها لثلاثة أطفال، ووفاة البعض أحياناً، سبباً في تمكن هذا المرض منها. ونعلَمُ جميعاً أن طرق العلاج آنذاك لم تكن متقدمة كما هي الآن، والدليل على ذلك أنهم اختاروا لها مكاناً على ساحل البحر مثل قصر بكلربكي يمكنها فيه تغيير الهواء.

كان والدي يقول دائماً: إن عَيْنَي أختي الأميرة نعيمة ويَدَي أنا تشبه عينَي أمه ويديها.

وقد سمعنا فيما سمعنا أن الزوجات الأخريات لجدي السلطان عبد المجيد خان كنَّ يشبهن جدتي هذه، غير أننا سمعنا ذلك على شكل حكايات كانت تُروى لنا، واللائي رأيناهن منهن رابّة والدي «برستو قادين أفندي» أي زوجة أبيه، ووالدة عمنا سليمان أفندي «سرفراز»، ووالدة المرحومة خالتي «نائلة سلطان»، وتسمى: شايسته هانم أفندي. وهؤلاء عُمِّرنَ طويلاً.

وجميع زوجات جدي كنَّ جركسيات، ولم يسمع أو ير أحد أن سيدة رومية أو أرمنية دخلت السراي. ومع ذلك يدَّعِي خصوم والدي أن أمه كانت أرمنية تدعى «جاندر»، وأول من خرج بهذا الادِّعاء هو أحمد صائب[٣] مؤلف كتاب «أوائل سلطنة عبد الحميد». وقد استطاع بهذا الادِّعاء أن يخدَعَ البسطاء من

(٣) أحمد صائب رجل جركسي، جاء تركيا عندما كان ضابطاً في الجيش الروسي، ولأنه لم يجد حظه في الرتبة التي انتظرها من والدي فقد صار عدواً له، ونشر كتابه المسمى «عبد الحميد ك أوائل سلطنتي» ضده في مصر. وبعد إعلان الدستور جاء إلى استانبول، ثم توفّي حوالي عام ٢١/ ١٩٢٢م.

الناس ممن لا يعرفون شيئاً عن حياة السراي، وحاول تأليب الناس على والدي، وعلى الرَّغْم أن هذه الفِرْية الملفقة للتهوين من شأن السلطان عبد الحميد بدعوى أن أمه أرمنية لم تَجِدْ من يصدقها، إلا أنها مهَّدَت السبيل لشائعات تردَّدت على شفاه الناس، وكل من يعرف حوادثَ العهد الأخير في السراي العثماني وخبر عاداته وتقاليده والأصول المتبعة فيه يقدِّرُ تماماً أن ذلك أمر مستحيل، وما هو إلا من شطحات الخيال.

رابّة والدي

توفِّيت جدتي لوالدي وهو في سن صغيرة، فتولت «برستو قادين أفندي» تربيته وتنشئته وكانت رابته، فلما صار والدي سلطاناً حصلت هي على لقب «المهد العالي للسلطنة السنية»، ويُدرِك توّاً كلُّ من يشاهدها في شيخوختها أنها كانت رائعة الجمال في شبابها.

وكانت جركسية، مثلها مثل كل زوجات جدي، ومن قبيلة «أوبوه». . نحيفة الجسم، بيضاء اللون شفافة البشرة، زرقاء العينين، صفراء الشعر كالذهب، جميلة اليدين والساقين، وهي فوق رِقّتِها البالغة وهدوء حركاتها وتصرفاتها كانت تبدو بوقارها وظرفها جديرة بلقب «والدة سلطان».

لقد كانت هذه السيدة الجليلة بوجهها النوراني ورقتها وظرفها تزرع الوُدَّ والتقدير في قلب كل إنسان، وموضع حب الجميع في السراي. كانت تتحدث بصوت غاية في العذوبة، ميالة فيه إلى التأني وعدم الإطناب.

لقد كان والدي مؤمناً بأن تدخل والدة السلطان عبد العزيز ووالدة السلطان مراد في شؤون الدولة أمر لم يُسفِر عن نتائجَ طيبةٍ، لا للدولة ولا للأسرة المالكة، فكان أول ما فعله في اليوم التالي لتولِّيه العرش، أن قَبَّل يد رابته وقال لها: «إنني لم أشعر في يوم من الأيام بحرماني من والدتي، وأنت في نظري مثلها تماماً، لا

فَرْقَ بينكما، إن مكانتك هي مكانة «والدة سلطان» [أي: والدة السلطان، أو السلطانة الوالدة]، وسوف يكون من حقك استخدامُ كل صلاحيات الوالدة في السراي، غير أنني أرجو منك بصورة خاصة أن تتجنَّبِي أبداً التدخل في شؤون الدولة: فتسعين لحماية هذا أو ذاك، وتساعدين الطامعين في الرتب والمناصب».

وقد ظلَّت «برستو قادين» حتى وفاتها راعية لإرادة والدي ورغبته، وكانت زوجات والدي من السراي «إقبال»، وحتى بناته اللواتي تزوجن وصرن صاحبات بيوت في المدينة يَحتَذِين حذوها في هذا الخصوص، ويسلُكْنَ نفس الطريق.

كانت «برستو قادين» ترتدي أيام المراسم ثوباً بأربع جنلات (تنورات) من القماش الثقيل، وتعلق على صدرها «نشان أسرة آل عثمان» و«نشان الشفقة» و«النشان المجيدي»، وتضع على شعرها المصبوغ بالحناء كسوة تشبه القَلَنْسُوة مثل «الدانتل» طُرِّزَت بأشكال نادرة، وتضع عليها حلية من الزمرد تسمى «تاج الوالدة»، وتعلق على جانبي الكسوة أيضاً دبابيس زمردية من نفس القطع.

وكانت تلبس تنورتين من التنورات الأربع من الأمام، وتنورتين من الجانبين، وتشد خصرها بنطاق من نفس القماش أو من الشال، وتنتعل في قدميها خُفّاً من رَقِّ الغزال، وتزين خِنْصِر يدها اليمنى بخاتم من الياقوت الثمين، ولا تعلِّق شيئاً غير ذلك. وفوق هذا الملبس ترتدي سترة موشاة بخيوط الفضة، يقال لها في السراي: «سلطة».

أما في غير أيام المراسم، فكانت ترتدي ثوباً ذا تنورة أو جنلة واحدة من القماش الثمين، وتلبس فوقه سترة من نفس اللون، وتضع على رأسها قَلنسُوتَها المطرزة. ورَغْمَ نحافة جسمها وضآلة حجمها، فقد كانت تبدو عظيمة جذابة.

وكانت مسؤولة عن شؤون السراي الداخلية، لا تؤذي أحداً مثقال ذرة، أو

تتدخل في شؤون الآخرين، تتحرَّى الحق والعدل، مؤمنة متدينة؛ ولذلك كانت تقضي جُلَّ وقتها في العبادة، وكانت بعلو أخلاقها وحسن طباعها، تساعد الفقراء والمحتاجين.

كنا عندما نذهب لزيارتها، ندخُل إلى مجلسها كما لو كنا ندخل على مجلس السلطان، وما أن نجلس في مواجهتها، حتى تعطِينَا بعض النصائح وتجاملنا.

كان لبرستو قادين أفندي دار في حي ماجقا، منَحَها أياها السلطان عبد العزيز، وهذه الدار هي اليوم مدرسة، ذهب إليها والدي قبل ثلاثة أيام من سلطنته، ومن هناك إلى سراي طوب قابي ليأخذ البيعة. وكانت جدتي تحب هذه الدار كثيراً؛ فتذهب إليها من حين لآخر. ولأن والدي كان يحب حضورها المستمر في السراي؛ فقد كان لا يسمَحُ لها بمغادرته، ويُرسِل لها الخبر راجياً أن لا تذهب إليها.

كان والدي يحب أن تتواجد رابتُه في مراسم السلاملك [أي: تقديم التحية] أيام الجمعة، إلا أنها كانت تَفِرُّ أحياناً بعد تلك المراسم إلى دارها. وما أن يعلم والدي بذلك حتى يرسل إليها «الياوران» بالعربة حتى يأتوا بها.

وكانت عندما تعتَلُّ صحتُها تطلب الذهاب إلى الدار، حتى إنها ذهبت ذات يوم إليها خفية ووافاها أجلُها هناك. وحزن والدي لوفاتها كثيراً وألَمَّ به الأسى، غير أنه لا رادَّ للموت. وأعلن الحداد في السراي لفترة طويلة، وشعرنا جميعاً بالفراغ الذي تركته، ولم تعزف موسيقى النوبة لمدة أسبوع.. وهكذا فارقتنا جدتنا العزيزة، وتمَّت قراءة «المولد الشريف» على روحها في تكية الشاذلية وجامع حميدية، ودُفِنت في المقبرة التي أقامتها لنفسها في حي أيوب، وكانت تبلغ الثمانين من عمرها تقريباً.

وقـد خصص والدي منزل جدتي في «ماجقا» لرئيس مجلس المبعوثان أحمد رضا بك، ووهبه أثاثه ومحتوياته.

ورغم أن القصة التي سَمِعتها عن زواج رابة والدي «برستو قادين» الزوجة الـرابعة لجدي السلطان عبد المجيد خان، قد صارت قصة خيالية تُروى بين القصص، إلا أنها تخفي وراءها بعض الحقائق التاريخية، التي أفضِّل روايتها الآن:

كانت الأميرة أسمـاء ـ عمة جدي عبد المجيد خان وابنة السلطان عبد الحميد خان الأول ـ ترغب في أن يكون لها ولد، وهي تعيش في عظمة وأُبَّهة في قصرها الضخم في استانبول، فلما لم تتحقَّق رغبتها، حَزِنت، ثم قررت في النهاية أن تتبنَّى طفلة، وفكرت أن تحصل عليها من أحد النبلاء من قبيلة «أوبوه» الجركسية؛ فأرضت أبوي الطفلة، وتبنَّتها، وهي في عامها الأول. وكانت على درجة عالية من الجمال، شقراء، ولكن ضعيفة نحيلة، رشيقة الحركة، ولذلك أطلقت عليها الأميرة اسم «برستو»، وهي كلمة فارسية بمعنى طائر السنونو أو الخطّاف.

وكانت كل الجواري في قصر الأميرة أسماء يعامِلْنَ تلك الطفلة معاملة الأميرة، ولأنها كانت حسنة الأخلاق والطباع فقد أحببنها كثيراً، كما عُنِيَت الأميرة أسماء بتعليمها وتربيتها.

وكان من عادة جدي السلطان عبد المجيد خان أيام ولايته للعهد أن يزور عمته من حين لآخر ويتحدَّثُ معها. فلما صار سلطاناً لم يقطع زيارته لها، وفي يوم من أيام الربيع ذهب السلطان عبد المجيد خان لزيارة عمته، وبينما هو يعبُرُ حديقـة الحريم رأى برستو آنذاك، وإذا بها شابة في حوالي الرابعة عشرة من عمرها، بشعرها الذهبي الطويل، المنسدل على كتفيها، وعينيها الفيروزيتين.

وقد دَهِشَ عبد المجيد خان وأُعجِب بهذه الحورية وسألها: من تكونين؟ ولما كانت لا تعرِفُه بعد، فإنها لم تُجِبْ سؤاله، وفرّت من أمامه.

وسأل السلطان إحدى القلفاوات اللائي صادفهن فلم تخبره عن أمر الفتاة شيئاً؛ فتوجه إلى عمته. ولأن عقله وفكره كانا مشغولَيْن بالفتاة فقد استغرق في التفكير بشكل لا يَخفَى على أحد، وعندما لاحظت الأميرة أسماء هذا الاستغراق سألته عن السبب، فحَكَى لها السلطان عبد المجيد قصة الحورية، وعندئذ أدركت عمته الأميرة المسألة على الفور، وقالت له: «لا بد أنها واحدة من الجواري»، ثم نادت كل الفتيات إلى مجلسها، قاصدةً من ذلك أنه ربما يُعجَب السلطان بواحدة غير برستو، إلا أن السلطان عبد المجيد لم يَعبأْ بهن، واستبَدَّ به الضيق.

فلما رأت عمته ذلك صاحت على «الخزينة دار اسطى» وقالت لها: «ادعي برستو تحضر القهوة لسبعي». وبعد قليل دخلت برستو بين «القلفاوات»، وإلى جانبها «القهوجي اسطى» [أي: صانعة القهوة] وفي يدها الصينية كما هي العادة في السراي، فصبت القهوةَ في فنجان بظرف من المينا مطعم بالماس وقدمته على صينية أخرى صغيرة من الذهب إلى السلطان، ثم عادت إلى مكانها في الصف كما هي العادة، وانتظرت واقفةً حتى انتهى السلطان من ارتشاف قهوته ثم تناولت الفنجان من يده وخرجت، وبعدها خلا الجو للعمة وابن أخيها، وأمسك عبد المجيد خان يدَي عمته، وقال لها: إن الحورية التي شاهدها في الحديقة هي تلك الفتاة التي قدمت له القهوة، ثم طلب يدها من عمته، فقالت له: «يا بني! إن هذه الفتاة بمثابة ابنتي، وقد عُنِيت بها منذ عامها الأول، وأريد أن أزوِّجَها لشخص عظيم في عرس ضخم، إنني أريد أن أراها سعيدة في بيت زوجها، وقد عاهدتُ نفسي على ذلك». وهنا قال لها السلطان

مصرّاً: «عمتي! من هناك أعظمُ مني حتى تعطيها له؟ سأتزوجها بالعرس الضخم الذي تريدينه، فأنا مستعد لكل ما تطلبين».

وفي النهاية قبلت الأميرة العمة، وتمَّ خلال أسبوع عقد القران بالمراسم المعتادة في قصر الأميرة أسماء، وكان وكيلا السلطان حاضرين لَدَى العقد، وبعد أسبوع آخر ركبت العروس عربة الأميرة أسماء المطلية بالفضة بفستانها الأحمر المشغول باللؤلؤ وتاجها وطرحة عرسها ووصلت السراي، وآنذاك كان السلطان عبد المجيد خان في سراي «طوب قابي» وعليه بِزّته الرسمية الفاخرة، وطـرّاته المرصعة بالجواهر على رأسه، فاستقبل عروسه عند الباب الكبير في «دائـرة الحريـم» ووضع ذراعه في ذراعها وجاء بها إلى «جناح السلطان»، ثم أجلسها في «مقصورة العروس» التي أُعدَّت قبل ذلك.

وفي تلك الأثناء كان أنجال جدي ما يزالون صغاراً، وجاء مَن كُنَّ على قيد الحياة من الأميرات بنـات السلطان محمـود وزوجـاتـه، وبعض زوجـات المقربين من رجال الدولة فاشتركن جميعاً في هذا الحفل، ونُثِرت النقود الذهبية على الطرقات التي مر بها جدي وعروسه، وكان في حريـم عبد المجيد فريق موسيقي يتكون من أربعين فتاة يرتدين زِيَّ الرجال فعزفن الأناشيد[٤]، وقامت زوجات السلطان الأخريات بنثر النقود فوق رؤوس الحاضرين، وانقضى الوقت حتى المساء مع الأنغام والموسيقى، وتم تقديم الطعام بعد شرب الشربات، فكان عرساً رائعاً في السراي.

---

(٤) كان فريق الموسيقى هذا الذي تشكل من القلفاوات يعزف موسيقاه في السراي بزي فريق «الموسيقى الهمايونية»، وكن يعزفن حتى الأيام الأخيرة من عهد جدي، ويتلقين دروسهن في الموسيقى على أيدي المدرسين الإيطاليين في المكان الذي يسمى «مشقخانه» في سراي «طولمه باغجه»، وكانت الموسيقى الإيطالية آنذاك محل إعجاب في السراي العثماني.

وفي المساء دخل العروسان حُجرة الزفاف كما هي العادة، وقامت الأميرة أسماء فقبّلت العروس والعريس من جبهتيهما، ودَعَتْ لهما وعادت إلى منزلها، وحمدت الله على أنها شَهِدت بهذا الشكل زواجها السعيد، حيث تحقَّقَت رغبة جدي كما تحقق أمل عمته.

لقد عاشت «برستو قادين أفندي»، وهي الجميلة خَلْقاً وخُلُقاً، متواضعة وقورة، شفوقة حنونة، قضت وقتها في العبادة، وساعدت الفقراء، ولم يمنَحْها الله ولداً، ومع ذلك قامت بدور الأم لوالدي كما ذكرتُ سابقاً، وترقّت حتى منزلة «والدة سلطان».

وقد قُدِّر لي أن أظفر بتقبيل يد هذه الأم المحترمة، وسماع دعواتها لي مرات عديدة.

وهي ترقدُ الآن في المقبرة التي شيدتها في حياتها في حي أيوب، كما أعدَّت هي الكسوة الموجودة على تابوتها، وكان والدي يريد أن يساعدَها وهي تُقيم المقبرة، إلا أنها لم تقبل، وقالت له: «أريد أن أعِدَّ بنفسي داري الأبدية؛ وليكن جزاء ذلك من نصيبي».

ذكريات عن طفولة أبي

حكـوا أن جدتي الحقيقية «تيرمـزكـان قادين» كانت تحب ابنَها، أي: والدي: بأعظم درجات الحب والحنان في قلب أم، وكانت هذه الأم التعسة قد نُكِبَت في ابنتها فكرست كل ما في قلبها إلى ولدها، ولما أدركت أنها وقعت فريسة لمرض لا أمان له، ورأت أنها لن ترى ابنها الحبيب وهو في بيت زواجه السعيد بذلت ما بوسعها لإسعاده، فاشترت له الهدايا الثمينة وهو مايزال طفلاً صغيراً، ظنًّـا منها أنه ربما يعتلي العرش يوماً؛ وكانت تعد له كل ما يلزم من أشياء. وكان يقول والدي عن الصينية والمملحة الذهبيتين اللتين كان يستخدمها

أيام سلطنته وحتى وفاته: «إنهما تذكار من والدتي». حتى إن «القهوة جي باشي» علي أفندي استطاع أن يأتي بهذه الصينية حتى سلانيك(*).

ويَرووُن أن أبي كان يذهب كل يوم إلى سراي بكلربكي خلال مرض أمه فيعودها ثم يقفل راجعاً إلى سراي طولمه باغجه، وأنها كانت خلال زيارات ابنها تضع كيساً مع أرباع الليرات الذهبية وكيساً آخر من القروش الفضية تحت الوسائد القطنية الحمراء الموضوعة فوق السرير، وتقول له: «هيا يا سبعي انظر ماذا تجد تحت الوسائد؟». وما أن يعثُرَ والدي على هذه النقود حتى يفرح. وكانت الأم التعسة وهي تعلم أنها لن تستمتع بالعيش مع ولدها الحبيب، تفكِّرْ في الطريقة التي تسعده بها، وتحاول أن تخفف من حدة آلام قلبها برؤيتها للفرحة تَغمُر وجه ابنها، وهو يغادرها ذاهباً إلى سراي طولمه باغجه، تاركاً إياها تنتظر مجيئه بفارغ الصبر في اليوم التالي.

ويقولون: إنه كان يوجد إلى جوار كل أمير من الأمراء في ذلك الزمان قزم من الآغوات البيض، وكان لوالدي واحد منهم يُدعى إبراهيم أفندي، يسلِّيه من ناحية، ويسهر على حراسته من ناحية أخرى. ويقولون: إن الأم التعسة كانت لا تنسى تحذيرَ هذا الرجل كل صباح قائلة له: «انتبه لولدي؛ فهو أمانة في عنقك». يذهبان إلى السراي معاً ويسمعان صياح بائع المهلبية محمد آغا بعمامته البيضاء وإزاره وهو ينادي بصوته المنغم «. . . عبدكم محمد وصل. . مهلبيجي بيجي بيجي!» فيدخل الرجل بتلك الصينية الضخمة ويوزِّعُ المهلبية على كل مُستَخدَمي السراي، ويأكل هو أيضاً مع إخوته.

ويقولون: إن والدي كان له في تلك الأيام حصان قزم جميل، يركَبُه

(*) سلانيك هي مدينة المنفى التي أُجبر السلطان عبد الحميد على الإقامة فيها بعد خلعه حتى مجيئه استانبول كما سنرى من خلال المذكرات (المترجم).

ويطوف به في حديقة السراي، ويجري إبراهيم أفندي هو الآخر في أعقابه.

واستمـرَّ والدي على هذه الحال حتى اليوم الذي تُوفِّيت فيه والدته، إذ وقعت الكـارثة في النهاية، وأخفوا عنه وفاتها بعض الوقت، غير أنه بدأ يشعرُ بذلك تدريجياً، وتملَّكته الأحزان من الأعماق (١٨٥٣م).

أخذ السلطان عبد المجيد والدي إلى جانبه، وضمَّه إلى صدره وقال: «لا تَبْكِ يا بني! فلا اعتراضَ على أمر الله، وأنا أبوك وأمك في آنٍ واحد»، ثم قبَّله من عينيه ووجنتيه وحاول الترويح عنه. ويقولون: إن خطاب جدي لوالدي بقوله «ولدي الرقيق» سببُه تلك الحادثة.

وبعـد شهـر تقـريبـاً، أدرك جدي أن أبي في سِنٍّ لا يقـدِرُ معهـا بعد على إدارة أمواله وأملاكه؛ فوضع في اعتباره حاجة أبي الشديدة لرابة تسهَرُ عليه حتى لا يظل محروماً من العناية، فاختار له من بين زوجاته أعزَّهُنَّ وأكثرهن تديناً ورزانة وتجربة، ألا وهي الزوجة الرابعة «برستو قادين أفندي»، وكان حرمانُها من الولد سبباً آخر في اختيارها له.

دعاه جدي ذات يوم إلى غرفته، وأجلَسه أمامه، وبعد أن وجَّه إليه العديد من النصائح، أخذه تحت ردائه وذهب به إلى دائرة الزوجة الرابعة، فلما دخل عليها قال لها: «انظري يا زوجتي! جئت إليك بابن ما أجمَلَه»، وأخرج والدي من تحت ردائه وقال له: «هذه هي أمُّك منذ اليوم، قبِّل يدها يا بني»، ثم عاد للزوجة وقال: «تركته أمانة لديك بعد الله» وجعلها تقبله، ثم أوصاه بطاعتها، فضمته إلى صدرها. ومنذ ذلك اليوم راحت ترعاه بحنان الأم الحقيقية، وتعمل على تربيته بكل اهتمام. وظلَّ والدي هو الآخر متعلقاً برابته على الدوام بحب يعدل حبه لأمه الحقيقية، ولم يقصِّرْ يوماً في احترامه لها إلى أن توفيت، وكان يقول وهو يتحدث عنها: «لو كانت أمي على قيد الحياة ما كان بوسعها أن ترعاني

أكثرَ مما رَعَتْني هي».

توفيت قبل ذلك والدة عمتي الأميرة جميلة عام ١٨٤٥م وكانت تدعى «دزدديل هانم أفندي»(٥)، وصارت الأميرة جميلة يتيمة الأم وهي ماتزال في الثالثة من عمرها؛ فدعاها جدي وذهب بها إلى زوجته برستو وقال لها: «ها أنا قد أتيت إليك بابنة هذه المرة»، وتركها هي الأخرى أمانةً لديها، فنشأ الأخوان أبي وهي في بيت واحد، وأمضيا طفولتهما معاً.

وكانت جدتي «تيرمزكان قادين أفندي» تفضل بروستو قادين عن ضرائرها من زوجات عبد المجيد الأخريات، وتُكِنُّ لها كل تقدير. ولم تكن تعلم ألبتة أنها سوف تُرزَقُ ذات يوم ولداً تحبه ثم تأخذه هذه الشريكة التي أحبتها فتجعله ابنها بالتبني، وماذا نقول أمام التقدير الإلهي...

طبائع أبي وعاداته

اعتاد والدي أن ينام ويستيقظ مبكراً، فهو ينهض قبل طلوع الشمس، ثم يدخل الحمام ويغتسل. وكان قد أمر بإقامة أريكة للجلوس خارج الحمام، يجلس عليها ويلبَس ملابسه ثم يؤدي صلاة الصبح هناك، ثم يتناول طعام الإفطار. وكان من عادته قبل النهوض من الفراش تناول علاج مسهل، ولذلك كان يتناول إفطاراً خفيفاً في الصباح، وقد تناول لسنوات عديدة قبل مرضه مادة المانيزيا، أما بعدَ مرضِه فكان يأخذ مسحوق «سينامكي»(*) مخلوطاً بالسكر الناعم، ويُذيبه في المياه المعدنية مع نصف كوب حليب، وكانت المياه من نوع جيتلى، ثم شرع في إحضار مياه فردريك المعدنية من ألمانيا بناء على نصيحة

(٥) «دزد دل» كلمة فارسية بمعنى: سارقة القلوب.

(*) نبات السَّنّا أو السنّامكي، وهو نوع من البقوليات له أوراق تفيد في دفع الإمساك (Cassia) (المترجم).

البروفسور برغمان، وبعد شربها مع الحليب يتناوَلُ قهوته ويشرب سيجارته ثم يتـوجَّـهُ إلى دائرة الحريم مباشرة، ومنها يخرج إلى السلاملك، فيجلس على مكتبـه ويطلب البـاشكـاتب باشـا [السكرتير الأول]، وهناك ينشغل بالأعمال الرسمية حتى الساعة الحادية عشر تقريباً.

وعنـدما يُعِدُّون له الطعام ينتقل إلى الحريم، فيجلس مع والدتي على المـائدة لتناوله معها، وبعد ذلك يتمدَّدُ على الأريكة الموجودة في غرفة النوم ويستـرخي عليهـا ربـع الساعة أو عشرين دقيقة، ثم ينهض فينتقل إلى دائرة السـلاملك حتى ينـظر الأعمـال الباقية من الصباح، وأثناء ذلك كان يستقبل السكرتير الأول أو الثاني وبعض الوزراء، ويستمرُّ في أعماله هذه حتى المساء.

وكان عندما يشعُرُ بالإرهاق الشديد، أو تنتهي أعماله مبكراً، يأتي إلى الحريم، وهناك يطلُب من يشاء من عائلته ويتحدث إليه، وأحياناً ما كان يدعونا نحن أيضاً إلى مجلسه فنعزف له البيانو أو غير ذلك.

وكـان في أغلب الأُمسِيات يخـرج إلى الحديقة بعد الطعام، فيتنزَّهُ مع الباشوات والبكوات، وكان أحياناً يأتي بعدها إلى الحريم، أو يعمل في ورشة نجارته أو في المكتبة.

وحَدَث كثيراً، عندما كانت تكثُر عليه الأعمال، أن يظل يعمل في المابين حتى منتصف الليل، أما إذا لم تكن لديه أعمال، فيقصد على الفور غرفة النوم بعد أن يكون قد أدَّى صلاة العشاء، وعندئذ يُرسِل إحدى الخازندارات إلى أمي ويأمرها أن تحضر، فتذهب أمي بفستان السهرة إلى دائرة والدي ويُمضِيان الليلة معاً.. لقد كان والدي يتناول الطعام مع والدتي كل ليلة خلال مدة عشرين عاماً من سلطنتـه وعـاش معهـا.. وذلك استثناء حَظِيَت به دون زوجاته الأخريات اللائي كان يستقبلهن في ساعة معينة ووقت محدد.

لقد كان والدي دقيقاً في تنظيم أوقاته ،وأستطيع القول: إنه رَبَط كل عمل من أعماله بساعة محدودة، وعاش حياة منظمة، على وتيرة واحدة، وكان عندما يهم للراحة يخيم الهدوء على السراي، فلا نسمَعُ أصوات الضحكات في الحديقة، وتتوقَّفُ آلات البيانو والغرامافون، وينقطع الضجيج والضوضاء، وكان كل شخص يخفض من صوته حتى لا يصل إلى دائرته.

وكانت تنام الخازندارة الثانية أمام باب الحريم ومعها خازندارتان أخريان، وينام عند باب السلاملك أيضاً مصاحب مناوب و«السجادة باشي» عزت أفندي ومحمد أفندي قائد الفرقة العسكرية المعروفة باسم «الآي سوكودلو».

وفي المساء كانوا يُحضِرون إلى غرفة نومه عصير الليمون وشربات العنب أو الرمان ويتركونه هناك، إذ كان يتناولها في بعض الليالي.

وفي أثناء الليل يطلب من أحدهم أن يقرأ عليه كتاباً في غرفة النوم، ويجعل الساتر «بارفان» عند قدميه، وكان «الأثوابجي باشي» أي متولي ملابسه عصمت بك يقرأ له هذه الكتب، وجاء بعده الحاج محمود أفندي وكاتب الشفرة عاصم بك. وكان القارىء يواصل قراءته حتى يستغرقَ والدي في النوم، وعندئذ ينهض القارىء بخفة ويخرج من الحجرة، وتقوم «الخزينة دار» الثانية بإغلاق الباب.

وكان يقول والدي: «إن هوايتي الأولى هي سماع الموسيقى والعمل في ورشة النجارة، ولا أشعر بالتعب عند انشغالي بهذين الأمرين فحسب، إنني أعيش اليوم حياة معطلة رغم أن شبابي كان مُفْعماً بالحيوية والنشاط، وحتى النوم لا أنامه بسهولة، ولذلك فإن قراءتهم الكتب لي تأتي على مسامعي مثل أغاني الـ «نني»، أُنصت إلى نصفها، وعند النصف الآخر أكون قد استغرقت في النوم، ولا أجعلهم يقرؤون لي الكتب الجادة حتى لا يتعلَّقَ ذهني بشيء منها

فيطير النوم من عيني».

الناس يفترون كثيراً، ويلفقون القول ويتحدثون بما يعلمون وما لا يعلمون؛ ومن افتراءاتهم في حق والدي، ذلك الادعاء بأنه يُؤمن بالسحر والخُرافات، كان والدي صاحبَ سلطة مطلقة، فماذا كانت حاجته لكي يستخدم السحر؟ ثم لماذا، ولأجل من كان سيستخدم السحر؟ إن والدي مسلم وعلى اعتقاد ديني صحيح، وليس غير: يؤدي صلواتِه الخمس، ويقرأ القرآن، كما انتسب في شبابه إلى الطريقة الشاذلية.

وقد حكى لنا حكاياتٍ عن أنه كان يُداوِمُ على الذهاب إلى المساجد، ويؤدي صلاته في رمضان في جامع السليمانية، ويشتري حاجياته آنذاك من المعارض التي تقام في ساحة الجامع. ولهذا فقد صادَفَ في أحد الأيام وهو يصلي هناك شيخاً فاضلاً يدعى حمزة ظافر، صار صديقاً له وانتسب إلى طريقته، كما انتسب أيضاً إلى الطريقة القادرية عن طريق أكبر شيوخ تكية يحيى أفندي وهو الشيخ عبد الله.

لقد كانَ الشيخ ظافر أفندي رجلاً فاضلاً، يُكِنُّ له الاحترامَ كل من في السراي، وكان شيوخ التكية يقرؤون فيها كتاب البخاري وحزب البحر عندما تتعرَّضُ البلاد لأحد الأوبئة، وقد أمر والدي بطبع كتاب البخاري بصورة خاصة، وأرسله هدية لكل بلاد المسلمين ولكل الجوامع، ولا زِلْتُ أحتفظ بالنسخة التي أهداني إيَّاها تذكاراً منه، كما وزع على كل فرد في عائلته نسخة من هذه الطبعة.

كان الوالد يُلحُّ على كل شخص أن يصلي ويذهب إلى المساجد، وكان الأذان المحمدي يقرأ خمس مرات يومياً في حديقة السراي الخاصة، وكان والدي يُرَدِّدُ دائماً عبارة «الدين والعلم» ويقول: «إن الاعتقاد فيهما معاً جائز».

أمـا عن أبي الهُدى أفندي(٦)، فأقول: إنه كان منسوباً هو الآخر لنفس الطريقة مع والدي، وكان يَعلَم والدي أنه رجل ذكي، ولذلك كان يستخدمه في الأمور السياسية الخاصة بمسائل العرب. وكان قد دعاه إلى استانبول أثناء ثورة اليمن ورؤساء القبائل، وعندها أمر بوضع كرسي العرش أمامَ دائرة المابين الصغيرة، واستقبل فيها هؤلاء الرؤساء، وكانوا ما يقرُب من مئة رجل، فدخلوا جميعاً بالترتيب بملابسهم المتباينة الألوان، وانكفؤوا على يَدَي والدي وقدميه، وأقسموا له قائلين: «يا خليفةَ رسول الله، سوف نظَلُّ على إخلاصنا لك»، وصاحوا جميعاً: «الله ينصر السلطان!» ثم ظهر أبو الهُدى أفندي بملابسه الموشاة، وألقى فيهم خطبة باللغة العربية باسم والدي، وكنا نحن أيضاً نشهد هذا الاستقبال من نوافذ الحريم.

وقد مَكَث بعضُ كبار هؤلاء الرجال ضيوفاً على أبي الهدى في بيته، وأقام الباقون في دار الضيافة التي شيَّدها الوالد في تكية ظافر أفندي. والضيوف من أمثال هؤلاء، كانوا يقيمون في هذين المكانين، وعند إقامة مراسم تحية الجمعة يأتُون الجامع فيؤدُّون الصلاة، ثم يأخذون عطاياهم بواسطة أبي الهدى أفندي ويعودون إلى بلادهم، وكانت هناك أقوال تَدَّعِي أن أبا الهُدى هو المخبر الأول لوالدي، ويجب علينا أن لا ننسى أن لكل عصر شكلاً للإدارة يتميَّزُ به.

□□□□□

---

(٦) ولد الشيخ أبو الهدى الصيادي (١٨٥٠ - ١٩٠٩م) في خان سيحون على مقربة من معرَّة النعمان في سوريا، ودرس علوم الدين في حلب ثم صار منذ عام ١٨٧٩م من المقربين إلى السلطان عبد الحميد، وهو من نسل عز الدين الصياد مؤسس الطريقة الصيادية أحد فروع الرفاعية (ن).

أوقات طعامه وطريقته في الجلوس على المائدة والأطعمة المفضلة لديه

يأخذ الكيلارجي باشي [أي: متولي المؤونة] عثمان بك، طاقم المائدة الذي وضعوه داخل حقائب ذات سلال، فيسير في المقدمة، ويأتي بعده الكيلارجي الثاني حسين أفندي، ثم الثالث والرابع، ثم يأتي من يُسمَّى «طبله كار باشي» [أي: رئيس مسؤولي الطاولة] بسرواله الكبير وكبوته الموشَّى بالصيرمة وعلى رأسه طاولة كبيرة، فيخرجون جميعاً من الكيلار الهمايوني ويأتي إلى مرتفع حجري يوجد بجوار غرفة الطعام، وهنا يَضَعُون الطاولة لإعدادها على منضدة تُفتَح وتُغلَق، وينتظر عند الباب مصاحبان مناوبان. وكانت الصحون وأطباق الطعام من الخزف الأبيض، حمراء الأطراف، مطلية بالذهب وتحمل علامتها الخاصة، وكانت أطقم المياه أيضاً ذات علامة حمراء، ثم توضع الملاحة الذهبية الباقية عن والدة أبي تيرمزكان قادين أفندي أمامه باستمرار؛ إذ كان يُصِرُّ على وجودها على المائدة، أما أطقم السكاكين والأشواك فكانت من الذهب.

وكان طعامُ الغَدَاء، حسب أصول السراي، في الساعة الحادية عشر، وكان العشاء في الخامسة مساءً، وتناول الطعام في هذا الوقت عادة من عادات السراي منذ القدم.

ثم يقوم الكيلارجي باشي بتسليم صينية الطعام إلى «القلفة» سر الجمال إحدى القلفاوات القديمات، وكانت تنتظر في غرفة المناوبة خلال ساعات الطعام. وقد قيل: إن والدي ظَلَّ يتناول الطعام مع والدتي قبل ولادتي أنا وحتى نهاية سلطنته.

وعَقِبَ إعداد مائدة الطعام، تأتي إحدى الخازندارات، وتقول لأمي: «أفندينا يطلبك»، فتذهب أمي على الفور، وتجلس مع والدي على المائدة،

وكانوا يقدِّمُون له ما يختاره من قائمة الطعام، وكانت القلفة التي تدعى «فلك سو» تعمل إلى جانب القلفة «سر الجمال» وتقوم بالخدمة هي الأخرى.

والأطعمة َالتي كان يتناولها الوالد في أغلب الأحيان هي:

في الغداء: البيض النصف المسلوق، أو المقلي في السمن، أو الأوملت العجّة، وشواء الضأن الخالي من العظام، والكستليتة المقلية بالبيض، أو ريش الضأن المقلي، ومن الأسماك: سمك الغادس (Gadus merlangus)، أو سمك ابن عِرْس (Gadus mediterraneus)، وأحياناً يأخذ شيئاً من الفطائر، ويأكل من الحلويات: القطائف بالقشدة والرز باللبن والمهلبية، ومن الحلويات الإفرنجية: الشارلوت.

أما طعام العشاء فقد كان خفيفاً أبداً، وهو عبارة عن مرق اللحم والشوربة والفواكه، وكان يفضِّلُ بوجه خاص الفراولة والشمام والبطيخ والخوخ.

وبعد الانتهاء من تناول الطعام، يأتي الكيلارجية فيرفعون المائدة. وكانت بقايا الأطعمة يتناولها العمال والمصاحبون ممن يتواجدون في غرفة المناوبة.

عَلاقتنا بالوالد وعنايته بتربيتنا

كان الوالد عندما تَقِلُّ أعماله، يرسل الخبر إلى من يريد من زوجاته وبناته، فيأتين ويتحدَّثُ إليهن. وكان لا يدع الفرصة لإحداهن أن تتدخل في الشؤون الرسمية؛ سواء أكانت من زوجاته أو كانت من بناته، ويتحرَّى الدقة في تربيتنا، فكان لا يَغفِرُ لنا حتى أبسط الأخطاء، ولا يدع أحداً يُفسِد عليه الأصول والرسميات، وكان عندما يرى أو يشعر بتقصير منا لا يتحدَّثُ معنا عن شيء، بل يرسل الخبر إلى الوالدة. وكنا نحن أيضاً نعرف كيف نتحدث إليه في مجلسه ونعرف كيف يكون التصرف.

وكـان يطلب دائمـاً أن يكـون هندامُنا بسيطاً، ولا يرضى عن الملابس المبتذلة، وكان يفضل طوق الثوب أن يكون مفتوحاً قليلاً، غير أن الأكمام كانت مغلقة تماماً.

وكنا نرتدي الألوان الفاتحة، ونطرح شعورنا إلى الخلف بضفيرة، ونَربِطُها بشـريط حريري من نفس لون الثـوب. ولم نكن نستخـدم عطر الـلافنتـا أو المساحيق، ولأن الوالد كان يستخدم كولونيا «جان ماري فارينا» فقد كنا نحن أيضاً نستخدم نفس العطر.

وكانت أخواتنا الكبيرات يَجعَلْن شعورهن فوق رؤسهن، جرياً على أصول المـوضـة آنـذاك، ولم يكن والدي يحب أن نتحدَّث بإشارات اليد أو بصوت مرتفع، ويصر دائماً على أن تكون تصرفاتنا هادئة رقيقة، وأن نحترم دائماً كبارنا وأمهاتنا وإخوتنا، وأن لا نتعدَّاهم ونراعي أمر الترتيب بيننا، ولم يكن ليرضى أبداً عن المدلَّل.

ومثلما كان لا يخاطب أحداً بضمير «أنت»؛ فقد كان يأمر حتى جواريه بشكـل مهـذب مثل: «أحضرن» أو «خذن»، وكان ينادي الواحدة منا بقوله: «ابنتي» أو «أميرتي»، وكانت معاملته لزوجاته أيضاً معاملة احترام وتقدير؛ فكان عندما يرسل الخبر لإحداهن حتى تأتي، يناديها بلقب «باش قادين» أو «باش إقبال».

وكان يتحدَّثُ مع أبنائه في دائرة السلاملك، وإذ أراد أحداً منهم أصدر أمـره: «ليأت»، وكان إزاء أبنائه الكبار أكثر تمسُّكاً بالرسميات، وهم أيضاً لا يدخُلون عليه مجلسه إلا وقد ارتدوا الإستانبولين[٧]، فلا يرتدون سترة عادية.

(٧) الاستانبولين نوع من الريدنجوت مشقوق الياقة مغلقها، وكان يستخدم في تركيا منذ عهد التنظيمات حتى عهد الدستور (ن).

وكان أكثرهم دخولاً عليه برهان الدين أفندي وأبناؤه الصغار دون الأمراء الكبار الآخرين.

وكـان يُصِرُّ على وجود أبنائه في مراسم تحية الجمعة، ويتحدث معهم أيضاً في الأمسيات التي يَعرِض فيها مسرح السراي ألعابه.

وكانت التوجيهات التي يُصدِرها إلى الأمراء، يقوم بنقلها المصاحبون أو كتبة المابين. وكنا نحن أيضاً في الأيام التي تَحُلُّ فيها عمتنا الكبيرة أو الأميرات الأخريات ضيوفاً على السراي نحضر إلى جانب الأمراء الصغار.

شَغَفُ والدي بالموسيقى

كان والدي يقول: «كنت قد شُغِفت بالعزف على البيانو في شبابي، وكان أبي قد أحضر من أوربا آلة بيانو لكل أميرٍ من الأمراء، ودعا إلى السراي مدرسي الموسيقى من الإيطاليين والفرنسيين، وكان المعلم الفرنسي الكساندر أفندي قد عيَّنُوه لي مدرساً، وقد عملت على العزف مدة طويلة، ولكن الحياة للأسف لم تَدَعْ لي الفرصة حتى أخصص للموسيقى وقتاً، على الرَّغْم من حبي الشديد لها».

وكان يطلب من أبنائه أن ينشغلوا بالموسيقى، واشترى لنا البيانو وآلات أخـرى مختلفـة، وكان يدعونا لمجلسه حتى نَعزِفَ له، فيسمعنا ويصحح لنا الأخطاء، ويركز على درجة السرعة ويقول: «اعزفي هكذا! أعيدي مرة ثانية». وكان يرجِّحُ الموسيقى الأوربية على التركية، ويقول: «التركية جميلة، غير أنها تبعث على الحزن، أما الأوربية فهي مختلفة، تبعَثُ على الفرح، والموسيقى التركية لا تُسمَع من البيانو، ويجب عزفها بالآلات التركية الخاصة بها».

عندما كان الوالد حديث العهد بالسلطنة، ألَّف كثيرٌ من الفنانين بعض

الأنـاشيد وقدموها إليه، وكان قائد أوركسترا السراي نجيب باشا أيضاً قد أعدَّ نشيداً، فكان والدي يأمرهم بعزفها جميعاً ويسمعها، واختار نشيد نجيب باشا، فكان هذا هو النشيد الذي أُعلِن عنه باسم «النشيد الحميدي».

وكان الموسيقار الإيطالي الشهير «دونيزيتي» هو الذي لَحَّن نشيد السلطان محمود الثاني وأناشيد جدي السلطان عبد المجيد، وقد أدار هذا الرجل فرقة الموسيقى الهمايونية برتبة باشا، كما قاد «الباندو» أي: الفرقة الموسيقية المكونة من الفتيات في الحريم الهمايوني. وبهذه الصورة دخلت الموسيقى الغربية إلى السـراي، وكانت آلات البيانو الباقية عن ذلك الزمان موجودة داخل صالونات سراي طولمه باغجه حتى العهد الأخير.

شَغف الوالد بالرسم والنجارة

يَحكُون أن معلمي الرسم أيضاً كانوا يأتون قديماً إلى الدائرة التي فيها كُتَّاب أو مدرسة الأمراء، وكان والدي مُغرَماً برسوم المناظر الطبيعية والزهور، كما قام برسم بعض الصـور، حتى إنـه رسم لوالـدتي عندما تزوَّج بها صورة بقلم الفحم، وقيل: إنه كان يحتَفِظُ بها في مكتبه، غير أننا لا نعلم ماذا صارت إليه بعد ذلك.

وكان قد استحضر عدة خزائن زجاجية على طراز لويس الخامس عشر، فقـام ورسم بالبـوية الزيتية بعض المناظر الجميلة على الظهر الداخلي لهذه الخـزائن، ومـلأهـا بالطيور النادرة التي نَفَقت في السراي بعد أن ثبتها على أغصـان، وجعلها تبدو كما لو كانت تطير في شكل فني رائع، وهذه الخزائن كانت موضوعة بالترتيب داخل ممر بالطابق الثاني في قصر «شاله».

وكانت توجد بالسراي مجموعة أخرى من اللوحات الجميلة، جمعها والدي.

وقد بدأ شَغفُه بالنجارة على أيام والده، إذ يَروُون أن السلطانْ عبد المجيد كان شغوفاً هو الآخر بهذه الصنعة، وكان يوجد إلى جانبه رجل يَحذِقُها كثيراً يدعى خليل أفندي، وقد تعلم والدي على يد هذا الرجل، وعمل معه، وكانت أدوات النجارة الخاصة بجدي تَحمِل توقيع خليل أفندي محفوراً عليها، وهذه الأدوات كانت موجودة في ورشة الوالد في سراي يلديز، حيث كان يعمل هو الآخر بها. وقد استحضر من أوربا كثيراً من الآلات الحديثة.

وكثير من الأشياء التي صَنَعها هو، والمطعمة بالصدف، كانت محفوظة في سراي يلديز، ولا أعلم ماذا صارت إليه الآن، غير أن إحدى الخزائن الرائعة التي صَنَعها وأهداها إلى توفيق باشا أحد الصدور العثمانيين لازالت تُحفَظ بأيدٍ تعرف قدر الأشياء، عند إسماعيل حقي بك، الابن الأكبر لتوفيق باشا، وأحد الياوران القدامى وصهر السلطان.

وكان الوالد قد صنع أيضاً مقعداً وخزانة ظريفة ذات أدراج صغيرة بطول ٣٥سم، وكنت قد حملت معي من استانبول أربع لوحات بها مناظر ريفية، لها أُطر مطعمة بالصدف، كانت قد حُلَّت من على إحدى الخزائن الكبيرة التي صنعها والدي، وقد أهدَيت اثنتين منها إلى أختي المرحومة الأميرة رفيعة (١٨٩١ ـ ١٩٣٨م).

وكان أخي المرحوم عبد الرحيم أفندي (١٨٩٣ ـ ١٩٥٢م) قد أهدى إلى ابني عمر طاقماً لأدوات الخط صَنَعه والدي في «مصلاق» أيام كان أميراً، ولازال هذا الطاقم عندنا حتى الآن.

حب الوالد للرياضة والفروسية

يقول والدي: «كنت في شبابي أنزِل البحر، وأسبح جيداً، وأركب الخيل، وأستخدم العَـرَبة، وأهوَى التجديف واستخدام المراكب الشراعية،

وأمارس الرماية بالطبنجة، وأخرج للصيد، وألعب بالسيف».

وكان والده السلطان عبد المجيد قد أهداه قصر الكاغدخانه ومزرعة «علي بك»، وفي تلك الأثناء كان يَطُوف بالمزرعة يومياً تقريباً ويُشرِف على كل الأعمال، كما كان ينشغل بالصيد في الضواحي المجاورة.

ويحكى أنه كان ماهراً في الرمي ببندقية الصيد، وأنه في إحدى رحلات الصيد أصابته عدة حبات من الخرطوش في الطرف الأيمن من وجهه، كان يقول عنها: «إن هذه الحبات هي ذكرى تلك الأيام، ولا زال أثرُها باقياً تحت لحيتي، فلتَبْقَ! لا ضرر منها».

وكان في تلك الأثناء يهوَى التجديف والتنزه حول مياه «وادي الكاغدخانه»، ولما أهداه السلطان عبد العزيز القصر الموجود في «طارابيا» شُغِف باليُخوت وشرع يستخدم المراكب الشراعية، وأخبروا السلطان عبد العزيز بأنه كان ينزل البحر كلَّ يوم، فمنعه السلطان من الذهاب إلى طارابيا، وأعطاه قصر مصلاق بدلاً منه، فكان يَنشَغِلُ بالزراعة هناك.

وأدار مصنعاً لصناعة الإسبيداج (كربونات الرصاص)، وانشغل بتربية الغنم والأبقار، واستحضر من أوربا مختلف الزهور وشتلات الورد، وجعل قسماً من الحديقة لتربية الزهور. وكان يَحكي أنه خرج للصيد ذات يوم في غابات استرانجه، وصادف بعض قُطّاع الطرق فاشتبك معهم، وأثناء عراكه معهم أُصيب في ذراعه.

غير أنه كان ماهراً في الفروسية بصورة خاصة، وبفضل قدرته على سياسة الخيول الجامحة استطاع النجاة من حادثة خطيرةٍ حدَثَت له أيام سلطنته، وكانت في العام الخامس أو السادس، في إحدى مراسم تحية الجمعة في جامع «أورطة كوي»، كان يذهَبُ على جواده حتى ذلك اليوم، فخرج كالمعتاد وهو يمتطي

صهـوته، وقيل: إن واحداً مَسَح على الجواد بزيت النفط، ولهذا استطاع أن يذهب بصعوبة شديدة من السراي حتى الجامع، وكاد يَسقُط من فوقه عدة مرات لولا مهـارتـه في ركوب الخيل. ومنذ ذلك اليوم لم يذهب بجواده لأداء تحية الجمعة مرة ثانية، وشَرَع يستَخدِم العربة.

وكان يعمل إلى جانب الوالد ـ أيام كان أميراً ـ أحد العمال القُدَامى، وهو طورخان بك، يساعده في ركوب المراكب الشراعية، فلما صار سلطاناً أخذه إلى السـراي وجعله يُعنَى بالأحـواض والقوارب والمراكب، وظلَّ الرجل يعمل في السراي حتى الأيام الأخيرة.

طريقة الوالد في شرب القهوة

كان يُحِبُّ القهوة كثيراً، ولا يشرب إلا القهوة اليمنية، وعدا شربِه لها بعد تناول الطعام، فقد كان يشربها فيما بين ذلك ستَّ أو سبعَ مراتٍ في اليوم، وكان «القهوجي باشي» الذي يصنَعها له، هو خليل أفندي، أحد عماله منذ كان أميراً، علم جيداً مزاج الوالد، فكان يجعلها وسطاً بين الفاتحة والقاتمة، وكان يجلِسُ في المكان الذي يسمى موقد القهوة بجوار غرفة المناوبة، وينتظر الأمر هناك، ويذهب إلى بيته في ساعة متأخرة من الليل ويأتي في الصباح الباكر.

ويَحكُون أنه قال لوالدي قبيل وفاته: «أفندينا! لقد صِرتُ أمرض كثيراً، وأجدُني أميناً وواثقاً من صِهري علي، فهو ولد طيب، أرجو أن تسمحوا لي حتى أعلِّمَه صنع القهوة التي تحبونها، كي يصنَعها لكم من بعدي». فقَبِل والدي ذلك. والحقيقة أن خليل أفندي توفِّي بعد أيام، وأخذ مكانه صهره علي أفندي.

يَلبَس القهوجي باشي وهو يصنع القهوة قفازاً أبيض، ثم يأتي بها حتى باب الحريم، فيدق الجرس ويسلِّمها إلى الخازندارة المناوبة. وكانت صينية القهوة ذهبية صغيرة، وكانت ذكرى من أم والدي «تيرمزكان قادين»، وكان يُوضَعُ

عليهـا رَكْـوة من الفضة وفنجانان من القيشاني الأبيض، وكان على الفنجانين علامـة الـوالد المميزة، وبعدَ أن يشرب القدح الأول في فنجان منهما، يعود فيشرب الثاني في الفنجان الآخر.

وكان يشرب القهوة مع السيجارة وكأنما يَجرَعُها جرعاً، وإذا ما تناول القهوة مع والدتي، أتَوْا لها بفنجانين آخرين من نفس النوع.

وظـل القهوجيْ باشي علي أفندي يصنَعُ القهوة للوالد حتى وفاته، وكنا نحن الأطفال لا نشرب القهوة أبداً في حضوره، ولا يشرَبُها معه إلا أمي وزوجاته الأخريات، إذ كان من العيب أن يشرب الشباب القهوة أو السجائر في السراي.

قراءتهم الكتب عليه في الليل

لـم يترُكْ خصومُ والدي قولاً ضده إلا قالوه، لأنه كان يجعل أحدَ رجاله يقرأ عليه أحد الكتب في الليل، في حين أن هذا الأمر بتمامه مسألة شخصية، وأن أمره لأحدهم بقراءة كتاب وسماعه إنما هو شيء يَنبَعِثُ في ساحة العفة والبراءة، وكان الوالد يفسر هذا الأمر على النحو التالي:

«إنني أجعَلُهم يقــرؤون عليَّ الكتب كل ليلة حتى أتخلص من وطـأة الأعمال التي تَشغَلُني نهاراً، وتذهب بذهني إلى مجالات أخرى، فأدفع عن رأسي التفكير لأنام بسهولة، فإذا كانت الكتبُ جادةً فَرَّ النوم من عيني تماماً، ولهذا السبب أمرتهم بترجمة بعض الروايات».

ثم يضيف الوالد ويضحك: «كنت وأنا صغيرٌ أُنصِتُ إلى أغاني «النِّنِّي» التي ترددها عليَّ مربيتي، والآن فإن الكتب التي أنصت لسماعها تفعل نفس العمل، فأنا أنصت حتى النصف، وفي النصف الآخر أكون قد استغرقتُ في النوم، وها هو ذا علاجي المنوم».

وكان يقرأ هذه الكتب عليه أخوه في الرضاعة عصمت بك، وهو في نفس الوقت يعمَل في وظيفة «أثوابجي باشي»، ثم جاء بعده الحاج محمود أفندي، ثم جاء بعده أيضاً كاتب الشفرة عاصم بك، وبعد أن تُوفِّيَ الأخير بَطَلت هذه العادة.

وكان من يقرأ له في كتاب أمام باب السلاملك ينهَضُ فور أن يشعر أن السلطان استغرق في النوم، ويخرُج بهدوء، فتدخُل عقبه الخازندارة الثانية بهدوء هي الأخرى، وكانت تنام أمام باب الحريم، وتغلق الباب.

كان الوالد في النهار يكلِّف أمين بك موظف «المابين» بأن يقرأ عليه الكتب التاريخية الهامة، وكان هذا الرجل مَحلَّ تقدير عظيم منه، لأنه كان ماهراً في الترجمة السريعة السهلة من الفرنسية إلى التركية، وعندما كان يَنشَغِلُ الوالد بتنظيم المكتبة ويعمل بها، يجعل أمين بك إلى جانبه دائماً، ويُرسل بواسطته السلام والأخبار إلى الأجانب، وعند تحية الجمعة، وهو في الجامع كان يأمر أمين بك بأن يكون إلى جوار أخي برهان الدين أفندي عندما يرسله بالتحية إلى بعض السفراء، وكان يَصِفُه بأنه رجل واسع الأفق، غزير الاطِّلاع.

حوادث وقعت لوالدي

روى الوالد لنا فقال: «كنت أيامَ سلطنة والدي في الثانية عشرة من عمري، وتعودت أن أركب الحصان وأهرب من السراي كلَّ صباح، وأروح أطوف استانبول ولا أصطحب إلى جانبي أحداً من عمال السراي. وذات يوم وأنا أطوفُ استانبول، لم أتمكَّن من كبح جماح الحصان، وشَرَع يجري بسرعة، وآنذاك رمى بي على الأرض أمام إحدى المقاهي الصغيرة، وهي كثيرة في استانبول. وكان سقوطي على الأرض شديداً، فبدأ الدمُ يَسِيلُ من أنفي، وفَقَدت الوعي، بينما عاد الحصان أدراجه إلى السراي، ولما رآني «عرب مرجان» صاحب

المقهى راقــداً هنـاك أخـذني إلى المقهى، ووَضَعني على إحـدى الأرائـك الخشبية، وراح يَصُبُّ ماءً بارداً على رأسي ووجهي حتى توقَّفَ نزيفُ الدم من أنفي.

ولما بدأت أَعِي نفسي قليلاً سألني: «من أنت يا بني، ومن أين جِئت، وإلى أين أحمِلُك؟» ولم أحـدثـه شيئـاً عن السـراي، وقلـت لـه: «أرجوك، احملني إلى بشيكـطاش». وأدركت أن الرجل صاحب المقهى رجل إنسان، حملني على ظهره وشرع يمشي.

وبينما نحن هكذا، شعر عمال السراي عندما رأوا عَوْدَةَ الحصان دوني بالخوف وشرعوا يبحثون عني، كما أخبروا والدتي، فقالت لهم هي الأخرى: «الأمان! لا تَدَعُوا أفندينا يشعر بالأمر، انتشروا في كل مكان وابحثوا عنه».

ورآني البعض منهم مع صاحب المقهى، وعنـدئـذٍ التَفُّوا حولَنا وبدؤوا ينازعون المسكين وسألوه: «إلى أين تَحمِلُه؟»،فتدخلت في الأمر وقلت: «رجاءً لا تقولوا له شيئاً، لقد أنقذني هذا المسكين، خذوه إلى السراي». وشكرتِ الوالدةُ صاحب المقهى وأحسنت إليه، أما أنا فقد صِرتُ طريحَ الفراش.

وكان يوجد في السراي آنذاك طبيب إيطالي ماهر يدعى الدكتور ماسيرو، استدعوه على الفور، وشَرَع يعالجني، وأخفوا الأمر تماماً عن والدي. وظَلَلْتُ طريح الفراش قرابة ثلاثة شهور، وأشار علي الطبيب بحمام حار، وذهبتُ إلى سراي بكلربكي وظلَّ معي الطبيب هناك. فكنا نَنزِلُ البحر معاً كـل صباح حتى جعلني أعتاد النزول، وتعلَّمْتُ منه طريقة الاستحمام، والآن صار الاستحمام عادتي، حتى أصبحت مع مرور الأيام لا أتحمَّل الحياة دون الماء».

والحادثة الثانية الهامة التي وقعت لوالدي كانت على أيام السلطان عبد العزيز: كان يومَها قادماً من «مصلاق» إحدى ضواحي استانبول، بعربة يجُرُّها

زوج من الخيول، فجَمَحَ الحصانان، ولم يتمكن الوالد من التحكم فيهما، فاضْطُرَّ لإلقاء نفسه من العربة، واصطدمت رأسه بالأرض وأصيب بجرح في أنفه، وظلَّ بالفراش عدة أشهر، وعالجه الدكتور ماسيرو.

ووقعت له أيضاً حادثة حريق: فقد كانوا يستخدمون الشموع قديماً في السراي، وذات يوم وهو يقرأ في الفراش اشتعلت النيران في ناموسية التل، فجذَبَها الوالد ورمى بها على الأرض ثم أطفأها، وصار لا يستخدم الناموسية بعد ذلك اليوم، وكان يقول: «الناموسية ليست شيئاً طيباً؛ فهي تحبِس الهواء». غير أنه اضطر لتعليقها على السرير ونحن في سلانيك نظراً لكثرة البعوض هناك.

مدفأة الوالد وخلاف بسيط بسببها بينه وبين السلطان عبد العزيز

روى لنا الوالد حكاية المدفأة أيضاً.

عندما كان وليّاً ثانياً للعهد على أيام السلطان عبد العزيز، كانوا يستخدمون فحم الحطب لتدفئة سراي «طولمه باغجه» حتى في أكثر الأيام برودة، غير أنه لا الفحمُ الموضوع في المناقل الكبيرة، ولا بعض المدافىء الموجودة في الصالونات الكبيرة كانت قادرة على تدفئة ذلك السراي الضخم.

وظلَّ والدي مشغولاً بالبحث عن حل لهذه المسألة، ولأنه كان يطوف استانبول وضواحيها؛ فقد رأى ذات مرة في أحد الحوانيت مدافىء من الحديد والقيشاني، فاستفسر عنها من صاحب الحانوت، وعندئذ أكَّد له الرجل أنها قادرة على تدفئة الحجرات بشكل جيد، ولم تكن وسائط التدفئة هذه معروفة في القصور حتى ذلك الوقت، فاشترى واحدةً من القيشاني وأرسلها إلى السراي، وجعل الرجل الذي اشتراها منه يَنصِبُها له هناك، ولما رأى قدرتها الفائقة فَرِح بها

وقال لنفسه: تخلَّصْتُ إذن من البرد.

غير أن بعض الأشخاص رأوا أنها خَطِرة، فأخبروا السلطان عبد العزيز وقالوا له: «إن عبد الحميد أفندي اشترَى مدفأة، وسوف يَحرِق بها السراي؛ فهي خطرة». وعلى ذلك أرسل له عمه السلطان عبد العزيز الخبر وأمره برفعها. غير أن الوالد أجابه بقوله: «لا يَنشَغِلُ السلطان؛ فهي شيء طيب، لا خُطورة منه على الإطلاق»، ولم يَرفَع المدفأة.

وذات يوم لم يكن والدي هناك، فجاء رجال السلطان ورَفَعوها، فلما رأى الوالد ذلك في المساء، ضاقَتْ نفسه كثيراً، وفي اليوم التالي أخذ المدفأة ونَقَلها إلى قصر الكاغدخانة ونَصَبها هناك، وأمضى به شتاءً مريحاً.

ولما صار والدي سلطاناً، واستخدموا التدفئة المركزية في سراي يلديز، احتفظ بمدفأة كبيرة من القيشاني الأزرق، وكان يقول: «إن التدفئة المركزية طيبة، غير أنها لا تمنحني اللذة التي أشعر بها مع تلك المدافىء النارية».

باكورة الأولاد وباكورة الأحزان

كان المولود الأول الذي رُزِق به الوالد أيام كان أميراً: هي الأميرة علوية التي وُلِدَت عام ١٨٦٨م وتوفيت محترقة بعد ذلك نتيجة لحادثة مروعة (١٨٧٥م). وأمها هي «نازك آدا قادين»، وظلَّت الزوجة الأولى «باش قادين» لوالدي حتى وفاتها، وكانت الأميرة جميلة أخت والدي قد ربَّتها وقدمتها له عندما بَلَغ سن الزواج، وتُنسَب «نازك آدا» إلى عائلة جركسية أصيلة. وكانت ولادتها للأميرة علوية باعثاً على فرح والدي الشديد، وتعلَّق بها بحب يزيد عن الحد، كما كان أخوه الأكبر مراد أفندي وأخوه الآخر المحبوب برهان الدين أفندي يُحِبَّان الأميرة علوية كثيراً، ولا يجدان سبيلاً لتقاسم هذا الحب، يَأخُذانِها للنزهة ويشتريان لها اللعب ثم يعودان بها.

وكانت الأميرة علوية طفلةً غاية في الرقة، جميلة، يفوقُ عقلُها سنَّها. وقد أَمَر الوالد بتصويرها بالزي القديم، ولازالت هذه الصورة عندي. ويقولون: إن أمها كانت رائعة الجمال، وإن الأميرة تُشبه أمَّها: سوداء العينين، طويلة الأهداب، بيضاء البشرة، وردية الخدين، شيء يُشبِه الملاك، وإن أمها حافظت هي الأخرى على جمالها حتى أيامها الأخيرة، غير أنها كانت ممتلئة الجسم قليلاً.

بدأت الأميرة علوية تتعلَّم القراءة، وتقدمت كثيراً، وذات يوم ذهبت إلى معلمها، فلما أتمَّتْ درسها وعادت، دخلت حُجْرة أمها، وكانت آنذاك تعزف البيانو حتى برعت فيه، ووجدت الأميرة الصغيرة كبريتاً بالشمع على المنضدة، كانوا قد اختَرَعُوه حديثاً، فتناولته وشرعت تلعب به، وكان شعرُها منسدلاً على كتفيها وعليها فستان من التُّل، ولم يُمْهِل القدر تلك الطفلة المسكينة، فاشتعلت النار بالتل وأمسكت بشعرها، وكانت أمُّها مشغولة بعزف البيانو تعطي ظهرها للطفلة، فلم تَرَها المسكينةُ أول لحظة حتى تُسعِفها، ولما سمعت الصراخ ورأت النار ألقت بنفسها عليها حتى تُنقِذَها، غير أنها لم تستطع فعل شيء. وكان الوقتُ وقت تناول الغداء، فلا أحد في الطابق العلوي حتى يسرع لنجدتها، وبينما هي تعمل على إخماد النار، تسقط هي والطفلة على الأرض فيتدحرجان وتلتهم النيران يديها وذراعيها ووجهها، ومع ذلك لم تستطع إخمادها.

وكان على الأرض حصير، وببغاء في الصالون، راح يُطلِق صيحاته المزعجة، فنبَّه العاملين في الطابق السفلي، حتى هَرَعوا إليها، وخلال دهشتهم جميعاً، وجدت مربية الأميرة سجادة فطرحتها عليها وأخمدت النار، غير أن الطفلة المسكينة لم يكن قد بَقِي بها رمق، واستدعوا الأطباء في الحال، وأخبروا مراد أفندي والإخوة الآخرين، واتَّخذوا كل التدابير واستخدموا كل الأدوية التي

عرفها الطبُّ في ذلك الزمان.

ويَحكُـون أن والـدي كان يذهب كل صباح إلى «طارابيا» وينزِلُ البحر آنذاك، فأرسل مراد أفندي أحد القوارب إليه في الحال، كما أخبر الأميرة الوالدة «بـرتونيال»، وجاء أبي على التو، وجعلهم يُذِيعون الخبر في كل الأنحاء بأنه «فليأتِ كل من يوجد من الأطباء، وليُنقِذوا الطفلة».

ويقولون: إن الذين ذهبوا بالقارب إليه ما إن قالوا له: «إنهم يطلبونكم في السراي» حتى وَقَع الخوف في قلبه وسألهم: «ماذا هناك؟ هل الوالدة مريضة؟ ماذا حدث؟» ولم يخبروه بشيء بالطبع.

فلمـا جاء السراي استَقبَلَه عند الرصيف مراد أفندي وإخوته الآخرون، وعانقه مراد أفندي، وقال له: «لا تنشغل، إن الأميرةَ في وعكة بسيطة». وأدرك والدي أن الحالة سيئة فهرَعَ إلى غرفة ابنته، فلما رآها ترقُد وقد غطَّوْا كل أطرافها عدا وجهِها شَعَر باضطراب، وفتحت الطفلةُ عيناها هي الأخرى ونادته: «بابا»، ثم أسلمت رُوحَها لبارئها. وعندها سَقَط الوالد على الأرض.

ورفعه إخوته عِن الأرض وأخرجوه من الغرفة، فلما أفاق قليلاً، استدعى برهـان الـدين أفندي إحدى العربات ونقله إلى منزل «برستو قادين» في حي «ماجقا»، وظل هناك مدة.

وقام السلطان عبد العزيز بعمل اللازم، وأرسل الخبر إليه بأنه «على بُنَيَّ أن لا يحزن».

ولم يَنْسَ الـوالـد أبـداً ألمه على فراق ابنته الأولى، المحبوبة، الأميرة علوية، وكان وهو يتحدَّثُ عنها حتى الأيام الأخيرة يقول وهو يتأوَّهُ من أعماقه: «أبقـاكم الله لي». وكان إذا علم بمرض أحدنا يشعرُ بالضيق ويضطرب حالُه ويستدعي الأطباء، ويفعَل ما بوسعه، وذلك على الرّغم من قوله: «لن أتعلَّق حُباً

بأولادي من بعد، قدرَ تعلقي بابنتي علوية».

إخوة آخرون ماتوا في سن مبكرة

عنـدمـا توفيت أختي الصغيّرة الأميرة خديجة، عاش والدي ثانية نفس الأحزان التي عاشها عند وفاة الأميرة علوية، واحتَرَق قلبُه عليها. ووالدة الأميرة خديجـة هي الإقبـال الثـالثـة، وتـدعى «فـاطمة بسند هانـم»، وكانت الطفلة المسكينـة، عنـدما تُوفِّيت، تبلغ من العمر ثمانية أشهر، ولم يستطع الأطباء تشخيص مرضِها بأي شكل من الأشكال، وظلوا عاجزين عن مداواتها.

وكان بسيم عمر باشا، أحد الأطباء المشهورين آنذاك، والدكتور إبراهيم باشا، القادم حديثاً من ألمانيا يحاولان معها قدرَ الطاقة ويعمَلان لإنقاذها، غير أنهما لم يُوَفَّقا في ذلك، وعندها انكفأَ والدي يَسجُد على الأرض من حزنه ويدعو الله قائلاً: «إلهي! هَبْ لي طفلتي!» غير أن التقدير الإلهي كان قد نَفَذَ حكمُه.

وقد قام والدي فأمر بإنشاء «مستشفى حميدية للأطفال» (اسمها الآن: «مستشفى شيشلي للأطفال») وذلك باسم هذه الطفلة، وعيَّن عليها إبراهيم باشا رئيساً للأطباء، وقال آنذاك: «لم يكن من الممكن إنقاذُ طفلتي، ومن يعلم ما هي الحالة التي عليها أطفالُ الفقراء، ولا أقل من أن نُنشِيءَ لهم مستشفى حتى لا تحتَرِقَ قلوب كثير من الآباء كما احترق قلبي».

وأُقيمت المستشفى على أحـدث نظام ألمـاني، وتَمَّ استحضـار آلاتها وأدواتها من ألمانيا، وعَمِل بها أحسن الأطباء في استانبول، وجاؤوا بالممرِّضات من ألمـانيا، وكـل عام كان يَتِمُّ نشـر الإحصائيات الخاصة بها، فكانت خيراً عظيماً، وأنقذت حياة العديد من الأطفال.

وقيل: إن الأميرة خديجة مرضت بالدفتريا، وترقُد الآن في مثواها الأخير

في مقبرة «يحيى أفندي»، أما والدتها «فاطمة بسند هانم أفندي» فترقُد في مقبرة «قرجه أحمد».

وكان ميلاد أخوينا التوأمين أحمد نور الدين أفندي، ومحمد بدر الدين أفندي، بعد ذلك في الثاني والعشرين من يونيو (حزيران) ١٩٠١م حدثاً سعيداً بالنسبة لوالدي، وخاصة أنهما كانا توأمين، وقال: «كان للسلطان عبد المجيد أيضاً طِفْلان توأمان».

وأم الأخوين هي الإقبال الخامسة «بهيجة هانم أفندي»، وقد عاشا معاً حتى بَلَغا عامَيْن ونصف العام، وكان ذكاءُ بدر الدين أفندي الذي يَفُوق سنَّه باعثاً على قلق الوالد، وذات يوم بدأ يَعزفُ «فالس» بجانبه، وعَزَفه بمهارة ودون تعثُّر مما جعل الوالد في حَيرة واندفع قائلاً: «اسكُت يا بني! لا تعزف! إن ذكاءك يخيفني!».

والحق أن ما باتَ يخشاه أبي وقع؛ إذ مَرِض الطفل بالحُمَّى الشوكية، ولم تستطع كلُّ وسائل العلاج إنقاذه، وهو يرقُد الآن في مقبرة «يحيى أفندي».

أما نور الدين أفندي، فقد عاش حتى سن الثالثة والأربعين، وتُوفِّي في ديسمبر عام ١٩٤٤م بمرض الالتهاب الرئوي، وهو مدفون بمقبرة المسلمين (Bobigny) في باريس.

وبعد هذين الأخوين توفِّيت أختي الأميرة سامية بمرض الربو، ولم تكن قد بلغت عاماً من عمرها، وحزن عليها الوالد كثيراً؛ إذ كانت آخرَ أنجالِه. وأمها هي «صالحة ناجية هانم أفندي»، وهي أيضاً أم أخي الأصغر محمد عابد أفندي[٨] الذي يعيشُ الآن في باريس (ولد في ١٧ سبتمبر ١٩٠٥م).

---

(٨) توفي عابد أفندي في بيروت عام ١٩٧٢م ودفن في ضريح جامع السلطان سليم في دمشق (ن).

ودُفِنت الأميرة سامية هي الأخرى في مقبرة «يحيى أفندي»، ولم يشأ الله أن يموت لوالدي غير هؤلاء الأربعة.

خادمات والدي

قدم إلى استانبول أيام جدي السلطان عبد المجيد خان، كثير من المهاجرين، وفي أحد مراسم تحيات الجمعة في «جامع الوالدة» كان يوجد الكثيرون منهم هناك رجالاً ونساءً، وقام السلطان عبد المجيد وقتها بنقل النساء إلى دائرة الحريم، وأمر «الخزينة دار اسطي» بأن تقدِّمَ لهن الطعام وتدخلهن الحمام وتعطيهن ملابس نظيفة، واختاروا من بينهم الأرامل والمُعدَمات وجعلوهن في السراي، وقامت زوجات السلطان فقسمنَهُنَّ فيما بينهم ثلاث أو رباع، وجعلهن في دوائرهن، وبَقِين في السراي على هذا النحو.

وكان من نصيب «تيرمزكان قادين» امرأة مع بنتَيْها، فأطلقوا على الأم ـ كما هي العادة في السراي ـ اسم «نركس نهال»، وعلى البنت الكبرى «نامك سو»، وعلى الصغرى «كشان دل»، وتمَّت تربيتهن وتعليمهن في دائرة «تيرمزكان قادين»، وصِرْن على علم بعادات السراي وتقاليده.

وفي تلك الأثناء، كانت الأميرة نعيمة (١٨٤٠ ـ ١٨٤٣م) بنت «تيرمزكان قادين» لاتزال على قيد الحياة، فقدَّمت لها أُمُّها نركس نهال حتى تقوم على خدمتها، وعملت هذه المرأة مربيةً لها حتى توفيت الأميرة نعيمة، وبعدها قامت «تيرمزكان قادين» فقَدَّمت نركس نهال هانم إلى ابنها عبد الحميد (أي: والدي) حتى تقوم على خدمته، وأوصتها قائلة قبل أن تموت: «ابني أمانة في عنقك، فلا تتركيه حتى يُفرِّقَ الموتُ بينكما.. ارقُدِي أمام بابه»، وحفظت تلك المرأةُ الوفية الصادقة وصيتها، وظلت تنامُ أمام بابه، ثم توفيت وأنا صغيرة في الخامسة أو السادسة من عمري، ولازلتُ أذكرها بعض الشيء.

وكنا جميعاً وعلى رأسنا الوالد، ننادي هذه السيدة باسم «نينة»، وكانت لا ترتـدي ثياباً تشبه ثياب «القلفاوات» في السراي؛ بل ترتدي فستاناً قصيراً بلا تنورات (جنلات) وعليه خرقة من الصوف وتتمنطق بشال في خصرها، وتلبّس شيئـاً يشبه الطربوش على رأسها وتمسك منديلاً مطرزاً. يحتَرِمها كل من في السـراي، ويطلقون عليها: «نينه، خادمة أفندينا». ولما صار الوالد سلطاناً، أطلق بناتَها من السراي وزوَّجهن، ولازال أحفادُها وأصهارها على قيد الحياة.

وكان يوجد بالسراي قلفاوات أخريات عرفن جدتي تيرمزكان، وأول من يَرِدُ على الخاطر منهن هي «شوق دل قلفة» وكانت أتت السراي على أيام السلطان محمـود وصـارت «كخيا قادين»، وكـان يوجـد غيرها قلفاوات أخريات مثل: حسبحال ودلبرنياز وافسر، وكانت دلبرجنان والدة قائد منطقة بشيكطاش واصف باشا، تعمل مربيةً لوالدي وعاشت حتى الأيام الأخيرة، وكانت تأتي إلى السراي باستمرار وتنزِلُ ضيفةً في دائرة فاطمة بسند هانم والدة المرحومة أختي الأميرة خديجة، وكان الوالد يناديها باسم «باجم» [أي: أختي الكبيرة]، وكنا نحن أيضاً نناديها باسم «أخت أفندينا الكبرى» مراعاة لخاطرها، ونقدِّمُ لها الهدايا، وكانت تجلس على أريكة في مجلس والدي وتَقُصُّ حكايات أمها وحكايتها في الطفولة.

وحكت ذات يوم فقالت لوالدي: «أفندينا! ذات يوم صَعِدت على كتفي، وعملتها علي، ويومها قالت والدتُك: لماذا تجعلين ابني يتعوَّدُ على هذه العادة؟ وراحت تُوبِّخُني إلى درجة أعجز عن وصفها»، وعندئذ انطلقت صيحاتُ والدي بالضحك، وأهداها خاتماً ثميناً بفص من الزمرد.

مثل هذه الحكايات كنا نُصغي إليها ونسمعها من القلفاوات الباقيات من أيام السلطان عبد المجيد والسلطان عبد العزيز.

والدي وسعيد باشا

إن الصدور العظام الذين أحبَّهم والدي أكثر من غيرهم: هم خليل رفعت باشا، وجواد باشا، وآولونيالي فريد باشا، وهؤلاء ربَّاهم والدي وأوْلاهم رعايته. غير أن الصدر الأعظم سعيد باشا كان رجلاً أولاه الوالد أهمية عظيمة، واستخدمه في الأيام الأُولى من سلطنته سكرتيراً أول للمابين، ثم رفع رتبته تدريجياً ونصَّبه صدراً أعظم سبع مرات، ولم يبخل عليه بفضل من الأفضال.

غير أن سعيد باشا، على رغم كرم والدي معه إلى هذا الحد، ومنحه معاشاً إضافياً قدره ألف ليرة، إلا أنه لم يخجَل من القول بأنه «لم ينعم بفضل السلطان».

وما سمعتُه من فم والدي في حق سعيد باشا هو قوله: «إنني أعرف سعيد باشا منذ كنت أميراً، كان يأتي إليَّ من حين لآخر أيام كان كاتباً، وحتى في تلك الأثناء كنت أكلِّفه بتحرير بعض المكاتبات البسيطة، وكنت أرى فيه رجلاً عاقلاً ذكيّاً، وأكنُّ له كل التقدير. ولما صرت سلطاناً، رُحت أفكر أنا وزوج أختي جلال الدين باشا فيمن سيكون مناسباً لوظيفة سكرتير أول، وآنذاك قرَّرنا معاً اختياره لهذه الوظيفة. وعلى هذا قام بالخدمة على أكمل وجه أيام النكبات التي وَقَعت لي، وكنت أرسل إليه موظَّفي المابين وأسأله الرأي في كثير من الأمور، وكنت أحصل منه آنذاك على أصدق الأجوبة وأخلصِها، فلما صار صدراً أعظم تبدَّل الأمر، وأصبحت الاستفادة منه وهو في هذا المنصب شيئاً مستحيلاً، مما كان يجعَلُني مضطراً لعزله.. إن سعيد باشا مكتبة متجولة، فهو رجل عالم ذكي مجرب، ولا يَعدِله أحد في علمه من الوزراء، غير أن مَكْرَه وجُبنه يحولان بينه وبين القيام بوظيفته».

هكذا عرف الوالد سعيد باشا، وبهذه الصورة كان يتحدث عنه، ومع ذلك

كان يقدِّره ويَثِق فيه، على الرَّغْم من علمه بأنه رجل ضعيف.

وقالوا لوالدي في الفترة الأخيرة عندما كنا في سلانيك: «إن الذي ساقك إلى هذه الحال هو سعيد باشا». وعندها قال الوالد: «لا! لقد نَفَذ أمر الله . . . إن سعيداً رجل رِعْديد، ولهذا السبب فهو آلة في أيديهم، وقد وَجَد نفسه مضطراً لفعل هذا».

تلك هي كلمات والدي، سمعتها منه بأذني ودَهِشت آنذاك لهذا الأمر.

إن سعيد باشا هذا، والذي يُلقِّبونه تهكماً باسم «الشاه الأعظم» هو نمط من الأنماط التي تلفت النظر في تاريخ العهد الأخير، عُرِف ببخله الشديد، وكان يأتي إلى السراي في كل مرة يُصبِح فيها صدراً بأقدم الملابس وأكثرها قذارة، وعلى رأسه الطربوش. وكان الوالد يعلم فيه هذا الطبعَ فيوصي «الترزي باشي» بأن يَحِيك له عدداً من الملابس، ويزوده بالأحذية وغيرها، كما يذهب بعض الرجال من «دائرة المفروشات» إلى منزله ويفرشونه بالشكل الذي يَليق بمنصبه، وكانت تذهب إلى بيته صينية الطعام من المطبخ الهمايوني حتى في أحلك الأيام.

لقد قام والدي في الذكرى الخامسة والعشرين لاعتلائه العرش فأنعم على الوكلاء [الوزراء] وعلى سعيد باشا، على الرغم من أنه كان معزولاً آنذاك، كما أهداه في تلك الأثناء مكتباً رائعاً قدَّمه إليه المصاحب نادر آغا، وكان يُوجَد عليه طاقم للكتابة من الذهب والماس والزمرد.

وعندما كان يتمُّ تعيين سعيد باشا صدراً أعظم تأتي زوجته وبناته إلى السراي، وتُقدَّم لهن شتى الإنعامات. ولأن بناته كن في سِنِّ أختي الأميرة نعيمة تقريباً، كان الوالد يأمر بأن ينزلْنَ على دائرتها، وكانت ملابسهن على أسوأ حال، فقد كانت تقدم لهن أثواب القماش هدية، وكانت إحداهن تشبه الأميرة نعيمة

بدَناً، ولذلك كانت الأميرة تهديها بعضاً من أحدثِ ملابسها، فضلاً عن الأقراط والأساور والدبابيس. ولما رُزقت زوجة سعيد باشا مولوداً أُرسل إليها الوالد بواسطة «الخزينة دار اسطى» تاجاً ثميناً رائعاً، وعند زواج إحدى بناتها أيضاً ذهبت الخزينة دار اسطى إلى منزلهم وحَمَلت إلى العروس عِقداً، أما بيت العروس فكان الوالد قد أَمَر بفرشه وتأسيسه.

ولم تقم زوجة سعيد باشا بتعليق التاج الذي أهداه الوالد إليها ولو لمرة واحدة، ولمّا سألوها عن السبب في إحدى مرات حضورها إلى السراي، ذكرت بحسرة ولوعة أن سعيد باشا أخذه وأغلَق عليه بالقُفْل فلم تَعُدْ تراه.

هاكم هو سعيد باشا، رجل من هذا الطّراز، كم نال من خير والدي، ومع ذلك كان أول من بادر بالسير في خلعه عن العرش، وانتقده بغير حق في مذكراته الطويلة التي نشرها في ثلاثة مجلدات بعد إعلان الدستور.

موظّفو المابين

كان الوالد يحب من موظفي المابين راغب باشا وعارف بك. وعدا حبه لراغب باشا، فقد كان يَثِقُ فيه ثقة عظيمة، والسبب الأساسي في هذه الثقة هو أنه كان واسطة في إنقاذ الوالد من إحدى المخاطر التي حاقَتْ به قُبيل ولادة أخي برهان الدين أفندي (عام ١٨٨٥م).

وقد وقعت الحادثة على النحو التالي: كان والدي أُصيبَ بخُرَاجٍ صغير في ظهره، فقام طبيبه الخاص ماوروياني باشا والطبيب عثمان باشا وطبيب آخر لا أعرف اسمه وعالجوه، غير أن هذا الخُرَاج التافه ما لَبِث أن تجاوز حدَّه بعد العلاج، وبدأ يسبب للوالد ألماً شديداً، وارتفاعاً في درجة الحرارة حتى ساءت حالته، ولما رأى راغب باشا الوالد على هذه الحال قال له: «أفندينا! إن لي أخاً طبيباً، أُحضِره إليك حتى يفحصك».

وجاؤوا بعارف بك من الباب الخلفي للسراي؛ فقام على الفور ونظَّف الجرح، وذهب هو بنفسه فأعد العلاج وجاء به، وظل إلى جانب والدي ثلاثة أيام وليالٍ يسهَرُ عليه ويهتم بعلاجه، وبعد أن تجاوز مرحلة الخطر، أمر بتحليل الأدوية القديمة، وظهر أنها مشبوهة.

ولأول مرة لم يتمكَّن الوالد أثناء مرضه هذا من الخروج إلى موكب التحية يوم الجمعة، ولأنه كان قد فقد الأمل، فقد أوصى حتى ببعض الوصايا باسم برهان الدين [ابنه]، فلما طاب من مرضه تماماً دعا الطبيب ماوروياني إلى مجلسه وسأله قائلاً: «كيف حدث هذا الخطأ»، وعندها بكى ماوروياني كثيراً وأقسم له وقال: «كنت سكراناً، ولم أُدرِك شيئاً». وعفا عنه الوالد نظراً لخدمته الطويلة، غير أنه لم يستخدمه طبيباً خاصاً، أما الطبيبان الآخران فقد أرسلهما إلى الولايات الأخرى.

وبعد هذا التاريخ تَمَّ إقامةُ صيدلية بالسراي، وعمل على رأسها بكير أفندي رئيس الصيادلة، وكان يتِمُّ تحضير كل الأدوية الخاصة بالسراي فيها.

كان الوالد يحب عارف بك مثل ولده، ويجامله قائلاً: «لقد ربيته؛ فهو ولد طيب». وصعب عليه كثيراً أمر هروبه وقال يومها: «لم أكن أنتظر منه أن يفعل ذلك».

وكان يحب أيضاً موظف المابين أمين بك، ويقول عنه: «إنه ذكي، واسعُ الصدر»، وكان يجعله دائماً يترجم له الكتب الجادة والكتب التاريخية ويجعله يقرؤها عليه، وكانت لغته الفرنسية جِدُّ قوية، فكان يقرأ الكتاب دون أن يضَع في يديه قلماً وورقاً، ويُترجمه على الفور، وكان الوالد سعيداً به هو الآخر، وكان يُرسِلُه - كما ذكرتُ سابقاً - بالتحية إلى الشخصيات الأجنبية والسفراء. ويستخدم موظَّفِي المابين الآخرين في الوظائف التي تتناسب وقابلية كل منهم.

طفل يُلقُونه على عربة الوالد

ذات يوم كان والدي ذاهباً إلى سراي طوب قابي بطريق البر، فألقى أحد الأشخـاص عليه طفلاً وليداً، وفي مثل هذه المراسم والظروف كان يسيرُ إلى يمينه أخي عبد القادر أفندي وقد ركب حصانه، ويسير إلى يساره أخي الآخر أحمد أفندي، فيتعقَّبان عربته من الخلف، ولم يكن يخطُر بعقل بشر أن يُلقَى الطفل الوليد مثل الكرة وبهذه الصورة، ولذلك ظنَّ أخي أحمد أفندي أنها قنبلة أُلقيت، فرمى بنفسه من على الحصان وأسرع يلتقط اللفافة بفدائية نادرة، ولما أيقنوا أنه طفل، سأل والدي عن رغبة أبي الطفل وأحسن إليه، وخصص للطفل راتباً طوال حياته.

وكان أخي أحمد عندما وَقَعت الحادثة في الثامنة عشر من عمره (أي عام ١٨٩٥م)، وأُصيب يومَهـا بفَتْق لحـظةَ ألقى بنفسـه من على الحصان مندفعاً بشدة، وأُجريت له عملية جراحية عندما بلغ الخامسة والعشرين، قام بها الطبيب الجـراح جميل باشـا، صِهـر شيخ الإسلام جمال الدين أفندي، غير أنه مع الأسف لم يَشْفَ تماماً، وظَلَّ يعاني من الفتق حتى توفي.

أُجريت العملية الجراحية لأخي في «المابين الصغير»، وكان الوالد يومَها ينتظر أمام الباب وهو يبتهل إلى المولى عز وجل، والحزن والقلق يسيطران عليه. وبعد إجراء العملية مَنحَ جميل باشا رتبة مشير ونشاناً وأحسن إليه إحساناً كثيراً، وكان يعوده كل يوم حتى شفي، كما كنا نعوده نحن أيضاً.

وقد سمعتُ بعد ذلك أن الطفل الذي أُلقِي على العربة صار فناناً، غير أننا لا نعلَمُ من يكون.

□□□□□

مرض الوالد

باستثناء المرض الذي تحدثت عنه سابقاً، والناشىء عن العلاج الخاطىء لخُرَاجٍ صغير، لم يمرض والدي مرضاً ثقيلاً إلا مرةً واحدة في حياته(٩) ورَغْمَ قوله أثناء المرض: «إنني أشعر بإرهاق شديد وفقدان للشهية»؛ فقد كان يسير على قدميه هنا وهناك، ولما بدأ يشعر بوخامة الإرهاق طلب رئيسَ الأطباء الدكتور سعيد باشا وشرح له حالته، وشعر الطبيب بارتفاع حرارته، فوضع الترمومتر في فمه ووجدها ٣٨ درجة، فأوصاه بالراحة.

ثم قام وطلب إبراهيم باشا طبيبَه الخاص وشرعا يعالجانه معاً، فوَجَدَا من التحليل الذي أُجري آنذاك أن الوالد مصاب بالحَصوة، فقاما بإعداد الأدوية اللازمة ووضعا له نظاماً صارماً في تناول الأطعمة، إذ منعاه عنها جميعاً ماعدا الحليب، غير أن درجة الحرارة ارتفعت أكثر وأكثر وشَعَر هو بالضعف الشديد، ومع هذا كان يواصل كل صباح أخذ حَمَّامه المعتاد، ولم يمنعه الأطباء منه؛ فقد كان استحمامه اليومي يأتي بنتائج طيبة.

وقام الأطباء الخصوصيون باستدعاء نافذ باشا ونور الدين باشا لاستشارتهما، فوُفِّقُوا في تفتيت الحصوة بنوع من الأملاح كان يتعاطاه الوالد على الريق، غير أن ارتفاع درجة الحرارة جعلهم يمنعوه من الخروج لتحية يوم الجمعة.

وكانت الوالدة خلال مرضه تُصدِر جميع الأوامر الخاصة بالسراي، ولم يكن أحد في السراي يعلم بمرضه، وكان الباشكاتب [سكرتير أول] تحسين باشا

(٩) لمزيد من المعلومات في هذا الموضوع انظر مقالة (Rengin Bütun) التي نشرت في العدد الأول يناير ١٩٨٢م من مجلة (Yeni Sempozyum) (ن).

وعزت باشا[١٠] يأتيان إليه في الأيام الأولى من مرضه فيدخلان مجلسه ويتحدَّثان إليه خمس أو عشر دقائق ثم يخرجان.

ولما أُعلِن أن الوَالد لن يخرج لتحية يوم الجمعة علم بمرضه العاملون في السراي، وكنت أنا أيضاً ـ قبل أن أعلم بمرضه ـ قد بدأت أشك في الأمر قليلاً عندما وجدت أن والدتي لا تصعَدُ إليَّ لتراني، غير أنني لم أعلم شيئاً ذا بال، ولم تكن لدي الجرأة الكافية حتى أذهبَ إلى دائرة الوالد، ومن ثَمَّ لم أكن مستريحة الخاطر.

ولما أُعلن عن مرضه، هرع كل أفراد العائلة إليه، وجاءت جدتي وزوجاته الأخريات، وقد أحزننا جميعاً أن نرى سيدنا في هذه الحال، وهو الذي لم يكن من عادته أبداً أن يستقبل حتى أفراد عائلته بملابس نومه في الفراش، فقبَّلنا يديه وبكينا جميعاً، أما هو فقد كان يُرَوِّحُ عنا ويقول: «إنني بخير، لا تنشغلوا ولا تحزنوا». وقالت له الأميرة الوالدة: «سبعي! لا أراني الله وفاتك، وكل رجائي من الحق عز وجل هو هذا»، ثم قبَّلَتْه، وقبَّل يدها هو الآخر وقال لها: «لا حَرَمَني الله من دعواتك».

وجاءت أيضاً أخواتي المتزوجات، فرأينَه وظَلَلْن في السراي عدة أيام لم يُغادرنه إلى بيوتهن.

أما إخوتي وعلى رأسهم محمد سليم أفندي، فقد حضروا جميعاً ودخلوا عليه مجلسه، وجلسوا في مواجهته صفّاً واحداً والحزنُ يسيطر عليهم؛ فقال الوالد لهم أيضاً بأن لا ينشَغِلوا عليه، ثم انصرف هؤلاء الأمراء وقد نَبَّهوا على

(١٠) يعرف أحمد عزت باشا موظف المابين والسكرتير الثاني بلقبي «عرب» و«عابدزاده»، وهو والد محمد علي عابد أول رئيس جمهورية في سوريا. توفي في مصر عام ١٩٢٤م ودفن في دمشق (ن).

المصاحبين فقالوا لهم: «أعلِمُونا باستمرار عن صحة أفندينا».

وكـانت البـرقيات ترِد من كل حكام العالم؛ فيعرضها عليه الباشكاتب [سكـرتير أول] تحسين باشا ويأخذ منه الردَّ عليها، وجاء في تلك الأثناء كل عماتي والأميرات الأخريات وزوجات الوكلاء ووالدة خديوي مصر فدخَلْنَ حريم السراي، وجاء ولي العهد رشاد أفندي وولي العهد الثاني[11] أحمد كمال الدين أفنـدي أحـد إخـوة والدي الصغار، وجاء كل الأمراء الكبار الآخرين فأُكرِمت وِفـادتهم في «قصـر جيت»(*). كمـا جاء الـوكـلاء إلى المابين وهرع العمال والموظفون إلى السراي، واستَمرَّ الأمر على هذه الحال أياماً.

وعلى الرغم من استمرار ضعفه، فقد تماثَل للشفاء يوم الجمعة التالي، وأصرَّ على الخروج إلى السلاملك [مراسم تحية يوم الجمعة]، وخرج بالفعل، وقمنا جميعاً وذَبَحْنا الذبائح.

وكـان قد طلب، أثنـاء مرضـه، طبيباً من إمبراطور ألمانيا، فأرسل إليه البروفسور برغمان والدكتور بيير، فقاما بفحص الوالد، ومع رضائهما عن العلاج الذي تَمَّ حتى تلك اللحظة، فقد كانت لهما بعض التوصيات الجديدة، وبناءً على هذه التـوصيات بدؤوا في استحضـار مياه فردريك المعدنية من ألمانيا، وشَرَع الوالد يشرب منها.

وفي تلك الأثناء مَرِضت أختي الأميرة رفيعة، وهي تصغرني بأربعة أعوام، فقام البرفسور برغمان والدكتور بيير بعلاجها، ولهذا السبب قام والدي فجعل

(11) يحصل الأمراء المرشحون لاعتلاء العرش على ألقاب «ولي عهد أول» و«ولي عهد ثان» تبعاً لترتيب أعمارهم (ن).

(*) هذا القصر يضم الآن مكتبة وقاعة للمحاضرات والندوات في مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي، وذلك بعد جهود طيبة بذلها الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلي مدير عام المركز لترميمه وإعادته إلى صورته الأصلية (المترجم).

الـدكتور بيير يمكث بالسراي، كما جعل البروفسور برغمان يفحَصُنا جميعاً، وكان يَثِقُ كثيراً في علاجه.

وبعد عدة أيام شُفِي الوالد تماماً، ولما وجد الأطباء خلال مرضه أن غرفة نومه عديمة التهوية، أوصوه بتغيير الهواء وأصرُّوا على ذلك؛ فقام وجعل من قاعة القصر الصغير الذي كان أمر بإنشائه على الطراز الياباني عقب الزلزال الكبير غرفةً للنوم بصورة مؤقتة، وأمر بصنع سريرين على شكل ديوان مفروشين بالقطيفة الحمراء، كانت والدتي تستخدم أحدَهما وينام هو على الآخر، وفي النهار يَتِمُّ تغطيتهما فيتحولان إلى أريكة، ومن ثَمَّ كانت تُستَخدم هذه الغرفة قاعة للجلوس في النهار.

وظـل الوالد يستخدمها وينام بها بصورة دائمة حتى خُلِع عن العرش، وتخلَّى فيها عن عادته في سماع الكتب التي كانوا يقرؤونها عليه، فضلاً عن أن عاصم بك كان قد توفِّي هو الآخر.

بعد هذا، عاش الوالد حياة لم يتعرض فيها لمرض آخر ذي بال، وتُوفِّي وفاةً طبيعية.

أخوات الوالد

رأيت لوالدي ثلاث أخوات، أما الأخريات فلم أرهن، بل سمعت عنهن في شكـل حكـايات. وعمـاتي الـلائي رأيتهن هن بترتيب أعمارهن: الأميرة جميلة، والأميرة سنيحة، والأميرة مديحة.

وكانت الأميرة جميلة تحضر في المقدمة في التشريفات والمراسم بصفتها كبـرى أخـواتهـا الثـلاث، وعلى يمين الـوالـد دائمـاً، وعنـدما كانت تجلس يخصصـون لهـا المقعـد الكبير في الجـانب الأيمن، وتسير في المراسم في

المقـدمـة إلى جانب الاميرة الوالدة، وكانت ترتدي دائماً ملابسَ بُنية اللون، وتضَعُ كسوة على رأسها من الدانتل أو التل من نفس لون ملابسها، وهي ملابس على الطراز التركي بحاشية طويلة، ولأن الأقمشة الثقيلة التي تلبسها كانت دائماً باللون البني، فقد صار اللون علَماً عليها ومَيِّزةً تميزت بها، ولم تكن تعلق شيئاً من المجوهرات على الإطلاق.

وهي رَغْم بساطتها الشديدة، تكشف بعراقة تصرفاتها عن استحقاقها لكلمة أميرة، ويقول كل من عرفها: إنها تشبه إلى حد كبير جدي السلطان عبد المجيد، والحقيقة أن عينيها وسيماها تشبه إذا ما نَظَرنا إلى صورته وصورتها عيناه وسيماه. وكان كل مَن في السراي ينظر إلى الأميرة جميلة بكل الحب والتقدير، وكانت في حديثها وَدُودة ذكية، لا تضحك بلا سبب، وتعامل كل فرد بما يَليق به، والحاصل أنها كانت أميرة كاملة، كانت زوجةً لمحمود جلال الدين باشا ابن الداماد(*) فتحي باشا.

أما الأميرة سنيحة، فكانت ترتدي ملابسها من القماش الثمين، وتَضَعُ التاج على رأسها في المراسم، وتلبس فساتين ذات حاشيات طويلة على الطراز الأوربي، وكان لها طلعة ملكية، جميلة الوجه، تقص شعرها مثل الذكور، ولا تَدعه يطول، متحررة إلى أبعد الحدود، كثيرة الضحك بقهقات مدوية، تتحدث بسرعة وصوت غليظ. ولم يكن أحد في السراي راضياً عنها، لأنها كانت تتصرَّفُ بلا مبالاة، وكانت زوجة لمحمود جلال الدين باشا(١٢) ابن الدامات خليل رفعت

(*) كلمة داماد تعني صِهْر، وهو لقب لا يُمنح إلا لأصهار السلاطين (المترجم).

(١٢) في تاريخنا الحديث ثلاثة رجال عرفوا باسم «محمود جلال الدين باشا»: أحدهم هو زوج الأميرة جميلة ونجـل أحمـد فتحي باشا، ولد في استانبول عام ١٨٣٦م، وقتل خنقاً في الطائف مع مدحت باشا في ٧ مايو ١٨٨٤م. والثاني هو محمود جلال الدين باشا (١٨٥٣-١٩٠٣م) ابن خليل رفعت باشا وزوج الأميرة سنيحة، غادر الأراضي التركية مع ولديه الأمير =

باشا، وأمّاً للسيدين صباح الدين ولطف الله.

أما الأميرة مديحة، فقد كانت مُولَعة بالأساليب الأوربية، وكان ملبسها جميلاً وَقوراً، وكانت حريصة على إظهار نفسها بمظهر ملكي بفساتينها ذات الحاشيات الطويلة، وكانت ضئيلة الحجم، بيضاءَ البشرة بعينين سوداوين جميلتين. وكانت تشبه هي الأخرى السلطان عبد المجيد، رقيقة جذّابة، كثيرة المجاملة، يحبها كل من في السراي. وكانت مثل الأميرة سنيحة، تتحدث ببساطة وضحكات عالية، حتى إن هاتين الأختين كانتا عندما تتحدَّثان إلى والدي تُطلِقان الضحكات كما لو كانتا في مباراة لإضحاك الوالد وإدخال السرور إلى قلبه، وكنا نحن أيضاً نشهَدُ فيهن هذه الحال بالحَيْرة والدهشة.

وقد تزوجت الأميرة مديحة، عام ١٨٧٩م بنجيب باشا ابن سامي باشا، وكان لهما ولد يُدعى سامي بك، أصبح فيما بعد الياور الخصوصي لوالدي، وكان ضمن رجال أخي عبد القادر أفندي (١٨٧٧ - ١٩٤٤م) في «طابور أرطغرل» يسير خلفَ الوالد بحصانه في المراسم وأيام الجمعة عند أداء التحية، وكان كثيرَ الترددِ على السراي. ولما تُوفِّي نجيب باشا تزوجت الأميرة مديحة عام ١٨٨٦م بالداماد فريد باشا، غير أنها لم تُنْجِب منه، وتوفِّيت في التاسع من نوفمبر ١٩٢٨م.

= صباح الدين والأمير لطف الله عام ١٨٩٩م، وعاش حياة بائسة في روما ولندن وبروكسل التي توفِّي فيها عام ١٩٠٣م، ثم قام ابنه صباح الدين بنقل رفاته إلى استانبول بعد إعلان الدستور. أما الثالث فهو محمود جلال الدين باشا الذي لم يذكر اسمه هنا فهو مؤلف كتاب «مرآت حقيقت» وصاحب الأعمال الموسيقية الرقيقة والشاعر والملحن، عاش بين سنوات (١٨٣٩ - ١٨٩٨م)، وكان رجلاً فاضلاً من بين رجال الدولة، عمل في وزارات المالية والتجارة والإنشاء والتعمير، وهو والد صالح منير باشا الذي تحدثنا عنه في القسم الأول من الكتاب، ووالد الملحن العظيم شمس الدين ضيا بك (ن).

زيارات الأمراء

كان من عادة إخوة الوالد وأبناء السلطان عبد العزيز أن يأتوا إلى المابين لتقديم التهاني في المناسبات الرسمية، وعند وصولهم يُعرَض الأمر على السلطان. ويقيمون الصلاة معه بعد الخامس عشر من شهر رمضان، يتحدَّثون إليه ويتحدث إليهم، وفي الأعياد كانوا يأخذون منه هديةَ العيد فيما عرف باسم «كِرَاءُ الأسنان»(١٣).

وكان الوالد يقوم بدعوة الأمراء بنفسه أحياناً، وعندئذٍ يشاهدون عروض المسرح معاً، ويتحدَّثُ معهم أحياناً في «قصر شاله» أو في «قصر جيت». وكان عندما يتحدث مع الأمراء في المسرح يدَعُنَا نخرج نحن أيضاً إلى جانبهم، وكان يحدث أحياناً أن يَدعُوَ اثنين أو ثلاثة من كبار الأمراء ويستقبلهم معاً.

وكنت قد رأيت مرةً في طفولتي ولي العهد الأول رشاد أفندي وكمال الدين أفندي ولي العهد الثاني، ثم صار الأول يأتي إلينا في الأيام الأخيرة، بينما تُوفِّي الثاني (١٩٠٥م).

زيارات إمبراطور ألمانيا

لا أتذكر ألبتة الزيارة التي قام بها الإمبراطور الألماني عام ١٨٨٩م، فقد كنت آنذاك في الثانية من عمري، وكانت أختي الأميرة نائلة وهي تكبُرني بثلاث سنوات قد قدمت للإمبراطورة باقةً من الورد، ولما زارت الإمبراطورة الحريم الهمايوني تعرَّفَت بالأميرة الوالدة والأميرتين سنيحة ومديحة أُختَيْ والدي، وبالزوجة الثانية «بيدار قادين أفندي» وأختنا منها؛ الأميرة نعيمة.

---

(١٣) كانوا يطلقون تعبير «كراء السن» على النقود والهدايا التي تقدم في رمضان على الضيوف المدعوين إلى السراي والقصور عقب الإفطار (ن).

وفي هذه الزيارة الأولى للإمبراطور ويلهام، استقبله والدي عند رصيف سراي طولمه باغجه، واعتذر له آنذاك لأنه لـم يتمكَّن من الذهاب بنفسه حتى الباخرة، وأشار إلى البُسط المفروشة على الأرض وقال: «هذه البسط ليست شيئاً ذا بال، وكنت أَوَدُّ أن أفـرش لكم ما هو أثمن منهـا، غير أن الأمـر جاء على عجلة»، وسُرَّ الإمبراطور كثيراً، وشَدَّ على يد الوالد، وبدأت عَلاقات الصداقة بينهما على هذا النحو.

وفي زيارته الثانية عام ١٨٩٩م قدمت له أصغر أخواتنا الأميرة رفيعة باقة الورد، وتحدث إلى الإمبراطورة، كلٌّ من الأميرة الوالدة والزوجة «بيدار قادين أفندي» والأميرتين سنيحة ومديحة وبنات السلطان مراد: الأميرة خديجة والأميرة فهيمة، وأنا وأخواتي في الصالون الكبير داخل «جناح السلطان».

وقام آغوات الحريم بملابسهم الموشاة فاصطفوا مع المصاحبين صفَّيْن وقدَّموا للإمبراطورة التحية عند مجيئها من قصر شاله، والوالد يتأبَّطُ ذراعها. أمَا الكـاتبـات والخـزينـة دار اسـطى بمـلابسهن التركية، فكُنَّ يقفن عند الباب الخارجي للصالون.

وأُضيئت كل الشمعدانات والمصابيح والثريات، وأقيم استقبال رسمي ضخم، وقـامت الأميرة الوالدة والأميرات الأخريات باستقبال الإمبراطورة عند باب الصالون، وقامت ابنة أرتين باشا بمهمة الترجمة. وبعد مراسم التعارف، جَلَست الإمبراطورة وسط الأريكة الكبيرة، وجلست إلى يمينها الأميرة الوالدة، وجلس إلى يسارها الوالد، كما جلست الأميرات بترتيب درجاتهن.

وارتدت الأميرات في حفل الاستقبال ملابس بيضاء إفرنجية الأسلوب، وعلَّقْن نياشينهن، أما الأميرات الكبريات، فقد علَّقن التيجان على رؤوسهنَّ، وجـذب انتبـاه الإمبـراطورة ملابس الأميرة الوالدة وملابس الخزينة دار اسطى

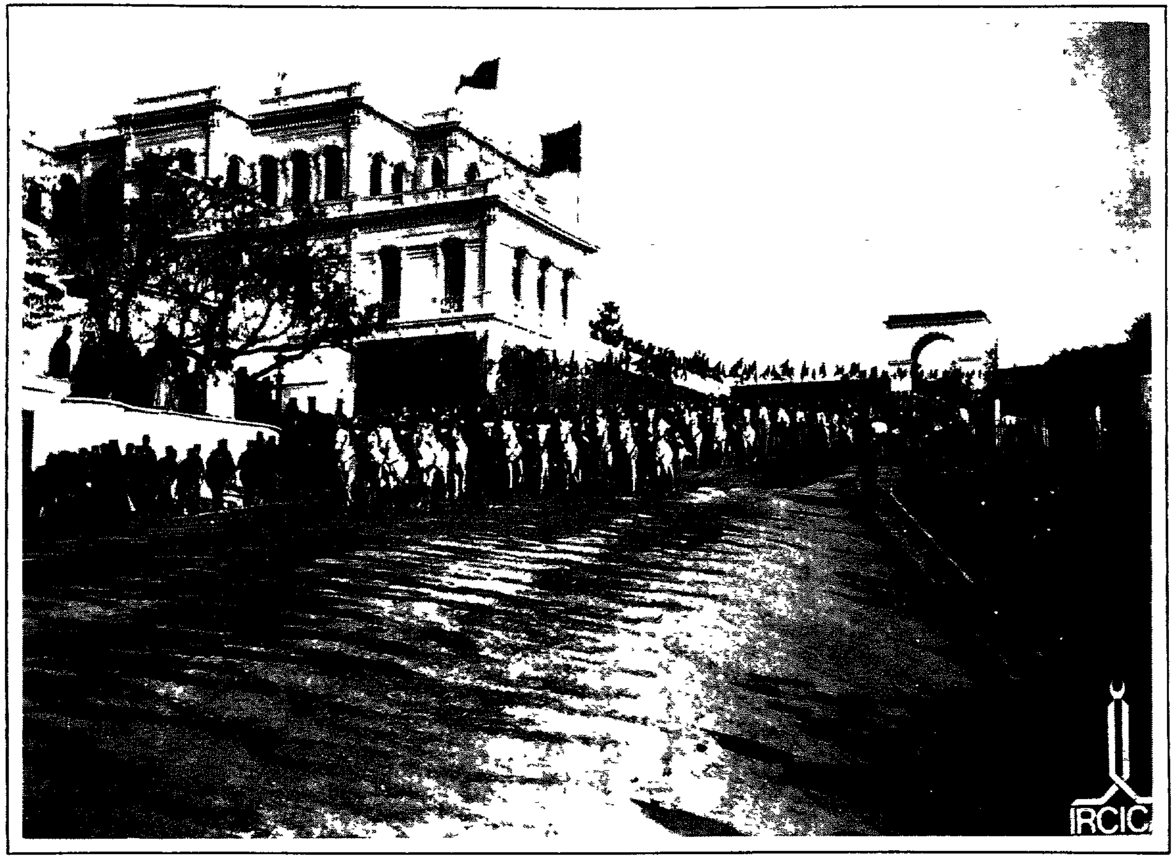

قصر يلديز والاحتفال الذي أقيم بمناسبة زيارة إمبراطور ألمانيا للسلطان عبد الحميد الثاني

(صورة من أرشيف مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستانبول)

والكاتبات، وقالت: إنها أُعجِبت بها كثيراً، حتى إنها دَعَت بعض الكاتبات إلى مجلسها وفحصتهن بعناية.

وتطلّعت الإمبراطورة والدهشة تأخذها إلى القهوة التي جاءت بها «القهوجي قلفه»، بفستانها ذي الحاشية الطويلة، والكسوة على رأسها، فقدَّمتها إليها في صينية كبيرة من الذهب داخل تعليقة مغطاة بغطاء موشّىً باللؤلؤ، وفناجين من القيشاني مرصعة بالماس، فسَعِدت الإمبراطورة كثيراً بهذا التقليد، واستفسرت عن وظائف القلفاوات اللائي رأتهن، وعن العادات والتقاليد المعمول بها.

ويوم أن زارت استانبول كارمن سيلفا ملكة رومانيا، عَرَضَ عليها الوالد فرقة موسيقية تركية مشكلة من الفتيات، وقيل: إن الملكة كانت حَكت ذلك للإمبراطورة؛ فطلبت هي الأخرى مشاهدة هذه الفرقة، وآنذاك أجابها الوالد قائلاً: «إن الفرقة التي شهدتها الملكة لم تعد باقية الآن؛ فقد غادرت فتياتها السراي وتزوَّجْنَ، ولم يشغل أحدٌ مكانهن، وأنا آسف لذلك أشدَّ الأسف لأني لن أستطيع تحقيق رغبتكم هذه».

وكان الوالد يعلَم أن من عادة أخواته التحدث بسرعة وإطلاق الضحكات العالية؛ فنبَّهَ عليهن مقدَّماً ورجاهن أن يمسكن ألسنتهن، ومع ذلك لم يتركن عادتهن فاضْطُرَّ الوالد أن يقول للإمبراطورة: «لا تؤاخذيهن، فإنهن عصبيات بعض الشيء».

استمرَّ اللقاء مع الإمبراطورة ساعة ونصف الساعة، ثم ذهبت إلى قصر شاله، كما جاءت، متأبطة ذراع والدي.

لم تكن بنات السلطان مراد قد تزوَّجن بعد، وكنَّ يسكن في سراي يلديز، وفكر أبي وهو يقدم بناته للإمبراطورة بأن لا يَقِفْن بعيداً حزينات؛ فأمر باشتراكهن

في المراسم هن الأخريات.

الاستعراض العسكري

كانت الاستعراضات الرسمية التي تقام للحكام القادمين إلى السراي تتم في «ساحة التعليمخانه» داخل سراي يلديز، ويشهدون العرض مع والدي من شرفة جوسق التعليمخانه، وتذهب عرباتُنا فتقف عند أحد الأركان، ونشهد على هذا النحو استعراض العساكر.

وبعد الإمبراطور الألماني كان الأمير ويلهام، ولي العهد والابن الثاني إيتل فريدريك قد نَزلا ضيفين على السراي، وجاء بعدهما الابن الثالث البرنس ألبرت ضابط البحرية بسفينة الكلية «شارلوت»، وبعد مأدُبَةِ الطعام التي أقيمت على شَرَفه اشترك في العرض العسكري ومرَّ البرنس من أمام الجوسق في مقدمة عساكر بحريتنا.

ولأن أخي برهان الدين أفندي (١٨٨٥ ـ ١٩٤٩م) كان بحرياً ويدانيه في العمر، فقد صارا صديقين. كما اشترك أيضاً في العرض العسكري إخوتي الآخرون والأمراء العسكريون ومروا في مقدمة طوابيرهم.

وقصَّ الأمير ألبرت على برهان الدين أفندي أنه يعشَقُ الموسيقى، وكان أخي يُجيد عزف البيانو. وذات مساءٍ اجتمعنا في مجلس والدي في المابين الصغير، فكان أخي يعزف البيانو، بينما عزف ألبرت على المندولين، حتى انقضت الليلة. وفي تلك الأثناء بينما كان البرنس ألبرت عائداً إلى قصر شاله أدرك أنه فَقَد دبوس كان يعلقه على ربطة عنقه، فراح إلى موظفي المابين وقال لهم: «لقد سقط مني دبوس ذهبي، ليس بالشيء الثمين، إلا أنه تذكار، أرجوكم أن تعثُروا عليه».

وأخبروا الوالد في الحال؛ فأصدر أمره إلى خدَمة السراي بأن: «يبحثوا

عنه ويعثروا عليه، وقال: سوف أمنَحُ من يَجِدُه ويحضره لي مئة ليرة»؛ فوجده أحد الخدم وأحضره إليه ثم حصل على عطيته، وعندها قام والدي فوضَعَ إلى جانب الدبوس دبوساً آخر ثميناً ذا فَصٍّ أوحد، وأهداه إلى البرنس، فسُرَّ الأخير غاية السرور.

لقد أُعجب كل من في السراي بهذا الأمير، ووجدوا فيه شاباً محبوباً وسيماً.

وقد قدم والدي كثيراً من الهدايا سواء للإمبراطور أو لأبنائه، كان من بينها أقمشة وبسط من صنع هركه، وزهريات مما صُنع في مصنع القيشاني. وكان الإمبـراطور قد أُعجب كثيراً بنوع من الكُمَّثْرَى يُسمَّى أقجه؛ فأُعدت له عدة صناديق منها، وأرسلت إليه، كما أعجب أيضاً بطيور العقعق(*)؛ فأُرسلت إليه عدة منها في أقفاصها مع الكُمَّثرى.

وعنـدمـا كنت في برلين قمتُ بزيارة المتحف الخصوصي للإمبراطور، وشاهدت هناك كثيراً من الهدايا التي قدمها والدي إليه، كما شاهدت قُفَّازَ الوالد معروضاً، وكان قد سقط منه فأخذه الإمبراطور واحتَفَظ به للذكرى.

لقد احترق مع الأسف جوسق التعليمخانة الذي كانت تُقام فيه مثل هذه العـروض التـاريخية، وذلك على أيام السلطان وحيد الدين، ولازِلت أحتفظ بصور هذا الجوسق وبعض صور العروض العسكرية.

وكان والدي يذهب في بعض الأمسيات إلى جوسق التعليمخانه، ويشهد تعليم العساكر، وتوزيع الطعام عليهم ويتذوَّقُها من القدور، فإذا أحس بشيء ينقصهـا قام على الفـور ووبخ العاملين، ففي كل مساء كان يأتي الطعام من

(*) طائـر يشبه الغراب وأقل حجماً منه، طويل الذيل ولونه أسود يتخلله بياض، يمشي مثل الغراب وله صوت غريب يشبه صوت المنشار في الخشب (المترجم).

القشلات إلى السراي ويوضع أمام دائرته، فيصطحب إلى جانبه أحد الأطباء ويجعَلُه يفحص الطعام ثم ينظر هو إلى طعمه.

حديث الوالد عن الإمبراطور الألماني

تحدث الوالد عن الإمبراطور الألماني وعن العلاقات التركية الألمانية، ثم تحدَّث بالمناسبة عن سياسته هو في إدارة الدولة وقال: «زار استانبول مرتين أيام سلطنتي، وقد تعرَّفْتُ عليه عن قرب، فهو شخصية شابة نشطة، وشخصية رقيقة محبوبة. وقد أخذ على عاتقه ذلك الدور الذي قام به بسمارك عقب سقوطه على الأرض، غير أنه لم يكن ذكياً محنَّكاً بقدر ما كان بسمارك، والغاية التي يستهدفها هي قوة ألمانيا العسكرية. وأنا مع ما أوليتُه من الاهتمام الشديد للسياسة الألمانية، فإنني كنت حَذِراً على الدوام من أن أُغفِل الدول الكبرى الأخرى، أو أفعل ما يغضبها، فوضعت سياستي على الميزان، حتى استمرَّت صداقتي الشخصية مع الإمبراطور الألماني وأبديتُ في نفس الوقت صداقتي كلما سنحت فرصة لإمبراطور روسيا. إن موقعنا الجغرافي يقتَضي منا ذلك.

وفي زيارته الثانية، بينما كنت أتحدَّثُ معه ذات مساء حديثاً خاصاً، وجدتُه ينهض فجأة ويشد على يدي ويقول: «إذا حَدَث واشتعلت الحربُ في أوربا وقفتم في صفنا أليس كذلك يا صاحب الجلالة؟»، وكان ردِّي عليه أن قلت: «أنتم صديق عزيز لنا، غير أنِّي لا أملك من الآن حقّاً يجعلني أعدكم بذلك، ولا يمكنني إلا أن أفكِّرَ آنذاك في هذا الأمر».

ولم أكن مطمحاً لدولة من الدول أيّاً كانت دون أن أضع مصالح دولتي نَصْب عيني، لقد كان الوضع السياسي في أوربا يتأزَّمُ يوماً بعد يوم، وكانت الحرب العالمية وشيكة الاندلاع، غير أن انحيازنا لطرف من الأطراف كان من الممكن أن يزيد النار لهيباً، وعندها ربما يقولون بأننا كنا السبب في إشعالها،

والواقع أننا كنا مضطرين لعدِّ خطوات أقدامنا والتحرك بحساب.

إن الإنسان لا يمكن أن يكون ديبلوماسياً لمجرد قوله «أنا ديبلوماسي»، وقد كان بسمارك ديبلوماسياً حقيقياً، خَبَر طبيعة أوربا وروحها، ولي معه مكاتبات خاصة؛ فقد تبادَلْنا الكثير من الرسائل.

إن الألمان شعب عسكري وجادٌّ من الطراز الأول، ولكن هل كان ممكناً لهم أن يَقِفُوا في وجه القوة العددية للروس وفي وجه السياسات الخبيثة للإنجليز؟ إن البَتَّ في هذا الأمر ليس بالشيء اليسير، المهم أنني لم أعِدْ دولة من الدول ولم أرتبط مع واحدة منها. وقد كانت عيون إنجلترا وفرنسا على الشرق دائماً، وكانوا تواقين لبذر بذور الفتنة بيننا وبين المسلمين. كانوا يودُّون كسر شوكتنا بهذه الصورة، وكنت أُريد أن أدفع ذلك بسياسة الخلافة الإسلامية، واجتهدت في أن أَحُول دون خلق بؤرة للتوتر.

والواقع أنه كانت لي صداقة مع إمبراطور النمسا، وهي صداقة بدأت من قديم، وكان لها طبيعة خاصة؛ فقد أصابتني وعكة وأنا في ڤيِنّا عندما سافرتُ مع عمي السلطان عبد العزيز في رحلة إلى أوربا، وأَصَرَّ يومَها الإمبراطور على أن أنزل عليه ضيفاً في قصر Schönbrunn ، وأمر بعلاجي، ووصلتُ استانبول بعد وصول عمي بأربعة عشر يوماً، وحاولت الاستفادة من هذه الصداقة وعَمِلْت على تقوية سياستنا.

وكان أومبرتو ملك إيطاليا أيضاً صديقي، وقد مات نتيجة لمؤامرة بقنبلة وضِعت له عندما كان ابنه فيكتور عمانويل في زيارة لإستانبول، فصار عمانويل وليُّ العهد ملكاً ولم يغادِر مياهنا بعد، وكان هذا أيضاً سبباً في توطيد أواصر الصداقة بيننا، وكانت زوجتُه ابنة أمير الجبل الأسود، وكنت أضع هذا الأمير تحت يدي باستمرار وأمنحه راتباً، لقد كان رجلاً فاضلاً.

أما عن البلغار، فقد كانوا بمثابة الطفل المدلَّل للروسيا، وكنت أُلاطِف فرديناند أمير بلغاريا، وجعلته واحداً من الياوران، وأستطيع الآن أن أقول: «إني لم أعـرف شخصـاً بينَ من عرفتُ يملك الـذكـاء الشيطاني الذي كان يملكه فرديـناند، فهؤلاء الأطفال المدللون كان يوجد على رأسهم ذلك الأمير الذي يملك ذكاءً مدهشاً، وكان يعتمد على قوة مثل قوة روسيا، لقد كنت حذِراً من اشتعال الحرب، فلا قدَّرَ الله لأمتي ودولتي زوالاً».

كان يوجد في المتحف الخاص بوالدي في السراي عصا مطلية بطبقة من الذهب أهداها إليه الإمبراطور الألماني، وكانت هذه الأشياء(*) خاصة بوالده قدَّمها لوالدي هدية وهو يقول: «إنني أقدِّمُ لكم هذه الأشياء التي تحمل قيمة كبيرة في نظري، لأن والدي فردريك كان يستخدمها تذكاراً صادقاً على ما بيننا من صداقة».

وكانت توجد أيضاً زهريتان رائعتان من إنتاج مصنع «فيشر» نُقِشَت عليهما علامة الوالد: (A.H.) أرسلهما إليه إمبراطور النمسا عندما اعتلى والدي عرش السلطنة.

وكـان يوجد داخل خزانة من الزجاج قطع مختلفة صُنِعت من العقيق، وعُلَب تحمـل علامـة النبـالـة والـطغراء مرصعة بالذهب والماس أرسلها إليه إمبراطور روسيا. أين هذه التذكارات الآن؟ لست أدري؛ فلم أرها في المتاحف.

ولم تَنْسَ إمبـراطورة ألمانيا أيضاً صداقتها لنا؛ فبعد سنوات طويلة من زيارتها لاستانبول، كلَّفت زوجة السفير الألماني البارون مارشال فون بيبرشتين أن يقدِّمَ لأختي الأميرة نائلة في حفل زواجها باقة من الورد تعبيراً عن تهانيها،

(*) لم يُذكر في النص التركي إلا هذه العصا (المترجم).

وساعةً صغيرة مرصعة بالمجوهرات، فقامت زوجة السفير وقدمت هذه الأشياء باسم الإمبراطورة.

زيارة شاه إيران

جاء شاه إيران مظفر الدين أيضاً لزيارة والدي، وكانت قد بدأت الاستعدادات في السراي فور العلم بقرب وصوله، وتمَّ تجهيزُ جناح صغير ذي طابق واحد يُطلَق عليه اسم «جوسق العجم» خُصِّص لاستقبال الشاه، وكان مقرراً أن يدخل من الباب الموجود في ناحية سراي «جراغان» ثم يُقام الاستقبال الرسمي في صالون هذا الجوسق الصغير ويغادره بعد ذلك إلى «قصر شاله».

غير أن المسألة كانت أكبر من ذلك؛ فكلاهما حاكمان مسلمان، والشاه لأنه الضيف كان لا بد أن يجلِسَ إلى اليمين، ولكي يجدَ الوالد حلاًّ لذلك فكَّر في قيادة العربة بنفسه، فتناول لجام عربة السلطنة، وكانت مجهزة بزوج من الجياد المجرية البيضاء أهداهما إليه الإمبراطور النمساوي، ووصل على هذه الحال إلى القصر بصحبة الشاه، أما نحن فقد لجأنا إلى النظارات المكبرة ورُحْنا نشهد بها الحفل.

وكان الحفل باهراً، اصطفَّت العساكر، وعُزِف نشيد الشاه، وكان الشاه نفسه غارقاً في المجوهرات، وعلى قَلَنْسُوته حجر وحيد كتبت عنه الصحف آنذاك وقالت: إنه ثمين لا يُقَدَّر بمال، فقد كان بريقه يَبهَر الأنظار.

وقدم الشاه مظفر الدين مصحفاً كريماً إلى والدي، وقال له وهو يقدمه: «لا أستطيع أن أهدِي لحاكم وخليفة مثلكم إلا القرآن الكريم». وكان موضوعاً في عُلبة من الذهب مرصعة بالياقوت، نُقِش عليها عبارة «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»، وبعدها عرض علينا الوالد هذا المصحف، ثم وضعه بمكتبته في متحفه الخاص.

وفي المساء أُقيم حفل العشاء على شرف الشاه، وحضره سفراء الدول الأجنبية والوزراء، ومكث الشاه ضيفاً لمدة أسبوع في قصر شاله، وتَمَّ إعداد فريق موسيقى المابين؛ فظل يعزف له أثناء طعامه الخاص ما تعلَّم من الأغاني والموسيقى الإيرانية، وشاهد عدا المسرحيات الأوربية التي عُرضت له في المسرح بعض ألعاب مسرح الساحة «أورطه أويوني» وأُعجب بهذه اللعبة الشعبية أشد الإعجاب.

وذات يوم تناول والدي معه الغداء بصورة خاصة في المابين الصغير، وكان بصحبتهما الصدر الأعظم خليل رفعت باشا، وتباحَثُوا دون مترجم، لأن الوالد كان يعرف الفارسية، كما كان الشاه وهو التركي الأصل يتحدَّثُ التركية، مما ساعد على أن يتبادلا الحديث ويتفاهما. وفي تلك الأثناء أُعجب الشاه كثيراً بخدمة الآغوات المصاحبين، وحاول الحصول على معلومات من الوالد عن وظائفهم، ثم أفصح عن رغبته قائلاً: «يا ليت كان لبناتي أيضاً آغوات مثل هؤلاء». وعلى هذا قام والدي فاختار ثلاثةً من آغوات السراي الشبان وقدَّمهم هدية للشاه.

ومضت السنين، والتقيت بالصدفة أثناءَ وجودي في سويسرا مع البرنس ميرزا نصر الدين خان شقيق محمد علي شاه، وتحدَّثتُ إليه، وكان حديثنا مما أدخل السرور على قلبينا كنجلين لصديقين قديمين، وحكى لي البرنس ضمن ما حكى أن هؤلاء الآغوات ظلُّوا يَخدُمون الشاه بإخلاص، ولا زالوا على قيد الحياة إلى جانب أخواته، وفاضت عيوننا بالدمع على ذكرى تلك الأيام الماضية.

وكان والدي قد أُعجب بشاه إيران مظفر الدين، ذلك الرجل الحنون، وأحبَّه كثيراً، ولا أدري لماذا هُدم ذلك الجناح الجميل على أيام السلطان رشاد، الذي أُقيم تكريماً له وكان يُسمَّى جوسق العجم، غير أنني لازلت أحتفظ بصورته.

حادثة القنبلة

«٢١ تموز/ يوليه ١٩٠٥م»

كنت في السابعة عشر من عمري، يوم الجمعة، والهواءُ جميل، فأمرت أن يعـدُّوا لي العربة، وكان قصدي أن أخرج للنزهة بعد مشاهدة حفلة تقديم التحية، وكان يقضي القانون أن تخرج الأميرة الوالدة مع «الخزينة دار اسطي» يوم الجمعة للاشتراك في أداء هذه المراسم، ومن الغريب أنه لم يخرُج أحد من السراي في ذلك اليوم، إلا أنا، وجاءت من الخارج الأميرة منيرة ابنة عمي كمال الدين أفندي (١٨٤٨ ـ ١٩٠٥م).

وأخـرجوا الخيول واصطفت العربات، وعُزِف النفير للأمر بالاستعداد، وكان كنعان باشا أحد الياوران يقف عند حجر الركوب، وفي تلك الأثناء سُمع دَوِي مخيف انطلق بشدة مثل المدفع باتجاه برج الساعة، وكان هذا الصوت أقوى من صوت المدفع وأكثر منه رعباً، حتى إن عربتنا انتفضت بشدة، ورحت أصرخ من الخوف أنا ومربيتي[١٤] التي تجلس إلى جواري و«نو نور قلفة» التي تجلس في مواجهتي، وكنا نصيح رعباً: «يا الله، يا الله» غير أننا لم ندرك ماذا حدث، وقد تحوَّل فناء الجامع في لحظة واحدة إلى حالة من الفوضى وغطاه الدخان والرماد، وكانت تَمطُر أشياء على رؤوسنا، وتسقط أحجار من برج الساعة.

وشهـدت كنعـان باشـا وهو يقف أمام عيني وقِطَع الخشب تسقُط فوق رأسـه، فاستبـدَّت بي الحَيْرة وورد الـوالد على خاطري فجأة، فرحت أبكي وأصـرخ: «بـابا، بابا». وكان الآغوات الواقفون بجانبي ومدير المسيرة حليم

---

(١٤) تطلق كلمة «آبا» على مربيات الأميرات في السراي.

أفندي يقولون: «اقرؤوا الشهادة، إن شيئاً يسقط من السماء».

وفي تلك اللحظة رأيتُ والدي وهو يقف على الدرجة الثالثة من السلم تقريباً، فصاح مرتين وهو يقول بصوته الجَهْوري باسطاً ذراعيه: «لا تَخافوا، لا تخافوا» ثم بدأ ينزل بخطوات وئيدة وهو يصيح: «فَلْيَبْقَ كل واحد في مكانه»، ورآه آنذاك كلٌّ من تفرق هنا وهناك من «بلوك المعية» أي الحرس الخاص والضباط والجنود وراحوا يأخذون أماكنهم على الفور، وجاء الوالد إلى مقدمة العربة وشَرَع في ركوبها وهو يقول: «لا تنزعجوا حتى لا يتأذّى أحدٌ من الزحام» وهرع أخي برهان الدين أفندي هو الآخر إلى العربة فدخلها، وتناول والدي اللجام وشرع يصعَدُ الطريق ببُطءٍ أكثر من أي وقت مضى.

وفي تلك اللحظة أطلَّ سفير النمسا والمجر البارون فون كاليس برأسه من نافذة دار الضيافة الهمايونية وصاح قائلاً: عاش السلطان «Vive Le Sultan, Vive» وفي ذلك اليوم كان قد أتى لمشاهدة التحية كثيرون من أهل فينا، وقفوا جميعاً في المقصورة وصفّقوا وهم يصيحون: عاش السلطان «Vive Le Sultan».

وعلى هذا النحو خرج الوالد سالماً وتوجه إلى المابين الهمايوني، غير أن المنظر في موقع الحادث كان مؤلماً للغاية؛ فقد تحطّم السور الحديدي الذي كان في مواجهة عربتي، وأصيب عدد من جنود الحراسة بجروح، وبسرعة جاء الساسة بخيول العربة وعلّقوها بها، وبينما نحن صاعدون في اتجاه السراي كنت أشهد أناساً سقطوا على الأرض أوخيولاً فأغمضت عيني ورُحت أبكي من شدة الصدمة، فلما وَصَلنا الحريم استقبلني كل من في السراي وعلى رأسهم والدتي، وكان سؤالهم الأول: «هل رأيت أفندينا؟» ووجدت نفسي أرتمي في أحضان أمي وقد اختلط بكائي بحديثي وقلت لهم: «لا تنشغلوا! لقد رأيت أفندينا بعيني، وقد وصل المابين». وكانت أمي المسكينة تبكي وتحمَدُ الله في

آنٍ واحـد، لأن كارثة مروعة كادت تستل حياتها وتمضي، ألم يكن ممكناً أن تفقِدَني وتفقد الوالد في لحظة؟

وبينما نحن ومن في السراي نَقِفُ هكذا أمام باب الحريم نروي ما حدث جاء أحد المصاحبين من طرف والدي وقال: «لا تنشغلوا، لقد أرسلني أفندينا، وهو يتباحَثُ الآن مع السفير، وبعد قليل سوف يشرِّف إلى الحريم»، وعندئذ هدَأَ الجميع.

وانتظرنا هناك حتى وصل والدي، فقبَّلنا يده بالترتيب وقلنا له: «حمداً لله على سلامتـك يا أفندينا»، وشكَرَنا ثم قال: «نحمد الله؛ فقد أنقذنا من هذا أيضاً، ونجونا بلطفه»، ثم التفت إلي وأردف قائلاً: «ابنتي! لم تخرُج اليوم إلى الموكب أميرة من الأميرات غيرك، كيف شهدت الحادث، هيا احكي».

وحكيت ما شهدت وقلت: «أفندينا! لقد عاد إلي الوعي فور أن رأيتكم، إنني معجبة بثبات جأشكم»؛ فأجابني: «إنني متوكل على الله، ولا يملأ قلبي إلا الخـوفُ منه، ولا أشعر بالخوف من شيء سواه. قبل أن تقع حادثة أشعر بالاضطراب لأجل دفعها، أما إذا شعرت أني وسط الخطر فإنني لا أتوانَى حتى عن أن أرمِي بنفسي إلى النار إذا دعت الضرورة، لقد حَفِظنا الله، وقد أمرت بالتحقيق لمعرفة ما إذا كانت هناك خسائر بين أبنائي العساكر والأهالي».

وبعـد ذلك وضع يده في جيب المعطف وأخرج منه مجموعة من قطع الحديد والحجارة وعرضها علينا ثم قال: «انظروا، هذه الأشياء دخلت جيبي»، فلمـا شهـدنـاهـا وضعهـا ثانية في جيبه وقال: «سوف أحتفظ بها في متحفي للذِّكرى»، فدعونا له وعُدنا إلى غرفنا.

واعتباراً من اليوم التالي: بدأت الوفود تتوافد على السراي للإعراب عن أسفهـا لهـذه الحادثة، وتواردت البرقيات من كل حكام العالم وكل السفراء،

وتحوَّل السراي إلى ما يشبه خلية النحل.

ثم أصدر والدي أوامره بمساعدة عائلات المتوفَّين وعلاج الجرحى في «مستشفى حميدية للأطفال».

وقيل: إن انفجار هذه القنبلة يوم الجمعة الحادي والعشرين من تموز/يولية ١٩٠٥م كان سبباً في خسائر تزيد على ثمانين شخصاً بين قتيل وجريح، وكان بهاء الدين بك المعلم الخاص لأخي الأكبر محمد سليم أفندي بين المتوفين؛ فقد اخترَقَت إحدى الشظايا طربوش أخي واستقرَّت في رأس الكهل المسكين.

وأُصيب أيضاً جواد أخي عبد القادر أفندي، غير أنه أتى به جريحاً حتى السراي.

وأصابت بعض الشظايا نياشين أخي الآخر أحمد أفندي، أما هو فلم يُصَبْ بسوء.

وأصيبت سيدة من فينَّا كانت تقف في المقصورة إصابة خفيفة في معصمها، وأرسل إليها والدي سواراً مرصَّعاً بالمجوهرات تذكاراً للحادث.

وقد تَمَّ تشكيل لجنة على الفور في المابين لإجراء التحقيقات، وظهر منها أن الذين دبروا هذه الحادثة جماعة من «جمعية طاشناق الأرمنية»، وعلى رأسهم الإرهابي أدوارد جوريه. وصدر الحكمُ على المتآمرين، وكَتَبت الصحف آنذاك هذه الأخبار، ونشرت في اليوم التالي نص الخطاب السلطاني.

وكانت خطبة الوالد على النحو التالي: «إن أعظم آمالي هي راحة وسعادة الأهالي، ومعلوم لديكم كيف عملت ليلَ نهارَ وسعيت في هذا السبيل، وإن مكافأة الله لي على سعيي وحسن نواياي هو أن أنقَذَتْني العناية الإلهية وخرجت

سالماً من هذه الحادثة، ولهذا أحمد الله وأشكره، أما ما يُحزِنُني فعلاً فهو لا شك إصابةُ ووفاة بعض أبنائي العساكر وبعض الأهالي، ولسَوْفَ أظل حزيناً على هذا إلى الأبـد. وأُعرِب من صميم قلبي عن امتناني للعواطف الرقيقة التي أبدَتْها الرعية في حقي، وأدعو الله أن يصونَها من الآفات السماوية والأرضية».

وبهذا أسدل الستار على هذه المسألة، وبعد مدة وجيزة أصدر الوالد عفوه عن أدوارد جوريه، بل وأحسنَ إليه وسمح له بالعودة إلى بلاده، فقام هو الآخر وشكر الوالد ووعده بأن يكون في خدمته، ثم مضى إلى حيث جاء، والحقيقة أنه كان عند وعده.

مواكب تقديم التحية

كانت تقـام مراسم تقـديم تحية الجمعـة [التشـريفـة] في «المسجـد الحميدي»، وكان الوالد يذهب قبل ذلك إلى مسجد سنان باشا، أو إلى التكية المـوجـودة في حي يلديز، والعادة أن يقوم «الأثوابجي» بإعداد الملابس التي يلبَسها والنياشين التي يعلقها. ويلبَس الوالد في موكب تقديم التحية زيه الرسمي المعتاد.

وكان يوجد بالسراي رجل فرنسي يقال له: قمبارا أفندي، يقوم قبل الموكب بإحضار آلات الرصد، ويضعها أمام دائرة الوالد التي تسمى «الجوسق الصغير»، وتُطلِق هذه الآلات صوتاً كالمدفع نتيجة للأشعة التي تستمدها من الشمس، وفي تلك اللحـظة يتم ضبطُ كل الساعات، وكان المصاحب الثالث نادر آغا مكلَّفاً هو الآخر بالمشاركة والحضور.

كان الوالد يحرص على الخروج إلى حفل أداء التحية في وقته، وكان وهو يرتدي ملابسه تكون عربتُه قد أُعِدَّت وأتت أمام الباب الزجاجي. وفي السابق كان الغازي [المجاهد] عثمان باشا الذي اشتهر بلقب بطل «بلاونه» يأتي إلى

البـاب، وينتـظر السلطان أمـامَه حتى يأتي فيركب معه العربة. أما في الأيام الأخيرة فكـان يقوم القائد العسكري رضا باشا بهذا، ويحضر هناك أيضاً أمير الإصطبل فائق باشا وبقية العاملين.

وقبـل أن يركب السلطان عربته بنصف ساعة تكون عربات الحريم قد خرجت هي الأخرى؛ وكان خروجُ الأميرة الوالدة والخزينة دار اسطي للاشتراك في مراسم التحية أمراً يَفرِضُه القانون، وتخرج الأميرات وزوجات السلطان إن أَرَدْنَ، ويأتي من الخارج أيضاً الأميرات المتزوجات وزوجات الوكلاء [الوزراء]. وكان لابد لوالدة خديوي مصر أن تحضر هي الأخرى مرة كل أسبوعين.

والقــاعـدة المـطلقـة أن يشتـرك الأمـراء وأبنـاء الأمـراء في المـواكب [التشـريفات]، لأنهم كانوا يسيرون على رأس الطوابير، ولا بُدَّ لهم أن يؤدُّوا التحية للسلطان، وكان برهان الدين أفندي يسير عند خروج الوالد للتحية في مقدمة طابوره، مثله في ذلك مثل بقية إخوته، أما عند العودة فكان يدعوه الوالد إلى عربته.

ولأن برهــان الـدين أفنـدي هو والأمير إبـراهيم توفيق أفندي (١٨٧٤ - ١٩٣٧م) من ضباط البحرية، فقد كانا يَقِفان للتحية في مقدمة طابور البحرية. ويقف للتحية أيضاً محمد سليم أفندي (١٨٧١ - ١٩٣٨م) على رأس الفرقة الثـانية، وعبـد القـادر أفندي (١٨٧٧ - ١٩٤٤م) على رأس «طابور أرطغرل للخيالة»، وأحمد أفندي (١٩٠١ - ١٩٤٣م) على رأس «طابور الخيالة ذوي المـزاريق»، وعبـد الـرحيم أفنـدي (١٨٩٤ - ١٩٥٢م) على رأس «طـابـور المدفعية»، ويقف جمال الدين أفندي (١٨٩١ - ١٩٤٧م) وعبد الحليم أفندي (١٨٩٤ - ١٩٢٦م) على رأس بلوك المعية [أي: الحـرس الخـاص]. وكان محمد شوكت أفندي - ابن السلطان عبد العزيز ووالد جمال الدين أفندي الذي

تُوفِّي شاباً ـ منضمّاً هو الآخر إلى نفس الفرقة التي يوجد بها أخي الكبير محمد سليم.

وعندما تصل عربات الحريم إلى فناء الجامع تصطَفُّ هناك بترتيب الأقدميات؛ فتقف عربة الأميرة الوالدة في المقدمة دائماً، بينما تقف عربة الخزينة دار اسطى في النهاية.

وفي اللحظة التي تخرج فيها عربة الوالد من باب السلطنة تعزف الموسيقى العسكرية ويعزف نفير التحية، ويهتف العساكر، وفي المرة الثانية والثالثة بينما تعزف الموسيقى المارش والتحية يكون أبي قد وصل إلى باب الجامع. ولا يحضر الصدر الأعظم في مواكب تقديم تحية الجمعة، بينما يقوم شيخ الإسلام باستقبال السلطان عند الباب، وما أن يدخل الجامع حتى تبدأ الصلاة، ويقوم الحجاج القادمون من الخارج والمسلمون القادمون من اليمن وجزيرة العرب فيفرُشُون حصيراً على الأرض في ساحة الجامع ويُقيمون الصلاة مع السلطان، وعندما تَقرُب الصلاة من نهايتها يسمح للعساكر بالخروج وتمضي كل فرقة وهي تعزف نشيدها الخاص.

قام أخي برهان الدين أفندي وهو في الثامنة من عمره بتلحين أحد الأناشيد، فطبعه والدي وقدّمه للطابور الذي انضم إليه أخي، وإلى فرقة الموسيقى البحرية، فكانوا يسيرون وهم يعزفونه، وبعد أن تمضي العساكر يبقى فقط بعضُ كبار الضباط وأركان المابين وخدمة السلطان. ولأن العودة لا تكون رسمية؛ فقد كان والدي يقودُ بنفسه عربته الخاصة ذات الحصانين، ويصطحب إلى جواره أخي برهان الدين أفندي، ويسير إلى يمينه أخي عبد القادر أفندي، وإلى يساره أخي أحمد أفندي، وقد ركبا جواديهما حتى يصلوا إلى السراي.

وكان لا بد أن يوجد أثناء هذه المراسم سفير أو اثنين في دار الضيافة

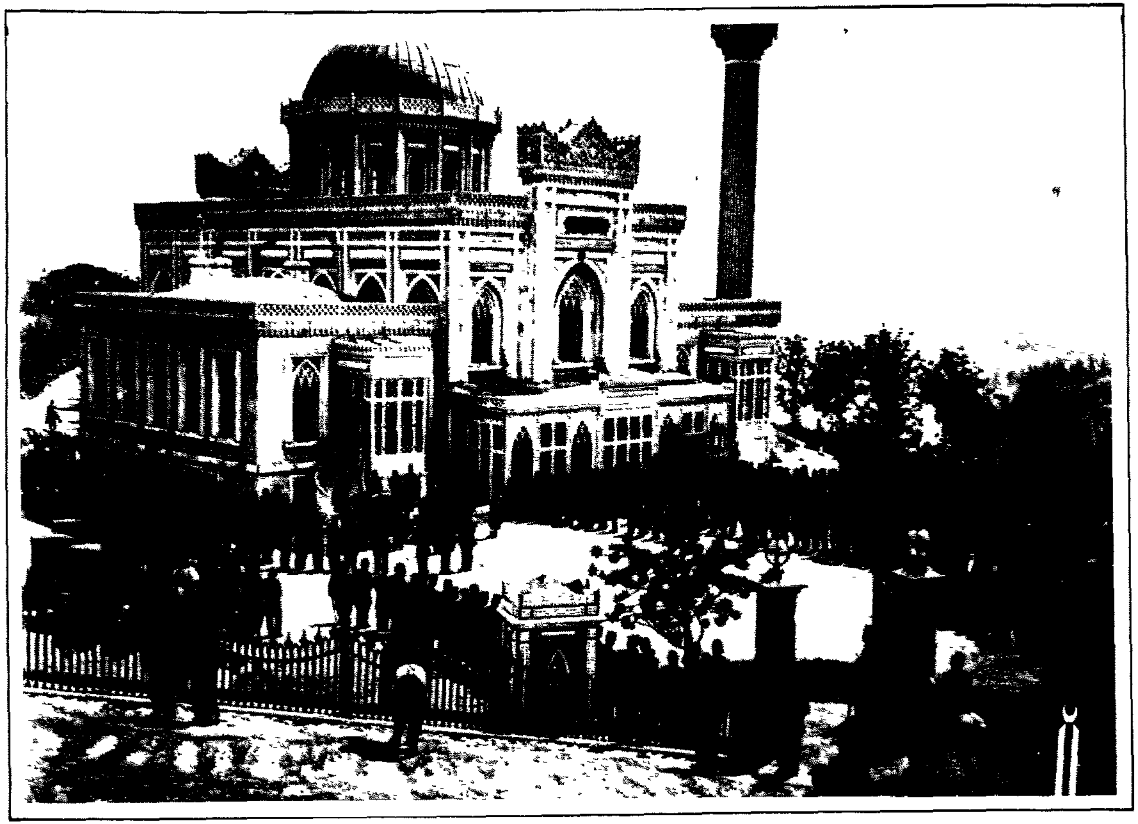

مراسم تحيـة الجمعة. وترى عربة السلطان عبد الحميد وهي تنتظر خروجه أمام باب جامع حميدية

(صورة من أرشيف مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستانبول)

بالمابين الهمايوني، كذلك المقصورات الموجودة أمامها كانت تَعجُّ بالأجانب الذين احتشدوا لمشاهدة الموكب. وبعد العودة من الموكب يستعد السفراء الموجودون في المابين الهمايوني أو «قصر جيت» لمقابلة السلطان، وأحياناً كان يَطُول اللقاء، ويظل الوالد يتباحث معهم حتى وقت متأخر، ثم يأتي إلى دائرة الحريم متعباً يتصبَّبُ عرقاً، فيغير على الفور ملابسه الداخلية.

وكان يحدث أحياناً أن يعود من هذه المباحثات منشرحاً سعيداً، وأحياناً أخرى عصبياً محتدًا، وحتى لا ينسى شيئاً يوَدُّ قوله لأحد السفراء كان يضع علامة من الحبر على إبهامه، ويقول: «أفعل ذلك حتى أتذكر ما أريد ولا أنساه»، وكانت تُعَدُّ للسفراء والأجانب موائد الطعام النفيس، وينشغل الشبان من الياوران وأبناء الباشوات ممن يجيدون اللغات الأجنبية بهولاء السفراء.

وموكب المولد النبوي هو نفسه موكب تقديم التحية، غير أنه كان يَضُمُّ عدداً أكبر من الجنود، ويرتدي فيه [السلطان] زيه الرسمي الكبير، وتُقرَأ قصيدة المولد(*) في الجامع، وتُوزَّع الحلوى والعصائر على العساكر، ويقوم خدمة السراي بتقديم الحلوى والعصائر أيضاً في صحاف من الفضة على عربات الحريم، وتوزَّع العوائد [المخصصات السنوية المقررة].

وكان يشارك في مراسم تقديم تحية الجمعة «مدير مسيرة الحريم الهمايوني» حليم أفندي، وكنا نحن الأميرات الصغيرات نرسل هذا المدير إلى الجامع ونطلب الإذن بالذهاب إلى قصر الكاغدخانه، أو إلى الأماكن الأخرى التي نودُّ الذهاب إليها، فيقوم حليم أفندي ويخبر السلطان برغباتنا عن طريق المصاحبين ويحصِّل لنا على الإذن، وفي ذلك اليوم كنا نذهب سويّاً مع كل من

(*) منظومة تركية في مدح الرسول ﷺ نَظَمها الشاعر التركي سليمان جلبي (١٣٥١م-١٤٢٢م) (المترجم).

حضر مراسم تقديم التحية، وفي الأعم الأغلب يكون ذهابنا مع بنات السلطان مراد وبنات صلاح الدين أفندي(١٥)، نظراً لأنهن كن يحضُرْن غالباً في هذا الحفل.

كانـوا يطلقون كلمة برية على الحديقة الضخمة في سراي يلديز، وكنا نذهب إليهـا ونـدخـل بهـا «جوسق الخيمة» و«جوسق مالطة» و«جوسق رئيس البستانيين»، ولم يكن الذهاب إلى تلك الأماكن مرتبطاً بإذن، نظراً لأنها داخل نطاق السراي.

وعنـدمـا كنـا نذهب في رحـلات مثل هذه، نُوصِي بإعداد مستلزمات الحديقة، من الزبادي (اليوغورت) والحلوى والسلطة والمكسرات وغيرها من الأطعمة الباردة، فتأتي ونأكلها، وتقوم الأميرات الشابات مع القلفاوات الشابات المصـاحبات لنا بالتباري معاً في الجري واللعب والتسامر حتى المساء، ولا حاجة لأن تحصل أمهاتنا ممن يحضرن ذلك اليوم في حفل تقديم التحية على إذن خاص، فكُنَّ يأتين معنا ويستَفِدْن من هذه الفرصة، ثم نعود من النزهة قبل أن تغلق أبـواب الحـريم في السراي؛ فقد كانت العادة أن تُغلق الأبواب في السـابعة مساءً، وتفتح في السابعة صباحاً، والمصاحب المناوب هو المكلف بهذه الوظيفة.

وتذهب الوالدة باشا (والدة خديوي مصر) بعد انتهاء مراسم تقديم التحية إلى قصر شاله، وتقوم القلفاوات المساعدات للخزينة دار اسطى بإكرام وفادتها، وتمضي وقتها مع واحدة من الأميرات، وإذا حضرت واحدة من زوجات الوكلاء [الوزراء] أكرم الحريمُ وِفادتها هي الأخرى، ويتناولن طعام العشاء في السراي،

(١٥) بنات السلطان مراد هن: خديجة وفهيمة وفاطمة وعطية، وبنتـا صلاح الدين أفندي هما: الأميرة بهية والأميرة رقية (ن).

ثم ينتقلن في الساعة الثامنة والنصف إلى المسرح، ويستقبلهن السلطان والأميرات القادمات من الخارج في القاعة الصغرى، ثم يدخُلن إلى مقصوراتهن عندما يبدأ العرض.

وبعد انتهاء العرض، تدخلُ عربات القادمين من الخارج، سواء أكانوا من الأمراء أو من الأميرات، فتقف عند دائرة الحريم، فيركبونها وبرفقة كل منهم رجلان من الحرس، يصحبونهم إلى منازلهم، ولا يبقى أحد منهم بالسراي ليلاً.

ليالي الأعياد الدينية في السراي

كانوا يقرؤون المولد الشريف مساءَ الأيام المباركة في دائرة المابين الصغير، فتوضع الوسائد للوالد والباشوات وغيرهم ممن يحضُرون المولد، وكان القادمون إلى المابين الهمايوني في الصباح لتقديم التهاني كثيرين، ومن الطبيعي أن يستقبِلَهم السلطان، ويدعو البعض منهم لحضور المولد. وقبل أن يبدأ يقوم والدي فيستقبل وهو على قدميه في القاعة الصغرى الباشا قائد الجيش والقادمين من الوكلاء والأصهار من الباشوات والبكوات وأبناءَه وبقية الأمراء.

ثم يدخل رئيس أئمة جامع حميدية الذي سيقرأ المولد والمؤذنون ذوو الأصوات الجميلة في الموسيقات الهمايونية، ويقدِّمون تهانيهم، ويأتي الوالد فيَجثُو على ركبتيه ويجلس على الوسادة، ثم يأمر الباشوات والأمراء بالجلوس.

وتوضع حواجز خشبية مطلية بالذهب أمام باب القاعة الكبرى التي تُفتَح ناحية الممر، فنجلس نحن خلفها وفي مقدمتنا الأميرة الوالدة مع الضيفات القادمات من الخارج على الوسائد الموضوعة هناك، كل حسب درجته، وكانت عمَّاتنا وبنات السلطان عبد العزيز[١٦] والسلطان مراد ممن يحضرن أيضاً في هذا

(١٦) بنات السلطان عبد العزيز هن: الأميرة صالحة والأميرة أسماء والأميرة أمينة (ن).

الحفل، عدا الأميرات الأخريات.

وأثناء الحفل يقوم كل اثنين من الكيلارجية [حفظة المؤن] فيمسكون بصحاف فضية كبيرة عليها حلوى «العقيدة»(*)، فيقدِّمون منها لوالدي أولاً، ثم يطوفون بها أنحاء القاعة حتى يأخذ كل شخص واحدة منها، ويأتي بها المصاحبون إلى ناحية الحريم أيضاً، فتأخذ الأميرات والسيدات من هذه الأكوام التي امتلأت بها الصحاف.

وعندما تنتهي قصيدة المولد ينهض الوالد؛ فينهض على إثره كل الحاضرين، ويكررون له شكرهم ثم يخرجون. وكان يجامل بعضَهم ويتحدَّث إليهم قليلاً، وفوق ذلك تقدم لكل الحاضرين سلال وعُلَب مزينة مملوءة بالحلوى، كانت تُشترى من الحاج بكير أفندي [بائع الحلوى الشهير في استانبول].

ينتقل أبي بعد ذلك إلى القاعة الكبرى في دائرة الحريم، وتتولَّى القلفاوات الكاتبات وظيفة التشريفات (البروتوكول)، فنبدأ في الدخول إلى القاعة بترتيب السن ونقدم التهاني لأفندينا، وكانت الخزينة دار اسطى هي دائماً آخر من يدخل، ويجلس والدي على أريكة مع الأميرة الوالدة، ويشير إلى الأميرات والزوجات فيجلِسْن في أماكنهن، ونتحدَّث قليلاً ثم يأتي الأغوات المصاحبون بعصائر الليمون ذات النعناع وعصائر الفواكه الأخرى على صحاف من الفضة، فنشرب منها، وعندما ينهض الوالد على قدميه، نتعقَّبه نحن بالنهوض ثم ننحني لتحيته ونغادر القاعة. وكان يحدث أحياناً أن يترك السلطانة الوالدة حتى ينصرف الحاضرون فيتحدَّث إليها حديثاً خاصاً.

كان أبي يستقبل الأميرة الوالدة عند الباب دائماً، فيقبِّل يدها ثم تتأبط

(*) حلوى تصنع من السكر المعقود على النار.

ذراعه وتسير معه حتى الأريكة فيجلسان. وعند انصرافها أيضاً كان يودِّعها حتى الباب، ويقبل يدها ثم يقول لها: «في أمان الله والدتي العزيزة»، وتردُّ عليه هي الأخرى: «عشت يا سبعي».

وكانت الأميرة الوالدة تسأل الخزينة دار اسطى دائماً عن حالها وتخصها بمجاملاتها، فتدعو لها الاسطى العجوز. وكان والدي عندما ينتقل إلى دائرته تَقِفُ الخزينة دار الثانية وزميلاتها الأخريات صفاً واحداً أمام الممر بترتيب أقدميَّاتهن ويقدِّمْنَ تهانيهن إليه، وعلى هذا النحو تمضي تلك الليلة المباركة.

في نهار المولد كان يُقام الموكب، ويسير إلى جامع حميدية، وهناك توزَّع الحلوى والعصائر على العساكر وعلى العربات.

ويتميز احتفال النصف من شعبان بدخول «المحمل الشريف» إلى السراي وخروجه منه. وكان يُطلق على آغا دار السعادة في السراي اسم «آغا البنات»، يُمسِك في يديه عصا خاصة مطعمة بسن الفيل والذهب، ويقف في المقدمة ومن خلفه المئات من آغوات الحريم الآخرين، فيقبِضُون على المحمل الشريف وقد علت صيحاتهم بالتكبير والأناشيد الدينية ويضعونه في حديقة دائرة الحريم، ثم تقوم كل الأميرات والزوجات والقلفاوات بزيارته، وتقدم كل واحدة منهن قطعة من الأوستوفة[17] من القماش الموشَّى هديةً، وتقوم سيدتان من القلفاوات المخضرمات في السراي بتزيين المحمل بهذه القطع الموشاة، وكانتا بارعتين في هذا العمل من قديم، عَلَّمت إحداهن الأخرى حتى صارتا متخصصتين فيه. وبعد أن تَفرُغا من هذا الأمر، يقوم آغا البنات وآغوات الحريم فيحملونه بنفس الشكل ويأتون به إلى «دائرة آغا دار السعادة»، ويظل المحمل هناك في تلك الليلة، ثم يُقام في اليوم التالي «موكب الصرة».

وكان لكل سيدة أو أميرة في السراي صديق في مكة المكرمة، ترسل إليه

(١٧) كلمة «اوستوفه» لا بد أنها تحريف للكلمة الألمانية (Stoff) بمعنى قماش (ن).

النقود والهدايا في كيس من الجلد، وبواسطة هؤلاء الأصدقاء أيضاً كانت تُرسَل النقود إلى كثير من الطالبين والمتوسلين، ويَتِمُّ ربط هذه الأكياس برباط ثم تُختَم بأختام كتب عليها: «تذهب وتأتي بالسلامة»، وتُودَع إلى المحمل بواسطة آغا البنات.

وكان صديقي [في مكة المكرمة] رجلاً يُدعَى سيد عبد القادر بن شيبي، ويأتي حامل البِشارة في السنة التالية، فتأتي إلينا بمقدمه الهدايا وعبارات الشكر من هؤلاء الأصدقاء، وكنت منذ طفولتي أنتظر وصول أكياس الهدايا هذه وأستَقبلها بفرحة وسعادة كبيرة؛ لأن أصدقاءنا كانوا يُرسلون بها المسبحات الجميلة، والخواتم العقيق والمرجان، وزيوت العطر في قواريرَ جذابةٍ، وكنت أعشَق هذه الخواتم رَغْم بساطتها.

وفي اليوم التالي، يتم تسليم المحمل والأمانات إلى «أمين الصرة»، ويقام الموكب في الطريق الصاعد إلى سراي يلديز، ويخرُج أفندينا إلى المابين لمشاهدته من النوافذ مع الباشوات، كما كنا نركَبُ نحن أيضاً عرباتنا ونذهب لمشاهدته، ويُنقَل المحمل من دائرة آغا البنات فيوضع على ناقة ضخمة تغطِّيها الزينة، ويُسَلَّم عِقَالُها إلى الشخص الذي تم تعيينه في تلك السنة أميناً للصرة، ويطوف الموكب أمام باب السراي، ثم يمر من أمام المابين، ويقوم العكامون - وجميعهم من الزنوج - بدَقِّ الطبول واللعب بالسيف والترس في صدر الموكب، وما أن يصل المحمل «اسكودار» حتى تنطلق أصوات المدافع، وكان شيئاً رائعاً حقاً.

حفلات عرس الأميرات

إن أُولى حفلات العرس التي أُقيمت أيام سلطنة والدي هي حفلات زواج أخواته الأربع، أي: حفل زواج الأميرات: بهيجة وسنيحة ومديحة ونائلة. وقد

أقيمت في السنوات الأولى من حكمه، وكان السلطان عبد العزيز قد قام على تجهيز وإعداد أثاثهن، غير أنه لم يتمكّن من تزويجهن بشكل من الأشكال.

وتأتي بعدهن الأميرات: صالحة وناظمة وأسماء، وثلاثتهن بنات السلطان عبد العزيز، ثم الأميرة زكية، وهنَّ اللائي أعد والدي جهازهن وأقام أعراسَهن.

ثم تأتي أختي الأميرة نعيمة التي كان يسمِّيها الوالد «ابنة جلوسي» [أي: التي وُلدت عند جلوسه على العرش]، وقد زوجها بمفردها.

وبعدها تزوجت الأميرة خديجة والأميرة فهيمة ابنتا السلطان مراد، وتزوجت الأميرة أمينة صُغْرى بنات السلطان عبد العزيز، فأعدَّ الوالد عرسهن، ثم زوج ابنته الأميرة نائلة، ثم زوج صغرى بنات السلطان مراد، الأميرة فاطمة، وزوَّج الأميرة منيرة ابنة عمي كمال الدين أفندي، وكان عرسُهما آخرَ الأعراس التي أقامها والدي.

وعلى هذا يكون والدي قد أقام خلال مدة حكمه مراسم زواج خمس عشرة أميرة.

وأول عرسٍ شهدته كان عرس أختي الأميرة نعيمة، وكنت آنذاك في التاسعة من عمري، وقد أقيم لها قصر جميل إلى جوار[18] قصر الأميرة زكية في حي «أورطه كوي»[19]، فكانوا يطلقون عليهما اسم القصر المزدوج، وأعد جهاز أختي، وجاؤوا به إلى المابين الصغير، فذهبت العائلة كلها وشهدت الجهاز، وقبل أسبوع من إقامة العرس ذهبت الخزينة دار اسطى ومعها نظيراتها إلى قصر أختي، وشرَعْنَ في فرشه وإعداده.

---

(١٨) «دار الشفاء أورطه كوي» الحالية كانت قصراً للأميرة زكية.

(١٩) الليدو الحالي.

وقام والدي فدعا الوكلاء [الوزراء] ورجالات الدولة إلى المابين الهمايوني وقُدِّمت لهم موائد الطعام، ثم قام شيخ الإسلام فعقَدَ قِرانَ أختي على كمال الدين بك الابن الثاني للغازي عثمان باشا، وجاءت الهدايا للأميرة نعيمة من كل صَوْب، كما وزع والدي هدايا مختلفة على الحاضرين في عقد الزواج، ومنح حماة العروس «النشان المجيدي» ولم تكن هناك واحدة حصلت على هذا النشان من بين زوجات الوكلاء، وكان نور الدين باشا الابن الأكبر للغازي عثمان باشا زوجاً لأختي الأميرة زكية، حصل على رتبة الباشوية فيما بعد.

وقبل العرس قام الوالد فدعا أختي إلى مجلسه، ونَصَحها ودعا لها بالتوفيق، ثم قبَّلها من بين عينيها، ولما كانت العادة أن لا ترتدي العروسُ فستان عرسها وتذهب به؛ فقد ركبت عربتَها بملابسها المعتادة وذهبت إلى قصرها، وذُبِحت الضحايا من خلفها ووزعت على الفقراء.

وفي أعقابها خرجت عربات السراي تتقدَّمها عربة الأميرة الوالدة، فذهبنا إلى دار العروس، وفُتِحت أبواب القصر، فدخلنا جميعاً، فكان كيوم الحشر، يَعجُّ بالناس، وارتدت أختي الأميرة زكية فستاناً طويلاً من المخمل الموشى، وشرعت تقوم بواجب ربة البيت، والتاج على رأسها، والنياشين على صدرها، تتحدَّث مع هذه وتلك من ضيفاتها المقربات، وتصدر الأوامر للقلفاوات هنا وهناك. وبفستانها الرائع هذا، قامت أختنا الكبرى ـ وهي الجديرة بأن نُطلق عليها صفة «الرحمة المجسمة» ـ فجمعتنا حولها، فكنا نجلس إلى جوارها: أنا والأميرة شادية والأميرة رفيعة وابنة أخي الأكبر سليم أفندي الأميرة نميقة.

وكان فستان العروس على الطِّراز القديم.. بأربع حاشيات (جنلات) طويلة.. طويلة، غير أنها لا تجُرُّ على الأرض، وفوق ذلك معطف من الفراء موشى باللؤلؤ وخيوط الفضة، وتنزل من الصدر حتى أسفل أزرارٌ من الماس،

وفي خصرها حزام عليه حلية (توكه) من الذهب المرصع، ولون الفستان أبيض، وكثيراً من ذوي الأفكار القديمة كانوا ينتقدون اللون الأبيض في الفستان، لأن الأميرات اللائي تزوَّجْنَ حتى تلك اللحظة كن يلبَسْنَ فساتين حمراء، غير أن إصرار الأميرة نعيمة ورغبتها في اللون الأبيض كانا سبباً في اختيار هذا اللون.

وكانت البرنسيسة(*) فاطمة هانم ابنة الخديوي إسماعيل تجلس هي الأخرى إلى جانب الأميرة زكية بفستان أبيض، وسيدات أخريات كثيرات كن يدخلن ويخرجن.

وكان هناك سيدتان من زوجات السلطان عبد المجيد جَلَستا إلى جانب الأميرة الوالدة، كما حضرت أيضاً عمتي الأميرة جميلة.

وتقرر في النهاية أن يأتوا بالعريس؛ فقام الغازي عثمان باشا وأحضر ابنَه حتى باب السلاملك وسلَّمه إلى آغا البنات، ثم دخل العريس إلى الحريم بين عبارات الدعاء والثناء، فراح يسير مباشرةً إلى القاعة المعدة أسفل، حتى وصل أمام أريكةٍ تشبه كرسي العرش كانت تجلس عليها أختي ورجاها أن تنهض، وظلَّ على ذلك ما يزيد على نصف ساعة ولم تنهض(٢٠)، وكان الناس ينتظرون وقوفاً على أقدامهم، والعريس يتصبَّبُ عرقاً، وآغوات الحريم وعلى رأسهم آغا البنات ينتظرون عند الباب. وفي النهاية أخبروا الأميرة الوالدة؛ فذَهَبت وصاحت عليها وهي عند الباب: «ابنتي! كفى، انهضي لأجل خاطري، ولا تُغضِبي عريسنا»، فنهضت الأميرة، وارتفعت الأصوات من الأسفل: «ما شاء الله» وعَزفت الموسيقى السلام الحميدي.

(*) تطلق كلمة «برنسيس» على أميرات الأسرة الخديوية في مصر تمييزاً لهن عن أميرات أسرة آل عثمان، إذ يطلقون عليهن اسم «سلطان» (المترجم).

(٢٠) تقليد من تقاليد السراي، إذ تصر العروس على عدم القيام مدة حتى يلح عليها العريس.

وفي النهـاية ظهـر العريس والعروس على السلم، وراحا يسيران خطوة خطوة بين حشد لا يُوصف. وكانت العادة في السراي أن يتأبَّط آغا البنات ذراع العروس بينما يتأبط العريس ذراعها الآخر، ويمسك ستة أو سبعة من آغوات الحريم بذيل الفستان، وكان السير صعباً شاقاً خلال هذا الزحام، ناهيك عن ثقل الفستان والتاج.

وهكذا صار الركب حتى غرفة العروس فمَرَّ من أمامنا، وكنا نحن الأطفال الصغار نقف فوق منضدة هناك، أمكننا بواسطتها أن نشهَدَ الحفل، وهمَّ العريس فأجلس العروس في مقصورتها، وبينما هو يهم بالخروج وضع يده في جيبه ثم ضحك وشرع يَنثُر النقود الذهبية، وقامت القيامة فأسرع آغوات الحريم يفتَحون بصعوبة طريقاً للعريس حتى أخرجوه إلى السلاملك.

وظهـرت بعـده الخـزينة دار اسطى وراحت تنثُر الذهب وتصيح: «من السلطان. . من السلطان» وأسرع الناس يتخاطَفُون هذه النقود أيضاً، وبعدها نُثِرت نقود باسم الأميرة الوالدة، ثم شرعت قلفاوات عماتي وقلفاوات الأميرات تَنثُرْنَ النقود بأسمائهن في الطابق السفلي وفي الحديقة، ولما نُثرت النقود على أعضاء الفرقة الموسيقية توقَّفوا عن العزف وكانت تصدر عن آلاتهم أصوات غريبة.

وفي النهاية انقطع الضجيج والصياح، وبات ميسراً للحاضرين أن يرى أحدهم الآخر، وذهبنا إلى غرفة العروس فقدَّمنا لها التهاني وقبلنا يدها. وكانت أختي رائعة الجمال حقاً؛ فهي نحيفة الجسم، رقيقة الجانب، عيناها شهلاوان رائعتا الجمال، وحاجباها طويلان رقيقان، وبشرتها بيضاء شفافة، رقيقة الثغر، جميلة الأسنان، وهي تشبه والدي في حاجبيها وسمتها، وتظهر بثوبها الأنيق في مظهر ملكي جالسة على «تخت» نُسِج من خيوط الفضة، صنع لها خصيصاً،

والغرفة كلها بيضاء فرشت بقماش من صنع «هركه» الموشى . . وجلسنا نحن الصغار إلى جانب الصغار فكانت تتحدَّث إلينا وننظر نحن إليها مبهوتين معجبين .

تقرر أن تقام موائد الطعام في القاعات والأجنحة والحديقة والحريم والسلاملك، وراح «الكيلارجية» يتسابقون، وكانت تقدم أيضاً أطعمة للمتفرجين، بل وحتى المارة، وعزفت الموسيقى دون توقف، واستمر الحال على هذا حتى المساء . وانصرف الضيوف وانصرفت زوجات الوكلاء وبقينا نحن حتى يأتُوا بالعريس إلى الغرفة ويقبِّل يدَ الأميرة الوالدة، ثم نهم نحن بالانصراف . وكانت عماتنا أيضاً هناك .

وعند أذان العِشاء جاء الغازي عثمان باشا بالعريس حتى باب الغرفة، فأخذه آغا البنات إلى الداخل، وكان قد قبَّل أيدي الأميرة الوالدة والأميرات الأخريات قبل دخوله الغرفة، وفرشوا له البساط الموشَّى فوقف عليه للصلاة فور دخوله، وكانت العروس تنتظر على قدميها، وتُطِلُّ عماتي من الباب ويطلقن الضحكات ويتبادلن الحديث، ووقفنا نحن أيضاً نشهد ما يجري .

ولما انتهى هذا الأمر، جذب آغا البنات باب الغرفة وانحنى تحية للأميرات ودعا فقال : «تمم الله بالخير والسعادة»، وأمرت عماتي بإعداد عرباتهن ورُحْن يدعين والضحكات تملأ أفواههن، فخرجنا جميعاً على الفور وذهب كل منا إلى منزله .

هكذا كانت تتم أعراس الأميرات جميعهن، وكان إذا حدث وتزوجت عدة منهن في آن واحد حضرت الأميرة الوالدة باسم السلطان واشتركت في مراسم إجلاسهن في «الكوشة»، وذهبت إليهن في قصورهن تبعاً لترتيب أعمارهن، ففي العرس الثاني الذي أقيم أيام سلطنة والدي مثلاً، كان لأربع أميرات في آنٍ

واحد، فذهبت الأميرةُ الوالدة إلى الأميرة صالحة أولاً، ثم الأميرة ناظمة، ثم الأميرة زكية، ثم إلى الأميرة أسماء أصغرهن، لأن اعتبار السن بين الأميرات أمر مرعيٌّ في كل حال.

لم يزوج السلطان عبد العزيز أيامَ حكمه إلا ثلاث أميرات[٢١]، هن: الأميرة سنية، والأميرة فريدة ابنتا عطية وزوجها فتحي باشا، والأميرة خيرية، بنت الأميرة عديلة عمة والدي وزوجة محمد علي باشا مشير «الطوبخانه»(*)، وأمهات الأميرات المتزوجات هن من أخوات السلطان عبد المجيد والسلطان عبد العزيز.

أفراح الخِتَان

أَوَدُّ أيضاً أن أذكر بعض الشيء عن أفراح الختان، فقد أُقيمت ثلاثة منها أثناء حكم والدي، ختن في أولها ثلاثة من أبناء السلطان عبد العزيز: هم عبد المجيد «آخر خليفة»، ومحمد شوكت، ومحمد سيف الدين، وأكبر إخوتنا محمد سليم. وفي المرة الثانية ختن إخوتنا عبد القادر، وأحمد، وبرهان الدين، وابن صلاح الدين أفندي أحمد نهاد. وفي المرة الثالثة ختن أخونا عبد الرحيم، وجمال الدين بن محمد شوكت أفندي، وعبد الحليم ابن عمي سليمان سليم أفندي.

وفي هذه الأفراح ختن أيضاً كثير من أبناء الباشوات والعمال في السراي وأبناء الفقراء. وكانت تقام السقيفات الخاصة لها في سراي يلديز، ويظل

(٢١) كانوا يطلقون على البنات اللائي جئن من أمهات من الأسرة المالكة اسم «هانم سلطان»، وعلى الذكور اسم «سلطان زاده»، أما لقب «بكزاده» فكان يطلقه من هم خارج السراي على الذكور.

(*) المصنع الذي يصب المدافع ويزود بها الجيوش العثمانية (المترجم).

المختون فيها خمسة أيام للعلاج. وبالإضافة إلى لعبة القراكوز والألعاب السحرية، كان يقدِّم عبد الرزاق أفندي المشهور ألعابه للأطفال، وتُقدَّم لهم الهدايا والعطايا كل حسب قدره ومنزلته.

أما في عهد السلطان عبد العزيز فقد ختن ولداه يوسف عز الدين ومحمود جلال الدين، كما ختن أيضاً صلاح الدين أفندي بن مراد أفندي (السلطان مراد الخامس فيما بعد).

المسرح في السراي

لقي مسرح الساحة «أورطه أويوني»(*) في السراي استحساناً كبيراً في زمانه، وكان يوجدُ كثير من اللاعبين منذ عهد السلطان عبد العزيز يؤدون هذه اللعبة ضمن فريق الموسيقات الهمايونية، أذكُر منهم نشأت بك وعلي بك وحلمي بك. وكان حلمي بك - ابن زكي بك فنان الكمان - معلم الموسيقى التركية والمسرح في نفس الوقت، يأتي مرتين في الأسبوع إلى فريق الموسيقى والمسرح المكوَّنِ من الشابات عند أختي الأميرة نعيمة، فيعلِّمُهن الموسيقى والتمثيليات التركية.

وكان لعمتي الأميرة سنيحة والأميرة مديحة وأختي الأميرة زكية في تلك الآونة ممثلاتٌ يمثِّلن لهن أيضاً، وكانت «اسطاواتهن» من القلفاوات الباقيات منذ عهد السلطان عبد العزيز، ويُدعين «ماه رخسار» و«تيرميال»، يَقُمْن بتعليمهن تمثيليات: الغانية والأرنب، والمطرق والغليون الصغير، وهي التمثيليات التي ظَلَّت تقدم بالسراي منذ زمن طويل.

(*) هو النموذج الأول من نماذج المسرح الشعبي التركي، وهو مسرح فكاهي تغلب عليه سمة التقليد والارتجال (المترجم).

وكانت أزياء اللاعبات رائعة الجمال، عبارة عن معطف (كبوت) وسروال مطرَّزَيْن بخيوط الفضة، وكانت أخواتي تصطحبهن من حين لآخر وتأتي بهن إلى السراي، فيقمن بأداء تمثيلياتهن أمام السلطان في جناح يسمى «خنكار صفه سي»، ونجلس نحن بترتيب أعمارنا ونشهد هذه التمثيليات، وكان لكل تمثيلية أزياء خاصة. وقد تفرَّقت اللاعبات في الزمن الأخير ولم يَبْقَ منهن واحدة.

ورَغْمَ أن مسرح الساحة نال تقديراً عظيماً عقب دخول عبد الرزاق أفندي السراي، إلا أنه كان ينحصر في أيام الأعياد، وصار والدي يأمرُهم بلعب المسرحيات الإفرنجية في السراي، إذ كان يفضِّلها كثيراً على المسرحيات التركية.

وقد سمعت في طفولتي أن الأديب أحمد مدحت أفندي ألَّف بعض المسرحيات والتمثيليات وجعلهم يشرعون في تمثيلها مع الأغاني مثل الأوبريت، ويحكون أن علي بك آنذاك كان يقوم بتمثيل أدوار السيدات، ولازلت أذكُر بعض المقطوعات من هذه الأوبريتات.

وقد اجتهد والدي أن يَبذُلَ ما في وسعه لتطوير قِسم الأوركسترا في الموسيقات الهمايونية، والحق أنه ظهر منها فنانون مقتدرون، منهم صفوت بك وذاتي بك، وهما اللذان كانا يعزفان الفلوت، واشتهر من بينهم أيضاً عازفو فيولونسيل مثل جميل بك، وعازفو كمان مثل فوندرا بك، وهناك غيرهم كثيرون لا أذكر أسماءهم.

وكان قد تشكَّل أوركسترا كامل من ستين عازفاً، قام على تعليمهم منذ زمن السلطان عبد العزيز المعلم غواتيلي باشا، ثم جاء بعده معلمون كثيرون، وكان لومباردي الفرنسي معلمي الخاص واحداً منهم، ثم جاء بعد هؤلاء أراندا الإسباني، فكان مدرساً للموسيقات الهمايونية ومعلِّماً لأخي برهان الدين

أفندي، فجعل منه عازفاً بارعاً للبيانو حتى استحق عن جدارة رتبة الباشوية، واستمرَّ في تعليم الأمراء الآخرين مثل ابن عمي إبراهيم توفيق أفندي، وأخوَيَّ عبد الرحيم ونور الدين.

وتتلمذ زكي بك ابن حلمي بك على يد فوندرا بك منذ طفولته، فلما جاء أراندا باشا صار بهمته وسعيه فناناً كبيراً.

وكان إذا وصل استانبول فريق أتى السفراء بخبرهم وأوصوا بهم، فيأتون إلى السراي، حتى إن كثيراً من الفنانين جاؤوا بهذا الشكل وقدموا أعمالهم في مجلس السلطان، وقدم هو لهم النياشين. وكان والدي قد ضَمَّ إلى معيته عائلة إيطالية قدمت استانبول من هذه الفرق وسجَّل أسماءها في الموسيقات الهمايونية، وكانت مكونة من أب وولدين مع زوجتيهما وابنة وخطيبها، وكان يُطلَق عليهم «عائلة تشامبي».

وجاء بعدهم فنانان إيطاليان أُلحقا بالموسيقات الهمايونية، كانا يلعبان الأوبرا والأوبريت، وأكثر المسرحيات التي عُرفا بها هي: الترافياتا (Traviata)، والتروبادور (Troubadour)، والمقنع (Bal Masque)، وحلّاق إشبيلية (Barbier de Seville)، وفتاة الجندية (La Fille du regiment)، وفراديا فولو (Fradiavolo)، وجالبة الحظ (Mascotte)، والفاتنة هيلين (La Belle Helene)، وكان لهما أيضاً أوبريتات إيطالية، غير أني لا أذكر أسماءها الآن.

وهذه الأوبرات عُرِفت بأسماء أخرى في السراي؛ فكانوا يطلقون اسم «مادام كاميليا» على «الترافياتا»، وأوبرا الحدّاد على «التروبادور»، وأوبرا الحلّاق على «باربيير دي سيفيل»، وأوبرات المقنع على «بال ماسقيه»، وأوبرا قاطع الطريق على «فرادياڤولو»، وأوبرا الفتاة الجندية على «لافي دو ريجيمان»، وأوبرا الراعية على «لابل هيلين»، وأوبرا بنت الملك على

«ريغولتو»، ويطلقون اسم «المسخوط» على (Mascotte) . وكان والدي يعشَق أوبرا «ريغولتو» ويأمرهم بعزفها على الدوام.

وعدا الإيطاليين فقد كان هناك فرنسيان يدعيان برتراند وجان، يقوم الأول بالتقليد والألعاب السحرية، ويذهب كلَّ عام بإذنٍ من والدي إلى فرنسا فيتعلم بعض الأشياء الجديدة ويعود، حتى إنه جاء بالسينما إلى السراي، ولم تكن السينما آنذاك كما هي عليه الآن، إذ كانوا يُبلِّلون الستارة بفرشاة كبيرة، ويعرضون أعمالاً قصيرة تبدو مظلمة، وينتهي الفيلم في دقيقة واحدة، ومع ذلك فقد كان شيئاً جديداً استهوته نفوسُنا.

أما جان فكان ماهراً في تربية الحيوانات كالخيول والحمير والكلاب، ويشترك مع برتراند في ألعاب مسلية.

وفي الأيام الأخيرة انضَمَّ إلى المسرح ممثلان أميريكيان يلعبان المسرحيات الهزلية، ويجيدان عزف الأوكورديون والمندولين ويَحذِقان الرقص.

وقد جاء السفير الفرنسي كونستانت بالممثلتين الشهيرتين: سارا برنارد وكوكلين كاديه، إلى السراي، فقدمتا عرضاً مسرحياً مُنِحتا بعده النياشين.

وأرسل الإمبراطور الروسي هو الآخر فرقته الموسيقية الخاصة، فجاء بهم ماكسيموف[٢٢] إلى السراي وغَنُّوا أغاني روسية جميلة، وكان من بينهم تشاليابين الشهير، وكان شابًّا آنذاك وأُعجِبنا بجمال صوته، ولَمَع اسمه في أوربا بعد ذلك.

وفي مثل هذه المناسبات الهامة كان الوالد يدعو الوكلاء [الوزراء]، فيجلس هو مع الصدر الأعظم، ويجلس الوكلاء خلف نوافذ المقصورات، أما نحن فكنا نجلس ناحية الحريم، وعند بداية العرض تُرفَع حواجز المقصورات

---

(٢٢) ماكسيموف كان المترجم الأول في السفارة الروسية (ن).

التي يجلس فيها الوالد والوكلاء، بينما لا ترتفع الحواجزُ الموجودة ناحية الحريم. وكان أبناء الوكلاء يحضرون أيضاً خلال العرض.

يجلس أفراد الأوركسترا في الطرف الأيسر من الطابق السفلي، ويجلس الموظفون والباشوات والبكوات في الطرف المقابل لخشبة المسرح بالطابق السفلي، وعندما كان يوجد بعض سفراء الدول الأجنبية يصبح العرض المسرحي أو الحفل الموسيقي مقصوراً على الرجال، فلا تحضُره السيدات، وعندئذٍ تُفتَح كل النوافذ، وكان يحدث أن تأتي زوجات السفراء فيجلِسن في مقصوراتهن.

وكان الوالد يدعو بعض الباشوات، ويدعو أحياناً إخوته الذكور والأمراء أبناء السلطان عبد العزيز، وحضر أيضاً صلاح الدين أفندي بعد وفاة والده، ويدعو الوالد أبناءه الأمراء إلى مقصورته، وفي تلك الأثناء كنا ندخل أيضاً فنقبل يده، وفي الأيام غير الرسمية يرتدي كل الأمراء - وبالطبع إخوتي أيضاً - الإستانبولين، ويَحرِصُون على الدخول بهذا الزي إلى السلطان.

وكان عندما تصل أمُّ الخديوي وزوجته وبناته يجلِسْنَ في مقصوراتهن الخاصة إلى جانب جدتنا، أو بصحبة الباش قادين [الزوجة الأولى]، وكانت زوجات الوكلاء عقب وصولهن يجلسن بصحبة الأميرات ويشهدن العرض.

وفي أيام الحر الشديد كانوا يُقيمون مسرحاً متنقلاً في حديقة الحريم عند الجانب المطل على «جناح السلطان» فتعرض بعض الألعاب الخفيفة، مثل «مسرح الساحة»، أو الألعاب الهزلية، وهذه العروض كنا نشهدها بسهولة من خلال نوافذ السراي، وفي بعض الأمسيات كان الوالد يدعو «أوركسترا الغرفة» ويجعَلُهم يعزفون له الموسيقى فوق الخضرة الموجودة أمام دائرته، ويُصْغِي لها باهتمام، وأحياناً أيضاً كان يدعوهم إلى القاعة فيعزفون له البيانو أو الكمان أو

الفيولونسيل أو الفلوت، ويأمر جميل بك أيضاً عازف الطنبور بالعزف له، فقد كان مُعجَباً به كثيراً.

وذات زمان وصل رجلان فرنسيان عَزَفا على آلة الجيتار؛ فسُرِرنا بهما كثيراً، وكانت تحدث مثل هذه الأشياء التي لا نتوقَّع حدوثها.

كان سليمان باشا قائداً للموسيقات الهمايونية، وكان الوالد يكلِّف إلياس بك بجميع أمور المسرح هذه، وفي الأيام الأخيرة صار إلياس بك أثوابجي باشي [رئيس حفظة ثياب السلطان]، ولأن مساء الجمعة من كل أسبوع كان مساء العَرض المسرحي فقد كنا ننتظره بفرحة.

واحتفظ الوالد بمجموعة نادرة تضم المئات من نصوص القطع الموسيقية (نوته)، منها أعمال هامة أُلِّفت للأوركسترا ومجموعات ألفت للبيانو، كان يحتفظ بها مجلدة داخل المكتبات الزجاجية الضخمة في قاعات الطابقين العلوي والسفلي من «دائرة المسرح». ماذا صارت إليه هذه الأشياء يا تُرى؟ أودُّ لو علمتُ.

الأعياد في السراي

تبدأ الاستعدادات للعيد قبل أسبوع من مقدِمه، ويَحِيك كل شخص ملابسه دون أن يعرضها على الآخرين، وتقام الاستعدادات أيضاً في دوائر الضيافة، وننهض في الصباح على أصوات مدافع العيد، وفي الحال نهرع إلى المرايا، ونلبس الأثواب الجديدة، ولأن صلاة العيد تقام مبكراً فقد كانت عربات الحريم تخرج قبل عربة السلطان، ويكون الذهاب في الغالب إلى جامع سنان باشا في بشيكطاش، وتنتظم عرباتُنا أمام الجامع بالترتيب، وكنا نعلِّق كل ما لدينا من نياشين ومجوهرات ونلبس عباءات تشبه المعاطف ونضع على وجوهنا براقع (يشمق) من التل الرقيق، ويسير آغوات الحريم من خلفنا فيمسكون أذيال ثيابنا

الطويلة حتى نركب العربات.

وكانت العادة أن يذهب والدي إلى الجامع بعربته الملكية ذات الخيول الأربعـة، ويأخذ معه القائد العسكري رضا باشا وبرهان الدين أفندي، وتقوم الـوحـدات العسكرية وفرق الموسيقى فتصطَفُّ على جانِبَي الطريق من باب سراي يلديز حتى الجامع، ويلبس الوزراء والباشوات بِزَّاتهم العسكرية الكبيرة، وتعزف الموسيقى الأناشيد في أماكن مختلفة حتى يَصِلَ الوالد إلى الجامع، ولا تستمر صلاة العيد طويلاً، وبعدها يركب السلطان نفس العربة ويدخل بها من «بـاب السلطنة الكبير» المخصص لمروره فحسب في سراي «طولمه باغجه» ويصل إلى «دائرة المابين».

وتكـون عربـات الحريم قد دخلت هي الأخرى إلى السراي من «باب الحريم»، وعندما تصل «دائرة الحريم» تقترب من «حجر النزول»، فتنزل أولاً الأميرة الوالدة، ويصطف آغوات الحريم عند سلم السراي في صفين، وتستقبِلُنا كل القلفـاوات والاسـطاوات المخضـرمـات في السراي أعلى السلم، وعلى رأسهن من تسمى «كخيا قادين» [وكيلة السراي] وقد ارتَدَيْنَ ملابسهن الرسمية، فتمسك القلفاوات أذيال ثيابنا، ونصعَدُ على هذه الصورة حتى ندخل الحجرات المخصصة لنا، وننزع البراقع والعباءات عنا، ثم نُسَوِّي ثيابنا، وبعد قِسط من الراحة نذهب إلى «دائرة الأميرة الوالدة» أولاً فنقدِّمُ لها التهاني ونقبِّل يدها ونتلقى دعواتها، ونقوم بعدها بزيارة أخواتنا الكبريات وغيرهن من الأميرات.

وتأتي زوجات الوكلاء ويدخُلن بترتيب أقدميات أزواجهن فيقدمن التهاني إلى الأميرة الوالدة وإلينا. وما يدهشني الآن هو كيف كنا في أيام الشتاء القارص نتنقل بين جنبات ذلك السراي الضخم بملابسنا الحريرية، ولو أنه كان يُوضع في كل الغرف والأجنحة مدافىء ومواقد من الفضة مملوءة بالنار، غير أنه كان من

الواضح أنها ليست كافيةً لتدفئة تلك الغرف والأجنحة الضخمة، وإخالُ أننا كنا في شبابنا أكثر تحمُّلاً للبرد.

تطوف القلفاوات الكاتبات في أنحاء السراي بمعاطفهن الموشاة وشعورهن المطروحة على ظهورهن، وفي أيديهن عكاكيزهن المطعمة بالجواهر، فيعملن على انتظام الأمور في السراي ويجتهدن في ذلك.

وعندما تبدأ «المعايدات الهمايونية» يقوم الآغوات المصاحبون بإخبار «القلفة الباشكاتبة» فتذهب هي إلى الأميرة الوالدة وتنحني أمامها بالتحية وتقول لها: «المعايدات الهمايونية أوشكت أن تبدأ، تفضَّلْن»، وتنهض الأميرة الوالدة بثوبها الملكي ومن خلفها كل الأميرات وزوجات الوكلاء فيَعبُرن القاعات الكبيرة ودهليز المابين ويذهبن إلى مقصوراتهن فوق «قاعة المعايدة»، ويجلسن على الأرائك العالية ذات الوسائد التي أُعدَّت لهن من قبل، ويشهدن مراسم المعايدة، وكان يجلس في المقصورات المفتوحة في الطرف الآخر لقاعة المعايدة سفراء الدول الأجنبية.

ويبدأ عزف الموسيقى العسكرية، ويدخل السلطان فيُلقِي السلام ويَجلِس على كرسي العرش. وكان المشير فؤاد باشا يمسك بحافة الكرسي، ثم تولَّى ذلك عمر رشدي باشا من بعده.

وخلف الكرسي يوجد الأمراء والباشوات أصهار السلطان والباشكاتب [السكرتير الأول] وغيره من الموظفين، ويقوم كافَّةُ الوكلاء وعلى رأسهم الصدر الأعظم بمراسم تقبيل حافة الكرسي بترتيب درجاتهم، وعلى هذا تنتهي المرحلةُ الأولى من الحفل، فينتقل السلطان إلى القاعة، وتبدأ فترة راحة تستمر ربع ساعة، يعودُ بعدها السلطان فيُلقي السلام على الحاضرين ويقف أمام الكرسي، ويدخل العلماء وفي مقدمتهم شيخ الإسلام بملابسهم المتباينة

الألوان؛ إذ يرتدي شيخ الإسلام ملابس بيضاء، بينما يرتدي الآخرون ملابس خضـراء وحمـراء وبنفسجية، ويقف الشيخ أمام الكرسي ويشرَع في الدعاء، فيرفع السلطان كفَّيْه إلى السماء وَينصِتُ للدعاء، ثم يمسح الحاضرون بأيديهم على وجوههم.

وبعـد هؤلاء يدخـل البطارقة مع هيئاتهم، ويظهر «لغوفت بك»(٢٣) في القاعة، ثم يشرع في الدعاء، وفي النهاية يأتي رئيس الحاخامات مع هيئته، والمـوسيقى العسكـرية تواصـل العزف، وبعد ذلك ينتقل السلطان إلى غرفته للراحة حتى تمضي خمس عشرة دقيقة يعود بعدها إلى القاعة، وفي هذه المرة يستقبِل الباشوات ذوي الرتب الصغيرة والضباط، ثم يستقبل الموظفين وينتهي بهم حفل التهاني بالعيد.

وكانت الموسيقات الهمايونية تعزف الأناشيد طوال مدة الحفل دون توقف.

وبعد انتهاء مراسم تقديم التهاني بالعيد تأتي صحاف الحلوى إلى «دائرة الحريم» فتوزَّع هناك، كما تُرسل الحلوى من طرف السلطان إلى بيوت الأسرة الحـاكمـة وبيوت الوزراء والوكلاء. وكنا نتناول طعام الغداء في سراي طولمه باغجه، وتأتي الخزينة دار اسطى بزيها الرائع إلى «جناح السلطان» كما هي العـادة، فتقف في وسط المكـان وتضـع يدهـا داخل «فوطة» موشاة أمسكت بأطرافها قلفاوتان وتنثُر النقود في كل اتجاه، فيسارع بالتقاطها آغوات الحريم والأطفال والقادمون من خارج السراي.

---

(٢٣) كلمة Logofet من الكلمات التي كانت شائعة أيام جستنيان في العهد البيزنطي، وكانت تعني «مستشار» أو «وزير الخارجية» بالمعنى الحالي، ولا بد أن هذا هو أصل كلمة Logofet التي استخدمتها الأميرة (ن).

ويقـولـون: إن السلطان كان يأتي قديماً إلى دائرة الحريم عقبَ انتهاء التهاني ويتناول طعام الغداء في سراي طولمه باغجه، ثم تُرِكت هذه العادة فيما بعد.

وكانت القلفاوات الكاتبات عندما يأتين بخبر عودة السلطان إلى سراي يلديز، تُصدِر الأميرة الوالدة أمرها على الفور بإعداد العربات، ويستعدُّ كل منا ونخرج إلى يلديز بالترتيب الذي جئنا به، ويعود السلطان إلى يلديز بعربة يوم الجمعة ذات الحصانين، وعندما يصل إلى الحريم يبدأ في تلقِّي التهاني من عائلته وعلى رأسها الأميرة الوالدة والخازندارات اللاتي يخدمنه.

ويأتي فريق المـوسيقى الخـاص «بالفرقة العسكرية الثانية» فيقف على الخضـرة الموجودة أمام «الجوسق الصغير» ويبدأ بالأناشيد، ثم يعزف خمسة ألحـان أخـرى، وفي صباح اليوم التالي يأتي نفس الفريق مبكراً فيكرر نفس الشيء، وعنـد السـاعـة الخـامسـة تأتي الفـرق المـوسيقية الأخـرى من كل المعسكرات ويعزف كل فريق منهم خمسة ألحان، وعند المساء يقدِّمون التحية جميعهم ويأخـذون عوائـدهم؛ وهذه الفرق هي: فرقة طابور أرطغرل، وفرقة طابـور الخيالة ذوي المزاريق، وفرقة طابور المدفعية، وفرقة طابور البحرية، وفـرقـة معسكر السليمية، وفرقة معسكر الثكنة الحجرية (طاش قشله)، وفرقة موسيقى الصبيان.

وقد كان عزفهم جميعاً عند الساعة الخامسة مساءً لنشيد التحية، وفي آن واحد شيئاً رائعاً حقاً، وكان «ناظر خزانة الخاصة» هو الذي يوزِّع عليهم العوائد، وكنا نحن نشهدهم من نوافذ الحريم.

وهكذا كانت تمضي أيام الأعياد.. ثلاثة أيام في عيد الفطر، وأربعة في عيد الأضحى، وفي اليوم الأول من العيد كانت زوجـات الـوكـلاء القادمات

إلى سراي طولمه باغجه يخرجن إلى سراي يلديز، ويتم استقبالهن باسم السلطان، ويجلسن لمشاهدة عروض المسرح، فتعزف لهن الموسيقى التركية وتعرض ألعاب مسرح الساحة، ثم ينصرفن إلى بيوتهن بمرافقة الياوران.

وفي اليوم الثاني يأتي الأمراء الكبار إلى المابين، وتأتي الأميرات المتزوجات إلى الحريم، ويتم الاحتفاء بهن، ثم يستقبلهن السلطان ويشهدن عروض المسرح، وفي المساء يَعُدن إلى بيوتهن برفقة الياوران.

وفي اليوم الثالث تأتي زوجات الموظفين، ويَمُرُّ العيد، بين تعب وفرح.

أما عيد الأضحى، فكان يختلف عن ذلك: فقبله بيومين تُساق الخِراف والكباش التي ستقدم هدايا من قبل السلطان إلى الأمراء والأميرات والوكلاء والوزراء إلى السراي في موكب كان وصوله شيئاً رائعاً، فيمر الموكب وفي مقدمته «ناظر الخزانة الخاصة» من أمام النافذة التي يجلس خلفها السلطان.. تمر الكباش وقد صُبِغت أصوافها بألوان مختلفة، ووضعت في أعناقها شرائط ملونة، وحبال يمسك بها رجال يرتدون معاطف موشاة مطرزة وسراويل خضراء، وعمائم على رؤوسهم موشاة ذات أهداب، وهذا الأمر أيضاً عادة قديمة، ويَمرُّون على هذا النحو من حديقة السراي فنشهدهم، وكانت تطيب المشاهدة إلى نفوسنا.

والاختلاف الثاني الذي تميَّز به عيد الأضحى هو أنّ السلطان كان حينما يخرج من الجامع يطرحون كبشاً كبيراً على الأرض أمام الباب، ثم يمدُّون السكين إليه فيمسح بها على الحيوان ثم يركب العربة، ويذبحون الكبش من خلفه، وتلك أيضاً كانت عادة قديمة.

وكنا نحن أيضاً نذبح في بيوتنا كباشاً عدا الكباش التي يرسلها السلطان، ونرسل أخرى إلى أحبائنا وموظَّفِينا، وإلى المساجد والتكايا وأقسام الشرطة في الأحياء التي نُقِيم فيها.

زلزال في عيد الأضحى

كنا قد ذهبنا في عيد الأضحى الذي يصادف يوم ٣١ مارس عام ١٩٠١م إلى سراي طولمه باغجه كما هي العادة، وجلسنا في مقصوراتنا نشهد حفل التهاني، وبينما نحنُ مستغرقين في المشاهدة، بدأت فجأة هِزة أرضية عنيفة، أدركت على الفور أنها زلزال مثل الذي حدث ذات مرة في طفولتي، وخِلْت أن السراي ينهار، فوقع الخوف في قلبي وبدأت تتملَّكُني الرعشة، وصرنا جميعاً وكأننا تسمَّرنا في أماكننا، نصيحُ: «يا الله يا الله!».

وفي تلك الأثناء سقط القسم الأوسط من الثريا الكبيرة المعلقة وسط القاعة، وأحدث صوتاً عنيفاً، كما تحطَّم الزجاج الموجود خلف والدي وعلى يمينه، وعانق كلٌّ منا الآخر من شدة الضجيج، وأُغمِي على البعض منا.

وفي تلك الأثناء ترامى إلى آذاننا من أسفل صوت الأذان الذي راحَ يَصَدُح به المؤذن «عبد الله العربي» بصوته الجهوري السماوي، وامتلأت القاعةُ بهذا الصوت فألقى الخشوع والسكينة في قلوبنا، ورفعنا أيدينا إلى السماء ودعونا الله عز وجل ولُذْنا بحماه. فلما استجمعنا قُوانا، واشتدَّت عزائمنا هرعنا إلى النوافذ نسأل: «ماذا حدث لأفندينا؟»، وتطلَّعنا منها فإذا بالقاعة قد اختلطت بعضُها ببعض ولم يثبُت أحد في مكانه، ووالدي يَقِفُ بمفرده أمام كرسي العرش وقد اتَّكأ على سيفه يَنصِتُ إلى الأذان المحمدي.

عادت السكينة رويداً رويداً إلى الحاضرين، وراح الباشوات والبهوات يأخذون أماكنهم، وجلس الوالد بثبات على كرسيه، وأصدر أمره: «فلتبدأ المعايدة»، وعزفت الموسيقى وعادت تبدأ من جديد مراسم التهاني. ولما رأينا والدي على هذه الحال رحنا نهنِّئُ بعضنا البعض، والفرحة تَغمُرنا، وحمدنا الله على السلامة.

وقد سمعنا فيما بعد أن أشخاصاً كثيرين رَمَوا بأنفسهم إلى الخارج خوفاً من أن يصيبهم الزجاج المحطم، وقيل: إن الجزء الذي سقط من الثريا كان يَزِنُ سبع مئة كيلوغراماً، وحَمداً لله أنه لم تَقع خسائر أخرى، بل ولم يُدْمَ إصبع أحد من الحاضرين.

وبعد انتهاء حفل تقديم التهاني، أرسل والدي الياوران إلى كل صَوْبٍ من المدينة، وعلمنا أنه لم يقع شيء ذو بال، فعُدنا مطمئِنِّين إلى سراي يلديز.

وفي ذلك العيد، قدم كل من حضروا تهانيهم بالعيد، كما قدَّموا في الوقت نفسه تهانيهم على السلامة.

الذكرى الخامسة والعشرون
على اعتلاء العرش وميلاد السلطان

كان يخرج الوالد مبكراً أيام أعياد الجلوس والميلاد إلى المابين الهمايوني، ويستقبل الوكلاء والوزراء والمشيرين وسفراء الدول الأجنبية القادمين لتهنئته حتى المساء، وبعدها يأتي إلى الحريم فيقبَل التهاني من عائلته ومن الأميرات الأخريات.

وكنا نرتدي جميعاً أثوابنا الجميلة ذات التنورات (الجنلات) ونعلِّق ما لدينا من نياشين، ثم نذهب إلى «القاعة الكبرى» فنقدِّم التهاني للسلطان، ونقوم في حديقة السراي فنعلق المصابيح والرايات أمام دائرتنا، ونضع على الأبواب لوحات كتب عليها: «عاش السلطان»، وننظِّم لتلك الليلة المسامرات وألعاب التسلية وتدعو إحدانا الأخرى لموائد الطعام، وترتدي كل قلفاوات السراي أجمل ملابسهن، ونظل نلهو بين الموسيقى والأفراح حتى ساعة متأخرة.

وكنت عندما بدأت الكتابةَ في طفولتي، واستطعت أن أنسخ شيئاً مما

يكتبه معلمي كامل أفندي أن جَعَلني أكتب دعاءً لوالدي حتى نَعرِضَه عليه، وقام فوضع هذه الورقة في ظرف كبير وقدَّمه إلي، وأمرني أن أقدِّمه لوالدي عَقِب تهنئته في ذكرى الجلوس على العرش.

والتزمتُ هذا الأمر، فدخلت والورقة بيدي، ثم قبَّلت يده وقدمتها إليه، فتناولها الوالد وضحك ثم فتحها وقرأ ما فيها. . . وبعدها جَذَبني إليه وقبَّلني من الوجنتين ومسح على رأسي ثم قال: «أحسنت يا ملاكي! كتبتِها بأجمل ما يكون، أشكرك، إنك تتقدَّمين، ما شاء الله»، ويومها فرحت كثيراً، وأعرَبَ معلمي عن فخره بي. وبعدها أنعم عليه السلطان وأرسل من يَنقُلون إليه شكره على حسن اجتهاده مع الأميرات، وجعَلَت أمي هذا الخط في إطار لازلت أحتفظ به حتى الآن تذكاراً.

وكنت وأنا صغيرة يأمُرنا الوالد أن نخرج للنزهة في المدينة اعتقاداً منه أن ذلك سوف يبعث على فرحتنا نحن البنات الصغيرات، فنركب العربة مع المربِّين وننزل إلى استانبول فنطوف أنحاءها ثم نعود. ولما كَبِرنا وصرنا شاباتٍ كان علينا أن نمكُث في السراي مع كبرياتنا، ونخرج إلى «دائرة المابين الكبير» حتى نشهد الأفراح والألعاب النارية، وكانت تُقام السقيفات من «قصر جيت» حتى مبنى المابين لتسهيل الانتقال إلى الحريم الهمايوني، فنصعد إلى القاعة الموجودة في الطابق العُلْوي من المابين، ونشهد ما يحدث بالخارج من الغرفة المتوسطة الخاصة بالسلطان، ثم نعود بعدها.

ثم كان أن بدأت الاستعدادات لأضخم احتفالات ذكرى الجلوس على العرش، وهي الذكرى الخامسة والعشرون، وكانت الهدايا تَرِدُ إلى والدي من كل حَدَبٍ وصَوْب، فوضعت في «القاعة الكبرى» بين دائرته الخاصة وبين «المابين الصغير»، وهي هدايا كانت تأتيه من حكام الدول والشخصيات

المعـروفة، ومن الوكلاء والأمراء والأميرات ومن موظّفيه، بل وحتى من أولاده وزوجاته. وتَمّ توزيعها على جنبات هذه القاعة، ودعا الوالد أفراد عائلته وعرضها عليهم، وكان على كل هدية بطاقات تحمل أسماءَ من أرسلوها.

وصبـاح عيد الجلوس ارتدى الوالد بِزّته الكبيرة، وتوجَّه إلى قصر شاله حيث يأتيه الـوكـلاء والـوزراء وكبار القواد وشيخ الإسلام والبطارقة يقدمون له التهـاني. وصعدنا جميعاً إلى الطابق العلوي من دائرة الوالد التي تطل على حديقـة القصـر، ورحنا نشهد بالنظارات المكبرة مَن حضر للمشاركة في هذه المراسم التي بدأت بالنشيد الحميدي، فهو يتصدَّرُها دائماً، ويومها بدأت في الساعة التاسعة والنصف وانتهت في الثانية عشرة.

وفي ذلك اليوم تناول السلطان طعامه في القصر ولم يأت إلى الحريم، وبعد تناول الطعام قام عمال الثياب بإعداد النياشين التي قدَّمها سفراء الدول الأجنبية لوالـدي وحملوها إلى غرفة في القصر، فكان إذا دخل سفير أو هيئة لمقابلة السلطان نهض فعلّق على صدره النشان الذي حصل عليه من الدولة التي يمثلها ذلك السفير أو تلك الهيئة.

وقبـل عدة أسـابيع كانت قد قَدِمت إلى «ذاتي بك» معلم المـوسيقات الهمـايونية النـوتـات المـوسيقية الخاصة بالأناشيد الوطنية للدول التي تشترك بسفـــرائهـــا ووفـــودهـــا في حفـل تقـديم التهـاني، فأُعـدَّت هذه الأنـاشيد، فلما انتهى تناول الطعام بدأت تدخل وفود الدول والسفراء، كل حسب أقدميته، وما أن يدخل أحد السفراء حتى يعزفوا نشيد دولته، وكان يأتي كل سفير هو والوفد المرافق له وقد ارتدى بِزته الرسمية، وعلّق على صدره النياشين العثمانية التي حصل عليها.

وكـان فريق الموسيقى موزعاً على مجموعتين: إحداهما في الداخل،

والأخرى في الحديقة، ويظل يعزف النشيد الوطني للدولة التي دخل سفيرُها حتى ينصـرف ذلك السفير، بينما اصطَفَّ الجنود للتحية من قصر شاله حتى الأبواب الخارجية للسراي. وقد استمرت هذه المراسم إلى أن حَلَّ الظلام.

وكنا جميعاً نرتدي ملابس جديدة حِيكت لهذه المناسبة، وتهيأنا لتهنئة السلطان، غير أن الوالد كان قد أنهكه التعب، حتى إننا فكَّرنا ـ لكي لا نجهده أكثر ـ أن ننتظر عودته من القصر وهو يمر من ردهته ذاهباً إلى الحريم ونقدم له تهانينا هناك، وفعلنا ما فكرنا فيه، وقامت الخازندارات وعلى رأسهن كبيرتهن فقدَّمْنَ له التهاني بعدنا، وانتهى يومنا السعيد على هذه الصورة.

وأذكر أني شهدت في المتحف بعض الهدايا التي قُدِّمت لوالدي في تلك المناسبة، غير أن قلة المعروض منها أثار حَيْرتي؛ فلم أر مثلاً تلك الهدايا القيمة التي أرسلها الإمبراطور الروسي وغيره من الملوك.

عادات السراي

ماذا تعني كلمة «خزينه دار اسطى» في السراي؟ إن الخزينة دار اسطى أي: الخزينة دار الأولى و«الوكيلة»، وهي صاحبة أقوى سلطة في السراي بعد الأمراء والأميرات والزوجات والسراري، فهي بمثابة «الصدر الأعظم النسائي» في الحريم الهمايوني، ولها خاتم [من أختام السلطان] خاص تعلِّقه في رقبتها بسلسلة ذهبية كبيرة أيام المناسبات والمراسم، يتم تسليمه بعد وفاتها لمن تحتَلُّ موقعها، وتحصل على «نشان الشفقة» من الدرجة الأولى، وتستشيرها الأميرات والزوجات أنفسهن في بعض الأمور، وترتدي لباساً على الطراز التركي بتنورات (جنـلات)، وتعلِّق خلف الكسوة التي تضَعُها على رأسها شريطين في عرض أصبعين مجدولين على ضفيرتين من الشعر الأصفر، يتدلَّيان أسفل خصرها، ويقال: إن الضفيرتين كانتا تصنع من شعر الخيل، وترتدي معطفاً موشّىً.

ويعمل تحت إمرتها مجموعة من القلفاوات يُطلَق عليهن اُسم «قلفاوات السلطان»، تعمل اثنتان أو ثلاث منهن معاونات لها يأتمرن بأمرها، ولا يقمن بعمل دون علمها، والكل يتحرَّكُ تبعاً لمشورتها، ومسؤليتها كبيرة بقدر وظيفتها وموقعها. وهي تحتفظ بمفاتيح الخزائن في الحريم، وتضم دائرتُها جمعاً غفيراً من الموظفات والقلفاوات العاملات معها.

وقد تبدَّل على والدي أربع منهن، كانت «دلبريده اسطى» أُولاهن، فلما توفِّيت حلت محلها «نقش فلك اسطى»، ثم توفِّيت هي الأخرى، وجاءت بعدها «شمس جمال اسطى»، ثم أعقبتها «فتانفر اسطى»، وهذه الأخيرة ظلَّت في السراي حتى خَرَجت عند خلع والدي عن العرش.

وتأتي «الخزينه دار الثانية» بعد «الخزينة دار اسطى»، ثم تأتي الثالثة والرابعة والخامسة، غير أنه لا تطلق كلمة «اسطى» على هؤلاء، ويعلِّقن ضفائر الشعر ولا يرتدين المعطف الموشى، وملابسهن على الطراز التركي بحاشيات طويلة، غير أن موقع الخزينة دار الثانية أكبر من مواقع نظيراتها، فهي تعلق «نشان الشفقة» من الدرجة الأولى. ويوجدن الخزينة دارات باستمرار إلى جانب السلطان ويقمن على خدمته، وكان من مهام الثانية أن تنقُل تحياته وأوامره، ويشبه موقعها موقع المشير، أما الأخريات فكن مثل الفريق واللواء.

وتأتي بعدهن موظفات أخريات يُطلَق على الواحدة منهن اسم «خزينه دار قلفه»، وكان لوالدي عشرون واحدة منهن، ويتبعن نظاماً للترقية فيما بينهن يحافِظن عليه. وكانت ست سيدات منهن يعمَلْن بالمناوبة في خدمة السلطان تحت إمرة الخزينه دار الثالثة والرابعة والخامسة، ووظيفتهن الانتظار عند بابه، والقيام بتلبية حاجاته الخاصة. وكانت دوائرُ الخزينة دارات وصحاف طعامهن مختلفة، تعمل تحت إمرة الواحدة منهن قلفة أو قلفاوتان تقومان بالوظائف الدنيا.

وهنـاك أيضـاً «القلفـاوات الكـاتبـات» يَتِمُّ انتخابهن من بين السيدات المخضـرمات الواعيات اللائي خَبَرن طبيعة العمل ونظامه في السراي. وهن بالترتيب: الباشكاتبه [أي: السكرتيرة الأولى]، والكاتبة الثانية والثالثة والرابعة، ويرتـدين لباساً يُسمَّى «عنترى» بتنورات طويلة، ويلبَسْن فوقه معطفاً، ويعلقن ضفائر الشعر، ويمسكن عصاً مطعمة بالجواهر. وهؤلاء كن ناظرات التشريفات [البروتوكول] والنظام، يَرقُبْن الداخلين إلى السراي والخارجين منه، ويستقبلن الضيوف، ويُشرِفن على شتى الأعمال، ولا يدعن أحداً يأتي أمراً مخالفاً، فهن أول من يُسأل عند وقوع شيء من مثل هذا في السراي، ولذلك نهن دائمات التَّجوال ومأمورات الضبط والربط، ومسؤولياتهن خطيرة خطورة وظائفهن.

أما السيدة التي تُسمى «كخيا قادين» فكانت على الدوام في سراي طولمه باغجه، وهي أقدم العاملات به، وتعمَل تحت إمرتها قلفاوات أخريات، وتُنَاط بها الأعمال الخاصة. تعلق ضفائر الشعر وترتدي ثوباً «عنترى» بتنورة طويلة، وتعلق على صدرها «نشان الشفقة» من الدرجة الأولى.

ويأتي بعدَها ستة اسطاوات أخريات هن: جماشير اسطى [أي: عاملة المـلابس]، وجشنيار اسـطى [أي: ذائقـة الـطعـام]، وبـربر اسطى [عاملة الحـلاقـة]، وإبـريقـدار اسـطى [حـاملة الإبريق]، وكيلارجي اسطى [أمينة المؤن]، وقهـوجي اسطى [عاملة القهوة]. وهؤلاء العاملات أيضاً كنَّ يعلِّقن ضفـائر الشعر ويرتدين العنترى ذا الحاشية الطويلة، ويضعن على صدورهن نياشين من الدرجة الثانية، وتعمل تحت إمرتهن قلفاوات أخريات يُطلَق على الـواحدة منهن اسماً بحسب اسم الاسطى التي تعمل معها؛ فهناك: قهوجي قلفه، وكيلارجي قلفه، وجماشير قلفه، وهكذا. . .

وكانت وظيفة قلفاوات الملابس ـ وعلى رأسهن الاسطى ـ غسل ملابس

السلطان بحيث تَمُرُّ الملابس من سبعة طُسوت من الفضة، وهذا نهج متَّبع في السراي، ترتدي القلفاوات جميعهن أثناء الغسل ملابس بيضاء، وبعدها يَضَعْنَ المغسول منها في سِلالٍ كبيرة، ثم يحملنها إلى الحديقة حيث تعلق على أحبال شدت على أعمدة خاصة بملابس السلطان، ويقمن نفس القلفاوات بجمعها ووضعها على مناضدَ كبيرة لكبسها وكيها، ثم يحملنها إلى دائرة السلطان ويسلمنها إلى الخزينه دار الثالثة أو الرابعة. وهؤلاء القلفاوات يحافظن دائماً على ترتيب درجاتهن، فإذا توفِّيت إحداهن احتَلَّت مكانها من تليها، وتظل تُرقَّى الواحدة منهن حتى تصل إلى رتبة «جماشير اسطى».

وتقوم جشنيار اسطى [أي: ذائقة الطعام] بالعناية بأطقم المائدة، ويعمل معها عدد من القلفاوات، فإذا تُوفِّيت احتلت مكانها من تليها منهن.

وكانت الإبريقدار اسطي معنية بالأباريق أيام كانت تُستَخدم في السراي، فلما بطل استخدامها لم يَبْقَ للوظيفة إلا الاسم وأقدمية الدرجة. وكان استخدام الإبريق في زمانه على النحو التالي: تجثو إحدى القلفاوات بإحدى ركبتيها على الأرض، وتضع طَسْتاً على ركبتها الأخرى، وتقوم ثانية بصب الماء من الإبريق الموجود في يدها، بينما تمسك ثالثة المنشفة، وتمسك أصغرهن وعاءَ الصابون، وهذا تقليد قديم.

أما البربر اسطى [الحلاقة] فيقولون: إنها كانت قديماً معنية بأدوات حلاقة السلطان، ثم بَطَلت هذه الوظيفة أيضاً ولم يبق إلا اسمُها.

وتُعنَى الكيلارجي اسطى [أمينة المؤن] بأدوات مخازن المؤن وأوعية الطعام.

ويُناط بالقهوجي اسطى [عاملة القهوة] مهمة العناية بأدوات القهوة وطريقة تقديمها؛ إذ كان للقهوة أصول ومراسم؛ تقوم إحدى القلفاوات اليافعات

القـويات فتمسـك صينية كبيرة مستـديرة من الفضة أو الذهب، على جانبيها قلفاوتان أخريان أمسكتا بغطاء مطرز موشى باللؤلؤ يَشدُدْنَه فوق الصينية، وتدخل ثلاثتهن معـاً، وتأتي رابعة برَكوة (دلة) القهوة داخل معلاق من الفضة، وتقوم خامسة بصب القهوة في الظروف المطعَّمة داخل الصينية الكبيرة، ثم توزعها على الضيوف الجالسين في صحاف صغيرة. وأثناء هذه المراسم تقف القهوجي اسطى في مقدمتهن دائماً وتشرف عليهن حتى لا يَقَعْن في خطأ، وعندما تتوفى الاسطى تحتل مكانها من تأتي بعدها في الدرجة من القلفاوات.

وكان إذا بلغت إحدى الاسطوات سن الشيخوخة، وأرادت أن تنسحب من وظيفتها وتطلُب حقَّها في التقاعد، وَجَب عليها أن تذهب إلى سراي طوب قابي وتقضي به عاماً على الأقل، لأن ذلك السراي كان بمثابة بيت الأسرة الكبير، وتعود بعد ذلك إلى سراي طولمه باغجه فتتقاعد وتعيش بقية عمرها في هدوء.

ويقـولـون: إن سراي طوب قابـي كان به مستشفى تُديرهـا إحـدى الاسطاوات، تنقل إليها كل من تصاب بمرض ويتم علاجُها هناك، وكانت تطلق كلمـة «نينـه» [أي: الأم] على الممرضات العاملات بالمستشفى، وحتى إنه عندما ظهر مرض الكوليرا على أيام السلطان عبد العزيز قامت المستشفى بمهمة العلاج فيه.

وكان يتم في سراي طوب قابي تجهيز وتكفين الموتى من الأمراء والأميرات والزوجات [زوجات السلاطين]، وتُحفَظ به الأغطية والأحزمة التي توضع على نعوشهم، وكان للأمير أو الأميرة ثلاثة أحزمة، وللزوجة حزامان.

وإذا مَرِضت إحدى القلفاوات حُمِلت إلى واحد مما يسمى «بيوت موظفي السـراي» وعـولجت هنـاك، وكـان يُطلَق على هذه الحادثة اصطلاح «خروج التيمار»، وإذا توفيت نقلوها إلى أحد هذه البيوت نفسها، وخرجت جِنازتها من هناك.

وكـان لكـل أمير وأميرة وزوجـة قلفاوات يقمن بخدمتهم، ويوجد على رأسهن اثنتان أو ثلاث من «قلفاوات السلطان» يقمن على تربيتهن وتعليمهن، وقلفاوات السلطان أرفع القلفاوات شأناً وشرفاً في السراي.

وإذا أتت السراي قلفة جديدة عيَّنوا لها إحدى القلفاوات الصغيرات تلقنها آداب السراي وعاداته، ثم تقوم القلفة الجديدة مدة ببعض المهام الثانوية، وما أن تَنضَج حتى تشرع في القيام بالمهام الأساسية. وكان إذا حدث وجاءت إلى السراي قلفاواتان جديدتان أو أكثر، يكون أول تسجيل في الدفتر، وبالتالي حق الأقدمية، لمن سبقت في مراسم «تقبيل ذيل الثوب».

أما الفتيات اللائي جئن إلى السراي في سن مبكرة ونشأن فيه كن يصبِحن من أولاد السراي، ولهذا السبب يتم استثناؤهن من هذا الشرط، ولهن أولوية في حق الخروج من السراي والزواج، وكانت إذا كبرت إحداهن وشاءت الخروج كتبت على ورقة عبارة: «العبد ومراده، والإحسان من سيدي»، ووقَّعت أسفلها ثم وضعتها في أحد أيام الأعياد أو المناسبات الدينية في مكان يلفت الأنظار، وتـذهب إلى غرفتهـا فلا تبرَحُها، وعلى هذا يأمر سيدها [السلطان] بتجهيزها ويُنعِمُ عليهـا بالمال، ثم يرسلها إلى أحد «بيوت موظفي السراي» فتظل هناك حتى تواتيها قسمتها. وهؤلاء القلفاوات كنَّ يحصُلن على مكافآت تتفاوت في مقدارها تبعاً لسنوات الخدمة التي قُمن بها، والتقدير الذي اكتسبنه.

وكانت إذا تزوجت إحدى الأميرات صار لها هي الأخرى قلفاوات مثل الخزينة دار اسطى والقهوجي اسطى والكيلارجي والإبريقدار وغيرها، أي: إنها تقيم تنظيماً في بيتها يشبه تنظيم السلطان في السراي، ولكنه بالطبع على نطاق أصغر. أما الأمراء فلم يكن لهم مثل هذا التنظيم، ولا تحمل قلفاواتهم هذه الألقاب إلا عندما يصبح الأمير سلطاناً.

وعندما يتغيَّر السلطان تنتقل القلفاوات القديمات والاسطاوات وكل التنظيم ـ كما هو ـ إلى السلطان الجديد، ولا يغادِر السراي إلا الخزينة دار اسطى والخزينة دارات الأخريات، أي لا يقمن على خدمة السلطان الجديد، فإذا تُوفِّي أحد الأمراء أو إحدى الأميرات أو الزوجات، ذهبت قلفاتهم إلى السراي وسَجَّلن أسماءهن في الأوجاق.

وقيل: إن القلفة «شوق ديل» التي كانت تشغل منصب «كخيا قادين» على أيامنا، كانت آخر امرأة من أربعين جاريةً جميلة أهداهن محمد علي باشا والي مصر إلى السلطان محمود [الثاني]، وهذه السيدة العجوز التي بَلَغت من العمر تسعين عاماً عندما رأيتُها في شبابي كانت على درجة عالية من الصحة والتماسك، والحقيقة أنك تُدرِكُ على الفور عند مشاهدتها حتى في هذه السن كم كانت رائعةَ الجمال في شبابها.

وكان غيرها الكثيرات من القلفاوات المسنات بَقِين منذ عهدَي السلطان عبد المجيد والسلطان عبد العزيز، وجميعهن أقمن في السراي برغبتهن، وأتممن البقية الباقية من أعمارهن مستريحات فيه.

وكانت هناك عادة أخرى قديمة ظلَّت منذ زمن في السراي وهي: أن واحدة أو اثنتين من أقدم القلفاوات في السراي، ومعهما خمس عشرة أو عشرين قلفة أخريات، يتناوَبْنَ كل ليلة من العشاء حتى الصباح عند «جناح السلطان»، فتقوم اثنتان أو ثلاث منهن بالطواف ليلاً خلال الدوائر والحدائق، ويُطلق عليهم اسم «قلفاوات مناوبات»، وعلى رأسهن قلفة أخرى يطلق عليها اسم «مناوبة أولى». وكانت وظيفتهن عند وقوع حادثة في الليل أو ظهور مرض إخبار الباشكاتبة في الحال، ويأتيهن الطعام أثناء الليل فيأكلن.

وبينما يطوفُ قسم منهن أنحاء السراي يجلس القسم الآخر وينشغلن

باللعب واللهـو حتى لا يغلبهن النعاس، ومن الألعاب التي كانت معروفةً في السراي: بكيز وكوس وسورمه، وهي ألعاب قديمة، أما الطاولة والدامه والدومينو فكانت ألعاباً حديثة، ولم يدخل ورق اللعب «الكوتشينه» باب أي من القصور على الإطلاق، ولم يعرفه أحد، إذ عدوه شيئاً شؤماً، وكان محظوراً. وقد رأيتُ من بين هذه الألعـاب القـديمة لعبة «بكيز»، ومع أني بحثت عنها إلا أني لم أجدها، أما لعبة «كوس» فلا زالت عندي، ولعبة «سورمه» هي لعبة «الأحجار التسعة» المعروفة، وتوجد في كل مكان.

وكان هناك أيضاً ما يسمى «نوبة الطعام» و«نوبة الغرفة»، تقوم العاملات في النـوبة الأولى بالانشغال بأمور الطعام لمدة أسبوع ثم يستَرِحْن بعده، أما العاملات في النوبة الثانية فكنَّ يقمن بالخدمة في حجرات الأميرات وزوجات السـلاطين وحجـرات الأمـراء. وما أن يَفرُغْن من نوباتهن حتى تأتي عاملات غيرهن، وهكذا يعمَلْن أسبوعاً ثم يقعدن للراحة خمسةَ عشر أو عشرين يوماً، وكـل هذه الأعمال كانت تسير بالساعة والدقيقة، ويمضين أوقاتَ فراغهن في الحديقة أو في حجراتهن.

انقسمت الأبواب في السراي إلى ثلاثة: باب الطعام، وباب المسيرة، وبـاب السلطنة؛ إذ تأتي صينيات الطعام من الباب الأول، ويعمل عنده كل الموظفين، أما الباب الثاني فتدخل منه العربات وتخرج الأميرات والأمراء، أما باب السلطنة فكان خاصّاً بدخول وخروج السلطان وحده.

مصاحبو السلطان
وآغا دار السعادة

هؤلاء أيضاً تنظيم قائم بذاته، ومنصب «آغا دار السعادة» منصب كبير، يُطلَق عليه في السراي «آغا البنات»، يتم انتخابُه من قبل السلطان، ويَحُوز رتبة

الـوزارة ويحمـل «نشان الوشاح الكبير» المرصع، ويرتدي بِزة رسمية مثل بزة الوزير، ويأتي موضعه في البروتوكول بعد الأمراء وأصهار السلطان والمشيرين والوزراء.

ومع أنه كانت لهم في السابق أدوار تاريخية لَعِبوها، إلا أنهم لم يكونوا ليتدخَّلوا في أمرٍ لا يعنيهم على عهد والدي، وكانت لهم دوائر خاصة بهم.

وآغا البنات هو بمثابة الآمر العام للحريم الهمايوني، وقد تبدَّل في عهد والدي أربعة من هؤلاء الآغوات: أولهم حافظ بهرام، وكان رجلاً ذا نفوذ عظيم، وثانيهم هو شرف الدين آغا، وثالثهم ياور آغا، ورابعهم عبد الغني آغا الذي استمرَّ حتى خُلع والدي عن العرش.

ووظيفة آغا البنات هي تقديم «البشكير الشريف» في احتفالات «البردة الشـريفـة»، والـدخـول بالعصـا إلى الحـريم عند الاحتفال بموكب المحمل الشـريف والسير أمـامـه، والحضـور «عند جلوس العروس على مقعدها» في حفلات أعراس الأميرات... كما كان منوطاً به أمر عزل الآغوات الآخرين وتعيينهم.

وكـان يقـوم على خدمـة والـدي في مجلسـه تسعـةُ مصـاحِبين، هـم: الباشمصاحب، والمصاحب الثاني، والمصاحب الثالث، والمصاحب الرابع، ويُطلَق على الآخـرين اسم «مصـاحب آغـا»، وجميعهم يرتدون بِزَّاتٍ رسمية موشاة، ويعلِّقون سيوفاً بأحزمة على جنوبهم. وهؤلاء المصاحبون ليسوا كغيرهم من آغوات الحريم، فهم قائمون على خدمة السلطان وحده، يحصل الأربعة الأوائل منهم على نياشين «الوشاح الكبير»، بينما يحصُل الباقون على نياشين أخـرى تتفـاوت تبعـاً لدرجاتهم، وكان لهؤلاء المصاحبين دوائر خاصة بهم، ومناصبهم جد عالية في السراي.

والمهام الأساسية التي يقومون بها هي الوقوف بالمناوبة عند باب دائرة الوالد [داخل الحريم السلطاني]، وتلقِّي الأوراق القادمة، واستقبال الباشوات والبكوات [القادمين من الخارج]، فيدقُّون جرس باب الحريم ويخبرون الخزينة دار المنـاوبة، فتقوم هي بعرض الأمر على الوالد، ثم تعود فتخبر المصاحب بالجـواب الذي حصلت عليه، وكانوا أحياناً يدخلون بأنفسهم على السلطان ويعرِضون عليه الأمر.

ومن مهامِّهم الأخرى أيضاً: تبليغ أوامر السلطان إلى الزوجات والأميرات وحتى الأمراء، والحصول منهم على إجاباتهم، وكانوا يرتدون سترة «ردنجوت» سوداء مغلقة بأزرار من الأمام. وإذا حدث وتُوفِّي السلطان فهم لا يعملون في خدمة السلطان الجديد، مثلهم مثل آغا البنات، إذ يغادرون السراي ويعيشون حياتَهم كيف ما يشاؤون، أي: إنهم يشبهون الخزينة دارات في هذه الناحية.

وقد أُعدم الباشمصاحب جوهر آغا بلا ذنب، إذ اتُّهم بأن له يداً في حادثة (٣١ مارس)(*) دون أي دليل يُستنَد عليه، وذهب المسكين ضحية الغدر. وكان هذا الرجل هدية من «عرب محمد باشا» إلى والدي أيام كان وليّاً للعهد، ومنذ ذلـك التاريخ وهو يخدم والدي بكل الإخلاص، وعرفه كل من في السراي رجلاً نزيهاً ذا ضمير، يقف على عادات السراي وتقاليده.

ففي يوم من الأيام أمر والدي بجعل الطابق الأوسط من «جوسق رئيس البستانية» متحفاً لعرض الأسلحة القديمة، ثم أمر بعد ذلك بنقل هذه الأسلحة إلى محـل تعليم الـرماية، وكلَّف محمود باشا شوكت بأمر تنظيمه. وفي تلك الأثناء كان الباشا يتردَّدُ على دائرة الباشمصاحب جوهر آغا كل يوم حتى صادقه

(*) سوف يأتي فيما بعد تفصيل هذه الحادثة المشهورة التي كانت سبباً في خلع السلطان عبد الحميد عن العرش (المترجم).

صداقة قوية، وكان يجلِسُ معه وجهاً لوجه، ويتناولا معاً الطعام القادم إلى شوكت باشا من «الكيلار الهمايوني»، وكان يقدم تقاريره السرية في حق الأشخاص إلى والدي بواسطة هذا الآغا، فكان من الطبيعي أن يعزل هذا المسكين مع هذه التقارير، ويحكم عليه بالإعدام.

وأرسل إليه محمود شوكت باشا رسالة نصها: «عليه أن يطلب العفو مني»، وكان رد الآغا: «لا أريد العفو من أحد، فالعفوُ من ربي وحده»، وكانت وصيته الأخيرة قبل أن يُعدم أن تُمنَح داره لأبناءِ سيده القديم «عرب محمد باشا»، وتُمنح مزرعته الكائنة في أزميد إلى أخي محمد سليم، وبالطبع لم تُنَفَّذْ وصيته. لقد كان رجلاً محباً لعمل الخير، أقام براتبه الذي كسبه جامعاً في «العمرانية» ومدرسة وأوقافاً.

والحاصل أن الباشمصاحب المسكين ذهب ضحية لغدر الآخرين، والشيء الذي يُثير الدهشة أن يُعدَم الباشمصاحب مع مئات التقارير التي قدَّمها محمود شوكت باشا ضمن «أوراق يلديز»، وكان يقول والدي عن الباشا: «إنه جندي ممتاز، وهو رجلي» ثم يبتسم بعدها.

والمصاحب الثاني لوالدي يُدعى أيضاً جوهر آغا، ذهب معه إلى سلانيك، غير أنه لم يستطع لمرضه مشاركة الوالد أيام ضيقه، فعاد إلى استانبول مع الأميرات العائدات.

أما المصاحب الثالث فهو نادر آغا، وَضَعوه في الحبس عقب حادثة ٣١ مارس واستجوبوه، ثم أرسلوه إلى سراي يلديز عند سرقة الخزائن كما لو كان سيبحث عن كنز هناك، وعانَى الأمرَّيْن، غير أنه استطاع بفضل ذكائه ومساعدة بعض أصدقائه مثل أمير الإصطبل فائق باشا أن ينجو من خطر الإعدام.

ونادر آغا كان يقوم بأعمال والدي الخاصة، وكان رجلاً على درجة عالية

من الذكاء يَعرِف كيف ينجز أعماله، كما كان يفهم جيداً مزاج والدي، إذ يذهب مثلاً إلى محلات (بك أوغلي) ليشتري له بعض حاجياته، ويستخدمه في أمور المفروشات، ويذهب مع الباشا أمير الإصطبل لشراء مستلزمات الإصطبل، وعندما أُرسِلت لوالدي أول سيارة من باريس لم يستطع أحد أن يستخدِمَها، فاستخدمها نادر آغا على أحسن ما يكون، وكان يطوفُ بها في الحديقة، كما كان يستخدم القوارب البخارية في «الحوض الكبير»، وكان غايةً في الفِطنة، جاء إلى السراي صغيراً، واستطاع أن يَقِف على كل عاداته وتقاليده، ومن ثَمَّ كان يستخدمه الوالد في كل أمر.

والمصاحب الرابع هو سليم آغا، وكان رجلاً بسيطاً، أخلَص إلى الوالد وجاء معه إلى سلانيك، غير أنه لم يتحمَّل صعوبة الحياة هناك، فعاد مع الأميرات إلى إستانبول.

وكان نوري آغا وشهر الدين آغا وجاويد آغا من المصاحبين الآخرين الذين عَمِلوا في خدمة الوالد حتى أيامِه الأخيرة في سلانيك وفي قصر «بكلربكي»، أما شهاب الدين آغا وعنبر آغا وتحسين آغا فقد ظلُّوا في استانبول.

فريق آغوات الأوجاق في الحريم الهمايوني

هؤلاء الآغوات يرتدون بزة رسمية لا يوشى فيها إلا الزيق (الياقة) والأكمام، ويتمَنطَقُون بنِطاق موشّىً، ولهم سيوف خاصة بهم، وارتداء هذه البزات الرسمية عادة ظلَّت باقية منذ زمن بعيد، وأقدمهم وأكبرهم سناً كان يُقيم في دائرته في سراي طوب قابي، ويُطلق عليه لقب «باش قابلان آغا» [أي: الآغا رئيس النمور]، ويأتي بعده في الدرجة «الآغوات ذوو الحصير»، وهم الآغوات الذين حصلوا على حق التقاعد، وإذا توفِّي رئيسهم «الباش قابلان آغا» يحتل أحدهم مكانه.

ويأتي بعد هؤلاء نوع آخر من الآغوات يطلق عليهم اسم «الآغوات الأواسط»، ثم «آغوات قلفاوات المناوبة»، ثم «الآغوات الأقل»، وهؤلاء كان بإمكانهم الترقي حتى درجة «الأوسطية»، ويتم تعيين الواحد منهم برتبة «باش آغا» للقيام بالخدمة في دوائر الأمراء والأميرات، ويغادرون «الأوجاق» [أي التشكيل] بترتيب الأقدمية، ويرقُّون كل عام إلى درجة «أوسط» تبعاً لدرجات أقدمياتهم، وعندما يبلغ الواحد منهم هذه الدرجة يُرسِل إلى الدائرة التي كان يخدم فيها بالسراي ديكاً هندياً هدية، ويلعبون فيها فيما بينهم لعبة العصا، ثم يصعدون إلى «خزانة الفراش» في سراي طوب قابي ويطبخون الطواجن ثم يأكلون.

وكانت وظائفهم إغلاق أبواب الحريم الهمايوني في الصباح والمساء، والقيام بالحراسة عندها، ومراقبة الخارجين والداخلين، ومرافقة العربات، والدخول والخروج مع الأطباء وغيرهم من المتردِّدين على السراي من الخارج، بحيثُ لا يظَلُّ القادم من الخارج وحيداً بمفرده داخل السراي، ويطلق على ذلك اصطلاح «ضبط الخلوة»، وهؤلاء الآغوات كانوا يَصيحون وهم يدخلون قائلين: «دستور».

وكنت قد قرأتُ كتاباً حين إقامتي في أوربا جاء فيه أن آغوات الحريم يضرِبون البنات بالسوط، ولم أشهد في زماني شيئاً من مثل هذا أو سمعت به، بل على العكس من ذلك كانوا يُكِنُّون للسيدات كل احترام وتقدير، وكانت أعمالهم في الأساس - وفي زماننا - إنْ هي إلا أن يكونوا واسطة بين الحريم والسلاملك.

كان في السراي آغوات كثيرون أتوا صِغاراً ونشؤوا فيه، وخدموا ساداتهم بإخلاص وتعلقوا بهم.

ويرتدي آغوات الحريم في الأعم الأغلب سترة «ردنجوت» سوداء اللون، مغلقةً دائماً بأزرار من الأمام، فهم لا يسيرون وقد فَتَحوا صدورهم على الإطلاق، وكانت أصَول التربية في الأوجاق حازمة، فإذا بدا منهم تقصير قام الباش آغا بتأديبهم.

شهر رمضان في السراي

كنت قد بلغت التاسعة من عمري، وعلَّمني المعلم أركان الصلاة، وتقرَّر أن أبدأ الصلاة في الليلة الأولى من شهر رمضان، فأعدَّت لي أمي ثوباً للصلاة من القطيفة الحمراء، مطرزاً بلون ذهبي، وسُبحة من المرجان بإمامة من الذهب والماس، ولم يكن لفرحتي عندها حدود، ولما كبرت بعض الشيء تقرَّر أن أبدأ الصوم.

لقد كان شهر رمضان في السراي شيئاً رائعاً، إذ تبدأ الاستعدادات له قبل أسبوع، فيتِمُّ تنظيف السراي، وتخرج من «الكيلار الهمايوني» أصناف شتى من العصائر في دوارق كبيرة، وتوزَّع أطعمة الإفطار على كل الدوائر، وفي أول ليالي رمضان تُسدَل الستر المذهبة على كل أجنحة الدوائر، وتفرش سجاجيد الصلاة، ويأتي بصحبة آغوات الحريم إمامٌ ومؤذنان من أصحاب الأصوات الجميلة، فينشدون الابتهالات الدينية وتقام الصلاة.

وفي الليل تُفتَح الأبواب لتدخل موائد السحور، ويظل الجميع على قدميه حتى تنطلق المدافع، ثم ننام بعد مدفع الإمساك، وعند الظهر يأتي الوُعَّاظ إلى كل الدوائر، وفي المغرب نتحلَّلُ من صيامنا بماء زمزم الشريف مع مدفع الإفطار، وتُعَدُّ أطقم الطعام وتوزع عصائر الليمون وغيرها. وكان هناك عصير خاص بالسراي يُصنَع من زهور النرجس (Narcissus ionquilla) كان رائعاً، وتتحول «دائرة الحريم» في رمضان إلى ما يشبه الجامع، وينشغل الجميع بالعبادة.

يذهب والــدي إلى المــابين كل يوم، ويستمـع إلى درس «المجلس الهمـايوني»[٢٤]، وفي المسـاء عقب الإفـطار يؤدِّي الصلاة مع أولاده وإخوته القادمين من خارج السراي ورجال المابين وبعض الوكلاء المدعوين للإفطار.

ولا تعـزف «مـوسيقى النـوبة» وغيرها في رمضان، ويقوم رئيس موظفي المابين بتقديم العطايا التي تُسمى «كِـرَاءُ الأسنان» على القادمين إلى المابين، وكـل مغـرب يتناول أحد طوابير العساكر إفطارَه في «ساحة يلديز»، ثـم يؤدُّون الصلاة، ويقوم «ناظر الجيب الهمايوني» فيوزِّع عليهم «كِـرَاءُ الأسنان»، وعقب ذلك يهتفون: «عاش السلطان» ثلاث مرات، ثم ينصرفون.

وكنا نبدأ الاستعداد قبل يومين أو ثلاثة من أجل زيارة «الخرقة الشريفة» التي تتِمُّ في منتصف شهر رمضان، وفي يوم الزيارة ننهضُ مبكراً فنرتدي أجمل وأطول ملابس المراسم عندنا، ونعلِّق النياشين والمجوهرات، ثم نذهب إلى سراي طوب قابي، وتركب جدتي عربة السلطنة، وهي عربة يرتدي سائقوها زياً موشى يُشبه زي سائقي عربة السلطان، أما سائقو عرباتنا فكانوا يرتدون الزي الخاص بالعاملين في «الإصطبل الخاص».

وكان حليم أفندي «مدير المسيرة» في الحريم يسير في المقدمة، ويرتدي «القواسون» وآغوات الحريم ملابسهم الموشاة ويتعقَّبون عربة جدتي، فنخرج من سراي يلديز متجهين نحـو سراي طوب قابي، وهنـاك تستقبلنا القلفاوات المخضرمات والاسطاوات القادمات من سراي طولمه باغجه، وتدخل كلٌّ منا الغرفة المخصصة لها في دائرة الحريم هناك، وتأتي أيضاً الأميرات المتزوجات خارج السراي، وزوجات الوكلاء اللائي ذهبت إليهن الدعوات قبل ذلك، كما

(٢٤) هي تقارير في شكل أسئلة وأجوبتها يقدمها علماء الدين في مجلس السلطان في شهر رمضان.

كنا نحنُ أيضاً ندعو من نُحِبُّ، ويتحول السراي إلى ما يشبه يوم العيد.

وتجلس جدتي بلباسها الملكي على أريكة في الغرفة التي تسمى «غرفة المقعـد»، ونـذهب جميعاً إليها فنقبِّل يدها، وننتظر موعد افتتاح قاعة «البردة الشريفة». وتحضر هناك أيضاً «سرفراز» و«شايسته» زوجتا السلطان عبد المجيد، فتجلسان إلى جوار جدتي، كما تحضر في الغالب «الوالدة باشا»(٢٥) في هذا الاحتفال.

وعندما تُفتح قاعة البردة الشريفة يأتي إلى الحريم الباشمصاحب فيجثو أمام جدتي الأميرة ويخبرها بذلك، فتنهض وقد سارت خلفها زوجتا السلطان عبـد المجيد، وتسير عمَّـاتُنـا من بعـدهن، ثم تتعقبهن الأميرات وزوجـات السلطان، كل بحسب درجته في الأقدمية، ويذهبن إلى قاعة البردة الشريفة، وعلى رأس كل واحدةٍ منا غطاء من التل الأبيض، وسط رائحة البخور التي تَفُوح في كل جانب، وصوت عذب لأحد المؤذنين يأتي من خلال النافذة حاملاً آيات الذكر الحكيم تَفِيضُ قلوبنا لسماعه بالخشوع، ونحن نسير بخطوات هادئة ونَجرُّ أذيال ملابسنـا على الأرض حتى نصل أمام السلطان الواقف على قدميه عند كرسي العرش، فننحني تحيةً له، ثم نتوجه ناحية البردة الشريفة أولاً، ونعود إلى السلطان ثانيةً لننحني تحية بين يديه، ونأخذ «البشكير الشريف» الذي يقدِّمه لنا فنقبِّله ونمسح به على رؤوسنا، ثم نتراجع بظهورنا وبترتيب درجاتنا لنقف في مكان هناك.

وكان آغا دار السعادة هو المكلف بإخراج «البشاكير الشريفة» من صندوق ذهبي موضوع أمام كرسي العرش ووضعها أمام السلطان، وهي وظيفة نِيطَت به دون سواه.

---

(٢٥) لقب يطلق على والدة خديوي مصر عباس حلمي باشا.

يصطَفُّ الأمراء الشبان وأبناء السلطان بملابسهم الرسمية خلف كرسي العرش، كل بحسب درجته.

وتدخل بعدنا «الوالدة باشا» وزوجات الصدر الأعظم وشيخ الإسلام وزوجات الوكلاء الآخرين، كما كان يشارك أيضاً في هذا الحفل الخزينة دار اسطى وغيرها من القلفاوات القديمات، وزوجات الموظفين المقربين. وعند انتهاء الحفل يأتي الباشمصاحب فينحني للتحية وسط الحاضرين، وعندها نبدأ نحن في الخروج مثلما دخلنا وقد تصدَّرتنا الأميرة الوالدة، كل حسب درجته.

وتقترب العربات من باب دائرة الحريم في سراي طوب قابي وبترتيب الأقدمية، فنركبها ونعود مثلما جئنا، وعربات ذلك الزمان التي تجرُّها الخيول كانت تسير ببطء، ولهذا كنا نصل إلى السراي في أغلب الأحيان مع انطلاق مدافع الإفطار.

وأذكر في طفولتي أن والدي كان يذهب بطريق البر، أما في أيامه الاخيرة فكان يركب اليخت «سوكوتلو»، ولذلك كان يَصِلُ قبلَنا.

وكانت تأتي إلى السراي تلك الأطعمة الشهية التي يطبخها آغوات «الأندرون الهمايوني»(*)، ويقولون: إن والدي كان يتناول طعام الإفطار قبل ذلك في سراي طوب قابي، أما في أيامه الأخيرة فقد صار لا يفعل ذلك أيضاً.

وكان موكب ليلة القدر في السابع والعشرين من رمضان موكباً مَهيباً هو الآخر، يصطحب والدي الغازي عثمان باشا في عربته، فلما تُوفِّي صار

(*) الأندرون تشكيل ضخم في السراي العثماني يستقبل الغلمان الأسرى من أبناء المسيحيين، فيتم بعد اعتناقهم الإسلام تلقينهم مبادىء الدين واللغة والآداب جنباً إلى جنب مع تعلمهم فنون القتال وغيرها. وقد كان هذا التشكيل مدرسة ضخمة تخرَّج فيها العديد من رجال الدولة العثمانية في مجالات شتى (المترجم).

يصطحب القائد العسكري رضا باشا، كما يصطحب كالعادة أخي برهان الدين.

وكنا نخرج من السراي قبل الصلاة بعربات الحريم، وفي مقدمتنا عربة الأميرة الوالدة بالترتيب داخل فناء جامع حميدية، وتأتي معنا الأميرات المتزوجات وزوجات الوكلاء، وعندها يَتِمُّ تزيينُ المكان من باب الحريم في السراي حتى الجامع، ويقف إلى جوار كل عربة من عربات الحريم قواسان يُمسكان بمصابيح مطلية بالفضة، أما عربة السلطان فكان يقفُ على جانبيها ثلاثون رجلاً من خدمة السلطان، يمسكون بهذه المصابيح، ويلبَس الباشوات والوزراء وغيرهم ملابسهم الرسمية الكبيرة، كما يشترك عدد غفير من العساكر، وبعد أن يدخُلَ السلطان الجامع يوزَّع عليهم الخبز المحشو بالجبن والعصائر اللذيذة القادمة من «الكيلار الهمايوني»، وتظل المدافع تنطلق في «ساحة يلديز» حتى تنتهي الصلاة، وكنت في طفولتي أعشق الفُرجة على هذه الطلقات.

وكما يحدُث في مواكب «تقديم التحية» يُسمح للعساكر بالانصراف عند انتهاء الصلاة، فينصرفون إلى معسكراتهم وهم يعزفون الموسيقى. لقد كان هذا المنظر رائعاً في الليل.

ونعود نحن أيضاً إلى السراي، وبنفس الطريقة التي أتينا بها.

عمة والدي: الأميرة عادلة

هي أخت السلطان محمود الثاني، وزوجة الصدر الأعظم الداماد محمد علي باشا، التي عُرفت بحبها لفعل الخيرات والحسنات ومساعدتها للفقراء، وكانت أميرةً شاعرة صاحبة علم وفضل، نَظَمت عند وفاة زوجها مرثيات جميلة، وكان يتحدَّث عنها بكل الرضا كل من عملوا في خدمتها وكل من عرفوها عن كثب. وبعد وفاتها جاءت جواريها وجاء آغواتها إلى السراي، فكانوا يروون

حكاياتهم مع سيدتهم ويعدُّون لنا ما فعلته من خير والدمعُ يفيض من عيونهم.

وكـانت عنـدمـا تَوَدُّ التحـدث إلى والـدي ترسـل إليه الخبـر، فتقـام الاستعـدادات الخـاصة في السراي إيذاناً بمقدمها، فلم تكن مثل غيرها من الأميرات تأتي في الأعياد أو تكتب العرائض، بل كانت تكلِّف رئيس الآغوات لديها فينقل إلى الوالد رغباتها، ويتم لها على الفور ما أرادت.

وعندما تريد المجيء عمتي الأميرة ينتظرها الوالد في دائرته الخاصة، ولا يوجد إلى جانبه إلا الخزينة دار اسطى والكاتبات والمصاحبون، فيقومون على خدمته.

وكانت عربتها تقترب من «دائرة السلطان» فيتأبَّط المصاحب الأول ذراعها حتى تنزل من العربة، وتدخل من الباب، وعندئذ يستَقبِلُها والدي هو والأميرة الوالدة، فيتوجَّهون رأساً إلى القاعة، وكان يعظِّمُها ويبجلها، ويقبِّلُ يدها، ثم تجلس على الأريكـة الكبيرة ويجلس هو في مقـابلهـا، وتقوم الخزينه دارات بإحضـار القهوة فيأخذها والدي بيديه من الصينية ويقدِّمها إلى عمته. وكانت الأميرة عادلة تشرَب النَّرجيلة، ولذلك كانوا قبل وصولها يُعِدُّون لها نرجيلة من البلور مرصعة بالمجوهرات، ويُحضرونها إلى غرفتها، فينهض والدي ويضَعُها أمامها، ثم يناولها أنبوبها.

وكنا نحن أيضاً ندخل عليها فنقبِّل يدها وننحني أمامها تحية، تماماً مثلما نفعـل عند تحية السلطان، ثم نخرج. وكانت تنادي والدي قائلةً: «يا بني»، فيجيبها قائلًا: «أمرك يا عمتي»، ويستمرُّ حديثهما ساعة أو ساعتين، تبدأ بعدها في الانصراف بمثل ما جاءت، فتركب عربتها ويُشيِّعها والدي حتى الباب.

كان واضحاً من وجهها أنها كانت رائعةَ الجمال في شبابها، نحيلة متوسطة القامة خمرية اللون زرقاء العينين، نورانية الوجه، تُدرِك من حركاتها وسكناتها ما

يدل على أصالتها وحسن تربيتها، تركيةَ اللباس، ترتدي فستاناً بأربع حاشيات (جنلات) من النسيج الثقيل، وفي قدميها خف من جلد الغزال، تتمنْطَقُ على خصرها بنطاق من الشال، وتلبس سترة ذات أكمام واسعة فوق الفستان يقال لها: «سَلْطَة»، وتضع على رأسها شيئاً يشبه الطربوش، وتلفُّه بمنديل من الحرير المطرز، وتعلق فوقه ثلاثة من الدبابيس الثمينة المصنوعة من الزمرد والمرجان على شكل الورد، أوسطها أكبر مما في الجانبين، ولا تعلق شيئاً غير ذلك من المجوهرات أو النياشين.

ويقال: إنها في آخر مرة جاءت فيها انتزعت من إصبعها خاتماً بفَصٍّ من المرجان الثمين، ووضعته في إصبع والدي ثم قالت له: «هذا الخاتم قدَّمه جدي السلطان عبد الحميد الأول إلى والدي السلطان محمود الثاني هدية، ثم أهداه لي والدي ذات يوم ووضعه في إصبعي، وقال لي: إنه هدية والده إليه، وها أنا اليوم أهديه إليك، لقد مرَّتِ الأيام وأنا أحمِلُه في إصبعي غير أني أشعر الآن بقرب رحيلي إلى المثوى الأخير، وها هو الخاتم الذي لم يَهُنْ علي أن أقدِّمَه لأحد أقدمه لك اليوم يا بني»، وعلى الفور نَهَض والدي وقبَّل عمته، وشكرها على هذا الخاتم التاريخي.

والحقيقة أن قدومها إلى السراي وحديثها هذا معه كان الحديث الأخير لها، ولم يكن من عادة والدي أن يَضَع خاتماً في إصبعه، فحفظه في عُلْبة صغيرة من الذهب كان يحرص دائماً على أن تكون موجودة في الخزانة الزجاجية الصغيرة داخل غرفة نومه، وكان بهذه الخزانة الموضوعة عند رأسه كثيرٌ من الهدايا الخاصة بوالده، غير أنها ضاعت كلها عندما خَلَعوه عن العرش.

□□□□□

عمي مراد الخامس

قيل: إن والدي عندما كان صغيراً كان يلهو مع أخيه مراد أفندي، الذي يكبره بعامين، فلما بلغا سنَّ الشباب كانا صديقين أحدهما للآخر، وقد عُنِي جدي السلطان عبد المجيد بتربية ولديه هذين أكبر عناية، وكان يدعوهما كلَّ يوم جمعة إلى مجلسه قبل إقامة مراسم التحية، فيَنصَحُهما، وكان قد خصَّصَ لهما حجرة أسفل حجرة نومه جعلها لدرسهما هما والأميرة فاطمة ابنته الكبيرة، يأتي إليهم المدرسون فيقرؤون عليهم فيها، وكان عندما تَعلُوا أصواتُهم بالصياح والضجيج يضـرِب عليهم جدي سقف الحجـرة فيهـدأ الإخوة، ويعودُون إلى مواصلة الدرس.

كان يحدث أحياناً أن يَروِي والدي شيئاً من ذكرياته لوالدتي، فعندما جاءه خبر وفاة أخيه الأكبر السلطان مراد حَزِنَ كثيراً، وبكى بدموع غزيرة، وقال لها هذه الكلمات أنقلها عنها:

«مما يُؤسِفني أنني لم أر أخي ولو مرةً واحدةً بعد خلعه عن العرش، وكنت أتمنّى أن يعيش طليقاً، إلا أنَّ ذلك لم يكن يسيراً، وخاصة بعد حادثة «علي سعـاوي»، إذ وجـدت نفسي مُرغَماً لأن أكون يقظاً كل اليقظة، وفتحَت هذه الحادثة عينَيَّ، ولو أني كنت تركت أخي طليقاً لما نَعِم هو بالراحة ولا نعمت أنا.

لقـد كان أخي إنسـانـاً طيب القلب، وكان من طبيعته أن يَنخَدِعَ لمن يبتسمون في وجهه، دون أن يفكر في المعقول وغير المعقول، حتى إنه بسبب ذلـك لم يكن يَخطُر على باله عدم لياقة اشتراكه ـ وهو خليفة المستقبل ـ في المحفل الماسوني، وتقدير المصيبة التي ستنجُم عن ذلك، وقد استطاع بعض الأشخاص ممن يدَّعون أنهم أنصار التجديد أن يُحرِّضُوه على إدمان الخمر، وزيَّنوا له جوانب نستخف بها في الحياة الأوربية، زِدْ على ذلك أن طمع الأميرات

الـوالـدات ساق أولادهن إلى الكارثة، ولم يُحسِن عمي السلطان عبد العزيز التصرف بتبصر، إذ أطلق له العِنان أكثر من اللازم.

وأنا أيضاً انخدَعت لهؤلاء قبل ذلك، غير أنني أدركتُ بتجارِبي أن الأمر لا يمكن أن يسيرَ على هذه الحـال، فاتّخـذْتُ أشـد التـدابير لسلامتنا نحن الاثنين، وإلا لما كان لنا أن نموتَ بأجلنا على الفراش».

قال والدي كلَّ هذا لأمي في حق عمي السلطان مراد، وكان يُحِبُّه كثيراً، واحتَضَن بناتِه الثلاث، وخصّهن بحمايته، وعاملهن معاملة بناته، وجهزهن على أحسن ما يكون ثم زوجهن.

وكان يحب الأميرة خديجة البنت الكبرى للسلطان مراد حباً جماً، وكان يقول: «إن هذه البنت التي وُلِدَت على يدَيَّ بعد وفاة ابنتي علوية كانت في صغرها أكبر عزاءٍ لي»، وحافظ دائماً على هذه الذكرى، وتغاضَى عن كثير من أخطاء الأميرة خديجة.

ولما شاع خبرُ موت السلطان مراد في السراي أرسل والدي المصاحبين إلى بناته الأميرات: خديجة وفهيمة وفاطمة، فنَقَلوا إليهن تعازيه في والدهن، وقمنا نحن أيضاً فذهبنا إلى دائرة أفندينا وقدَّمنا له التعازي، كما أرسلنا آغواتنا إلى بناته الأميرات حتى ينقلوا إليهن التعازي، وصَدَر الأمر أن يُعلن الحِداد في السراي خمسة عشر يوماً، لم تعزف خلالها موسيقى النوبة أو غيرها.

وحسبما أذكر أن صلاح الدين أفندي الابن الأكبر للسلطان مراد جاءَ إلى السراي بعد عشرةٍ أو خمسةَ عشر يوماً وبصحبته ابنه الكبير أحمد نهاد أفندي، واجتَمعا مع والدي في مبنى المابين الصغير.

وبعـد ذلك اليوم ظلَّت زوجات السلطان مراد وأحفاده الأميرات تتردَّدْنَ على سراي يلديز، وكنا نذهبُ أيام الجمعة إلى الجواسق مع الأميرات اللائي

في سننا ونُمضِي هناك الوقت، وهؤلاء الأميرات كن مثلنا، لا يخرجُنْ بلا إذن.

كان والدي يفكر في تزويجهن، وتقرَّرَ بالفعل أن يتزوجن معنا، حتى إن الأمر صَدَر بإعداد جهازهن، غير أن إعلان الدستور حال بين زواجنا وزواجهن، وقام السلطان رشاد فيما بعد بتزويجهن.

الزلزال الكبير «١٠ تموز/ يوليو ١٨٩٤»

كنت في السادسة أو السابعة من عمري عندما وَقَعت هذه الهِزة الأرضية العنفية، وكان وقت الظهيرة، ومربِّيَتي تطعمني الطعام، وتقف القلفاوات أمامي يقمن بخـدمة المائدة، وتناولت والدتي الطعام مع والدي وصعدت إلى غرفته للراحة، فلما بدأت الهزة الأرضية صاحت القلفاوات فجأة: «يا الله، يا الله»، أمـا أنا فقد سقطت من على المقعد الذي أجلس عليه، وخرجت والدتي من الغرفة وهي تصيح: «ابنتي، ابنتي»، وأخذتني المربية إلى صدرها فعانقتها، والتفَّت البنات من حولنا كالدائرة، والكل يصرخ، وكانت الثريا الضخمة تهتَزُّ بعنف، والمرايا الطولية الضخمة تعكس أضواءها، وكان كل شخص يهرع إلى السلم غير أن أحداً لا يستطيع النزول، وكانت والدتي تريد الذهاب إلى دائرة والـدي، وفي تلك الأثنـاء جاء سعيد آغـا، أرسله إلينـا والدي فصاح يقول: «اخرُجن إلى الحديقة من تحتِ السلم، إن أفندينا يأمرُ بخروجكن». وفي تلك الأثناء سألته أمي قائلة: «أين أفندينا يا سعيد آغا؟» وأجابها هو الآخر صائحاً: «إنه يتحدَّث مع درويش باشا، وقد خرجا على التوِّ إلى الحديقة، فلا تنشغلن، وهيا اخرجن أنتن أيضاً».

كان والدي قد خرج على التو إلى الحديقة، وأرسل الياوران إلى كل طرف وأمر بالتحقيق في الخسائر، فلما علم أن «السوق الكبير» هُدِمت، وأن هناك

خسائر فادحة، أصدَر أوامره على الفور بعلاج الجرحى، وتوزيع الخبز من الأفران على الناس، ومساعدة المحتاجين، ونَصْب الخيام، كما أمر أيضاً بتشغيل أفران السراي وتوزيع الخبز على الأهالي.

وجاء الوكلاء إلى السراي فاستقبلهم جميعاً، وأصدر إليهم بعض التوجيهات. وكان المؤذنون يَرفَعون أصواتهم بالتكبير في كل طرف من السراي، ويقرؤون سورة الزلزال، وكل شخص في يده قرآن كريم يقرأ فيه ويدعو. وبدأ الأمراء والأميرات يهرعون إلى السراي، وكان والدي يتحدَّث مع كل واحد ويستفسر منه ويُصدِر أوامره وتوجيهاته، وكان أشد ما أحزَنه ذلك العدد الضخم من الضحايا، حتى إن حزنه استمرَّ أياماً طويلة.

ونصبوا لنا أيضاً خيمة داخل الحديقة، وظللنا نشعر بالزلزال من حين إلى آخر خلال عشرة أيام. وكان نومُنا وقيامنا داخل الخيام شيئاً سَعِدْت به كما يسعَد الأطفال، وكان العاملون بالسراي ينامون جميعهم بالخيام إلا والدي إذ ظَلَّ على إصراره في النوم داخل غرفته.

وبعد هذه الحادثة أمر والدي ببناء جوسق صغير على الطِّراز الياباني ذي ثلاث غرف أمام الجوسق الكبير، كما أمر ببناء حمام من القيشاني الأزرق إلى جانبه.

وقد احترق هذا الجوسق مع الجوسق الكبير على أيام السلطان وحيد الدين، وبقي الحمام فقط، فأمر السلطان وحيد الدين بإقامة جوسق آخر ذي ثلاث غرف إضافة إلى الحمام، وجعل واحدة من سراريه تقيم فيه.

الحرب اليونانية (١٨٩٧)

شاع في السراي اضطراب عام خلال هذه الحرب، فلم يَعُدْ أحد ينعَم بالراحة والسكينة وعلى رأسهم السلطان، وكان والدي يتردَّدُ قليلاً على دائرة

الحريم، وأحياناً يتناول طعامه واقفاً، ثم يخرج إلى السلاملك ويجلس على مكتبه ويستدعي كتبة الشفرة، ويُملي عليهم البرقيات، ويُصدر الأوامر، ويتعقَّب التحـركـات العسكـرية من خلال الخريطة الموجودة في غرفته، ويتباحث مع الباشوات دون أن يتوقَّف ولو لدقيقة واحدة، وكان كلما جاءَه خبر انتصار سجَدَ على الأرض وراح يدعو الله.

وكـان يرسل إلينا مصاحبيه بالجرائد الصادرة مع ملاحقها، فيأتون وهم يصيحون: «بشرى، بشرى»، وكنا نحن أيضاً ندعو الله فرحين ونرسل التهاني إلى أفندينا، وكان يرسل هو الخزينة دار الثانية مرتين أو ثلاث في اليوم لتنقل عنه قولـه: «عليهم أن يُدركـوا جنـودي الجـرحى بالمـلابس ويدعوا لهم» وكانت القلفاوات تقرأن الفاتحة على أرواح الشهداء في كلِّ جانب، ويُرسلن الدعوات لنصر المجاهدين.

ويَعلُو صوت الأذان خمس مرات في اليوم داخل حديقة السراي، وتُقرأ آية ﴿إنَّا فَتَحْنا لكَ فَتْحاً مُبيناً﴾ عند الصبح والمغرب.

أُعدَّت الموائد الكبيرة في كل الدوائر، ووُضعت عليها ماكينات الحياكة، وحيكت للجرحى ملابس النوم من القماش الأمريكي بناء على النماذج التي جاء بهـا الجـراح أمين بك طبيب والـدي الخـاص، وأُعدت الضمادات، وكانت العربات تأتي مملوءة بالشاش، فتأخذ ما تتم حياكته وتنقله إليهم، وكنا نبكي من الفرحة كلما جاءَ خبر انتصار.

كنت طفلةً في التاسعة من عمري، ولذلك لم يكن لي نفع في عمل كبير، غير أني كنت أجلس عند الماكينات وأحاوِلُ القيام بالمساعدة في تركيب الأزرار ولَفِّ الضمـادات وبعض الأعمال اليدوية الصغيرة، وكان الجرحى يأتون إلى ساحة يلديز، حيث أُعدت لهم مستشفى خاصة، وكان الجرَّاح جميل بك صهر

شيخ الإسلام مكلَّفاً بعلاجهم، وقام والدي بزيارتهم عدة مرات، وفي إحدى المرات وَجَد أحدهم مرتفع الحرارة، فأمر بتوزيع قِرَب الثلج والعَيْران [زبادي مضروب بالماء] عليهم، وأعدَّ لهم الأسِرَّة أيضاً في ورشة النجارة داخل السراي.

ولما انتهت الحرب بالنصر، كانت الفرحةُ التي غَمَرتنا جميعاً فوق كل تصور.

والآن تقرر افتتاح المعرض، وجاءته الهدايا من كل صوب، كما فكرتُ أنا الأخرى في تقديم هدية من شغل يدي بمساعدة معلمتي الصغيرة كوثر هانم، فقمت بتطريز بعض الزهور على قماش من الأطلس الأزرق، وصنعتُ سجادة من الكانفاه عليها منظر ريفي. وذات صباح حملتها وقدَّمتُها إلى والدي، فلما فتحها وشهد ما فيها سُرَّ كثيراً وقبَّلني من وجنَتَي وقال: «أحسنتِ بنيتي الجميلة»، ثم نَهَض من حيث يجلِسُ، وأمرني بانتظاره، وخرج ثم عاد وفي يده عُلبة فعانقني وهو يقول: «إنني أقدِّمُ لك ميدالية الصنايع» وعلَّقها على صدري. ولا أستطيع التعبير عن مدى فرحتي آنذاك، خاصةً عندما شهدت اسمي منقوشاً على ظهر الميدالية، ولازلت أحتفظ بها حتى الآن تذكاراً لذلك اليوم، ونُشِرت آنذاك صور عُلبة الورق والسجادة التي صنعتها في ألبوم الهدايا الذي صدر خصيصاً لمحتويات المعرض.

كنت في التاسعة أو العاشرة من عمري عندما استُحدِث «نشان أسرة آل عثمان»، وكانت توجد حتى ذلك الوقت نياشين مخصوصة للسيدات: منها نشان الشفقة الكبير من الدرجة الأولى، والنشان المجيدي، أو نشان الصداقة الذي كان يُشبه الأسطوانة، استُحدِث في عهد جدي السلطان عبد المجيد. وكانت السيداتُ تعلِّق هذين النشانين، وتم تقديم نشان أسرة آل عثمان إلى الأميرة والدة

السلطان، ولم يقدَّمْ لأحد غيرها من الأميرات أو الأمراء، اللهم إلا باستثناء الأميرة سنية والأميرة فريدة بنات الأميرة عطية بنت السلطان محمود، وإلى عائشة الصديقة بنت الأميرة جميلة، وإلى فاطمة هانم ابنة أختي الأميرة زكية.

وقد كان هذا النشان مخصَّصاً للأميرات والأمراء من الأسرة، وقد أُرسل إلى الأميرات والأمراء الكبار بواسطة الياوران والمصاحبين، وأُرسل إلينا أيضاً بواسطة الخزينة دارات، وكان الأمراء يأتون إلى المابين الهمايوني لتقديم شكرهم، بينما أتت الأميرات إلى دائرة الحريم لنفس الغرض.

وفي المساء عَلَّقت جدتي لوالدي وكل الأميرات نياشينَهن، واستقبلهن السلطان بمراسم خاصة في جناحه الخاص.

وفي عهد والدي كان هذا النشان يعدُّ مجاملة غير عادية، فلم يقدَّم إلا إلى الخديوي عباس حلمي باشا، ومن الخارج إلى إمبراطور ألمانيا والنمسا وملك إيطاليا.

مطلع العام الهجري في السراي

أول محرَّم هو رأس السنة الهجرية، يَفِدُ فيه على السراي كثير من الناس من كل طرف، كما يأتي الوكلاء لتقديم التهاني، ويوضع على المائدة الكبيرة في دائرة كبير موظفي المابين أطباقٌ ملئت بأرباع الليرات والأرباع الفضية والقروش، ويَمُرُّ عليها كل شخص فيأخذ منها حسب رتبته وموقعه، وتُسَمَّى هذه النقود «محرمية» و«بركة العام»، ويوزَّع مثلها أيضاً داخل دائرة الحريم، كما كنا نحن أيضاً نوزع منها على عُمَّالنا، وليس هناك ميزة أخرى لمطلع العام سوى ذلك، اللهم إلا قيام النساء بارتداء لباس جديد كنوع من التفاؤل.

وفي اليوم العاشر من محرَّم تُطبَخ العاشوراء، وتأتي إلى السراي والدوائر

في قدور كبيرة، ويُرسَل منها إلى أفراد العائلة، كما توضع قدور منها في فناء جامع حميدية لكي تُوزَّع على الفقراء من الناس، أما العساكر فكانت توزَّع عليهم في ساحة التعليمخانه كما ترسل أيضاً إلى كل المعسكرات.

وتذهب العاشوراء من السراي إلى التكايا، كما تأتي من التكايا إلى السراي ومن الباشوات ومن العائلات الكبيرة في قدور قيمة مغطاة بالتل، ويتِمُّ تفريغها ثم تملأ بالعاشوراء المطبوخة في السراي وتعاد القدور إلى حيث جاءت، وتلك عادة جارية وتقليد متّبع.

عيد النّوروز

النوروز هو أول أيام الربيع، وكانوا في اليوم السابق له يُعِدُّون في «الأجزاخانة الهمايونية» حلوى حمراء تسمى «معجون النوروز»، ويَنْشُرون فوقَها مسحوقاً ذهبياً ثم توضع في صناديق جميلة معقودة بالتل، ويوزعونها على أفراد الأسرة الملكية، وعلى الوكلاء وأصحاب المناصب وعمال السراي، وكانت حلوى لذيذة، يقال: إن تناوُلَها عند الصباح الباكر والمعدة خاوية شيء مفيد؛ ولذلك كانت توضَع على صحاف من الفضة وإلى جانبها سبعة أنواع مختلفة من أشياء أخرى تبدأ بحرف (س)، وهذه الأشياء هي: السمسم والحليب والبقسماط والماء والسحلب والزعفران والثوم، وكانوا يعتقدون أن لعق شيء من هذه الأنواع جدير بجلب الشفاء.

وفي عيد النوروز كان يأتي من السفارة الإيرانية معاجِين وأنواع مختلفة من الحلوى المصنوعة بالطريقة الإيرانية إلى المابين الهمايوني، وُضِعت في عُلَب مزينة وأوان من القيشاني القيم فوق صحاف كبيرة مغطاة بالقماش، ويقدِّمُونها هدية إلى والدي، وعندما يكشف الغطاء عن حلوى النوروز هذه تجدُ عليها اسم والدي مكتوباً بالعُملة الذهبية الإيرانية الصغيرة التي رُسمت عليها صورة شاه

إيران، ويقوم والدي فيرسل منها إلينا، أو إلى من يشاء.

حريق في السراي

قبل ستين عاماً تقريباً (أي حوالي عام ١٨٩٩) أيقظتني نديمتي ذات ليلة وهي تصيح: «لا تخافي، يقولون: إن هناك حريقاً، هيا ارتدي ملابسَك على الفور واذهبي إلى دائرة أفندينا»، فقفزت من الفراش وارتديت ملابسي بسرعة، ثم سلَّمتني نديمتي أمانةً إلى القلفة الثانية «ايشوريز» وقالت لها: «احمِليها إلى دائرة أفنـدينـا، واهتمِّي بأمـرها ولا تفارقيها، وسوف أظلُّ أنا هنا حتى أجمع حاجياتها». وكنت أبكي وقتها وأصيح على نديمتي: «تعالي أنت أيضاً»، غير أنها لـم تُصغِ إلي وقالت: «عندي شغل»، وتأبطت ذراع القلفة «ايشوريز» ونزلت من السلم متـوجهـة إلى دائرة والدي. وأحاط السراي دخان كثيف، ولـم يعد أحـد يرى الآخـرين تقريباً، تَسمَعُ أصوات الصراخ والهرج والمرج في كل جانب، وشمَّرت كل البنات عن سيقانهن وأمسكت كل واحدة بدلو من الماء تحمله إلى دائرة والدي، وكان مستحيلاً أن تسأل أحداً عن شيء.

صادفت بعض الخزينة دارات في دائرة والدي، وقلن لي: «لقد انتقل أفنـدينـا إلى الـدائرة الصغرى، وأمر بحضور الأميرات والزوجات إلى هناك، فاذهبي إلى ذاك الطرف»، فذهبنا نحن أيضاً إلى هناك، واجتمعنا كلنا في مكان واحـد، وكـانت هنـاك تدابير غير عادية ضد الحـريق في السـراي؛ إذ تقف القلفاوات للحراسة ليلاً في دائرة الحريم، بينما يطوف الحراس في الخارج. وكـانت الحريقُ في وسط السراي تماماً، والله هو الحافظ، ولو كانت الحريق تقدَّمت بعض الشيء لما كان ممكناً إنقاذ «قصر شاله»، وكان من الممكن أيضاً أن تتحول دائرة والدي وكل الدوائر الأخرى إلى رماد.

والمكـان الذي شبَّت فيه النيران هو المكان الذي يضعون فيه الخشب

المخصص لورشة النجارة التي يعمَل بها والدي، ويقال له. «مغازه»، وهو موضع يشبه دِهليز طويل فوق الجدار العالي، والحمد الله أن النار لم تُدرِكها الرياح حتى تَغدِرَ بنا.

دخل فريق الإطفاء واستطاع لوجود المياه الوفيرة أن يُخمِد النيران بسهولة، وتبين بعد ذلك من خلال التقرير الذي قدَّمته اللجنة القادمة للتحقيق أن الحريق شبت من مواضع ثلاثة، وأن أحدهم وضع بعض الخشب والحطب هناك وجَعَل منها ما يشبه الموقد. ولُوحظ أنه من المستحيل تسلق الجدار من الخارج حتى إنهم قالوا: إن القرد نفسه لا يمكنه ذلك، واقتنع الجميع أن النار أُشعلت من الداخل، ولكن من يستطيع أن يفعل ذلك؟.

وبدؤوا يستدعون كلَّ القلفاوات والخزينة دارات والآغاوات لإجراء التحقيقات المشددة. وكان راغب باشا وعزت باشا مكلَّفَيْنِ بإجرائها، ومرت الأيام ولم تظهر الحقيقة بصورة من الصور، وكان يوجد على جانب المسرح سلم تعلوه نافذة صغيرة، قيل: إنه يمكن استخدامها للصعود إلى هناك من الداخل ليس إلا، وتجمَّعَت كل الشبهات حول هذا المكان.

وقد أَسف والدي لذلك كثيراً، ولم يَعُد أحد يهنأُ بالراحة ممن في السراي. وفي يوم من الأيام، بينما كان عزت باشا يتحدَّثُ إلى والدي إذ به يقول له: «أفندينا! في يوم من الأيام ذكرتم لي شيئاً، فقلتم: إنكم وأنتم تعملون في ورشة النجارة جاءت إحدى القلفاوات وأغلقت عليكم الباب، فلمَّا سألتموها عن السبب أجابتكم بقولها: لقد حدث خطأ ولم أكن أعلمُ أن أفندينا موجود هنا، فهل يا تُرى استدعينا هذه القلفة للاستجواب؟». وعلى هذا القول وَقَعت الحَيْرةُ في قلب والدي فجأة وقال: «شيء غريب، لم يخطر ببالي أبداً، لم أكن أتوقَّعُ على الإطلاق أن يحدث مثل هذا منها». ومع ذلك فقد تعلَّق بذهنه احتمال

بسؤال: أترى من الممكن أن يحدث هذا؟!.

وقبل يوم من هذه المشكلة كان يتناول والدي الطعام مع والدتي، وكانت القلفة «سر الجمال» تقوم على خدمتهما كالمعتاد، وإلى جانبها القلفة «فلك سو»، أما الخازندارات فكن يقفن عند الباب. وقيل: إن والدي رفع رغيف الخبز وقبَّله ثم قال: «وحقِّ هذا النعمة إنني لن أعاقب مَنْ فَعلت ذلك أياً كانت، بل على العكس سوف أعفيها من الخدمة، وأرسلها على أحسن ما يكون، وكل ما أطلبه أن أعرِفَ من هي». وعلى هذا رفعت أمي ذراعيها للدعاء وقالت: «أفندينا.. إن شاء الله تعترف، وهذا ما أتمنَّاه على الله» وعندئذٍ ردَّت كل الحاضرات «آمين» وشاركتهن أيضاً القلفة «فلك سو» في هذا الرد، وكانت هي القلفة التي أغلقت الباب على والدي.

وبناءً على تنبيه عزت باشا، أمر أن يستدعوا «فلك سو» على الرَّغْم أنه لم يقتنع بجدوى ذلك، وجعل الباشا يحقِّقُ معها في المكان الذي شبَّت فيه النار، وهي هناك وتملَّكتها الرعشة فجأةً أثناء التحقيق، فأنكفأت على الفور عند قدَمي والدي واعترفت أنها هي التي أشعلت النار، وهنا قال لها الوالد «فلك سو! ماذا كانت حاجتُك حتى تفعلي ذلك؟» وهنا قالت: إنها فعلت ذلك لرغبتها في الاستعفاء من الخدمة، وسألها الوالد «حسن، لو أنك طلبتِ هذا بصورة أحسن هل كنت أمتنع؟» ومن الطبيعي أنها لم تُجِب على السؤال، وراحت تبكي وتنتحب. ولم يبقَ هناك أحد إلا تتملَّكه الحيرة على تلك الفعلة التي فعلتها امرأة تُعِد للسلطان طعامه.

والحقيقة أنها لم تكن في حاجة إلى شيء على الإطلاق، ولم تكن هناك صعوبات أمام من يُرِدْن الاستعفاء من الخدمة، فالجواري القادمات إلى الخدمة في السراي كُنَّ يأتين في الغالب لسنوات ثلاث، ومن لا تريد الاستمرار منهن

كانت تذهب عقب هذه المــدة، وكـانت القلفـة «فلك سو» فضـلاً عن عدم احتياجها تملك المجوهرات والنقود، وتعيشُ حياة مرفَّهةً داخل السراي، ولم تكن امرأة جميلة حتى تنتظر ما هو أكثر من ذلك.

وحدث ذات مرة أن قَدَّمت عريضة إلى والدي طلبت فيها أن يعمل أخوها سائساً في الإسطبل الخاص، فظلَّ يعمل حتى هرب قبيل هذه الحادثة.

ولا يعلم أحد حتى اليوم لماذا فعلت هذه المرأة ذلك، وماذا كان قصدُها الحقيقي.

ووفاءً من أبي بعهده لها، فقد عَفى عنها، وأرسلها إلى مكة المكرمة، وهنـاك تزوَّجت، ثم عادت إلى استـانبول عام ١٩٤٠م تقريباً، وطلبت مقابلة والـدتي فكـان جوابهـا الرفض، ولكي تكفِّرَ عن ذنبها جعلت ولديها يحفظان القرآن، ولا يعلَمُ أحد الآن أين توجد، وربما ماتزال على قيد الحياة.

□□□□□

القسم الثاني
حياتي وذكرياتي

أشياء سمعتُها عن ولادتي

قيل: إن والدي تزوَّج بوالدتي قبل عام من مولدي، وإن الذي عَقَد القران هو سيد أسعد أفندي وكيل «الفراشة الشريفة»[٢٦] والشهود على العقد: هم الحاج محمود أفندي مدير المسيرة، وعلي أفندي إمام الكاغدخانة، والمصاحب الأول شرف الدين آغا.

وكانت الهدية الأولى التي قدمها والدي إلى والدتي هي نسخة ثمينة من المصحف الشريف، عندما قدَّمه إليها فتحه وهو يقول: «أريد أن أطلِق عليك اسماً، وبهذه النية سوف أفتحه ولننظر ماذا قسم الله لك»[٢٧]، وكان أول ما وقعت عليه عيناه هو كلمة «مشفقون» في الصحيفة ٣٢٥ وآية ٢٨ من سورة الأنبياء، وعلى هذا قال: «سوف تكونين امرأةً مشفقة خيِّرَةً بإذن الله»، وأمر أن ينقُشوا لها خاتماً ويضعوا عليه اسم «مشفقة باش إقبال».

والحقيقة أن والدتي كانت وجهَ الخير على والدي، وكانت شفوقةً إلى أقصى حد، شاركته في كل محنة حتى يوم رحيله، فقد وَدَّع الحياة في سراي

(٢٦) كانوا يطلقون اسم «وكيل الفراشة الشريفة» على ممثلي الأشخاص المكلفين بنظافة الكعبة في استانبول (ن).

(٢٧) كانت العادة أن يفتح المصحف وتكون الكلمة أو الآية هي الإلهام، يتم تفسيرها بالخير وتعد إشارة إلى السعد، ولهذا أطلقوا على هذا: تفاؤل (ن).

بكلربكي وهو بين ذراعيها.

وقد أوقفت والدتي هذا المصحف الشريف على ضريح والدي، وكتبت اسمَها داخله، وإذا ضاع فسوف أحزَن عليه كثيراً[٢٨].

حياة الوالدة

هي ابنة «آغر محمود بك» أحد أمراء الإباظية، وأمها أمينة هانم، واسمها الحقيقي هو عائشة، كان لها أخت تصغرُها بعام تسمَّى فاطمة، وأخ يكبرها بسبعة أعوام يُسمَّى شاهين بك.

وقد تطوَّع أبوها محمود بك للاشتراك في حرب عام ١٢٩٣هـ (١٨٧٧م - ١٨٧٨م) فترك أولاده وزوجته أمانةً لدى حسين وصفي باشا أحد القواد الموجودين هناك، وزوجة الباشا وتدعى «بزم نكار» هي في نفس الوقت ابنة عمة محمود بك، وكانت إحدى الجواري اللائي يخدُمن الأميرة الوالدة «برتو نيال»، ولذلك أخذ الباشا هذه العائلة وأرسلها إلى جانب زوجته في استانبول.

كانت أمي في الثالثة من عمرها، وخالتي في الثانية من عمرها، أما شاهين بك فكان في العاشرة من عمره، وكان الشغل الشاغل للأميرة الوالدة «برتو نيال» بعد استشهاد ابنها السلطان عبد العزيز وعزاؤها الوحيد في حياتها الحزينة آنذاك أن تربِّي الأطفال الصغار، فتجمعهم حولَها وتمضي معهم وقتها واجدةً في حديثهم العذب ما يشرح صدرها، كما كان لها عادة أخرى وهي أن تسجد بين المغرب والعشاء وتبكي بصوت مرتفع وتصيح بدموعها وتقول: «كلُّ شيء أسامح فيه، إلا دمَ ولدي!» ثم تجعل أحد الحفَّاظ يتلو القرآن، ثم تأمر

---

(٢٨) هذا المصحف الشريف محفوظ في استانبول الآن ضمن مقتنيات «متحف الآثار التركية الإسلامية» تحت رقم ٤٠٦، وصورة الوقفية الخاصة به أدرجناها في نهاية الكتاب (ن).

هؤلاء الأطفال أن يقولوا: آمين، في صوت واحد.

وكانت «بزم نكار هانم» تعلَمُ كل ذلك، فلما نزلت ضيفة عليها فكرت في أن تقدم إلى الأميرة أمي وخالتي، واستطاعت بصعوبة أن تُقنع جدتي أمينة هانم وحملتهما إليها، وأعجبت الأميرة الوالدة بجمال أمي وزُرقة عينيها، كما أعجبت برقة خالتي وشعرها الأجعد، وقالت: «هاتان الطفلتان سوف أتبنّاهما وأربيهما ولن أردهما أبداً»، وأمرت القلفة «ناوك يار» أن ترعى أمي، كما أمرت القلفة «شوق ديده» أن ترعى خالتي، وذلك تحت إشراف الخزينة دار اسطى «شمس الجمال». وكانت أمينة هانم هي وشاهين بك يعيشان في بيت «بزم نكار» هانم، وبعد مدة سَمِعا باستشهاد محمود بك فعادا رَغْم كل الإصرار والإلحاح إلى حيثُ أتَيا، وانقطع خبرهما بعد ذلك.

وبعد عدة سنوات تُوفِّيت الأميرة الوالدة، فانتقل كل العاملين في قصرها كما هي العادة إلى سراي «طولمه باغجه»، وبلغت أمي هناك سن النضوج، فلما أدركت عامها الرابع عشر رآها والدي وهو ينتقل إلى دائرة الحريم بعد مراسم تهاني العيد آنذاك، فأمر بنقلها على الفور إلى سراي يلديز.

وكانت الأميرة الوالدة «برتو نيال» قد غيرت اسم أمي كما هي العادة في السراي، فأطلقت عليها اسم «دست زر»، وعلى خالتي اسم «دست بر». وكما تحـدَّثتُ قبل قليل: إن والدي غير اسم أمي عندما تزوجها، فجعله مشفقة، واسم خالتي جعله شكرية، ونصبها خزينة دار بالسراي.

وكنت أحب خالتي شكرية هانم كثيراً، إذ ظلَّت تعمل في سراي يلديز حتى بلغت الخامسة والعشرين من عمرها، ثم تزوجت بخالد باشا الابن الثاني للأثوابجي باشي عصمت بك أخ والدي في الرَّضاعة، ولها اليوم أولاد على قيد الحياة [توفيق ومبرورة ووداد ورفيق].

وعندما كنتُ في سويسرا قبل خمسةِ شهور من وفاة والدي تُوفِّيت خالتي بمرض التيفوئيد، وعندما علم والدي بخبر وفاتها وهو في سراي بكلربكي تكفَّل بمصاريف تجهيزها وتكفينها، وهي ترقُد الآن في المقبرة الكائنة في «حصار»، رحمها الله رحمة واسعة.

أحداث قبل ولادتي وبعدها

بعد أن انتقلت أمي إلى حريم والدي، أعدَّ لها مثل غيرها من زوجاته الدائرة المعروفة باسم «المابين الصغير» وعيَّن لها الخدام، كما عين لها القلفة المشهورة التي تدعى «دِل أسرار» مديرة لدائرتها، وكانت في السراي منذ زمن السلطان عبد المجيد، وخدمت في عهد السلطان عبد الغزيز.

وبعد عام أتيتُ أنا إلى الدنيا، وقيل: إن والدي فرح يومها كثيراً، حتى إنه أنعمَ على الخزينة دار «فلورية قلفة» التي حملت الخبر بحلية للصدر «بروش»، وأنعم على القابلة التي استقبلتني وتدعى «كاملة هانم» بثلاث مئة ليرة، كما منح الطبيب المتخصص في أمراض النساء آنذاك، والذي كان يفحَص أمي مرةً كل أسبوع أثناء حملها ويدعى «ترياندا فيليدس»، أحدَ النياشين، وقيل: إني عندما وُلدت كنت وليدة صحيحة البدن تَزِن ثلاثة كيلوات ونصف.

وقيل: إن والدي قال قبل مولدي: إذا جاء المولود أنثى سميته عائشة، وإذا جاء ذكراً سميتُه موسى، وفي اليوم الثالث لمولدي، فَرَشت أمي السجادة وأدارتها نحو القبلة وقرأت الأذان المحمدي في أذني، وكرَّرت اسمي ثلاث مرات ثم سلَّمتني إلى القلفة «ديل أسرار» وقالت لها: هذه ابنتي أمانة في عنقك.

وجاء خدمة المابين بمهد مذهب من الخزينة، وأغطية مطرزة ومناشف،

وأوان وطاس السلحفاة الفضية أحد العادات القديمة(٢٩)، ثم أخذوا عوائدهم كما هي العادة.

وفي ليلةِ حناء وَالدتي ـ وهي ليلة السبوع ـ بدأ فريق الموسيقى المكون من النساء في السراي يعزف على آلات التخت(*)، ووزَّعوا الحلوى والعصائر، ونثروا النقود في كل مكان.

وكانت «بروين هانم» مرضعتي، أو بتعبير السراي: أمي في الرَّضاعة، قد استعدَّت من قبل في منزل الحاج محمود أفندي، فجاؤوا بها إلى السراي، وبدأ الدكتور تريااندا فيليدس أفندي والقابلة كاملة هانم يهتمان بأمري.

الجوسق الجديد

كان والدي قد شرع قبل مولدي في إقامة دائرة أطلق عليها اسم «الجوسق الجديد»، وكان جوسقاً رائعاً أمضيتُ فيه طفولتي وشبابي الأول، ولأنه أقامه بشغف وعناية كبيرين فقد كان واحداً من أجمل مباني سراي يلديز وأحسنها هواءً وأروعها منظراً، أنشأه المهندس المعماري فاسيلاكي أفندي، وأبدع تزييناته الداخلية أفضلُ الفنانين في ورشة النجارة.

وكانت أبوابه ونوافذه قِطَع واحدة من خشب الماهوغاني (Mahogany) [نوع من أشجار الخشب الثمين].

وهو عبارة عن قسمين؛ خُصِّص أحدهما لأمي، زينت جدرانه بنقوش ظريفة، ورسوم الورود والفاكهة التي رسمها الرسام المشهور «شَكَر أحمد باشا»، أما صورة المواسم الأربعة على سقف القاعة ذات النوافذ السبعة فقد رسمها

---

(٢٩) السلحفاة رمز «العمر الطويل» (ن).

(*) يتكون من الكمان والناي والكمانجة والطنبور والعود والقانون والرق.. (المترجم).

«محمد علي باشا»، وكان المدير أحمد بك أحد عمال والدي القُدامى هو المأمور بالإشراف على حركة العاملين فيه، وخلال المدة التي أُقيمت فيها هذه الدائرة كانوا يقدِّمون الطعام للعمال من «الكيلار الهمايوني» صباحاً ومساءً، وتوزع عليهم النقود الفضية بما يزيد على يومياتهم.

وسببُ إقامة هذه الجواسق هو أن المبنى الحجري الذي يسمى «خنكار دائرة سي» أي: جناح السلطان، والباقي منذ عهد السلطان عبد المجيد، كان شديدَ الرطوبة حيث تضرَّرَت صحة والدي منه، فضلاً عن زيادة عدد أفراد العائلة والشعور بضيق المكان في السراي.

وقيل: إن والدي بعد أن انتقل إلى هذا الجوسق مع والدتي والخزينة دارات، استراحَ به كثيراً، وسُرَّ للإقامة فيه، وكنت آنذاك أبلغ من العمر سبعة أشهر.

وسمعت فيما بعد أن السلطان وحيد الدين أقامَ في دائرة والدتي، غيرَ أن هذا الجوسق الضخم تحوَّل إلى رماد نتيجة لحريق شبَّ في إحدى الليالي.

قصـــة

قيل: إن والدي ـ وهم يقيمون هذا الجوسق ـ كان يشاهد ما يفعَلُه العمال من نافذة جناح السلطان، وينظر كيف يقام الجوسق الجديد. وذاتَ يوم جاء طفلان صغيران من العمال الذين يحملون الإسمنت في الثامنة أو التاسعة من عمرهما، وراحا يغسلان رأسيهما في الحوض ذي النافورة الموجود أمام نوافذ دائرة الوالد، فأُعجِب والدي بحال هذين الطفلين، فدَقَّ على النافذة وصاح عليهما منادياً وسأل كبيرهما: «ما اسمُك يا بني؟» فأجابه الطفل: «مجيد»، ثم سأل الصغير: «وأنت ما اسمك؟» فأجابه: «حميد»، فسُرَّ والدي أكثر وأكثر، وقال لكبيرهما: «اذهب وناد المدير أحمد بك من هناك»، فذهب الطفل وقال

لأحمد بك: «هناك أحد الأفنديات يطلُبك»، وعلى الفور أدرك أحمد بك الحكاية وذهب معه فقال له والدي: «خذ هذين الطفلين الآن، واذهب بهما مباشرة إلى «تمكجي باشي طاهر باشا» فقد أمرتُ بتسجيلهما في «بلوك تفكجية المعية»، وليُخصِّصْ لهما راتباً، ويرسلهما إلى المدرسة»، كما أنعم عليهما الوالد بكيس من النقود الذهبية، وأمر بمساعدة والدَيْهما بالملابس وغيرها.

وبعد أعوام جاء مجيد بك أكبر هذين الطفلين ذات يوم إلى منزل والدتي عند سفح «سرنجه بك» وبكى كثيراً، ثم دعا لها ومضى.

رفيقاتي في اللعب

كانت مرضعتي قد مَرِضت وتورَّم وجهها، ولم أبلغ من العمر تسعة أشهر، فأخبروا والدي بذلك، وأمر على الفور بانقطاعي عن الرضاعة، وشعرت أنا المسكينة بأول أحزاني آنذاك، وبكيتُ عندها كثيراً، غير أنني نسيت بعد عدة إيام، ألسنا نحن بشر؟ نشارك في الآلام كباراً كنا أو صغاراً.

ولما كبرت بعض الشيء، عين لي والدي مربياً هو «سعيد آغا» مصاحبه الثالث، وكانت مربيتي ونديمتي تحملانني حتى باب السلاملك وتسلمانني إلى المربي، فأركب عربتي الصغيرة ونطوف في الحديقة، ويأتي إلى جانبي آغوات الحريم الصغار ومعهم حقيبة صغيرة مطلية بالفضة تضُمُّ كل ما يلزمني من أشياء، ومعها الزمزمية الفضية والشمسية، وصباح كل يوم كانوا يحملونني إلى والدي ويَعرِضونني عليه، وكان والدي يقبِّلُني ويداعبني.

وعندما بلغت الرابعة أو الخامسة من عمري، جاؤوا لي بخمس بنات صغيرات في سني لتسليتي، وكانوا يهتَمُّون كثيراً بهؤلاء البنات، ويُلبِسوهن أنظف الملابس وأجملها، وأحببت رفيقاتي الصغيرات، وكنا نلعب معاً بعرائسي بعد الظهر في حجرة العرائس، وأكثر عروسة أحببتها هي تلك التي كانت تُصدِر

أنغاماً موسيقية ،وكنا ونحن نلعب ونلهوا تقف مربيتي القلفة «نيل فلك» دائماً عند الباب وتراقبنا ، فإذا صدر من إحدى البنات تصرُّفٌ لا يَليق ، أو صدر من أحدهن قولٌ سيِّيء ، أخرجتها على الفور من اللعب وعاقبتها ، وكنت أحزن لذلك كثيراً .

والآن تزوَّجت كلُّ صديقاتي في اللعب ، وصرن صاحبات أولاد وعيال ، بل ومات بعضهن .

أول ما بدأت التعلم

بلغتُ إذن عهـد الدرس والتحصيل ، فعرضت أمي الأمر على والدي ، وتقرَّر هذه المرة تخصيص حجرة للدراسة في دائرة المابين الصغير التي وُلدت فيها ، أذهَبُ إليها كل صباح أنا وأختي الأميرة شادية التي تكبرني بثلاثة أشهر ، وندرس على أيدي المدرسين الذين عيَّنوهم لنا ، ويذهب خدمة السراي قبلنا ليضعوا وسائد القطيفة الحمراء والرواحل [أي : حاملات الكتب] في الصالون الكبير من الدائرة ، وكانت تُوضَع على هذه الرواحل أطقم الكتابة القيشاني ذات الدواة والمقلمة وأقلام الغاب .

وكان معلِّمانا هما : كاتب السر حسيب أفندي ، وكاتب الشفرة الخصوصي كامل أفندي ، إذ تقرَّر أن يكون الأول معلم القرآن الكريم واللغة العربية واللغة الفارسية ، وأن يكون الثاني معلم التركية والقراءة والقواعد العثمانية والحساب والتاريخ والجغرافية .

وكانت فرحتُنا بلا حدود ، أعدَّت لي والدتي حقيبة المدرسة ، وكانت من القطيفة البنفسجية الرائعة المطرزة بخيوط الفضة ، وَضَعت فيها كتاب الأبجدية المذهب والأهلّة(٣٠) الذهبية ذات الأطراف الماسية . ولأنني كنت أحب اللون

---

(٣٠) أطلقوا كلمة «هلال» على الأعواد الرفيعة التي تصنع من العظام والعاج والفضة وغيرها =

البنفسجي كثيراً فقد أعدوا لي حقيبتي منه، واختاروا يوم الخميس الأول من شهر المولد النبوي (ربيع الأول) وسلَّمونا إلى المربين في هذا اليوم حتى نبدأ باسم الله، ومَضَينا إلى حجرة الدرس، وجميع العاملين في السراي يقفون عند باب الحريم لتوديعنا وهم يقولون: «يفتحُ الله عليكن»، كما كان الآغوات عند السلاملك والعمال الآخرون في السراي يُرَدِّدُون نفس الدعاء.

وكانت أمي قبل الذهاب إلى الدرس قد دعتني إليها، فوقفتُ أمامها وحكت لي بكثير من الأمثلة أن أُطيع المعلم، وأن أصغي إليه وأعمل، فإن فضل المعلم يفوقُ فضل الأبوين.

وكان المعلمان ينتظران فحيَّيناهما باحترام، وجلسنا أمام الرواحل [حاملات الكتب] وبدأنا باسم الله، ثم قرأنا بعض الحروف، وعلَّمنا مدرس الخط كيف نكتب بعضاً منها، ثم انتهى الدرس على ذلك، إلا أننا ظننا آنذاك أننا صِرنا جهابذة الزمان، ووعدنا المعلمين بحسن اجتهادنا.

ثم انصرفنا إلى دائرة الوالد مباشرة، وكنا قد تعوَّدنا أصول الدخول إلى مجلسه، وكان هو في تلك الأثناء يجلس في القاعة الكبيرة داخل الحريم مشغولاً كعادته، يقرأ بعض الأوراق أو يتباحث مع أحدهم. وكان ذلك طبيعي بالنسبة لنا، وأمي أيضاً كانت هناك، فأخبرناها أننا جئنا نقبِّل يد أفندينا، ونذكر له أننا صرنا نذهب إلى المدرسة ونقرأ وندرس، وعندها قالت أمي: «أفندينا! الأميرات وَصَلْن، لقد أخذن أولَ دروسهن ويُرِدْن تقبيل يدكم»، فلما أصدر الوالد أمره بدخولنا، تقدَّمتني الأميرة شادية وصرت أنا من خلفها، فدخلنا معقودي الأيدي وانحنينا أمامه وقبَّلنا يده، فربَت على أسفل ذقوننا وضمَّنا إليه، ثم قبَّلنا

= لاستخدامها في الإشارة إلى حروف الهجاء للأطفال المبتدئين في تعلم القراءة والكتابة (ن).

من جبهتينا وقال: «اليوم بدأتُن الدرس، هل صحيح؟ إن شاء الله تدرسن جيداً وعليَّ المقابل»، أما نحن فقلنا: «نعم أفندينا، درسنا» فضحك وقال: «حسن جداً هكذا يجب أن يكون» وأشارت أمي علينا أن لا نتوقَّفَ فانسحبنا واحدة بعد الثانية، وانحنينا له تحية، ثم جَرَيْنا إلى الخارج والفرحة تغمُرنا.

أحاسيس الطفولة

أحببت أمي كثيراً، غير أني كنت أحب والدي أكثر، واختَلَط حبي الذي أحسست به تجاهه بمشاعر الاحترام والتعظيم، وهل كنتُ أستطيع أن أتعامل مع والدي بغير تكليف كما كنت أفعل مع والدتي؟ لقد كان والدي يُقبِّلني مثل أمي ويداعبني بعبارة مثل: «ابنتي الجميلة، ملاكي» وكنت أَهَشُّ كثيراً لهذه الكلمات العذبة، غير أنني كنت أحذر من أن يصدُر مني تقصير في مجلسه، وكانت أمي تحذِّرُني عند الدخول إليه أن أعقد يداي دائماً وأن أجيبه بقولي: «أفندينا» عندما يناديني بقوله: «ابنتي»، فهو أب الأمة وسلطانها، يخاطِبه كل شخص بكلمة أفندينا، فماذا كنت أستطيع أن أفعلَ غير ذلك؟ وكلما كبِرتُ نَمت أحاسيسي وازدادت مشاعرُ حبي له، وكنت أدرك كل حقيقة، وأدرك عظمةَ والدي.

بدايتي مع البيانو

مضت الأيام، وراحت الخزينة دار «كوثر قلفه» تساعدني على حفظ دروسي داخل الحريم، وأضيف إلى هذه الدروس درس البيانو، وكانت الخزينة دار الثانية «زلفت قلفة» التي ظلَّت إلى جانب والدي حتى عهده الأخير بارعة في عزف البيانو، وجاء من يُدعى «غاتلي باشا»، فكان يعلم زلفت داخل القاعة.

وذات يوم هرعت إلى هناك فدخلت عليهما، وتوجهت مباشرة إلى البيانو، وقلت: «يا باشا! أنا أيضاً أتيت إلى الدرس»، وكان الباشا يتحدَّث بلهجة تركية

عجيبة فقال: «تفضلي يا سبعي[٣١]، هيا اعزفي» ثم ضَمَّني إلى صدره وأجلسني على حجره، ورحت أعزف بإصبع واحد المارش الحميدي، وسُرَّ الباشا الكهل كثيراً بحساسية أذني في التعرف على أصابع البيانو وتمييز الأصوات. وعلى الفور أرسل الخبر إلى والدتي يعلمها بما لدي من موهبة، وضرورة الشروع فوراً في تعلم البيانو.

وفي تلك الأثناء عيَّنوا لي الخزينة دار «دريكتا»[٣٢] معلمة للبيانو، وكانت هذه السيدة تلميذة «فرانسوا لومباردي» الذي كان عين حديثاً لتعليم الموسيقات الهمايونية آنذاك، كما تقرر أيضاً أن أدرس على يد هذا الرجل يوماً كل أسبوع، وكانت دروسه أكثر حداثة، أما غاتلي باشا فكان قد بلغ من العمر مبلغاً.

وتقدَّمت في فترة وجيزة، غير أنني لم أكن أعبأ أبداً بالنوتة الموسيقية وأوليها العناية الكافية، بل كنت أعزف من الذاكرة، وكان معلمي قد ألَّف وأعد بعض القطع من أوبرات «ترافياتا وترافاتور الثانية»، فضلاً عن المارش الحميدي، وجعلني أعزفها بقدر قابليتي، غير أنه كان يضيق كثيراً لعدم اكتراثي بالنوتة. وفي النهاية تقرَّرَ أن أدخل إلى والدي يوماً وأعزف له ما تعلمت، وكان الوقت مساءً، فأخذت بكل غرور النوت الموسيقية التي لا خُبْرَ لي بها على الإطلاق، وتوجهت إلى دائرة والدي، وعندها قالت والدتي: «أفندينا! لقد وصلت الأميرة، وتريد أن تعزف البيانو لكم»، وكنت أدخل الغرفة والفرحة تغمرني، فقبَّلتُ يد والدي وهرعت ناحية البيانو، وعندها قال: «هيا يا بنيتي. اعزفي ونحن مُصغُون لك»،وكنت سعيدة منتشية، غير أني كنت مضطربة عصبية

---

(٣١) كلمة «ارسلانم» أي: سبعي، كانت تستخدم في السراي للنداء على الأمراء والأميرات (ن).

(٣٢) تزوجت «دريكتا» فيما بعد بالأمير محمد سليم أفندي (ن).

بعض الشيء، وقلبي يدُقُّ بعنف، فعـزفت المارش بصورة طيبة، وجاء الدور على المقطوعات الأخرى التي تعلمتها، ولا أدري كيف تبخرت النغمات من ذاكرتي، وحاولت أن أذكرها فلم أفلح أبداً، أتطلّع إلى النوتة ولا أفهم منها شيئاً، فخَجِلت كثيراً لهذه الحال، وقالت أمي بصوت هادىء «أرأيتِ ما يحدث؟ لماذا لم تصغي إلينا عندما كنا نقول لك: اهتمي بالنوتة؟ أفهمتِ الآن؟».

كان والدي يتطلع إليَّ دون أن يَنبِسْ ببنت شَفَةٍ، ولم أعد أتحمَّل بعد، وانحنيت برأسي على أصابع البيانو، ورحتُ أجهَش بالبكاء، ولا بد أن والدي رقَّ لحالي، إذ قال بصوته الجهوري: «بنيتي، هيا انهضي، تعالَيْ» فنهضتُ على الفور، ورحت إلى جانبه، وعندها قال: «لا تبكي، إنك لم تعطي الأمر أهميته ولم تحفظي النُّوتة، ولذلك لم تتمكني من العزف، وأظنك بعد الآن تجتهدين أحسن وتتعلمين، ثم تأتين إلي وتعزفين ما تعلَّمتِ»، أما والدتي فلم تترفق بي أبداً. كيف انصرفتُ من هناك وكم كنت خجولة؟ إنه شيء لا أستطيع وصفه، ولازلت أشعر به حتى هذه اللحظة، فقد أسرعت إلى البيت دون أن أنظر في وجه أحدٍ، وظللت أبكي حتى ألَمَّ بي اليأس.

غير أني بعد هذه الحادثة صرت تلميذه مجتهدة.

قِطُّ والدي المرقَّط

كنت قد كبـرت أنـا وأختـي الأميرة شادية، وبـدأت تشتـرك معنا أختنا المرحومة الأميرة رفيعة التي كانت تصغرنا بأربعة أعوام، ننهض سوياً صباحَ كل جمعة ونتوجَّه إلى دائرة الوالد ونقبِّلُ يده. ولم يكن في السراي آنذاك نظام التدفئة المركزية بعد، فكانت هناك مدفأة كبيرة الحجم من القيشاني الأزرق، يجعلنا الوالد نجلس أمامها، ونلعب نحن الأخوات الثلاث «الدومينو» ويرَقُبنا هو من بعيد، وينشغل من ناحية أخرى بأعماله.

وكان لوالدي قط مرقط غاية في الضخامة، وكان أنيساً محبوباً، أطلق عليه الوالد اسم «آغا أفندي»، وكنا ونحن نلعب الدومينو يأتي ليجلس بيننا ويعبَث بقطع الدومينو ويلهو ببعض الحركات.

ذهابنا إلى الصدر الأعظم جواد باشا

كنا قد كَبرنا كثيراً، ولذلك خصَّصوا لنا إحدى العربات، وبدأنا نشترك في احتفالات مواكب التحية [التشريفة]. وفي إحدى المرات أرسلني والدي مع أختي الصغيرة الأميرة رفيعة إلى الصدر الأعظم، بعد الانتهاء من مراسم التحية الخاصة بيوم الجمعة كنوعٍ من المجاملة غير العادية، وكان القصرُ الذي يسمى: قصر فريد باشا، والذي تحوَّل الآن إلى مدرسة، مخصَّصاً آنذاك لإقامة جواد باشا(٣٣).

وركبت العربة أنا وأختي، وجلس في مقابلنا «ياور آغا» من آغوات السراي القدامى، وذهب بنا إلى هناك، وكان الباشا قد مَدَّ البسط ووقف ينتظرنا عند الباب الخارجي واستقبلنا هناك.

وقامت حرمه نعمت هانم وأخته سارة هانم باستقبالنا عند الباب الداخلي، وكان الباشا باسمَ الوجه بشوشاً، ورجلاً ظريفاً إلى حد بعيد، تأبَّط ذراعَيْنا، أختي على يساره وأنا على يمينه، ومررنا من بين جواريه المصطفات صفَّين، ثم صعِدنا على السلم، وانحنت الجواري حتى لمسن الأرض تحية لنا.

ودخلنا إحدى القاعات، فأشاروا علينا بالجلوس على إحدى الأرائك الكبيرة الموضوعة في وسطها، وكان الباشا والآخرون وقوفاً على أقدامهم،

---

(٣٣) تولى جواد باشا منصب الصدارة العظمى في ٤ سبتمبر/ أيلول ١٨٩١م حتى نهاية ٨ يونيه/ حزيران ١٨٩٥م.

ينتظرون الإشارة منا بالجلوس. إنها طفولة، غير أننا كنا قد تعوَّدنا إلى حد ما على المراسم والبروتوكولات، فقلنا ـ والخجل يحتوينا ـ «اجلسوا من فضلكم».

وجاؤوا لنا بالقهوة داخل تعليقات كما هي العادة في السراي، فشكرناهم عليها ولم نشرَبْها، لأنَّنا كنا نعلم أن الأطفال لا يشربون القهوة، وعلى هذا قدموا لنا الحلوى والشربات، ونهض الباشا بنفسه وقدَّمها لنا فشكرناه وتناولناها. ولم يكن أحد منهم يعلم ماذا يفعل حتى يجعلنا نتحدَّث ونتسامر، وجاءت الجواري الشابات الجميلات، وراحت نِعمت هانم تعزف البيانو بشكل رائع، وبدأت البنات ترقُصن، وجاؤوا أمامنا بعرائس ولعب كثيرة، أما أنا وأختي فكنا نتبادل النظرات حتى لا يصدر عنا خطأ، وجلسنا فتاتين عاقلتين، ولذلك لم نَلمَس واحدة من هذه العرائس، ولم يكن يصدر منا إلا عبارات الشكر، وتجنُّب المشاركة في حديث.

وقدم الباشا لكل واحدة منا جارية صغيرة، ووصل في تلك الأثناء شقيقه شاكر باشا، فقدَّمه لنا بقوله: «هذا هو أخي شاكر باشا»، وكانت المائدة قد أعدت وقدَّم لنا الباشا بنفسه أشياء كثيرة. وبعد أن قضينا هناك ساعتين على وجه التقريب صَحِبَنا الباشا بنفس المراسم حتى ركبنا العربة، وهناك قدم إلى «ياور آغا» الذي يصحبنا هدية: خاتماً بفص وحيد.

وجاء من خلفنا الباشا إلى المابين لتقديم الشكر ومعه عربة مليئة بالعرائس، كما جاءت حرمه وأخته إلى دائرة الحريم [في سراي يلديز] وقدمتا شكرهما.

حديثي مع الغازي عثمان باشا

وفي يوم آخر أيضاً كان والدي يستعدُّ للخروج إلى موكب تحية يوم الجمعة، وكنت أنا هناك مع الأغوات نستعد للخروج إلى الحديقة الكبيرة،

وجاءت عربة الوالد فوقفت أمام الباب الزجاجي، وكان الغازي عثمان باشا هو الآخر ينتظر والدي ليركبا سويّاً العربة، فلما رآني أبي هناك قال: «تعالَي يا بنيتي أعرفك بالباشا» ثم قال له: «يا باشا، هذه هي ابنتي الأميرة عائشة». ولما أمرَني أن أقبِّلَ يد الباشا سِرت نحوه، فابتسم الباشا وانحنى حتى الأرض، ولم يترك لي يده، وفي تلك اللحظة شهدت وجهه النوراني الباسم وعينيه الزرقاوين عن كثب، وتطلَّع إلى والدي وقال له: «حماها الله لكم يا أفندينا».

وكان والدي قد قدَّمني عدة مرات أيضاً لسفيرنا في باريس منير باشا، وذهبت ذات مرة عندما كان يجلس مع والدي في المسرح وفي الحديقة، وكان أبي أحياناً يوصيه ببعض الملابس لنا من باريس، ولست أدري كيف كان السبيل إلى ذلك، إذ كانت الملابس القادمة من باريس تطابق أبداننا تماماً دون أن يأخذوا مقاساتنا.

استخدامي للنِّقاب

حلَّ فجأةً زمان استخدامي للنقاب، وكنت قد بلغت الحادية عشر من عمري، غير أني كنت طويلة القامة فارعة يَنخَدِعُ في سني من يراني. وذات مرة خَرجتُ للاشتراك في مراسم تحية يوم الجمعة، ولن أنسى ذلك مطلقاً؛ إذ ارتديت في ذلك اليوم فستاناً وردياً، وبينما كان والدي يخرج من الجامع توقَّف قليلاً على السلم وتطلَّع ناحية العربات، ولم يكن من العادة أن يحيي السلطان أحداً داخل عربات الحريم، وكنت أنا لهذا السبب أُطِلُّ برأسي من نافذة العربة وأنظر منها ضاحكة.

وفي ذلك اليوم قاد والدي عربته وعاد إلى السراي، وفي المساء وهو يجلس مع والدتي للطعام قال لها: «رأيتُ اليوم ابنتي في العربة، إنها تبدو من بعيد أكبر من سنها، ومن لا يعرفها يظن أنها فتاة كبيرة، ويجب أن تستخدم

النقاب (البُرقُع) اعتباراً من الأسبوع القادم، وعليها أن لا تخرُجَ بعد ذلك مكشوفة الوجه». واعترضت أمي وقالت: «ولكن يا أفندينا كيف هذا؟ إن سنَّها صغير» إلا أنه قال: «زوجتي! هل تظنِّين أنهم لن يقولوا: إنني تركتها تخرجُ مكشوفةَ الوجه؟ ألن تستخدم النقابَ في يوم من الأيام؟ إذا كان ذلك فعليها أن تتعوَّد عليه من الآن».

استخدمت أختي الأميرة شادية النقاب بعدي بزمن طويل على الرغم من أنها تكبرني بثلاثة أو أربعة شهور، غير أني كِدتُ أطير من الفرحة لأني سوف أستخدمه مثل أخواتي الكبريات.

وفي الأسبوع التالي أعدُّوا لي فراجة كانت وردية اللون، موشى صدرها بالصيرمة حتى أسفلها، وكانت دبابيس النقاب من اللؤلؤ. وفي ذلك اليوم ارتديتُ ملابسي بشغف يفوق العادة، وجاءت كل قلفاوات السراي يهنِّئْنَ أمي ويدعين لها بالخير والسعادة، وقامت نديمتي التي تربَّيت على يديها فوَضَعت لي النقاب على رأسي، واصطفت القلفاوات صفين من أول السلم حتى أسفل، وكانت نديمتي تنثُر النقود وأنا نازلة حتى وصلت إلى العربة، وهناك هنأني المربيان ثم تأبَّطا ذراعي. لقد صرتُ إذن أُعامَل معاملة الأميرة الكبيرة، وراحت أمي توزِّع العطايا على سائق العربة وعلى العمال والمربي، ومن بعدها صرت أستخدم البرقع.

ولما بلغتُ الرابعة عشرة من عمري طالت قامتي كثيراً، فشرعت أرتدي الملابس الطويلة أثناء المراسم، وكان ذلك في أحد الأعياد، وعندها أيضاً نثروا النقود، ولما رآني أبي على هذا ابتسم وقال: «ما شاءَ الله! لقد كَبرتِ وصرت جميلةً، ولائقة لهذا»، أما أنا فقد سعدت كثيراً، وصرت أُعُدُّ نفسي واحدة من بين الأميرات الكبريات.

ذكريات أخرى من طفولتي

كنت في طفـولتي أعشق الحيوانات، فكان عندي كلاب وقطط جميلة وببغاء كان يقفُ دائماً على كتفي، أهداه الدكتور عصمت باشا إلى والدي عندما كنت لا أزال في المهـد، فقدَّمه أبي إلى أمي، وصار هذا الببغاء يألَفُني منذ عهـدي بالحياة ويسلِّيني، حتى صار صديقاً لي بعد ذلك، يطوفُ كل أنحاء المنـزل. وكـانت مشيته العرجاء ظريفة، يشير برجله إلى رأسه ويضعها على ركبتي ويطلُب مني أن أحكَّها له، وكان عندما يَضَعُونه في القفص ويريد الخروج منه يصيح علي: «أميرة عائشة، حياتي»، وكنت أُلبِّي طلبه فأخرجه من القفص.

وكان والدي هو الآخر يحبه، وأطلَق عليه اسم «دادي قلفة»، وكنت أضعه فوق البيانو وأعزف له ألحاناً خاصة، يفهمها ويُرفرف بجناحيه، ويَنفُش ريش رأسه ويلعب. وقـد ضاع مني هذا الببغاء المحبوب أثناء خلع والدي عن العرش، وسوف أحكي فيما بعد كيف وجدته.

لقـد كان أعظم لهونا أن نتنزَّه داخل حدائق يلديز، وكنا بعد انفضاض مراسم التحية يوم الجمعة نذهب إلى الجواسق الموجودة في المنتزه الكبير الذي كنا نُطلِق عليه «بريه»، ونمضي هناك الوقت سوياً، وكانت تقوم واحدة منا كل أسبوع بتحمل نفقات المأكولات الباردة التي كنا نسميها «مستلزمات الحديقة»، وتأتي بها، ونظلُّ هناك حتى المساء؛ نلهوا ونلعب، ونطوف بين الجواسق: مثل جوسق الخيمـة، وجـوسق مالطة، وجوسق باغجوان باشي، وجوسق العجم، وجوسق التعليمخانه.

وأثنـاء ذلـك كنـا نجتمـع نحن الأميرات الشـابات وتشترك معنا أمهاتنا والقلفـاوات الشـابـات والمسنـات، كمـا بدأت تصـاحِبُنا بنات السلطان مراد والأميرات الشابات اللائي في سننا من بنات صلاح الدين أفندي (ابن السلطان

مراد) وخاصةً بعد وفاة جدهن، كما كانت تصاحبنا أيضاً أخواتنا المتزوجات، ونظَلُّ هناك حتى المساء ثم نعود إلى السراي.

وكان يحدث أن نذهب بين الحين والآخر إلى الكاغدخانه، وكان هناك كثير من الحيوانات الأليفة، إذ كان المكان الذي يُوجد فيه جوسق العجم مكاناً يشبه حديقة الحيوان، توجد فيه الدببة الصغيرة والنعامات والقرود والزرافات وزوج من الحمير الوحشية(٣٤)، وهذا الزوج من الحمير أهداه إلى والدي إمبراطور الحبشة «منليك».

أما حديقة السلاملك ناحية دائرة الحريم فكانت تضُمُّ كل أنواع الطيور مثل الطاووس والتدرج [طائر ذيال شبيه بالحجل] وشتى أنواع الببغاوات والحمام، وما أجملَ البط البيكيني الذي أرسله إمبراطور اليابان هديةً إلى والدي وهو يسبح في الحوض الكبير، كما كان هناك الإوز العراقي الذي جاؤوا به من سويسرا، والطيور الأخرى النادرة التي أرسلها الإمبراطور الياباني وهي تقف فوق الجزيرة التي تتوسَّط الحوض الكبير.

وكنت أعشق هذه الطيور، وأذهب باستمرار للفرجة عليها، حتى إن حادثةً وقعت لي ذات يوم بسبب حُبِّي لها، إذ ذهبت إلى الجزيرة مع المربي ورحت أشهد هذه الطيور وألهو وألعب فوق الخضرة، وإذا بي أرى كُرْكِياً ذا سيقان طويلة ومنقار طويل، وهذا النوع من الطيور كان يألَف الإنسان كثيراً، غير أن واحداً منها أقبل نحوي وضربني من مؤخرة رأسي، وراح الدمُ يسيل، ووقع الخوف في قلب المربي وحار ماذا يفعل، أما أنا فلم أبْكِ مطلقاً، لأن الجرح لم يكن مؤلماً، وضمَّني المربي إلى صدره وحملني مباشرة إلى «غرفة المناوبة» وعرضني على الدكتور «مقيم باشا»، فقام على الفور بتضميد الجرح بعد تنظيفه وإيقاف

---

(٣٤) زبير: زبرا، أي الحمار الوحشي.

النزيف. وقيل بعدها: إن الطائر خاف من لون ملابسي الوردي الغامق، ولم يُخبروا والدي بشيء، ومرت الحادثة هكذا.

لم يبق شيء إلا وقيل حول الحوض الكبير في حديقة سلاملك السراي، ففي هذا الحوض كان يوجد لوالدي زورق ذو محرك، يركَبُه عندما يخرج إلى الحديقة مع زوجاته وبناته، ويذهب بهن إلى الجزيرة فيجلس هناك في «الجوسق الصغير» ويتناول القهوة.

وكان يذهب أحياناً إلى «جوسق جهاننما» ويصعد إلى القاعة الصغيرة، ويتفرَّج على المكان بنظارته المكبرة من ماركة (Zeiss) ، وتطوف القلفاوات بأنحاء الحديقة ويركبن القوارب ويتنزهن.

وكان والدي يخرج أحياناً مع موظفيه أو مع نفر من الباشوات، وأحياناً أخرى يصطحب إخوته وأبناءه والأمراء الكبار، كما كان يحدث أن يصطحب أخواته والأميرات الضيوف الأخريات فيأخذهن إلى زورقه الذي يقودُه بنفسه ويطوف بهن في الحوض، وفي تلك الأثناء يوجد إلى جانبه المصاحب الثالث نادر آغا يساعده في قيادة الزورق.

وقد رأيته عدة مرات وهو يتنزَّه مع الصدر الأعظم فريد باشا وسفيرنا في باريس منير باشا، كما تنزه أيضاً مع الخديوي عندما جاء إلى السراي، أما والدة الخديوي وأخواته البنات فكنَّ يتنزَّهن معنا.

وفي الأيام الأخيرة كان عند والدي كلب اسمه «شيري» كان حيواناً مؤنساً ظريفاً، أَلِف والدي أكثر من الكلاب الجميلة الأخرى الموجودة في دائرة الحريم، وكنا نحن أيضاً نعشَقُ هذا الحيوان ونصطحبه في نزهتنا، أمَّا بقية الكلاب الجميلة الأخرى فكانت تقف في أقفاصها تتطلَّع إليه.

وكان لوالدي غير ذلك قطة رائعة الجمال بيضاء من منطقة «وَانْ» اسمها

«باموق»، أهداها لي أولاً، ثم هربت من دائرتي وعادت إلى غرفته ولم تأت ثانية.

وذات يوم طلبني والدي فذهبت إليه، وعندها قال لي: «ابنتي! هذه القطةُ جاءت إلينا ولم تفارقنا، فهل تعطيني إياها؟»، فأجبته: «العفو يا أفندينا، ماذا تقولون؟ القطة في الأصل قطتكم وما حقِّي في ذلك، غير أني أغبِط هذه القطة». وضحك الوالد كثيراً وقال: «أشكرك يا بنيتي».

لقد ذهبَت هذه القطة معنا حتى سلانيك، ثم جاءت مع والدي إلى سراي بكلربكي، وماتت قبل وفاة والدي بعامٍ واحد، ولازلت أحتفظ بصورتها.

وفاة مربيتي

كان أول جزع على الموت والفراق شعرتُ به في طفولتي، ذلك اليوم الذي فَقدْتُ فيه مربيتي القلفة «رقص دل»، فقد احترق قلبي الصغير البريء جزَعاً عليها، ورحت أبكي بدموع غزيرة وأنا أرى خيالها بجانبي، وأسمع صوتها يَرِنُّ في أذني، وراحت كل القلفاوات في السراي يسعين للترويح عني حتى أنسى ذلك الحزن، وسلّموني إلى المربي، فذهب بي إلى البرية في حديقة السراي.

ماتت مربيتي بمرض السل، وقال الأطباء يومَها: لا يجب أن تبقى ولو دقيقة بجوار الأميرة، وكنت لا أعرف شيئاً من ذلك، وأصررت على طلبها غير أنهم كانوا يسعَوْن لإلهائي بقولهم: «إنها مريضة، يعالجونها الآن وعندما تطيب ستأتي». لقد تعودت عليها وألِفتها كثيراً، فقد كانت تحملني إلى الفراش في صغري، وتظلُّ عند رأسي حتى أنام على أغاني النِّني التي تغنيها بصوتها العذب الرقيق، وتحكي لي في النهار حكايات جميلة، وتلبسني ملابسي بعناية وشفقة وحب يفوقُ الحد، وتصنَع لي كل شيء، وأنا الأخرى كنت أقبِّلُها من وجنتيها

وأقول لها: «مربيتي الحلوة»، أما هي فكانت تقول لي: «وحيدتي، وأميرتي الملاك».

وكانت عند خروَجها من حجرتي وذهابها للعلاج قد أرسلت صُرَّةً لي قالت لهم: «سلموها إلى الأميرة» وأوصتهم أن أحتفظ بهذه الصرة للذكرى. وفتحتُها فوجدت أول ما وجدت صورتي، ثم أشياء أخرى من ذكرياتي: هي أول خطٍّ كتبته بيدي، والقميص الذي ألبَسوني إياه عندما وُلدت، وأول ملعقة تناولت بها الطعام، وأول قلم كتبت به، وأول خُصْلات قصصتها من شعري، وشرائط ضفائري، وغيرها من الأشياء التي كنت أستعملها.

وأُجهشتُ ساعتها بالبكاء، وظللت أحتفظ بهذه الأشياء تَذكاراً حتى الأيام الأخيرة، ثم ضاعت كما ضاع غيرُها إلا صورة مربيتي، فهي لازالت تعيش في قلبي، وحتى هذه اللحظة تتراءى في مخيِّلَتي عيناها السوداوان الحنونتان.

نديمـــتي

نديمتي «دل اسرار قلفة» إحدى قلفاوات السراي القديمات المحترمات. سلَّمني والـدي إليهـا منـذ اليوم الـذي وُلدت فيه، وكان يناديها باسم «القلفة الكبرى»، حتى راح يناديها كل من في السراي بهذا الاسم احتراماً وتقديراً. لقد سقطت مربيتي المسكينة فريسة لمرض عُضال، وارتفعت فجأة حرارتها رغم ما كان بها من قوة وحيوية، وكانوا يقولون: إن ظهرها به خُرَاج، وجاء كل من في السراي من أطباء وفحصوها، غير أن أحداً لم يفهم شيئاً، وراح الخُراج يزداد تضخُّماً.

وفي النهاية جاء الجراح أمين بك وفحصها، وفَهِم أنها أصيبت بمرض الجمرة الخبيثة، فذهب وأخبر والدي، فقام هو الآخر وأمر باستدعاء جميل بك صهر شيخ الإسلام جمال الدين أفندي الذي جاء من أوربا حديثاً، ولما جاء

جميل بك وفحصها وقال: إنه يجب التدخُّل على الفور، وإن أسلوب العلاج الذي اتبعوه حتى الآن كان مضيعة للوقت، وإنه إذا مضت ست ساعات أخرى لن يقبَل تحمل المسؤولية، أشار والدي بالتدخل على الفور، غير أنه أوصى بعدم تخديرها بقدر الإمكان، لأن القلفة الكبرى تعاني من ضيق التنفس. والحقيقة أن جميل بك أجرى هذه العملية الخطيرة دون أن يُخدِّرَها، غير أن القلفة كانت في حالة إغماء فلم تشعر بشيء على الإطلاق، وكان يوجد في الغرفة القلفة «عشوه ريز»، والمربي بشير آغا، يشهدان العملية غير أنهما لم يتحمَّلا وأغمي عليهما، لأن الجراح جميل بك كان قد استَأصل قسماً أسفل عظمة الكتف اليمنى في جسم القلفة.

أُجريت العملية في وقت متأخر من الليل وتمَّت بنجاح، وجاء الأطباء في اليوم التالي، وكانت المريضة قد عادت إلى وعيها فسألت عن سبب مجيء الأطباء والحَيْرة تأخذ منها كل مأخذ.

وظلَّت ثلاثة أشهر يأتيها جميل بك مرتين في الأسبوع، وأمين بك كل يوم، وطابت في النهاية تماماً. وبعدها أحسن والدي إلى جميل بك ومنَحه رتبةً مكافأة له على هذه الخدمة، كما أهدى القلفة دبوساً من الماس، وأنعَم على أمين بك هو الآخر.

وقد سمعت فيما بعد أنهم كتبواينشرون أن مربيتي العجوز كانت من خليلات والدي، وصار هذا واحداً من بين الافتراءات والأكاذيب الأخرى التي ألصَقُوها به.

كنت قد ذهبتُ إلى سويسرة قبل وفاة والدي وتركتُ مربيتي في الجوسق، وتوفيت قبل أن أعود، وكان عمرها يبلغ الثمانين عاماً، وسوف أظلُّ أذكرها بالرحمة، وسوف تعيش ذكراها في قلبي أبداً.

القسم الثالث
العهد الدستوري

إعلان الدستور

كانت تمر أيامنا في السراي كالمعتاد، وإذا بنا نقرأ في الصحف الصادرة صباح الجمعة ٢٤ تموز/ يوليو ١٩٠٨ عن إعلان القانون الأساسي والمشروطية [الدستور] يوم الخميس ٢٣ تموز، وكنا نعرف القانون الأساسي الذي يصدُر كل عام في صدر التقاويم، وكان والدي قد مَنَح البلاد حكماً دستورياً عندما اعتلى عرش السلطنة، ثم ما لَبِث أن ألغاه لظروف استلزمت ذلك فيما بعد.

ومن الطبيعي أننا سمعنا بذلك، غير أننا لم نكن نعلم آنذاك أن الضغوط الشديدة التي تقومُ بها الأقلّيات من رعايا الإمبراطورية قد وصلت إلى مرحلة الخطر، وأن المصالح الوطنية باتت مهدَّدَة، وأن المجلس تم حلُّه بسبب ذلك. فلما أُعيد إعلان الدستور من جديد دَعَوْنا جميعاً بأن يكون مصدر خير للدولة والأمة ولأفندينا.

ومرَّت مراسم التحية الخاصة بيوم الجمعة ٢٤ تموز ساكنة هادئة، غير أن قِلَّةَ الضباط ذوي الرتب الكبيرة أكثر من أي وقت مضى كان شيئاً لَفَت أنظارنا، وكان سعيد باشا قد عُيِّن قبل يومين (٢٢ تموز) صدراً أعظم للمرة السابعة، ولم يكن أحد يُحِسن الظن به في السراي منذ زمن طويل. وكان الناس يرددون يومها عبارة: «ألم يجد أفندينا غير هذا المنحوس حتى يأتي به ثانية؟».

وتغير أيضاً القائد العسكري رضا باشا، واحتلَّ مكانه عمر رشدي باشا،

وهذا الرجل أيضاً لم يكن محبوباً في السراي، وكانت هناك أقوال كثيرة ضده، كما سَعِد الناس كثيراً بانسحاب فريد باشا، وكانوا يقولون يومها: «إن هذا الرجل ليس صادقاً، لقد بات يحلم بتولِّي إمارة الأرناؤوط، وهو سبب كل العصيانات، ورجل يعمل لمنفعته الشخصية، وأفندينا مخدوعٌ فيه».

كان والدي مشغولاً بأعمال كثيرة منذ عدة شهور، ومجلس الوكلاء [الوزراء] يواصل اجتماعاته في المابين دون توقف، ولا يأتي إلى الحريم إلا للنَّوم في وقت متأخر من الليل، وتمرُّ أيامه بين السلاملك والمابين الصغير. وكنا نشعرُ أن هناك أموراً هامة تجري، غير أننا لم نكن لندرك وجهها الحقيقي.

ظهرت الحقيقةُ إذن، وفي اليوم التالي بدأت تخرج المظاهرات في المدينة، وتغيَّرت لهجة الصحف بشكل لم نشهده من قبل، حتى عمال السراي أنفسهم راحوا يُفسِّرُون الأمور بما يتمشَّى وهواهم.

وتجمعت بعض الهيئات وطلاب المدارس والأهالي في مظاهرات صاخبة أمام المابين الهمايوني، وقد أمسك بعضهم بالأعلام والطبول، بل وزادوا على ذلك أن راحوا يهتِفُون: «نريد مقابلة السلطان»، فتوجَّه والدي إلى المابين وأطلَّ من النافذة. وظلَّت تتكرر هذه الحادثة مرة أو مرتين بل وثلاث مرات في اليوم أحياناً.

وطَرَدُوا الباشكاتب [السكرتير الأول] تحسين باشا من السراي، وحملوه دون أن يسمحوا له حتى بمقابلة السلطان ووداعه، أما الكاتب الثاني عزت باشا فقد كان رجلاً غاية في الذكاء، ولذلك استطاع أن يُدرك وخامة الموقف، فانتهز الفرصة ودخل إلى السلطان، فعانقه والدي وجامله حتى بكى الرجلُ وودَّعه وهو يقبِّل يده ويقول: «كان الله في عونك يا وليَّ نعمتي» ثم خرج وانصرف.

كما طردوا كثيراً من موظَّفي السراي، وكان من الطبيعي أن يسيطر علينا

القلق ونجزع أشدَّ الجزع.

وتم تعيين جواد بك أحد كتبة المابين بدلاً من تحسين باشا، وكانوا قد عرضوا على والدي بعضَ الأشخاص لتعيين أحدهم في وظيفة باشكاتب، غير أن والـدي اختـار جواد بك. وقال عندها: «لقد أغضَبنا جواد بك عندما جئنا بتحسين باشا، ولا أريد أن أُغضِبه مرة أخرى، فهو في الأصل رجل واقف على كل أعمال دائرة السكرتارية، وليكن هو الباشكاتب».

أما رضا بك وأمين بك من موظفي المابين القدماء فقد ظلاًّ في مكانيهما، بينما طلب بكير بك الاستعفاء من نفسه بعد عدة أشهر، وتمَّ تعيين كل من رفعت بك وغالب بك موظفين في المابين، وصار نوري باشا موظف المابين من الدرجة الثانية موظفاً من الدرجة الأولى.

وكان يوجد أيضاً عارف بك أحد هؤلاء الموظفين، أحبَّه والدي كواحد من أولاده، ولم يبخل عليه بإحسان، على الرَّغْم من هذا هرب إلى أوربا قبل زمن، وفَـوْرَ وصـولـه استـانبـول قبل إعلان الدستور جاء إلى المابين ودخل لمقابلة السلطان، وانكفأ على قدَمَي والدي وهو يبكي ويقول: «سامحني يا أفندينا، لقد رأيتُ منـك كرماً كثيراً، فقابلته بالعقوق» فعانقه والدي وقال: «سامحتُك، ولا بأس»، وأُغمي على الرجل ورَشَّ عليه والدي الكولونيا وتأثَّر لحاله كثيراً، وأفصح عن حزنه فيما بعد عندما قال لنا: «مسكين هذا الولد، لقد فعلها عفواً، إذ اتبع هوى رفاقه فأنا أعلم أنه يحبني».

□□□□□

مراسم تحية الجمعة الأولى بعد إعلان الدستور
(٣١ تموز - يوليو ١٩٠٨)

لقد صادفت مراسم تحية الجمعة هذه المرة بعد إعلان الدستور، وكانت تشبه مراسم تحية أيام الجمعة السابقة عليها، فلم يكن هناك اختلاف يُذكَر، اللهم إلا في بعض العزلة وقلة الازدحام، أما مراسم هذه الجمعة الثانية فقد كان تصوُّرنا لها أن تكون أول مراسم تحية للجمعة بالمعنى الكامل بعد إعلان الدستور، ولهذا السبب أبلغنا الوالد أن نحضر جميعاً فيها، وكنا ننتظر بقلق وخوف كيف ستكون عليه هذه المراسم الأولى، ونتوسَّل إلى الله بالدعاء أن يفعل ما فيه الخير.

ولأن الأميرة الوالدة كانت قد تُوفِّيت عقب المرض الطويل الذي أصيب به والدي، فقد تقرر أن تحل محلها الزوجة الأولى «بدر فلك» وتكون على رأسنا في هذه المراسم.

وكانت الأخبار تأتينا منذ الصباح بوصول الحشود من الأهالي إلى سراي يلديز، وكان الكلُّ في اضطراب وقلق، إلا أننا توكلنا على الله وركبنا العربات، وما أن خرجنا من باب السراي حتى وجدنا أنفسنا وسطَ ازدحام رهيب، وصار «مرقى يلديز» مثل يوم الحشر، وكانت حشود الناس من كل جنس ولون تتحرَّك مثل الأمواج، ولم يَعُد هناك موطىء لقدم، وكانت ألوف البشر فوق الأشجار وأعلى الجدران، وعلى أعمدة الغاز، وعلى الأسوار الحديدية، ترسم منظراً مخيفاً من الفوضى يمكن وصفُه ببحر متلاطم من البشر. ولم أكن لأظنَّ وقتها أن أسلافنا ممن عاشوا قبلنا بمئات السنين رأوا يوماً مثل هذا؛ بل لا أظنُّ أن أخلافنا سيشهدون مثل هذا، فكأنما كل أهالي استانبول غَزَوْا «مرقى يلديز».

ولم يكن أي من الكتائب القادمة للاشتراك في المراسم في مكانها، اللهم

إلا كتائب القناصة القادمة من سلانيك كانت تحتلّ الأماكن التي شغلتها كتائب البحرية من قديم، ولا جنود غير هؤلاء.

واستسلمنا نحن أيضاً للقدر مثلما استسلم والدي، وكانت العربات تتحرك خطوة خطوة، لا. . بل قدماً قدماً، وأعجز الآن عن تحديد الوقت الذي استغرقه وصولُنا إلى الجامع، واستطعنا بصعوبة بالغة أن نَجِدَ مكاناً داخل ساحته، وكنا كأنما نتلاطم كالبحر ونحاول رؤية ما حولنا، وننهض على أملِ أن نرى شيئاً من الزجاج الخلفي والأمامي في العربة ونطل برؤوسنا إلى الخارج.

وفتحوا جناحي «باب السلطنة» وبدأ يعزف المارش، وكانت تُسمع أصوات الموسيقى المتقطعة بين صياح وضجيج الأهالي، وظهرت عربة والدي، غير أن احتمال تقدمها في السير كان مستحيلاً، تتقدم خطوة ثم تقف، ولم نكن نرى من والدي إلا طربوشه، وكانت ترتفع هتافات الناس وهم يردِّدون «عاش السلطان»، وكان والدي يعرِض نفسه على الجماهير. . . ها هو الرجل الذي وصفوه بأنه رِعديد، يقف منصوب القامة في وسطهم، ويقف أمامه الصدرُ الأعظم سعيد باشا. . . الذي لم يخجَل من أن يقول في مذكراته: «إن السلطان عبد الحميد لم يكن وليَّ نعمتي».

وهنا أودُّ أن أستطرد بعض الشيء ـ مادامت الفرصة مواتية ـ ولن أنتقل إلى شيء آخر دون أن أتعرَّض لإحدى النقاط:

لقد ذكر سعيد باشا في مذكراته أنه رأى والدي في ذلك اليوم مدجَّجاً بالسلاح وفي جيوبه مختلف المسدسات. وهذا ليس صحيحاً، إذ عليه لكي يدَّعي مثل هذا الادعاء أن يكون قد فَحَص جيوب السلطان، إن أيَّ شخص متوسط الذكاء ـ وليس سلطاناً ذكياً مثل أبي ـ يدرك أنه لن يستطيع أن يحمي نفسه أمام هذه الحشود من البشر إذا كانوا أعداء له، ومهما حمل الإنسان من

سلاح فليس بمقدوره أن يستعمل إلا واحداً منها.

وكان هناك من ادَّعوا أيضاً مثل ادعاء هذا الرجل، وقالوا: إن والدي كان يرتدي الدروع الواقية، وهذا افتراءٌ آخر، ولو أن من قاموا بنهب سراي يلديز بما فيه من أموال وملابس وَجَدُوا دِرعاً واحداً من هذه الدروع لما تردَّدوا لحظة واحدة في عرضها بالمتحف، وقد كان عمال الملابس يساعدون والدي في ارتداء ملابسه، فلو كان ارتدى درعاً لرآه من المؤكد شخص على الأقل في السراي.

وفي النهاية بدأت تتقدَّمُ عربة الوالد بين الهتاف والضجيج والصياح حتى استطاعت أن تقترب من السلم(٣٥) عند حجر الركوب، وفور أن نَزَل منها الوالد أدار وجهه إلى الناس محيِّياً، وبدأ يصعد السلم بخطوات وقورة ثابتة، وحمدنا الله أن وَصَل إلى هناك دون مكروه.

وكان يوجد آنذاك في ساحة الجامع رجلان تركَّزت عليهما كل الأنظار: أحدهما هو رضا توفيق (البلوكباشي)، والآخر سليم سري (طارجان)، يظهران في كل مكان ويطوفان حول عربة والدي من خلف ومن قُدَّام، ويهرعان هنا وهناك، ولم يعلَم أحد ما هي المهمة التي أُنيطت بهما، ثم قيل فيما بعد: إنها الضبط والربط... قولاً وليس فعلاً.

وكان رضا توفيق بك يرتدي بنطلوناً أبيض وسترة سوداء، أما سليم سري بك فكان يرتدي زِيّاً يشبه زي الفرسان، ولأننا لم نشهد مثل هذه الملابس في الاحتفالات الرسمية من قبل فقد كنا ننظر إليهما بتعجب.

وعاد والدي إلى السراي مثلما ذهب، غير أنه لم يَقُد العربة بنفسه كما كان يحدث عند عودته قبل ذلك، وفضَّل ركوب عربة السلطنة، غير أنه أمر بفتح

---

(٣٥) تم تغيير سلم الجامع أيام السلطان رشاد، ومازال على هذه الحال حتى اليوم.

السلطان عبد الحميد الثاني في أول مراسم لتحية الجمعة عقب إعلان القانون الأساسي (الدستور)

(صورة من أرشيف مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستانبول)

سقفها، ولم يقف على قدميه هذه المرة حتى عاد إلى السراي.

ولا أتذكر الآن من كان يوجد من السفراء الأجانب في ذلك اليوم، وجاء والدي إلى دائرة الحريم في ساعة متأخرة من الليل، وبعد أن غيَّر ملابسه واستراح قليلاً أرسل إلى إحدى الخزينة داراث أمراً أن أتوجَّه إليه، فهرعت على الفور نحو دائرته، وكان يتمدَّدُ على مقعد طويل (شيزلونغ) في القاعة الصغيرة، ويشربُ قهوته جرعة جرعة! فلما دخلت عليه انحنيت لتحيته وسرت نحوه ثم قبَّلتُ يده، فابتسم وأشار عليَّ بالجلوس، فعدت وانحنيت أُحييه ثانية ثم جلست، وكانت أمي تجلس على أحد المقاعد هناك، وتطلعت إليَّ بوجه بشوش وسألتني: «كيف وجدت مراسم تحية اليوم؟» فأجبتها: «لم تكن سيئةً يا سيدتي، لقد أفصح كل أهالي استانبول عن حبهم الفائق لأفندينا وتأييدهم له»، فهزَّ والدي رأسه وقال: «هذه هي الأشياء الحادثة يا بنيتي، وها نحن أيضاً قد تعلَّقنا بتيار، نمضي فيه، وسنظل نمضي، جعل الله الخاتمة خيراً».

وتناول عُلبة السجائر من على المنضدة، وأخرج منها واحدة، ثم نهضت فوراً ورُحت أُشعل له عود الكبريت، فشكرني وأشار عليَّ بالجلوس، فجلست وقلت له: «يا أفندينا! لقد أحسنتم بوقوفكم على الأقدام وأنتم في العربة»، فأجاب: «نعم! لقد تعمَّدتُ أن أفعل ذلك حتى أُظهر لهم نفسي» ثم ابتسم قليلاً وقال: «فلننظر ماذا ستكون لهجة صحف الغد، وإن كنت لا أُعبأ بذلك في الواقع».

ونظر إليَّ والدي، وقال هذه الكلمات التي لا أنساها: «تعلمون أنني الذي أعلنتُ الدستور الأول، وظَلِلْت دائماً من أنصاره، غير أننا لسنا كاليابان أمةً متجانسة، وكنا نخشى خطر انهيار إمبراطوريتنا التي تَضُمُّ عناصر مختلفة، ولهذا السبب رأينا ضرورة إلغائه لمدة من الزمن».

وبعد أن توقف والدي قليلاً، ابتسم وأردف يقول: «بنيتي! لم تعد الأمة كما كانت في الماضي جاهلة، فقد تقدَّمت إلى حد ما، إذ فتحت المدارس وتخرج الضباط وصاروا يُدرِكون ما هو الدستور، ومهما كتبت الصحف ضدي فإنني عازم بمشيئة الله على تطبيق الحكم الدستوري، وسوف أصُدُّ كل الصعوبات مهما كانت».

وراح يعبَث بلحيته ويقول: «لقد تجاوز سني الستين، وأعظمُ آمالي أن أقوم في أواخر أيامي بوظيفتي الأخيرة، وتحقيق رغبة الدولة والأمة، وما دامت الأمة تريدُ ذلك فسوف يكون لها ما أرادت، وليس لي إلا أن أرجو التوفيق من الله».

وهنا قلت أنا وأمي في صوت واحد: «تقبل الله دعاءَكم يا أفندينا».
وواصل والدي حديثه فقال: «سوف أفتتح في القريب العاجل مجلسَ المبعوثان بمشيئة الله، وأقوم بخدمة الدولة والأمة حاكماً دستورياً».

والتفت والدي إليَّ وسألني: «لقد كان هناك اليوم ولد معجَب بنفسه، يَذْرَع الأرض جِيئةً وذهاباً أمام عربتي، هل رأيتيه؟» فأجبته بقولي: «نعم رأيته، وقيل: إنه رضا توفيق بك، والآخر هو سليم سري بك» فابتسم والدي هذه المرة ابتسامةً عريضة وقال: «ألم يعد هناك غير هؤلاء الصبية الطائشين لضبط وربط هذا الموكب الضخم، لقد كانا يَدُوران حوالي مثل معتوهَين.. ماذا يعلم مثل هؤلاء في إدارة البلاد؟ وحفظ الله هذه الأمة من مثل هؤلاء السفهاء».

ثم أنهى حديثه بنَغْمة حزينة وقال: «لا يجب علينا أن نجزَع، فسوف تمرُّ علينا أيام كثيرة مثل هذه، لا نظام فيها أو انتظام، وبالصبر والجَلَد سوف تبلغ أمتي وبلادي بَرَّ السلامة بمشيئة الله، بنيتي.. إنني أمضيت الآن أكثر من نصف عمري، ولم يَعد لي أمل غير سلامة الأمة ورِفعتها.. لا حرم الله أمتي من البقاء،

وهذا هو دعائي».

وفاضَت عيناه وعيوننا بالدمع وهو يقول هذه الكلمات الأخيرة، ودَعونا له فقلنا: «أمَدَّ الله في عمرك، وحقَّق أمانيكم في خدمة الأمة».

ثم توجه إلي بالحديث وقال: «هيا يا بنيتي، اذهبي إذن إلى فراشك... أنـا أيضـاً متعب، فسوف أذهب للراحة»، ونهض على قدميه ودعوتُ له بنوم هادىء، وانحنيتُ فقبَّلت يده، ثم شدني إليه وقبلني، وعدت إلى أمي وقبلت يدها هي الأخرى، ثم خرجت من الغرفة متوجهة إلى دائرتي.

هذه العبارات التي قالها والدي ونُقِشت في رأسي أعدتُها حرفياً تقريباً، ولا أعرف إذا كان قال لأحد من أولاده الآخرين شيئاً من مثل هذا أو لم يقل، وأعتقـد أنـه تحـدَّث معي أولاً نظراً لأني كنت أعيش معه في نفس المكان، ويختلف وضعي عن بقية إخـوتي. إن حاكمـاً يحمل على عاتقه حملاً ثقيلاً لإمبراطورية مترامية الأطراف، ويشعُر بالقلق في نفس الوقت من عاقبة دستور مشكوك في الثمرة المرجوَّة منه بالنسبة لظروف ذلك اليوم، مع كونه في الأساس صادقاً ومحقاً، ومن المنطقي جداً أن يُفرِغ همومه مع أحد أولاده المقربين إليه، حتى ولو كانت فتاة ما تزال شابة؟

والحقيقـة أن صحف اليوم التـالي خرجت كمـا توقَّع والدي بتفسيرات عجيبة؛ إذ نشرت العديد من المقالات المؤيدة والمعارضة، وكنت أتذكر حديث أبي مساء الأمس وأنا أقرؤها، غير أني لم أشأ أن أذهب إليه وأعرض عليه هذه المقالات، ومع هذا أعتقد أنه قرأ كل ما كتب، فقد كان جواد بك يدخل عليه كثيراً فيناقش والدي معه قضايا الوضع الجاري.

□□□□□

كامل باشا صدراً أعظم للمرة الثالثة

كان الصدر الأعظم سعيد باشا قد اضطر لتقديم استقالته في ٤ اغسطس ١٩٠٨، بسبب محاولته تعطيل مادة من مواد القانون الأساسي، ومع ذلك لم يتردَّد في إظهار مهارته في إلقاء هذا الذنب على كاهل والدي، مما كان سبباً في القيل والقال ضد والدي.

وباضطرار هذا الرجل للاستقالة جاء كامل باشا للصَّدارة العُظمى مرة ثالثة في ٥ اغسطس ١٩٠٨، ولم تكن صدارته هذه أيضاً التي لم تَزِد على ستة شهور جالبة لخير كثير، ووقعت عدة أحداث مثل حادثة «غيشوف»، وقيام النمسا بضم ولاية البوسنة والهرسك، وكان والدي حزيناً بسبب ذلك كلَّ الحزن، لأنه نتيجة لحادثة غيشوف[٣٦] أعلنت بلغاريا استقلالها، وضاقت نفسُ الوالد يومها كثيراً، وقال: إنها بسبب سوء التدبير، ولهذا كان هناك شعور بالحزن العام في السراي.

ومن أكثر الأشياء التي شَغَلته في تلك الأثناء مسألة الاستعداد لافتتاح مجلس المبعوثان، والحقيقة أنه كان يعمل بشوق كبير، وأوصى بأزياء رسمية جديدة من أجل طابور المعية «سوكودلو»، إذ كان مقرَّراً أن يذهب والدي إلى المجلس في ذلك اليوم مع هذا الطابور، وأن يكون على رأسه القائد محمد أفندي الذي كان يناديه والدي «ابن بلدي»، وكانت الأزياء الرسمية نِفطية اللون، وتقرَّر أن يضعوا على رؤوسهم نوعاً من القلانس الحربية كنوع من التجديد.

---

(٣٦) وقعت حادثة غيشوف ليلة الثاني عشر والثالث عشر من سبتمبر/ أيلول ١٩٠٨م أي: في عهد الدستور، عندما قام الصدر الأعظم كامل باشا بإعداد حفل عشاء بمناسبة عيد ميلاد السلطان عبد الحميد في قصر ناظر (وزير) الخارجية ليحضره الديبلوماسيون الأجانب، وكان غيشوف ممثلاً لبلغاريا إحدى الإمارات التابعة للدولة العثمانية آنذاك، فلما لم تقدم له دعوة لحضورها كان ذلك سبباً وحجة لإعلان استقلال هذه الإمارة (ن).

وكـانت الفـرحة تغمُرنا جميعاً، وظننا أن البلاد سيعُمُّها النظام إذن بعد افتتاح مجلس المبعوثان، وأن الأمة ـ ونحن معها أيضاً ـ ستنعم بالراحة. وتَمَّ تخصيص قسم من «دائرة العدلية» لمجلس المبعوثان، وهي الموجودة في ميدان أيا صوفيا، وكـان قد اجتمـع فيهـا المجلس للمـرة الأولى قبـل ثلاثين عاماً، واحترقت فيما بعد.

وارتدينا ملابسنا بلهفةٍ، وعلَّقنا نياشين «الوشاح الكبير»، وركبنا العربات متوجهين إلى مجلس المبعوثان، فأخذنا أماكننا في المبنى المقابل له.

وركب والـدي عربتـه التي تجـرُّهـا أربعة خيول، وجلس أمامه الصدر الأعظم كامل باشا وأخي برهان الدين أفندي، فخرجوا من السراي ووصلوا إلى المجلس من أطول طريق بين هتافات الناس وتصفيقهم، وكان فرسانُ طابور المعية «سوكودلو» وهم يسيرون أمام العربة ومن خلفها، يَبدُون مَهِيبين في الحقيقة.

وبينمـا كان والـدي يلقي الخـطبـة الهمايونية كانت المدافع تطلِق مئة وإحـدى طلقـة تحية له، ثم عاد إلى السراي بمثل ما جاء، وسمعنا هناك أن الخطبة لم تَرُق لأحد، مما جعلنا نفقد حماستنا. وبدأ الغليان في صحف اليوم التالي، وحط الحزن علينا جميعاً.

حفل غداء للمبعوثين

سمعنا يوماً خبراً جاء فيه: أن والدي ينوي دعوة «المبعوثان» لمأدُبَة غداء في السراي، وقيل: إنه سيجلس على مائدة الطعام معهم في قاعة المعايدات الكبرى الموجودة في «قصر شاله»، وانشغل بنفسه بأدق تفاصيل هذه المأدبة بفرحة كبيرة، وقال يومها: «إن هذا الأمر لم يكن من نصيب أحد من أسلافي»، حتى إنه قام شخصياً بتنـظيم قائمـة الطعام، وأمر بأن تكون الحلوى من نوع

«حلوى الإخـوة السبعـة»[37]، وكان يتردَّد كثيراً على القصر المذكور، ويُصدر الأوامر والتوجيهات حول تنظيم الموائد وأمور الضيافة.

وتقرر أن يجلس هو بين الصدر الأعظم ورئيس مجلس المبعوثان، وكل هذه الأمـور كان يفكـر في إعـدادها وتنظيمها. وبعد أن أعدت موائد الطعام أخبـرونـا بأمـر السلطان أن نذهب جميعنا إلى هناك، وننظر كيف سيتناول هو الطعام مع المبعوثين، وقمنا وأبي في المقدمة ونحن خلفه، فذهبنا إلى القصر وطفنا بأنحاء القاعة، وكانت المائدة على شكل حدوة حصان كبير، وكان مقرراً أن يجلس والـدي في منتصفها.. وبدأنا نحن بالدعاء له وقلنا: «إن شاء الله تكون فاتحة للخير والسعد».

وفي النهاية جاء يومُ المأدبة الذي كنا ننتظره جميعاً، وجاءنا الخبر بوصول أعضاء مجلس المبعوثان إلى السراي مع بداية عزف الموسيقى، وكان والدي وهو يرتدي بِزَّته الرسمية الكبيرة ويتوجه إلى هناك قال: إنه سيرسل الخبر إلينا.

ورحنا ننتظر الخبر... قام أعضاء المجلس بتظاهرة رائعة، والتَفُّوا حول والدي، حتى إن أغلب المبعوثين العرب حاولوا تقبيل قدميه... والحاصل أن والدي سُرَّ كثيراً وأرسل المصاحب الثالث «نادر آغا» إلى دائرتنا وقال له: اذهب واحك ما رأيت لزوجاتي وبناتي، ولا أستطيع أن أصف هنا تلك الفرحة الكبيرة عند استقبالنا لنادر آغا الذي جاء بهذه البشرى، حتى إن والدتي أهدته عُلبة ذهبية مرصعة بالماس، تَذكاراً لهذه الليلة.

وقبل أن يعود والدي من الجوسق، ذهبنا جميعاً وانتظرناه عند الباب، فلما دخل قدمنا له التهاني، ولا أذكر أني رأيت والدي سعيداً منتشياً بشوشاً إلى هذا

---

(37) رمز لأن العثمانيين يتكونون من سبع أمم رئيسية.

الحد . . . وراح يحكي بصوته الجهوري ويقول: «لقد تناولت الطعام مع وكلاء أمتي، وقابلوني بكل الوُد، وأحمد الله أني رأيت هذا ووُفِّقت فيه». أما نحن فكنا ندعو له بالتوفيق ونهنىء أنفسنا بفرحة وسعادة.

وفي اليوم التالي وصلت لكل واحد منا مجموعة من نسخ الصور التي التُقطت تلك الليلة للذكرى، ومع الأسف انقلبت فرحتنا هذه إلى كارثة في النهاية.

صدرت صحف اليوم التالي فحطمت هذه المرة أيضاً آمالنا، وكنا سمعنا من والدي العبارة التي قال فيها: «لقد جرفنا التيار ونحن ماضون معه»، وبدأنا ندرك إلى أي حد كان محقاً في ذلك، وكان يقرأ الصحف كل يوم ويقول: «هذه الصحف هي الصحف الانقلابية، ونهايتها ليست علامة على الخير، وهي ليست في الحقيقة إلا معركة «لحاف» [أي: معركة متفق عليها بين طرفين يستفيدان منها ويخسر الوسيط].

وفي تلك الأثناء، أي: في منتصف شباط/ فبراير ١٩٠٩، سقط كامل باشا الصدر الأعظم، وعُيِّن بدلاً منه حسين حلمي باشا.

حادثة ٣١ مارس (١٣ نيسان)

هي الحادثة التي وقعت في ٣١ مارس، التاريخ الرومي الذي كنا نستخدمه قديماً، لذلك عرفت بهذا الاسم، وهي تقابل ١٣ نيسان/ إبريل من التقويم الميلادي الذي نستخدمه اليوم، إذ بدأ الاضطراب يَسُود السراي نحو منتصف الليل نتيجة لبعض الأخبار التي جاءتنا من الخارج، واستدعى والدي الباشكاتب حتى يفهم منه ماذا حدث، وقام كل شخص على قدميه، وكانت هناك عبارات نتسامعها: «العساكر يذهبون . . . العساكر يريدون الشريعة» وبدأنا نسمع أصوات طلقات النيران، واستولى علينا الخوفُ، وهرعنا إلى الطابق

العلوي في السراي نشهد ماذا يحدث، غير أننا لم نستطع أن نشهد شيئاً، وبدأنا نتردد على دائرة الوالد إلا أننا لم نظفر بشيء.

وكان أبي هو الآخر يَذرعُ الأرض جيئةً وذهاباً بين الحريم والسلاملك، يتحدَّث مع الباشكاتب ومع رضا بك أحد موظفي المابين، ويحاول فهم ما يجري، ولمَّا دخل دائرة الحريم ورآنا قال: «لقد حدث ما بِتُّ أخشاه، ألم أقل لكم: إنها «معركة لحاف»؟ ها هي بدأت» وكان في حالة يؤسف لها من الحزن.

وفي اليوم التالي جاء خبر استقالة الصدر الأعظم حسين حلمي باشا، مما جعل والدي يضيق تفساً لذلك الحدث أيضاً، وكانوا يقولون في السراي عن هذا الرجل: إنه انتهازي، لا يثبُت على مبدأ، ومع هذا فلم تَرُق لأحد استقالة هذا الرجل في مثل هذه الظروف، وشعر كل إنسان بالقلق... ماذا حدث وماذا سيحدث؟

وكان تمرد «طابور القناصة» في «طاش قشله» شيئاً أوقع الرعب في قلوبنا، غير أن تعيين توفيق باشا للصدارة العظمة الذي عَمِل مدة طويلة في الشؤون الخارجية أثناء سلطنة والدي كان شيئاً أسعدنا جميعاً، فقد كان يُقال عنه في السراي: إنه «الشرفُ المجسَّم».

وإزاء هذه الأحوال المتقلبة كان الوالد مهموماً إلى درجة كبيرة، وأرسل جواد بك[٣٨] ينصح المتمردين بالتعقُّل، وراح ينتظر ماذا سيحدث.

وجاء جواد بك مضطرباً، وحكى لوالدي ما حدث وبشره بقوله: «لقد بان تأثير ما نقلته إلى المتمردين من قول أفندينا، وانتهى الموضوع»، غير أن المسألة

(٣٨) كان علي جواد بك سكرتير أول المابين، وهو والد «محمد جواد آجيق آلين بك» أحد الشخصيات الممتازة في وزارة الخارجية في العهد الجمهوري (ن).

عادت واشتعلت في اليوم التالي. وتباحث والدي مع المشير أدهم باشا الذي عُيِّن على نظارة الخارجية، وكان قائد حرب اليونان المظفر، وأرسله هو الآخر إلى المتمردين، غير أن ذلك لم يأت بنتيجة أيضاً.

وكان والدي واثقاً أن هذا الأمر سوف يُسفِر عن خلعه عن العرش، وأخبر الصدر الأعظم توفيق باشا عن رغبته في الاستعفاء، وكان يريد أن يتخلَّى عن السلطنة لأخيه رشاد أفندي وقال يومها: «إنني واثق من أنهم لا يريدونني، وإنني مستعد للانسحاب، غير أنه يجب أن يظهر أولاً أنه لا دَخْل لي في هذا الأمر (أي: حادثة ٣١ مارس)». وقد كان يكرر هذه العبارات علينا كلما دخل إلى دائرة الحريم، وخاصة في اليوم الذي جاؤوا فيه بمن يُسمَّى «علي قبولي بك» وهتفوا قائلين: «نريد السلطانَ، ففي هذا اليوم كان مكدراً مَلُولاً، ويشهد الله أنني لم أره منهكاً يائساً طَوال مدة سلطنته إلى هذا الحد، حتى وهو ينزل عن العرش ويذهب إلى سلانيك.

جاء المتمردون بمن يُسمى علي قبولي أمام المابين الهمايوني، وصاح فيهم أبي قائلاً: «اتركوه يا أولاد، أستحلِفكم بالله أن تعفوا عنه لأجلي» وقد سمعتُ هذا منه شخصياً، ومع هذا طعنوه بالسنكي.

وكان المصاحب «شهر الدين آغا» الذي ظل يعمل في خدمة والدي حتى أيامه الأخيرة، قد جاء من قبل إلى استانبول في سفينة هذا الرجل «علي قبولي» ورأى منه العون وحسن الصنيع، فلما شَهِد بعينيه علي قبولي وهم يطعنونه بالسنكي، هَرَع إليه بتأثر شديد، وحاول أن يسعف الرجل المسكين ببعض الماء في فمه، إلا أنهم لم يسمحوا له بذلك، وجرت الحادثة بتمامها أمام عينيه.

ونجد السطور التالية في المقالة التي كتبها العقيد بحري توفيق انجي في «مجلة التاريخ المصورة» في عددها الثامن والستين الصادر في اغسطس ١٩٥٥

نحت عنوان «حادثة علي قبولي في حركة ٣١ مارس الرجعية» ما يلي:

«أراد السلطان عبد الحميد أن يرى علي قبولي بك، ولذلك جاء الرجل بمُفرده إلى الساحة المواجهة للنافذة التي يُطِلُّ منها السلطان، فحياه تحية عسكرية وقورة، فلما رآه السلطان عبد الحميد سيطر عليه الاضطراب، ودفع طربوشه إلى الخلف، واستند بإحدى قدميه على حافة النافذة، وراح يتفحَّصُ علي قبولي بدقة، وفي النهاية أطاح بظهر يده في الهواء مشيراً: «خذوه» أو «اذهب». . .

وهذه السطور من أولها إلى آخرها ملفقة وتجانب الصواب، لأن المتمردين جرجروه وهدَّدوه حتى جاؤوا به أمام المابين الهمايوني، وكان في حالة شبه إغماء، ولم يكن اضطراب والدي لأنه رأى علي قبولي، بل لأنه رآه على هذا الحال الذي يُرثَى له، أما قوله بدفع الطربوش إلى الخلف، فهو كذب وبُهتان، لأنه ليس من عادة والدي أن يعبَث على الإطلاق بطربوشه، وكان يعتبر دفعه إلى الخلف من سوء الأدب، لأن دفع الطربوش إلى الخلف في جمعٍ من الناس هو تصرف يُعَدُّ من سوء الأدب، ليس في نظر والدي فحسب، بل في نظر كل الناس، وقد كان والدي على درجةٍ كبيرة من حُسن الأدب، وتلك حقيقة لا تحتاج إلى مناقشة.

أما عن أمر استناده بإحدى قدميه على النافذة، فهو ادِّعاء كاذب، ولازالت نوافذ المابين باقية لم تُهدَم، وليس هناك سبب على الإطلاق لأن يستَنِد بإحدى قدميه على مكان مرتفع كهذا، ولا يفعل هذه الحركة إلا إنسان يريد أن يَرمِي بنفسه إلى الخارج، وذكر والدي عدة مرات أنه لم يُشِر بيده: أن «خذوه» أو «اذهب»، والشيء الذي سمعناه منه هو قوله: «لقد صحت عليهم: أستحلفكم بالله يا أولاد أن تتركوه، وأن تعفُوا عنه لأجلي، ومع ذلك قَضَوا على الرجل أمام عيني».

وقد ثبت اليوم أن والدي كان إنساناً يحرِص بشدة على عدمِ إراقة الدماء، حتى ولو كان ذلك على حساب عرشه، ولذلك لا أرى داعياً لمزيد من الإفاضة، والله حكمٌ عَدْل، وهو وحده القادر على إظهار الحق والباطل.

كان والـدي في اللحظة التي عاد فيها إلى دائرة الحريم يتصبَّب عرقاً، وارتَخت كتفاه كدراً وحزناً، وأمسك برأسه وقال: «لم يَعُد هناك طريق للخلاص من أجلنا بعد، وقد تمرَّد الجنود وتحولوا إلى انكشارية، يا لَلخسارة!» وهذا هو كل ما عرفته بصفتي ابنة السلطان التي تعيش معه، لقد كان وجهُه يقطر كدراً وحزناً، وكما ذكرت سابقاً إنه لم يكن حزيناً منهكاً حتى يوم أن خُلِع عن العرش، وذهب إلى سلانيك، كما كان في هذه اللحظة.

وها هو أبي منذ ذلك اليوم، لم يعد له ـ ولو مثقال ذرة ـ انشراحُه القديم، وكان يقول: «لقد تحققت أماني أعدائي».

وصار «جيش الحركة» على مقربة من استانبول، وظلَّ والدي يمضي أيامه في الانتظار حتى يوم خلعه، وكنا نحن أيضاً في حالة يُرثى لها، نروح ونغدوا أمام بابه وقد رضينا بقدرنا. وراح يتردَّدُ عليه الباشاوات المخلصون له، ويعرِضون عليه المواجهة بالسلاح، إلا أنه كان يردُّ عليهم بقوله: «لا يجب لأجل شخص واحد أن يذهب ألف شخص، وأن يضرِب الأخ أخاه، ويجب جمع الأسلحة من العسكر وعدم إطلاق النيران، ولا أريد أن تَنزِف أنف رجل واحد، وليفعل المتمردون ما يشاؤون».

في تلك الأثنـاء كانوا يدكُّون «طاش قشله» بالمدافع، وتتردَّد أصداؤها بعنف داخل السراي الذي كان محاصراً هو الآخر، وكان سفير روسيا قد قَدِم إلى المـابين الهمايوني قبل الحصار بقليل وحمل خبراً مضمونه: أنه ينقُل تحيات قيصر الروسيا، وأنه سمع بمرضه، وجاء يعرِف رغبات السلطان حتى تتحقق كلها

دون أن يتعرَّض أحد لشعرة من جسده. . . وأنه ينتظر الأوامر.

ولما عرض جواد بك ذلك الأمر على والدي، فَزِع له وأجابه بقوله: «أترى عرضَ القيصر يا جواد بك؟ لا قدَّر الله لي أن أفعل شيئاً من مثل ذلك، إنني راضٍ بكل مصيبة تأتي على رأسي، ولسوف يكون قبري حيثما وُجِد قبر أجدادي، إنني أفضِّلُ الموت على هذه الإهانة» ثم اتجه إلى جواد بك وقال له: «بلِّغ السفير شكري على تحيات جلالة القيصر، وإنني لست مريضاً كما سمع هو، وبلِّغه أيضاً أنني أشكره على المودة التي أبان عنها».

قام جيش الحركة بمحاصرة السراي، ولما انقطعت صِلتُه بالخارج أصدر والدي أمراً قال فيه: «فليُرفع علمُ التسليم فوق السراي» غير أن أحداً لم يشأ أن يرفع هذا العلم، وفي النهاية قام «جركس محمد علي بك» أحد الياوران بهذه المهمة، ورفع علم التسليم فوق «جوسق التعليمخانه». لقد جاءت آخر أيامنا إذن، وأحاط بنا جيش الحركة من كل طرف.

خَلْع والدي عن العرش
(الثلاثاء ٢٧ نيسان/ إبريل ١٩٠٩م)

بدأت أول أيام شبابي المريرة الحزينة بخَلْع والدي عن العرش، وفاضت الدموع من عيني، مع الأحزان التي شعرت بها، وأصوات المدافع تعكس دويَّها على جدران السراي وتهز زجاج النوافذ بعنف، وكانت أُولى كلماتي: أن تضرَّعت إلى الله عز وجل ودعوته فقلت: «يا إلهي، أشفق بوالدي وهبه الحياة». . . إن العرش والتاج وغيرهما أشياء زائلة، فلم يبق لنا الآن إلا الدعاء بأن يحفظ الله حياته، ويَصُونه من كل شر، ويُمِدَّنا بعونه.

كان الله ملجأنا الوحيد، وكانت قد استقرت بأذهاننا منذ الطفولة تلك

الحادثة الرهيبة التي سمعناها من عُمَّال السراي في خلع وقتل السلطان عبد العزيز، وفي هذه الظروف كان الاحتمال أن تقع مثل هذه المصيبة على رؤوسنا قائماً، وبهذه الأفكار المخيفة اضطربت نفسي، وارتعد جسدي، ورحت أبكي وأنتحب.

وبدأت أصوات الصراخ والصياح تعلو في كل طرف من السراي، وبدأت تسمع بين جنباته أصوات النحيب والأنين والدعاء أن «يشفق الله على أفندينا»، وظَلِلنا محرومين من الهدوء والسكينة منذ حادثة ٣١ مارس، وخاصة منذ أسبوع مضى.. كيف عشنا وكم عانينا؟

وكان كلُّ من في السراي شباباً وشيوخاً موزعين مشتتين بين الغرف والأجنحة، ننتظر في كل ساعة ودقيقة خبر وقوع الكارثة، نبكي ونتساءل ماذا حدث، وماذا سيحدث؟ ننتظر بغير نوم، بغير فراش، بغير طعام، منهكين متعَبين، نضرب الجدران برؤوسنا والدمع يَفيض من عيوننا، نروح ونغدوا أمام باب الغرفة التي يجلِس فيها والدي في دائرة المابين الصغير، حتى لا نتركه وحيداً، وليحدث لنا سوياً ما سيحدث له.

لقد كان يَعُم السراي خوف كبير وظلام حقيقي، إذ انقطع التيار الكهربائي وانطفأت لمبات الغاز حتى المياه قُطِعت هي الأخرى، وكان حراس الليل والبوابون الأرناؤوط الذين خِلْناهم مخلصين لنا والأغوات الخدام والبستانيون وحاملو موائد الطعام، بل آغوات الحريم أنفسهم، قد ذهبوا وتركوا السراي منذ مدة طويلة، ولم يعد فيه أحد إلا النساء، بعضهن يمر بأزمات عصبية، والبعض الآخر أُغمي عليه من الخوف والرعب، وكنا جميعاً تحت الحصار نسمع طلقات النيران من حين لآخر، ويسقط رصاصها على حديقة السراي، فتهزُّنا هذه الأصوات حتى النخاع.

وعلى الرغم من كل هذه الأحوال، كان الوالد هو الأكثر ثباتاً بيننا، فلم يترك وَقاره وسكونه أبداً، يجلس على المنضدة الموجودة في القاعة الصغيرة وقد سلَّم أمره إلى الله، منشغل كعادته بقراءة الكتب والأوراق، وكأنما لا يسمع قطُّ هذا الضجيج وهذا البكاء، ثم ينهض ويطوف أنحاء الغرفة بوجهٍ باسم والمِسبحة بيده، فيمنحنا بذلك الشجاعة والعزاء، ولم نشأ أن ندخل عليه الغرفة حتى لا نُزعِجه، إلا أمي كانت تدخل وتخرج.

وفي تلك الأثناء أرسل والدي عديداً من وثائقه التي كان قد وضعها في إحدى الصناديق إلى الباشكاتب مع رجلين من آغوات الحريم، وهي الوثائق التاريخية التي تُسجِّل خدماته التي قام بها، كما أمر الرجلين بأن يقولا للباشكاتب العبارة التالية:

«لقد استخدمتُ كلًّا من سعيد باشا وكامل باشا بالمناوبة، وحكمتُ الدولة رَغْم قحط الوكلاء في عهدي، ولننظر الآن مَن سيأتي بعدي وكيف سيديرها؟».

وفي لحظة من اللحظات سأل والدي أمي وقال لها: «زوجتي! ماذا يأكل الأولاد منذ عدة إيام؟» فأجابته: «لا تنشَغِل يا أفندينا، فهم لا يبقون دون طعام، إنهم يأكلون ما يَجِدون، وهناك البسكويت وغيره، ولا يَبغون شيئاً إلا صحتكم» فرد عليها بقوله: «زوجتي! كيف يستطيع ساكنو مثل هذا السراي الضخم أن يعيشوا على هذه الأشياء اليَسيرة؟ وما هو ذنب هؤلاء النسوة حتى يُحكَم عليهم بالجوع؟ وكيف يدوم هذا؟ لا بد من حل».

وصاح على المصاحب الثاني جوهر آغا الواقف عند الباب، وأمره أن ينادي الباشكاتب، وقبل أن تمر خمس دقائق جاء جواد بك، فسأله والدي: «أيها الباشكاتب! منذ أسبوع والأولاد والنساء شيوخاً وشباباً يعيشون بلا طعام تقريباً، وما ذنبُ هؤلاء الأبرياء؟ ألا يلزمهم قليل من الخبز؟ ولماذا لا تبحث عن

حل لذلك؟» وأجابه جواد بك غير مكترث: «ماذا عساي أن أفعل؟ إننا لسنا بحال يجعلُنا نفكر فيهم، وليأكلوا ما يجدون، من أين لي أن أجدَ الطعام؟ لقد ذهب الطباخون ولم يَبْقَ أحد في السراي، يمكنني أن آتي ببعض الخبز، يغمسوه بالماء ويأكلوه».

وبناءً على هذا الجواب الذي لم نكن ننتظره حَزِن والدي كثيراً، وحار في أمر الرجل، وشعر آنذاك بانكسار الخاطر الذي يشعُر به الإنسان عندما يتخلّى عنه الناس في الأيام السوداء، وقال له: «هل حُكِم على الأولاد بالجوع؟ وهل انعدمت الإنسانية؟ وهل من الصواب أن نضحّي بألف شخص في سبيل شخص واحد؟ أمعقول هذا؟ لا بد أنكم تستطيعون العثور على حل لذلك؟»، ثم توجَّه إلى القاعة الصغيرة، وبعدها بقليل أرسلوا إلى دائرة الحريم جوالاً من الخبز تم توزيعُه على القلفاوات، أما نحن فقد اكتفينا ببعض البسكويت والقهوة.

وسأل والدي مرة ثانية جوهر آغا عمن بقي في السراي من الأمراء، فأخبره أنه لم يبق إلا عبدُ الرحيم أفندي ونور الدين أفندي، أما الأمراء الأربعة الكبار الآخرين والأخوات الكبيرات فقد ذهبوا إلى بيوتهم، وأجابه والدي: «حسن! عندهم حق» ثم طلب حضور عبد الرحيم أفندي في الحال.

لقد كنا نعلم بخروج الأمراء من السراي، حتى إننا كنا على علم باضطرار برهان الدين أفندي لترك السراي نتيجةً لخوفه مما قيل في حقه من أكاذيب وافتراءات(٣٩)، ومع ذلك لم نشأ أن نذكر شيئاً لوالدي.

ووصل المسكين عبد الرحيم أفندي وهو يبكي، وراحا يتبادلان القُبلات ويبكيان معاً، وقال له والدي: «بني! إنك لازلت في السن الذي يُعَدُّ سن

(٣٩) هناك من يقولون: إن برهان الدين أفندي هو المحرض لحادثة (٣١ مارس/ ١٣ إبريل) بتوزيعه النقود على العساكر، ولهذا السبب دُعي للاستجواب.

الطفولة، ولا تتحمَّل مثل هذه المصائب، وهذا ظلم لك، هيا ودِّعني أنت الآخر، واذهب مثل إخوتك الكبار إلى أحد بيوت أخواتك، إنني لا أريد أن توجد وسط المخاطر، بل وخذ معك أيضاً أخواتك الثلاث الموجودات هنا، فهؤلاء أيضاً لا يجب أن يَبقَيْن هنا»، غير أن أخي أجابه بشجاعة وقال له: «لا يا أبي! لن أتركك وأذهب، إنني لا أخشى المخاطر، إنني لست بمُفارِقك، وما يحدُث لك سيحدث لي، لن أذهب!».

أما نحن الأخوات الثلاث فقد كنا مُصِرَّات على عدم ترك والدنا، واستعدادنا لمواجهة كل الأخطار حتى ولو ذهب أخونا، وهذا أمر كنا قد قرَّرناه فيما بيننا من مدة، ومنذ ذلك اليوم اشترك عبد الرحيم أفندي هو الآخر معنا، وبدأ يتَّخذ من الأريكة الصغيرة في إحدى الحجرات الموجودة ناحية السلاملك موضعاً لنومه وقيامه. وكان عبد الرحيم أفندي آنذاك في الرابعة عشر من عمره ونور الدين أفندي في السابعة من عمره، أما عابد أفندي فكان في الرابعة من عمره.

وكان والدي قد أمر بالنسبة لإخوتي الصغار أن يظلوا بجانب أمهاتهم ولا يفترقوا عنهن.

ومرة أخرى سأل والدي فيما بعد جوهر آغا عمن يوجدُ من الرجال في السلاملك وفي غرفة المناوبة، وأجابه بأن الموجودين عدا الباشكاتب هم: عامل السجادة عزت، وعامل القهوة علي، ومن المصاحبين عدا جوهر آغا نفسه: المصاحب الرابع سليم، والمصاحب شهر الدين، وشهاب الدين آغا، ومن الكتبة: علي محسن بك، وجركس محمد باشا(٤٠). وهزَّ والدي رأسه مبتسماً وقال: «حسن».

---

(٤٠) هو أخ الزوجة «بيدار قادين أفندي».

وبـدأت مدافـعُ اعتلاء السلطان الجديد[41] العرش تدوي، وجاء اليوم الرهيب وحلَّت الساعة المنتظرة، وكنا كما ذكرت سابقاً نعيش في خوف، نبكي ونتـوجـه إلى الله بالـدعـاء. ورحنـا جميعاً أولاد وزوجات نجتمع في «القاعة الكبرى»، وكان هو يطوف بيننا بثبات وتوكُّل، وقال لنا عندها: «لقد وَجَد التقدير الإلهي موضعـه، والحكم لله» ولم نمسك أنفسنا وانفجرنا في البكاء، أما هو فكان على العكس يُوصِينا بالثبات، ويحاول التخفيف عنا.

وفي تلك اللحظة ظهر جوهر آغا من الباب وقال: «إن الباشكاتب جواد بك يريد رؤية أفندينا» وقال والدي: «فليحضر»، ثم أشار علينا بالانتقال إلى القاعة الصغرى، وكان الباب مفتوحاً على مِصراعيه ووقفنا أمامه، ودخل جواد بك وأخبر بأن هيئة من «المجلس الوطني» وصلت، فقال والدي: «فليتفَضَّلوا»، فدخلت الهيئة يتقدمها الباشكاتب.

وكانت تضم أربعة أشخاص، وقفوا أمام والدي وحياه كل منهم وردَّ أبي التحية، وكان القادمون هم: أسعد طوبتاني الأرناؤوطي، وعارف حكمت باشا الآظ، والأرمني آرام أفندي، واليهودي قراصو أفندي.

وبادر أسعد طوبتاني الواقف في مقدمتهم بقوله: «لقد عَزَلتك الأمة».

ورد عليه والـدي بصـوته الجهوري فقال بثبات: «أعتقد أنكم تريدون القول: إنها خلعتني، حسن! ما هو السبب الذي يَستَنِدون عليه».

وفي تلك اللحـظة راح الشخص الثاني، وهو الذي علمنا فيما بعد أنه عارف حكمت باشا يقرأ صورة الفتوى، وكانت تبدأ على النحو التالي: «إذا قام زيد وهـو إمـامٌ للمسلمين، فأبطل بعض المسائل المهمة الشرعية من الكتب

---

(٤١) اعتلاء السلطان رشاد العرش (ن).

الشرعية، ومنع وحرق الكتب المذكورة. . .».

وما أن قرأ الرجل كلمات: «أحرق الكتب الشرعية» حتى قال والدي بصوت مرتفع: «أي كتب شرعية أحرقتُ؟ حسبُنا الله»، وراح يَنصِت للفتوى حتى نهايتها، فلما انتهت سأل عارف حكمت قائلاً: «من أي منصب صدَر هذا القرار؟» فأجابه: «من المجلس الوطني»، وقال والدي بتعجب: «أهكذا؟، ومن يترأَّسُ هذا المجلس؟»، ولما سمع منه أن رئيس المجلس هو رئيس الأعيان سعيد باشا صاح بدهشة: «سعيد باشا. . . أهكذا؟».

ثم واصَل حديثه فقال: «لقد عملتُ ثلاثة وثلاثين عاماً من أجل الأمة والدولة، ومن أجل سلامة البلاد، وخدمت قدر طاقتي. إنني حاكم يحاكِمني الله ورسوله، إنني أسلِّمكم البلاد بمثل ما وجدتها عليه، ولم أفرِّط أبداً في شبر من أراضيها لأحد، وأترك للمولى عز وجل تقدير خدماتي، وما حيلتي إن شاء الله أن يدع لأعدائي فرصة إسدال ستار أسود على كل خدماتي، والعجيب أنهم وُفِّقوا أيضاً في ذلك».

وهنا تقدم والدي بقدمه اليمنى خطوة إلى الإمام وقال: «هَزَم الله أعدائي»، فرددنا على الفور بصوت واحد: «آمين»، وارتفع الصدى داخل القاعة وشاركنا في هذه الكلمة أصوات الرجال أيضاً، ولم نفهم ممن أتت، أهي من موظفي السراي؟ أم من أعضاء الهيئة الواقفين أمام والدي؟

وعاد والدي يتحدَّث إلى عارف حكمت باشا فقال له: «لي رجاء منكم أن تُخبِروا المسؤولين وأخي رغبتي في أن يخصصوا لي «سراي جراغان»، إذ من اليسير الانتقال من هنا إلى هناك، أمضي فيه أواخر أيامي مع العبادة وليس لي رغبة أخرى»، ثم حيَّاهم وراح يمضي بخطوات وقورة ثابتة نحو القاعة الصغرى التي نوجد فيها، وانصرفت الهيئة هي الأخرى.

وكان هناك من تحدَّثوا وقالوا وكأنما رأوا والدي أثناء حديثه هذا «بأنه كان يَضَع يديه في جيبي معطفه» في حين أن والدي كان يقف وِقفة رسمية، وقد وضع يديه إلى جانبه، ولم يحدث أن استقبل أحداً ويداه في جيبه حتى نحن، فلم تكن تربيتُه ولا حتى التربية التركية تسمح باستقبال أحدٍ بهذا الشكل، ومما يُؤسَف له أن الأمير عبد المجيد أفندي، أي: المرحوم آخر خليفة، كان يحتفظ بلوحة لوالدي تصور هذا الحوار والوالد يَضَعُ يديه في جيبه، والحق أن عدم تفكير عبد المجيد أفندي - وهو رجل ذكي - في أن حاكماً مثل والدي يمكن أن يستقبل هيئةً ويداه في جيبه، شيء يبعث على الحَيْرة، ولا أرى داعياً للإطناب.

وتوترت أعصاب أخي المسكين عبد الرحيم أفندي إزاء هذه المعاملة التي يتعرَّضُ لها والدي، ووضع يديه على وجهه وراح يجهش بالبكاء، حتى خانته قدماه فسَقَط على الأرض، وما أن دخل والدي القاعة حتى رآه فصاح على أمه «بيوسته قادين»: «أن سَقَط ولدك اهتمي بأمره» فهرعت أمه ورفعته عن الأرض.

وكانوا قد أرسلوا من الخارج زجاجة شراب مقو تحسباً منهم أن والدي قد يُغمَى عليه، ولا بد أن هؤلاء هم الذين أرسلوها، وعلى كل حال كان هناك خصوم كثيرون يعتقدون ذلك في والدي، في حين أنه كان على درجة عالية من الثبات، وعرضنا عليه الزجاجة فقال: «اتركوها هناك، فلتَبْقَ كما هي».

بعد هذه الحادثة راح والدي يحكي لنا عن أعضاء الهيئة فقال: «إن الرجل الذي في مقدمتهم هو أسعد طوبتاني، الذي رأى الكثير من نعمتي عليه، والثاني هو عارف حكمت ربيب آغا البنات عبد الغني، وهو ناكر الجميل الذي وضعتُه تحت حمايتي، ورقَّيته حتى رتبة الفريق، أما الاثنان الآخران فهما قراصو اليهودي وآرام الأرمني. إن جزاءَ ثلاثة وثلاثين عاماً من الخدمة هو أن يُبلِّغَني هؤلاء الرجال باسم الأمة قرار خلعي، وهم الذين لا أشك لحظة في عدائهم

للدولــة والأمــة، ولا بأس، إن أمتي بريئـة، والـذي نَظَّم هؤلاء هم أعـدائي الشخصيون، ولكن الله حكم عدل، ولا بد أن تظهر الحقيقة يوماً، والمكتوب لا فِرار منه».

ثم استـدار والـدي إلينا وقال: «هيا يا أولاد، كفاكم حزناً، اذهَبوا إلى حجراتكم استريحوا بعض الشيء، وحاولوا أن تَثبتُوا مثلي، فربما يحدُث أن يخرجونا من هنا غداً أو بعد غد، إن عيونكم ذابلة، هيا توقَّفوا عن البكاء، إن الله كريم» وعلى الفور قَبَّلنا يده وخرجنا من الحجرة.

لم أصعد إلى دائرتي منذ أسبوع مضى، ومررت من بين قلفاوات السراي وهن يبكين، ووصلت إلى سلم الـدائرة وهناك وجدت مرضعتي العجوز التي وُلِـدت وكبرت على يديها، جثت على الأرض تبكي عند الدرجة الأخيرة من السلـم، وكانت تنتظرني، فراحت تروِّحُ عن أحزاني وتقول لي: «ما هذه الحالة التي أنت عليها؟ استريحي قليلاً ولا تُهلِكي نفسك إلى هذا الحد». ثم أخذتني إلى غرفتي فتمدَّدت على الفراش، وعلى الفور غَلَت فنجاناً من القهوة وناولتني إياه، ولكن اليوم لَم يكن يوم راحـة، فقـد كانت تتـوارد على خاطري بشعور حدسي كلُّ الأفكـار السيئة، فكان قلبي يَجفِلُ عندما تراودني فكرة «أن هناك أشياء كثيرة ستحدث»، وتهلك نفسي كأنما أرقد على فراش من الشوك.

وفي تلك الأثناء بدأت تعلو أصوات الصياح والعويل من «جناح السلطان» المـوجـود أسفـل، فقفزتُ على الفور وهرعت عند رأس السلم أسألهم: ماذا يحـدث؟ فأجـابتني الفتيات الـواقفـات أسفل السلم: «يا إلهي! يقال: إنهم سيأخذون أفندينا»، وسقط في يدي وراح جسدي يرتعد: «أدركيني يا مرضعتي! لا أستطيع أن أقف مكتوفة اليدين، يقولون: إنهم سيأخذون والدي، وسأذهب أنا أيضاً».

وكـانت مرضعتي امـرأة محنكـة شهـدت أحـداث السلطان عبد العزيز فنصحتني بقولها: «لا تذهبي على هذه الحال، وليس أقل من أن تضعي هذا الـوشـاح على رأسك، وتلبَسي هذا المعطف»، ثم أعطتني الوشاح وألبستني المعـطف، وأعطتني وِشاحاً ومعطفاً آخرين وقالت: «احمليهما إلى أمك» ثم تعانقنا وقلت لها وأنا أقفز درجات السلم: «مرضعتي، سامِحيني في حقك»، وعندما نظرتُ إلى الخلف وجدتُ هذه المرأة الحنونة قد سقطت على السلم، غير أني تركتها وتوجهت ناحية دائرة والدي مباشرة، وكانت القلفاوات المنتظرات في الأجنحـة وفي كل طرف يصرخن من خلفي شابات ومسنات: «أنت أيضاً تذهبين؟ لمن تتركينا؟ ومَنْ لنا غيرك؟» والتَفَفْن حولي يُرِدن عناقي، وتخلَّصت من أيديهن بصعوبة وصحت عليهن: «سامِحنني في حقوقكن، سأذهب مع والدي».

وفي النهاية وجدت نفسي داخل دائرة الوالد، وأول ما لفت نظري هناك أمي واقفة أمام الباب وقد امتقع لونُها، فركضت نحوها وسألتها: «ماذا هناك وحقِّ الله، وماذا يصير إليه حالنا؟» فأجابتني: «ابنتي، إنهم يريدون نقل والدك إلى سلانيك، لقد جاء جواد بك وأخبرنا بذلك، وأفندينا الآن يتحدَّث مع الهيئة».

ورحنا ننتظر عند الباب نفكِّرُ في عاقبة أمرنا، ولم يكن أحد قد رأى مثل هذه الحال ولا سَمِع بها حتى الساعة، لقد عاش هنا كلُّ من خُلِع عن العرش من أجدادنا، وهنا ماتوا، حتى من قتل منهم أيضاً، إلا أننا لم نسمع أن أحداً منهم نُقِل إلى ولاية من الولايات... لقد توقَّفت عقولنا تقريباً، ودخل والدي في تلك اللحظة، وكان يُصِرُّ على قوله: «لا، لن أذهب وليفعلوا بي ما يشاؤون هنا!» وجاء جواد بك إلى الباب وأشار على والدي أن «لا تعانِدوا وارفقوا بأولادكم وعيالكم، إن وظيفتي تنتهي الآن وسأمضي أنا الآخر، فهيا أسرعوا إنهم ينتظرون جوابكم».

وانتقل والدي مرة أخرى إلى القاعة، وإني لعاجزة الآن عن تحديد المدة التي مَكَثها هناك، وقد دخل إلينا مرة ثانية، وحكى لنا ما قالته الهيئة، وكانت أربعة أشخاص عرفنا من هم بعد لحظات: أحدهم حسني باشا، والثاني هادي باشا[٤٢]، والثالث غالب بك، والرابع فتحي بك «فتحي أوقيار».

قال أبي للهيئة: «إنني أريد الموت هنا، فهُنا قبر أجدادي، وإن نقلكم لي يخالف الدستور» وأجابه فتحي بك بقوله: «إن الجيش سيتكفَّلُ بتأمين حياتكم ويعمل على راحتكم، ولا تضطرونا لاستعمال القوة»، أما حسني باشا فاقترح اقتراحاً قال فيه: «فلنركب العربة سوياً، وإذا كنتم تشعرون بعدم الأمان خذوا معكم مسدساً، ولنجلس نحن في مواجهتكم فإذا رأيتم منا حركةً أطلقوا علينا النار» وسأله والدي: «يا باشا! إذا حدث وأطلقتُ عليكم النار فمن سيُطلِقها علي؟».

وأضاف والدي يقول: «يقولون: إن الدول أرسلت سفنها وهي تنتظر عند «جناق قلعه»، وإنه إذا ظهرت أحداث في الداخل سيحتلون البلاد، يقولون هذا ولا يخجلون من أني سأكون أنا المسؤول أمام التاريخ. وفي تلك اللحظات وَرَدت على خاطري فكرة مثل البرق، فقلت لهم: إن يسمحوا بإرسالي مع أولادي وعائلتي أذهب، والآن هم انصرفوا لعرض الفكرة».

وهنا سأل والدي بنظرة حزن ومرارة فقال: «أخَيْراً ما فعلتُ؟ هل ستصحبونني؟» فأجبناه جميعاً بصوت واحد: «نعم يا أفندينا! لَنِعم ما فعلتم، أينما تذهبون بالقطع نحن معكم» وشكرنا الوالد وبدأ يروح ويغدو داخل الغرفة ثم قال: «إن القرار الذي سيتخذونه سوف يحدِّدُ مصائرنا».

ورضينا جميعاً بما قُدِّر لنا، والشيء الوحيد الذي كنا نخشاه أن يفرِّقوا بيننا

(٤٢) هادي باشا هو أحد أقرباء محمود شوكت باشا، وأحد الذين وقعوا على معاهدة سيفر.

وبينه ويأخذوه وحيداً، وعندئذ ماذا كان يحدث؟ كنا نفكر في هذا فترتَعِدُ أوصالنا ونبكي بألم ومرارة.

وفي تلك الأثناء جَاء جواد بك إلى الباب وقال: «لقد وصل الإذن، وسمحوا بالخروج على الفور» وبادرت أمي بقولها: «أفندينا! نأخذ معنا بعض الملابس وغيرها، أليس ممكناً؟» فصاح عليها جواد بك ومنعها وقال: «لا، ليس ممكناً! الوقت ضيق والمكان الذي تذهبون إليه فيه كل شيء، إن المدافع سوف تضرب فوق رؤوسكم، فاخرُجوا بأسرع ما يمكن، وهذا أفضل»، وحارت أمي في أمرها، وقال والدي للخزينة دار «كلشن» التي كانت على أُهبة الاستعداد للذهاب معنا: «من فضلِك يا بنيتي، أسعفيني بكوب من الماء» فسارعت كلشن وأحضرت كوب الماء، فشربه والدي عن آخره ثم دعا لها(٤٣)، وكان هذا الدعاء هو آخر نفقة نالتها من السراي، وأعتقد أن الساعة آنذاك كانت تشير إلى السابعة مساءً.

بعد أن شرب والدي الماء التفت إلينا وقال: «هيا يا أولادي، هل أنتم مستعدون؟ فلنخرج باسم الله، وكان الله في عوننا وعليه توكّلنا» وبدأ يسير، بينما التقطت أمي الحقيبة الموضوعة على المِنضَدة في القاعة الصغرى، وكان بها نسخة من القرآن الكريم كان يحمِلها أبي معه أينما ذهب، وحَرِصنا على أن نكون جميعاً مجموعة واحدة بقدر الإمكان، والتففنا حول الوالد، فإذا بأمي ترمِي بنفسها بيننا وتقول: «قف يا أفندينا! سوف أنزل أنا أولاً وأركب العربة» وبالفعل تقدمتنا ودخلت إلى العربة، ثم دخل والدي وتلاه عبد الرحيم أفندي، ثم دخلت صالحة ناجية هانم والدة عابد أفندي أصغر إخوتنا وكانت تحتَضِنُ

---

(٤٣) كلشن هانم، تلك السيدة المخلصة، كانت تنصت لي وأنا أقرأ عليها هذا والدموع تنهمر من عينيها. ولمن تدوم هذه الدنيا الفانية؟ توفيت فجأة يوم الأربعاء ١٣ يوليه ١٩٥٥م وتركتنا في حزن عميق، تغمدها الله بواسع رحمته.

صغيرها، وقد نام المسكين لا خُبْرَ عنده عن الدنيا. وتحركت العربة بهم في الحال.

وجـاء الدور علينا، وكان يسيطر على السراي ظلام مخيف، ومجموعة غريبة من الناس يقفون بقلانس بيضاء عند أول السلم وأمام العربات.. من أين ظهر لنا هؤلاء المرعبون؟ وهل إلى الجبال سيخطفوننا؟ لقد كنا نمُرُّ من بينهم وأوصالنا ترتعد من الخوف، وكان جواد بك هو الآخر يقف هناك، وركبت أنا والأميرة شادية والأميرة رفيعـة وبيوستـه هانم أم عبد الرحيم أفندي وسازكار أم الأميرة رفيعة العربةَ الثانية، وكنا نحن الأخوات الثلاث أكثر الراكبات شباباً.. إلى أين نمضي! إلى الموت؟! إلى السجن؟ وما هو ذنبنا؟ يا لنا من أولاد تعساء!

ورأينا عزت أفندي عامل السجادة والعربة تخرج من الباب يُحيِّينا ويمسَح دمـوع عينيه بمنديل بيده، وكانت العربة تَجري وكأنها تطير، وكنا نتعقَّب من نوافذها عربة الوالد بأعيننا.

وكنا في حالة من العصبية والإنهاك، وأُغمي على المسكينة بيوسته هانم، ولم يكن لدينا حتى الكولونيا لإفاقتها، وكانت سازكار هانم تحاول ذلك وتهزُّها وتصيح عليها: «انهضي يا أختي، أفيقي». وهكذا نزلنا «مطلع يلدز» ورحنا نمر من شوارع استانبول التي لم نَر فيها أثراً للإنسان، ونترك فيها على طوال الطريق دموع الوداع الأليم.

وفي النهـاية وصلنا إلى «سيركجي» وكانت عربة الوالد قد وصلت قبلنا وتوقَّفت هناك، وكان هو على وشك النزول، وما أن توقفت عربتنا حتى قَفَزنا منها ورحنا نركض نحو والدي والتفَفْنا حوله. وأود قبل اجتياز هذه النقطة أن أضيف: أن والدي لم يكن معه حتى عصاه، وكان بعض العساكر والضباط يسيرون معنا إلى أن وصلنا القطار، وبدأ والدي يصعَد سلمه بوقار وثبات، ومن خلفه صعِدت

أمي، ثم صعدنا نحن، وكانت عربة القطار ذات صالون، ولحق بنا النساء اللائي كن في العربة الثالثة كما وصل الآغوات المصاحبون، ولم نكن نعرف من سيأتي معنا إلا في تلك اللحظة، إذ لم تستطع زوجات والدي اللائي لم يتمكّن من المجيء العبور إلى ناحيتنا، نظراً لأن العساكر كانوا قد استولوا على دائرة المابين الصغير، وعلى الدائرة المقابلة في السراي، وأغلقوا بالأقفال أبواب الحريم، أما المسكين نور الدين أفندي فقد ضَيَّع طربوشه وفكر بعقول الأطفال أنه لن يستطيع الخروج إلى والدي بغير الطربوش، ولم يتمكّن وهو يبحث عنه من الوصول إلينا. . هذا ما حكاه لنا بنفسه فيما بعد.

وما أن رَكِبنا القطار حتى أغلقوا علينا الأبواب بالأقفال، وكان والدي يَقِفُ على قدميه وسط الصالون، ثم سأل جوهر آغا عمن جاء من عمال السراي، فأخبره أن الذين جاؤوا هم: سليم آغا، وشهر الدين آغا، وجركس محمد باشا، وعامل القهوة علي أفندي، ومن الكتبة: علي محسن بك، ومن الحريم جاء عدانا في العربة الثالثة: فاطمة بسند هانم أم المرحومة الأميرة خديجة، والخزينة دار الثانية زلفت، والخزينة دار كلشن، وملك جيهان، ونورستان.

وتحرك الإكسبريس وراح يمضي بأقصى سرعته، وكانت هناك مقصورة صغيرة دخلها والدي، أما نحن فقد تفرَّقنا في الصالون بغير انتظام، واضطر البعض منا أن يجلس حتى على الأرض، وأخذ منا الخوف والقلق كلَّ مأخذ، وكنا نتوجَّس خيفة كلما توقَّف القطار في إحدى المحطات، ونسأل بعضنا البعض: «ماذا حدث؟».

وأذكر الآن أن مظاهرات حدثت في بعض المحطات ورَمَوا علينا الحجارة في إحدى هذه المظاهرات، ولهذا السبب أسدَلْنا ستائر النوافذ، حتى وصلنا سلانيك في ساعة أعجزُ عن تحديدها الآن، وأعتقد أنها كانت العاشرة من الليلة

التالية. لم يتوقف القطار في محطة المدينة وتوقف في مكان خلاء بعيداً عنها، وأخبروا والدي أننا وصلنا، وأن هذا المكان هو محطة النزول.

وكنت أثناء الرحلة أشهد بين الحين والآخر مفتش القطار ـ وهو شاب فرنسي أشقر ـ يدخُل ثم يلقي نظرة على الماكينات، وكان المصاحبون الذين يدخلون معه ينادونه باسم «مسيو موريس»، وهذا الشاب كان يقفُ عند سُلَّم القطار، وكان مكان النزول عالياً كثيراً، حتى إنه لم يكن هناك غير القفز، وجاء بعض الضباط واصطفوا هناك وراحوا ينظرون إلينا، ولما جاء والدي إلى السلم نادَى على الشاب مفتش القطار، ورجاه أن يُمسِك بيده، وهمَّ موريس على الفور وأمسك بيديه الاثنتين معاً وساعده على القفز إلى أسفل، فشكره الوالد، ثم عاد الشاب ليساعِدَنا نحن الآخرين في النزول، وشكرناه جميعاً.

ثم رحنا نصعد طريقاً مظلماً حتى وصلنا المكان الذي تَنتَظِرُ فيه العربات، فبدأنا نركبها بنفس الشكل الذي كان عند خروجنا من السراي، وتحرَّكت بنا، وكان عساكر الخيَّالة يسيرون على الجانبين، وبعد مسيرة نصف ساعة وصلنا «قصر علاتيني»، ولم يكن والدي قد دَخَّن سيجارة منذ خروجه من السراي، ولهذا السبب ضاقَت نفسه، وصاح على أحد العساكر الخيالة الذين يسيرون إلى جانبنا: «هلا أعطيتني سيجارة يا ابنَ بلدي؟» وسَعِد كثيراً للسيجارة التي أخذها منه.

كنا أربعاً وعشرين شخصاً نصحب والدي إلى سلانيك، وأُقدِّم هنا قائمة بأسمائهم ذكرى للتاريخ:

حريمـــه:

١ ـ مشفقة هانم (باش إقبال).
٢ ـ سازكار هانم (الإقبال الثانية).

٣ ـ بيوسته هانم (الإقبال الثالثة) .
٤ ـ فاطمة بسند هانم (الإقبال الرابعة) .
٥ ـ صالحة ناجية هانم (الإقبال السادسة) .

بنـــاته :

٦ ـ الأميرة شادية .
٧ ـ أنا (الأميرة عائشة) .
٨ ـ الأميرة رفيعة .

أبنـــاؤه :

٩ ـ عبد الرحيم أفندي .
١٠ ـ عابد أفندي .

الخزينة دارات :

١١ ـ زلفت (خزينة دار ثانية) .
١٢ ـ كلشن (خزينة دار) .
١٣ ـ ملك جيهان (خزينة دار) .
١٤ ـ نورستان (خزينة دار) .

المصاحبـــون :

١٥ ـ جوهر آغا (مصاحب ثاني) .
١٦ ـ سليم آغا (مصاحب رابع) .
١٧ ـ شهر الدين آغا (مصاحب) .

العمـــال :

١٨ ـ جركس محمد باشا (أخ الزوجة بيدار) .

١٩ ـ علي محسن (كاتب).

٢٠ ـ علي أفندي (عامل القهوة).

الخدمـــة:

٢١ ـ صدقي (كلارجي).

٢٢ ـ حقي (كلارجي).

٢٣ ـ ولي بابا (طباخ).

٢٤ ـ مصطفى (طباخ).

وهؤلاء الأربعة في آخر المجموعة كان الضباط قد أتوا بهم.

لقد مرَّت السنين، غير أن الآثار التي خلَّفتها هذه الأيام الأليمة في فؤادي لازالت باقية.

□□□□□

القسم الرابع

تسعة شهور من حياتي

داخل قصر علاتيني في سالانيك

دخولنا قصر علاتيني

كانت مصابيح الغاز في حديقة قصر علاتيني مشتعلة والأضواء رائعة، واقتربت عربة الوالد من السلم الحجري الضخم، ثم أعقبتها عرباتنا، فلما نزل الوالد من العربة شاهدنا هناك ضابطاً شابّاً يقف أعلى السلم، وعلمنا فيما بعد أنه فتحي بك (فتحي أوقيار)، وأنه جاء معنا قائداً للحرس الخاص،فحيّى والدي باحترام، فلما تحدَّثا قليلاً ذكر أنه صحبنا منذ خروجنا حتى هذا المكان.

وتقـدَّم الوالد، وسرنا نحن من خلفه، ودخلنا من باب القصر، فوجدنا أنفسنا في قاعة كبيرة، وعلى الفور أغلقت الأبواب من خلفنا، وأدركنا في تلك اللحظة أننا افترقنا عن العالم، ودخلنا عالماً جديداً، فكنا جميعاً في حالة من الحزن والاحتداد، ولا أحد غيرنا في السراي، فرُحْنا نتلفَّت بدهشة ونتطلَّع إلى بعضنا البعض وسط تلك القاعة الضخمة الفارغة؛ والآن ماذا سنفعل؟ وماذا سيحدث؟ وكيف ستكون حياتُنا في هذا المنزل؟ وما هو هذا الوضع الذي لم نشهَدْه ولم يخطر ببالنا وخيالنا؟

وفهمنا بعد أيام التعب والكوارث والاضطراب والمخاطرة الكثيرة التي مَرَّت بنا أننا صرنا مساجين في هذا المكان، فقد أُغلقت النوافذ بقطع ضخمة من الخشب، وانقطعت صلتنا بالخارج.. في هذا المكان سوف نعيش وربما نموتُ أيضاً، ومع ذلك كنا مضطرين لاستجماع قُوانا وعدم الإفصاح عن أحزاننا

أمام الوالد، ومادمنا لأجل سلامته قد ألقينا بأنفسنا لهذه المهالك، فمن الواجب علينا أن لا نَبخَلَ عليه بحبنا وعطفنا، إن الدَّيْن الذي في أعناقنا له هو أن نعمل بكل ما في وُسعنا على راحته، والوفاء له بحق البُنُوَّة، وقد جئنا حتى هذا المكان وكلنا عزم وإصرار على الوقوف إلى جانبه، ودفع البلاء عنه ما أمكن، وتقديم كل أنواع التضحيات.

ولم نكن واثِقين بعد كل ذلك أنه نجا بحياته وهي أغلى شيء بالنسبة لنا، ومن يعلم بعد ذلك أيضاً ماذا يمكن أن يحدث! لقد فَقَد في لحظة واحدة عرشه وتاجه وماله وملكه، وكنا نحن تسليته الوحيدة التي بَقِيت له. لقد عشنا تحت ظلّه حتى اليوم، ونَعِمنا بخيره في سيادة السلطنة وأُبَّهتِها.. لقد كان حتى الأمس سلطاناً قبَّلنا يده وذيلَ ثوبه، أما اليوم فلم يعد في يده شيء من مثل ذلك، غير أنه بالنسبة لنا غالٍ بقدر غلاء الروح، إنه سبب حياتنا، ووالدنا الذي نعظِّمه أكثر من ذي قبل.. ورحنا نلتَفُّ حوله وهو يجلس على أحد مقعدين في وسط القاعة الكبيرة وقد غَرِق في التفكير حزيناً جزعاً، فقلنا له: «إنكم متعبون، ويجب أن تستريحوا، اختاروا إحدى هذه الغرف، ونحن نُعِدُّها لكم على الفور».

ونهض على قدميه وقال: «لست أدري ماذا نفعل؟» ثم التفت إلينا وسأل: «أنتم ماذا ستفعلون؟» فأجبناه: «أفندينا! لا تشغَلوا بالكم، فنحن واجدون حلاًّ لذلك» قلنا هذا، والحقيقة أننا لم نكن نعلم ماذا سنفعل.

وسار والدي نحو إحدى الغرف في الطرف الأيسر، فجال فيها بنظره وقال: «هذه الغرفة مناسبة» ثم التفت إلينا ثانية: «وأنتم ماذا ستفعلون؟» فأشرنا إلى الغرفة المقابلة لها وقلنا: «هذه تكفينا يا أفندينا».

وكان يوجد في الجناح عدا مائدة طعام ضخمة مقعدان، تكاتفنا جميعاً وسحبناهما إلى الغرفة التي اختارَها الوالد، وجعلناهما ملتصقين أحدهما بالآخر

حتى يَصلحا لنومه، وقلنا له: «هيا يا أفندينا يمكنكم الاستراحة الآن»، غير أن الأمـر لم يَنتَـهِ عنـد هذا الحد، إذ وَضَح لنا عِياناً أنه لا يوجد أي شيء على الإطـلاق، وأننـا داخـل فراغ، وجاء على عقل «كلشن» أنه ربما توجد بعض الأشياء في الطابق العلوي، ولكن كيف السبيل إليه؟ إن الطابق الذي نحن فيه مضاء بمصابيح الغاز، بينما أعلى السلم مظلم.

ورحنـا نبحث عن ماءٍ نغسل به أيدينا من غبار القطار، ولم يكن هناك صابون، ويلزمنا بعض الشموع حتى نصعد إلى الطابق العلوي فطَرقنا الباب، وصحنا على المصاحبين وطلبنا ما يلزمنا، فذهبوا وأخبروا فتحي بك، وإذ به يسارع بإرسال أسطال الماء والشموع والصابون.

وبعـدهـا بقليل أرسـل حسني باشـا الـطعام، ولم نكن منذ خرجنا من استانبول قد وَضَعنا لُقمة في أفواهنا، ونحن في الأصل لم نكن قد تناولنا طعاماً كافياً خلال الأسبوع الأخير الذي قضيناه في استانبول، ولم يساعدنا على تحمل ذلـك إلا قوة الشباب. وكان الطعام الذي أرسله حسني باشا عبارة عن الخبز واللحم البارد و«الدندرمة»، غير أن أبي لم يأكل شيئاً، وطلب شيئاً من الزبادي والمياه المعدنية.

ولم يكن هناك حتى الشوك والملاعق والأكواب، فأكلنا اللحم بالأيدي، وحاولنا أن نأكل «الدندرمة» بنفس الشكل. ذلك هو الشباب... كنا نفعل ذلك ونضحك على حالنا، فلما شبعنا وأزحنا عنا حرارة الجوع غَسلنا أيدينا ووجوهنا بالصابون، وإستخدمنا أحد القمصان الذي شقته إحدى البنات منشفة لأيدينا، وبدأنا نستردُّ وَعْينا بعض الشيء، فأخذت كل واحدة منا شمعة في يدها، وفكرنا في الصعود ثُلاث أو رُباع، وأن يظل البعض منا أسفل، فصعدنا وبدأنا نطوف داخـل الغـرف، وإذا بنـا نجـد في إحداها سريراً من الحديد وبعض الأشياء

الصغيرة المنسية مثل المناشف والأغطية وغيرها، كما عثرنا أيضاً على بعض المقاعد فأنزلناها جميعاً إلى أسفل، وحملنا السرير إلى غرفة الوالد.

وفي تلك الأثناء جاءنا فتحي بك ببعض الألحفة والوسائد من أحد الفنادق، وأرسلها إلينا مع الآغوات، وكانت أشياء غاية في القذارة إلى حد أعجز عن وصفه، ومع هذا اخترنا أنظف هذه الأشياء وجعلناها لوالدي، وأعددنا له الفراش على الفور، أما الأشياء الباقية فقد تقاسمناه فيما بيننا.

وكان عابد أفندي الطفل المسكين مريضاً بعض الشيء بسبب ظهور أسنانه، وظلَّ نائماً على صدر أمه منذ خرجنا من السراي وطوال الرحلة، وكان باب العربة مكسوراً، وخوفاً من أن ينفتح هذا الباب فجأة والعربة مسرعة، كانت أمُّه المسكينة تشد حلقة الباب بإصبعها طوال الطريق، وتضم ابنَها إلى صدرها من ناحية أخرى، فلما هَمَّت بالنزول من العربة وجدت إصبعها قد انتفخ وتخدَّر داخل الحلقة، واستطاعت بمساعدة أمي أن تخرجه بصعوبة من هذه الحلقة، وكانت لاتزال حتى هذه اللحظة تضع ابنها على صدرها، بينما أخَذ الإعياء منها كلَّ مأخذ، وكنا قد وجدنا في الطابق العلوي مقعداً من طراز «برجير» أخذته الأم المسكينة وأنامت عليه الطفل، وكان لايزال ذلك البريء غارقاً في نومه، لا عِلْم له بما يجري في الدنيا.

لم يكن داخل هذا المنزل الضخم قطعة من بساط أو كليم، فجعلنا نلف أنفسنا بالألحفة وننام على أرض المنزل الخشبية الخشنة، وكانت كل واحدة منا تنام خلف باب أو تحت نافذة، وأمرنا الآغوات المصاحبين بالنوم خلف باب السلاملك، وتلك هي الليلة الأولى، وكيف قضيناها داخل قصر علاتيني في سلانيك.

□□□□□

أول أيامنا في سلانيك

طلع علينا النهار بعد ليلة لا أدري كيف قضيناها . . . كانت أصوات أقدام الضباط وطوافهم بالحديقة وعلى الشُّرفة يبعث الرعب في قلوبنا كل لحظة، فكنا نعانق إحدانا الأخرى، حتى بَزَغ ضَوْء الشمس فنهضنا على الفور، ورُحنا نفتح مصاريع النوافذ الضخمة التي ألقت الرعب في قلوبنا مساءَ الأمس، فامتلأت غرفتنا بضياء الشمس الناعم الذي أنعش قلوبنا بعض الشيء، ورحنا ننظر إلى الحديقة من خلال النوافذ، وارتاحت عيوننا لخضرة الأشجار وألوان الأزهار المتباينة.

وبعد قليل دخلنا غرفة الوالد، فقبَّلنا يده ودعونا له بصبح خير، فردَّ علينا بقوله: «طالعتكم أيامكم بالخير[٤٤] يا أولادي» ثم سألنا: «كيف كانت ليلتكم؟» فقلنا له: «لقد كان نومنا مريحاً» فابتسم وقال: «لم أنم إلا قليلاً، واليوم أشعر بالتعب، وتعبي هذا لن يذهب عني مالم آخذ الحمام الذي اعتدت عليه منذ شبابي، فلا راحةَ لي بدونه، إنها عادتي مع الأسف»، فقلنا له: إننا وجدنا حماماً مساء الأمس ونحن نطوفُ أنحاء الطابق العلوي، وسوف نُعدُّه له لو صبر قليلاً، وكان قصدنا من ذلك هو التخفيف عن همومه. والتفت وسأل أمي: «ماذا أكل الأولاد في الصباح؟» فأجابته قائلة: «لا يوجد الآن شيء يؤكل، ولا شك أنهم لن يتركوننا هكذا، فلا بد أنهم سوف يأتون لنا بشيء من الطعام، ولا تشغَل بالك، فلا بُدَّ للأمر من حل»، وعلى هذا قال الوالد: «لا بد أن أرى اليوم فتحي بك، وأشرح له حالنا»، ثم نادى على أحد المصاحبين وقال له: إنه يريد التحدث مع فتحي بك.

وجاء فتحي بك، وبعد أن تحدّث إليه والدي، دخل علينا وكأنما يَزِفُّ إلينا

---

(٤٤) من تعبيرات السراي.

البشرى فقال: «إن فتحي بك يقول: إن كل شيء سوف يكون على ما يرام، وإن اثنين من «كلارجية» السراي جاءا مع اثنين من الطباخين، وإن عاملنا القديم «ولي آغا» وصل هو الآخر، واليوم سيبدأ صرف المصروفات وغداً يطهون الطعام، ولن يبقى أحد بمشيئة الله خاويَ البطن». والحقيقة أنهم أرسلوا بعد قليل جبناً وخبزاً وزيتوناً، وبعض اللحم البارد، والقهوة والزبادي والمياه المعدنية، وطلبنا منهم موقد الكحول فأرسلوه، ومضى بنا اليوم على هذه الصورة.

وجاؤوا من السراي بالطباخ «مصطفى آغا»، والكهل «ولي بابا» الذي ظلّ يخدم والدي منذ كان أميراً، والكلارجي «حقي»، والكلارجي «صدقي»، ولم يكن لدينا خبر عن وصولهم.

وفي اليوم الثالث انحلّت مشكلة الطعام، وتحدَّث والدي في نفس اليوم مع فتحي بك، وتقرر أن يذهب الرجل إلى استانبول ويأتي لنا بما يلزم من ملبس وغطاء، كما طلب في نفس الوقت المفاتيح من والدي فسلَّمه الوالد مِفتَاحَين كانا معه، وشرح له ما هي الأشياء التي تفتحها، وأخبره أنه ترك مفاتيح الخزائن فوق المنضدة الموجودة في «القاعة الصغرى» من دائرة المابين في السراي.

وقيل: إن «روبيلان باشا» قائد الجندرمة الإيطالي كان يسكن هذا القصر قبلنا، وإنه اضطر لمغادرته عقب الأمر الذي صَدَر إليه من استانبول، وكانت هذه الأشياء التي نسيها وهو يغادره عبارة عن مائدة طعام صغيرة، وعدة مقاعد، وخزانة خشبية أو خزانتين، وبيانو صغير وجدناها في الطابق العلوي. وكنا نجلس وننام فوق الأرضية الخشبية الخشنة، ولم نغتسل أو نبدل ملابسنا منذ وصولنا، فلما طَلَب والدي من فتحي بك أن يحضر لحريمه وبناته والقلفاوات الموجودات معنا بعض الملابس والأغطية، وعده الرجل أن يفعل ما في وُسعِه، وذهب إلى

استانبول، وتقرر أن يقوم اليوزباشي زكريا أفندي أحد الضباط في القصر بمهمة الحراسة حتى يعود فتحي بك(٤٥).

وصول حاجياتنا

عاد فتحي بك من إستانبول في اليوم الحادي عشر من وصولنا سلانيك، مصطحباً معه مرضعة عابد أفندي «ماه أنوار قلفة»، والخزينة دار «دلبسته قلفة»، ولم يكن شيئاً منتظراً، فلما وجدنا هاتين السيدتين أمامنا سَعِدنا بهما سعادةً أعجز عن وصفها، والأجمل من ذلك أن «القلفة دلبسته» صحبت معها القطة «باموق» التي يحبها والدي.

وتعانقنا جميعاً وفرَّت الدموع من أعيننا، وسألناهما بشَغَف عما حدث في

---

(٤٥) ضباط الحرس الذين رأيتهم هم: اليوزباشي زكريا أفندي، واليوز باشي رحمي، وسالم الكردي، ومحمود سعرد، وكل من علي (الأقرع) وصالح (بوزوق) وداود وتوفيق وكاظم وفؤاد وجولاق إبراهيم وأمين وعبد الله وحسين هجراني وذو النون، وجميعهم كانوا برتبة يوزباشي (نقيب)، وقد استمروا في هذه الوظيفة حتى الآونة الأخيرة. ومحمود سعرد الكردي هو نفسه محمود (صويدان) الذي عمل رئيساً لتحرير إحدى الصحف في العهد الجمهوري وعضو مجلس الأمة. وكل من علي (الأقرع) هو علي جتين قيا أحد الوكلاء (الوزراء) القدامى، وصالح بك هو صالح بوزوق أحد ياوران مصطفى كمال أتاتورك.

وكان عاطف بك طبيباً لنا، قام على علاج والدي منذ وصوله سلانيك وحتى وفاته، كما كان يقـوم على علاجنا نحن أيضاً، وكان عند الضرورة يستدعي إلى جانبه واحداً من الأطباء الآخرين. وقد سمعت أنه كتب مذكراته عن مرض والدي وبعض خصوصياته، ولا آمل مع الأسف أن يكتب سالكاً جانب الحياد، لأن والدي قام ذات يوم بنفي أخيه، ولا شك أن ذلك سوف يدفعه لبث أحقاده، ومع هذا فقد كان الوالد يعطف عليه ويقول دائماً: «إنه ليس ولـداً سيئاً»، وبعد أن انتقل إلى سراي بكلربكي خصص له راتباً إضافياً قدره (٢٥ ليرة) بتوصية من راسم بك رئيس الحرس آنذاك، رغم أن الراتب الذي خصصته الحكومة لوالدي أيامها كان لا يزيد عن (٥٠ ليرة) أي: أن نصفه كان يذهب إلى الدكتور.

السراي بعد رحيلنا، فقالتا، إن دائرة الوالد تحوَّلت منذ زمان إلى عَدَم، وإن كل ما كان فيها مما خف وزنُه وغلا ثمنه قد نهبوه، وإن الصناديق والخزائن كانت تُخرج من السراي ليلاً، وإنهم نقلوا كل البنات من دائرة والدي الخصوصية إلى الدائرة المقابلة، وإن أمهات البنات وآباءَهم وأقرباءهم جاؤوا وأخذوهن من السراي، أما المسنات والعجزة من النسوة فقد نُقلن إلى «سراي طوب قابي».

وقالتا: إن مرضعتي المسكينة جادلتهم وقالت لهم: «أموت ولا أعطيكم أشياء أميرتي» وغامرت بحياتها وأغلقت أبواب دائرة أمي.

وقالتا: إنهم أغلقوا بالأقفال دائرتَي أم عابد أفندي وأم الأميرة رفيعة، بينما تمكنت أم الأميرة شادية أن تأخذ أشياءها وتخرج من السراي، نظراً لأنها ظلت في استانبول ولم تأت معنا، ونقلتها إلى منزل أختي في «نشان طاشي»، أما النسوة والأمراء الآخرون فقد خرجوا من السراي إلى بيوت أصدقائهم هنا وهناك، وإن السراي تحوَّل إلى فوضى.

كما قالتا: إنهم فتَّشوا جميع القلفاوات وأخرجوهن من السراي، واضطر بعضهن أن يتركن من الخوف نقودهن ومجوهراتهن التي ادَّخَرْنَها من عرق الجبين طوال السنين هنا وهناك، ولم يكن أمامهن حيلة أخرى للنجاة بحياتهن.

وقيل: إن فتحي بك طلب مرضعاتنا وأمر بالبحث عن الخزينة دار الرابعة، وإنه لما سمع أنهن ذهبن إلى قصر أختي الأميرة نائلة استدعاهن إلى السراي، وأمرهن بفتح أقفال الدوائر وإعداد الملابس والأغطية لنا، وإعادة غلق الأقفال مرة ثانية، كما أمر باستدعاء الخزينة دار الرابعة إلى دائرة الوالد وقيامها بإعداد حاجياته، ووجدت الخزينة دار أحد الصناديق بصعوبة، غير أنها وجدت أن الأشياء والملابس الثمينة غير موجودة فحارت المسكينةُ في أمرها، ماذا تأخذ وماذا تترك، واضطرت أن تحشوَ الصندوق بما وجدت من بالي الثياب هنا

وهنـاك. لقـد تحقَّق كل ذلـك بهمـة فتحي بك وإنسانيته، جزاه الله عنا خيرَ الجزاء. ومع الأسف وجدنا أحد البنطلونات ولم نجد له سترة، وكانت الملابس كلها رَثَّة.

إن الزوجات والحريم اللائي لم يَجِئْن مع والدي هن اللائي كنَّ يسكن في الدائرة المقابلة، وكان العساكر قد جاؤوا إلى دائرة المابين الصغير وأغلقوا الأبواب حتى أصبح الانتقال من «جناح السلطان» الموجود في الوسط إلى دائرة الوالد أمراً مستحيلاً، أي: إنه لا الذين كانوا معنا استطاعوا العبور إلى الطرف الآخر، ولا الذين في الطرف الآخر استطاعوا العبور إلى الطرف الذي نحنُ فيه، ولـو حدث، لا قدَّر الله، أن كنـا في الـطرف الآخر لما استطعنا المجيء مع والـدي، إنهـا كانت لحـظات هِيَاج، حدث فيهـا كل هذا وانتهى في دقـائق معدودات، فلم تكن هناك فرصة للتفكير أو إعمال الذهن. . .

وكانت «ماه أنوار قلفه» قد أغلقت الخزانة على حاجيات عابد أفندي حتى تتوجَّه إليه في سلانيك، ثم أخذت في يدها حقيبة كبيرة وضعت فيها ثلاثة آلاف ليرة وأسهم وسنـدات عابـد أفندي و«سندات التجهيزات العسكرية»، وبعض مجوهراته الثمينة، ثم عَرَضَت نفسها على الهيئة الموجودة في السراي وقالت لهم: «إن سيدي صغيرُ السن، وأريد أن أذهب إليه حتى أرعى شؤونه، وهذه حقيبته سأحملها إليه». وما أن قالت ذلك حتى ردُّوا عليها بقولهم: «تستطيعين أنت أن تذهبي، وتتـركي لنـا الحقيبـة». وبـالفعـل أخذوا الحقيبة من يدها، وتوسَّلت إليهم وبكت وانتحبت إلا أنهم لم يَلِينوا لها، وعلى هذا قالت لهم: «إذاً أعـطوني على الأقل إيصالاً باستلام الحقيبة» فإذا بهم يعطون المسكينة ورقة صغيرة لا أهمية لها، كتب عليها عبارة: «تسلَّمنا الحقيبة».

وتلك هي قصةُ الحقيبة التي كتبت الصحف عنها في كثير من الأماكن،

حتى إن خالد ضياء بك كتب عنها في مذكراته، غير أنه لم يذكر الحقيقة. وهذه الحقيبةُ التي سلَّمتها «ماه أنوار قلفة» مرضعة عابد أفندي كانت ملكاً لأمِّه، وكان خالد ضياء بك قد قَابل والدي وهو في سلانيك فذَكَّره الوالد بمسألة الحقيبة نزولاً على طالب أم عابد أفندي، ومع ذلك نقل خالد ضياء بك الأمر بشكل ملتوٍ غير واضح.

كان لأمي حقيبة صغيرة تحملها في يدها، أخذتها معها حتى سلانيك. والاحتمال أن خالد بك غيَّر الأمر بالشكل الذي يريدُه حتى يحمي الهيئة آنذاك، والحقيقة هي ما ذكرتُ أنا فيما سبق. وعلى الرَّغْم أن والدي أوصى خالد ضياء بك أن يذهبَ إلى أخيه السلطان رشاد ويرجُوَه البحث عن الحقيبة، إلا أنه كان من غير الممكن بغير شك العثور عليها بعد أن نُهِبت.

وكان فتحي بك قد اصطحب معه راعي البقر محمد آغا ومعه بقرتان، كما اصطحب راشد آغا صانع الحلوى، وقد سَعِدنا كثيراً بوصول حاجياتنا وتخلَّصنا بعد من الالتفاف بالألحفة، والنوم على الخشب الخشن.

وكان الوالد قد أشار علينا باختيار الغرف التي نريدها، فاخترت أنا الغرفة المتوسطة ذات الشُّرفة، واختار عبد الرحيم أفندي الغرفة ذات البيانو في الطابق العلوي، واختارت أخواتنا البنات الغرف التي أردنها، وعلى هذا النحو استقرَّ بنا الأمر في القصر، واستطعنا أن نبدِّل ملابسنا للمرة الأولى.

وكانت الخزينة دار اسطى «فتان فر» قد ظلَّت في سراي يلديز، واحتفظت معها بمفاتيح أطقُم القهوة المرصعة بالمجوهرات الثمينة والمخصصة للضيوف، ومفاتيح المواقد الفضية والشمعدانات وأطقم الصحون الذهبية، ومفاتيح أشياء قيِّمة لا يُحصى لها عد، والأشياء الباقية من عهد أجدادنا محفوظة في الخزانة الحجرية التي أمر السلطان عبد المجيد بإقامتها في سراي «طولمه باغجه».

وكانت هذه المرأة العجوز الجديرة بأن نَصِفَها بالشرف المجسَّم قد سلَّمت كل المفاتيح إلى الهيئة، ثم اصطحبت القلفاوات الموجودات في معيتها ورُحنَ حسب أصول السراي وتقاليده يعرِضْن أنفسهن على التفتيش، وخرجن من السراي.

غير أن هذه المسكينة ظلَّت بلا مسكن أو مأوى مدة طويلة، فلما عرضت أمرها على السلطان رشاد آنذاك، خصَّص لها راتباً قدره خمس ليرات، وأمر أن تقيمَ حتى وفاتها في منزل يقع عند سفح «سرنجه بك» كان مُلكاً للخزينة الخاصة، وانتقل حالياً إلى عائلة «نوري دميراغ»، فعاشت المسكينة فيه في ضيق وعَوَزٍ حتى توفيت.

وكان همنا الأول هو وضع الأشياء في مكانها، وكانت الأشياء التي جاءت لنا لا بأس بها، بينما كانت الأشياء التي جاءت للوالد قديمة رَثّة، فقدَّمنا له ما يصلح منها.

وكان اليوم الحادي والعشرون منذ مجيئنا، وإذا بالباب يُفتح فجأة، وتدخُل منه القلفة «سر الجمال» التي كانت تخدم والدي منذ إمارته، والقلفة «نوبرند» إحدى القلفاوات القديمات، والخزينة دار «فوليه»، وقلفة فاطمة هانم «جنان يار»، والخزينة دار «جوهريز»[٤٦]. وفي هذه المرة استولت علينا الدهشة، ورحنا نصيحُ ونعانق بعضنا البعض، والتففنا حولهن.

وكانت كل واحدة منهن تحكي شيئاً مختلفاً، إلا أن ما حكته القلفة «سر الجمال» كان أكثرَها إثارةً: فقد حكت المسكينة أنها عُرِضت على الهيئة عدة مرات، وكانت تقبِّلُ ذيل كل من رأته، وتبكي وتتوسل قائلة: «أرسلوني إلى

(٤٦) صحة الكلمة «جوهر - ريز» وهي تركيب فارسي بمعنى التي تنثر الجوهر، واختصاراً للكلمة كانت تنطق في القصر «جوهريز».

أفندينا». وكان هناك من استهزأ بها، بل وأساؤوا إليها بالقول، إلا أنها لم تعبأ وظلَّت تتضرَّع إليهم، وظلت القلفاوات الأخريات على إلحاحهن في طلب الذهاب حتى مَلُّوا منهن في النهاية، وتركوهن يذهبن.

وقالت القلفة سر الجمال في حكايتها: إنه كان هناك رجل بين أعضاء الهيئة أزرق العينين معمَّم الرأس، وكانت سر الجمال قد حَصَلت من والدي في يوم من الأيام على سُبحة من الكهرمان مطعَّمة بالماس، هديةً كانت تعلِّقها على نطاق في خصرها، فضاعت منها هذه السبحة في دائرة الوالد أثناء النزاع عند خلعه عن العرش، فإذا بها ترى السُّبحة نفسها في يد هذا الرجل المعمَّم، ومع ذلك لم تتحدث القلفة عنها، وظلَّت تتوسل إليه، أما هو فقد هزَّ نفسه وقال لها: «إنك نسيت المشي أيها العجوز الطاعنة! إلى أين ستذهبين؟» ومع هذا لم تتوقَّف سر الجمال عن التضرع والتوسل مما جعلهم يقولون لها في النهاية: «هيا اغرُبي عنا!» وقالت سر الجمال: «حرمت عليهم سبحتي ولكن لا بأس، إنني أمضي الآن إلى أفندينا، وأشكر الله على هذا».

وقصَّ علينا القادمون هذه المرة أنه لما جاء [الاتحاديون] لأخذ نادر آغا[٤٧] الذي كانوا قبضوا عليه قبل عدة أيام من خلع والدي، ونحن لا نزال في استانبول، كان نوري آغا[٤٨] موجوداً بالصدفة هو الآخر فقَبَضُوا عليه، وساقوه هو وعمال السراي الآخرين إلى حيث «البرج الأبيض» الذي تحوَّل إلى ما يشبه السجن في سلانيك، ولأنهم لم يَجِدوا للرجل ذنباً يدينه، وأنه رجاهم أن يرسلوه إلى أفندينا، تركوه مع القلفاوات، فجاء هو الآخر إلينا برغبته.

---

(٤٧) أخذ المصاحب نادر آغا (١٨٨٢ - ١٩٦١م) لقب «آجيق آلين»، وظل مقيماً في استانبول حتى وفاته عام ١٩٦١م في حي «كوزتبه» (ن).

(٤٨) توفي المصاحب نوري آغا في العاشر من أغسطس/ آب عام ١٩٥٥م في حي «كوزتبه» في استانبول.

وعلى هذا النحو ازدحم بنا القصر، وكانت الحياة تمرٌّ بنا على وتيرة واحدة، ومع هذا كنا نحاول التعود عليها، فكنا نجلس ونتحدث عن أيامنا الماضية وذكرياتنا، أما الحاضر فكان يُثير أعصابنا.

وكنا قد تعودنا بعد طعام الغداء أن نتوجَّه إلى غرفة الوالد نتبادل فيها الحديث، وكان يَرُوقُ لنا منظر الحديقة، غير أنه لم يكن بوسعنا أن نقترب خطوة واحدة من عتبة سلم الحديقة الكبيرة الموجود أمامنا، وكلُّ ما كنا نستطيعه أن نفتح الباب الكبير ونجلس خلفه نتنسم الهواء، وكنا محرومين حتى من قَطْف بعض الأزهار التي نَعشَقُها، وننزعج لمنظر الضباط وهم يطوفون على الدوام في أنحاء الحديقة، وكان إذا طال نظرُنا من النوافذ بْعض الشيء ومرَّ هؤلاء الضباط فإننا نضطر ثانية للانسحاب.

تعيين اليوز باشي راسم بك على الحرس الخاص

سمعنا ذات يوم أن فتحي بك سيعود إلى استانبول، وأن محافظاً آخر سوف يأتي بدلاً منه، وبدأ يسيطر علينا الحزن وعلى رأسنا الوالد، لأن فتحي بك كان رجلاً رقيقاً فاضلاً، وكان يبذُل كل ما في وسعه لتحقيق بعض طلبات الوالد، ولم يُؤذِ أحداً من العمال، وعامل الجميع بالحسنى. وقد رجاه والدي أن لا يذهب إلا أن الرجل كان مُجبَراً على ذلك، وفي النهاية جاء إلى والدي ومعه راسم بك الأرناؤوطي المعيَّن حديثاً للحراسة وقدمه إليه، وكنا نشهد الواقعة من النوافذ، ولماذا أكذب... لقد كان الرجل عابس الوجه، قبيح الهيئة، ولم ينشرح له قلب أحد منا.

كان عبد الرحيم أفندي على صلة بالضباط، ينقل إلينا بعض أخبارهم، فعرفنا منه أسماءهم، غير أننا لم نكن لنحكي لوالدي شيئاً مما نسمعه حتى لا

تَضِيقَ نفسه. لقد خصصوا لوالدي ثمان مئة ليرة، تُصرف منها عشر ليرات لكل واحدة منا، وتدخل ضمن ذلك الزوجات والقلفاوات، فقد كانت رواتبنا جميعاً متساوية، وبهذه النقود كنا كعادة الشباب نوصيهم أن يشتروا لنا بعض الأشياء الصغيرة مثل الحلوى والشكولاته، ولكنها لم تكن كافية على كل حال لمواجهة احتياجاتنا.

وطلب والدي الجرائد عدة مرات كما طلبنا نحن، ولم يكن راسم بك يلبِّي الطلب، حتى إنه قال لوالدي ذات يوم: «إنهم يكتبون ضدكم أشياء كثيرة، إن تقرؤوها فسوف تحزنكم كثيراً، وهذا ما يدعوني لمنعها عنكم» وردَّ عليه والدي بقوله: «لا بأس، فقد تعوَّدنا مثل هذه الأمور، ونحن لا نعبأ بها».

وأعتقد أنا أن السبب الحقيقي في منعه الجرائد هو خوفُه من أن نعلم بمخالفاتهم غير المشروعة، وستر الأخطاء الفاحشة ـ التي يرتكبونها باسم الدستور ـ عن والدي. إن رجلاً ذكياً مثل والدي كان بوسعه أن يفهم الشيء الكثير من الصحف.

ذكرتُ سابقاً أننا كنا نذهب بعد طعام الغداء إلى غرفة الوالد، ونظل إلى جانبه ساعة أو ساعتين أحياناً نتحدَّثُ إليه، وكان وهو يرشف القهوة يحكي لنا عن أيام ولايته العهد وعن أحداث السراي، وها أنا أكتب منها ما يرد على خاطري كلما سَنَحت الفرصة.

لقد سمعتُ كثيراً من نصائح والدي، وأُعجبتُ أبداً بذكائه، فقد كان مصيباً في رأيه، يمكنُه بفكره الثاقب أن يستشِفَّ المستقبلَ، بحيث يمكنني القول: إنه كان من أصحاب الكرامات.

وقد أثبتت لنا الأيامُ أن ما قاله آنذاك كان حقيقة، يا إلهي! كيف استطاع بحَدْسه أن يكتشفَ كل هذا؟ لقد كانت هناك أشياءُ كثيرة قالها وتحقَّقت بعَيْنها.

وصول ساندانسكي إلى علاتيني

ذات يوم دَبَّ النشـاط فجـأة في الحـديقـة، وكـان الضبـاط يركضـون ويضحكون وكأنما قامت القيامة من الضجيج والصياح، ورُحْنا ننظر من النوافذ لنشهـد ماذا يحـدث، وخـرج عبد الرحيم أفندي إلى الحديقة ثم عاد وقال: «الضباط يستقبِلون ضيفاً هاماً، إنه ساندانسكي صديق الترك، له أصدقاء بين ضباطنا، يقدمون له مأدبة على شرف وجودنا في المحبس».

وظَلِلنـا مبهـوتين من الـدهشـة ونحن نشهد ما يحدث، ولا بد أن هذا الضجيج وهذه القهقهات استرعَت انتباه الوالد، إذ راح يسألنا: «هل هناك حفل سَمَر في الحديقة؟» وقلنا له: إننا لا نعلم شيئاً، غير أنه شك في الأمر، وطلب راسم بك وسأله: «هل هناك حفل سمر في الحديقة، أم هي وليمة؟» ولم يشأ راسم بك أن يذكر له شيئاً، غير أنه اضطر لأن يقول: «نعم»، فقال له والدي بحَيْرة ودهشـة: «لا بد أن هنـاك ضيفـاً هامـاً في اعتقـادي، ومن يكون هذا الضيف؟»، فقال له راسم بك مكرهاً: «إن ساندانسكي قادم، وسوف نتناول الطعام سوياً» فسأله والدي: «هل صار عدوُّ الأمس صديق اليوم؟» وأجابه راسم بك: «نحن اليوم أصـدقـاء» وضحـك والـدي وقـال: «يا راسم بك! إنكم مخدوعون، وساندانسكي[٤٩] وأمثاله لا يمكن أن يصبحوا أصدقاء للترك، إنكم في غفلة من أمركم، أفِيقوا، إنه شيء مؤسف، لقـد أراق هـؤلاء الأعضاء في الجمعيات السـرية المسلحـة دَمَ الآلاف من الأتراك، ومُناي أن لا تندموا في النهاية»، ثم أضاف قائلاً: «إنني رجل أنسحب من الساحة، إن مأدبة تقدَّم لأحد أعداء الترك على شرف مصيبتي أنا لا بُدَّ أن تكون أليمة بالنسبة لكم أكثر مما

(٤٩) سانـدانسكي هو قائـد فرقـة المركزيين (Santralist Firkasi) التي تشكلت لأجل إقامة الحكم الذاتي في إمارة مقدونيا، وواحد من الإرهابيين الذين سفكوا دماء الكثيرين (ن).

هي لي، إنني آسف أشد الأسف».

بعد أن سَمِع راسم بك هذه الكلمات أدار وجهه وخرج، وبعدها حَكَى لنا والـدي ما دار بينهمـا، وقد استرعى انتباهَنا في الحديقة تلك الفرحةُ التي لا تدانيها فرحة.

حنان والدي

ذهبنا ذات مرة إلى غرفة الوالد، فجلست في مواجهته، وكان يتفحَّص وجهي بدقة ثم سألني وقال: «ابنتي! أراك ذابلةَ الوجه، هل أنت مريضة؟» فقلت له: «لا يا أفندينا! إنني بخير ولا تنشغلوا» فتأوَّه وقال: «أولادي المساكين، إنكم في ضيق، فقد صرتم لا تبرحون المكان، ولم أستطع بشكل من الأشكال أن أوطنكم في أماكنكم، ولا شيء يُروِّحُ عنكم».

وصمت بُرهـة ثم قال فجـأة: «ابنتي! إنك تعشَقين الموسيقى، وعزف البيانو، وهو موجود في الطابق العلوي، هل لك أن تعزفي عليه؟» فقلت له: «نعم يا أفندينا! إنني أعزف عليه أحياناً أنا وأخي» وإذا به يبادِرُني بقوله: «انصتي يا ابنتي، لقـد جاء على خاطري شيء: إنك تعزفين المندولين أيضاً، أليس كذلـك؟ سوف أُوصيهم أن يأتوا لك بمندولين، تنشغلين بالعَزْف عليه ويكون وسيلةً للتسلية بعض الشيء. إنك تعرفين الرسم أيضاً، وسوف أوصيهم بإحضار طاقم ألوان زيتية، هنا في الطرف المقابل يوجد كازينو في «قره بورون» تعرفينَه، إن ترسمي منظره وتُطلِعيني عليه أكون سعيداً جداً».

والحقيقةُ أني سعدت بهذا الحديث، وانفرَجت أساريري، فنهضت على الفور وقبَّلت يده. أما هو فقد أشار على أحد المصاحبين، وطَلَب منه أن ينادي راسم بك وأخبره بما يريد.

وفي اليوم التالي جاء المندولين وجاءت الألوان الزيتية، ولم تكن لفرحتي حدود، وأعـددت الفـرشـاة على الفور، وبدأت أرسم منظر الكازينو في «قره بورون»، ونَجَحتُ في ذلك إلى حد كبير، وصار شغلي الشاغل كل يوم هو ذلك الأمر.

وفي يوم حملت اللوحـة وذهبت إليه وعـرضتها عليه فقال: «أحسنتِ يا ابنتي! لقد أُعجِبت بها كثيراً، واصلي العمل حتى تستطيعين أن تصنعي ما هو أحسن»، وكان قصدُه من ذلك، تشجيعي أن أنشغل بالأمر وأتلهَّى به.

ورسمت لأمي هي الأخرى بعض الزهور فوق مرآة، وعرضتُها على الوالد فشجعني وقـال: «إنها توافق والدتك تماماً». وكنت أحاول أيضاً العزف على المندولين، وخاصةً بعض القطع الموسيقية التي كانت لاتزال عالقةً في ذهني، ورغم أنني طلبت منهم إحضار النوتة إلى أنهم لم يفعلوا.

وكنت لاأزال أحتفظ باللوحات التي رسمتُها للذكرى، فلما خرجتُ من استانبول في المرة الأخيرة ضاعت مني.

وذات يوم كنت أجلس على السلم في الـطابق العلوي مستغـرقـة في التفكير، ولست أدري وقتهـا لماذا ازدادت نفسي ضِيقاً، وشرعت أردِّدُ بعض الأغاني بغير اختيار، وكانت الأغاني من أوبرا «ترافياتا» التي يعشَقها والدي، وانتهت القطعة وتوقَّفت عن العزف، فإذا بوالدي يصيحُ من أسفل: «استمري يا ابنتي إنني سعيد غاية السعادة» ولكني كنت حزينة كئيبة، حتى إن صوتي بُحَّ وفرَّت الدموع من عيني، إذ تذكرت أيامنا السالفة، فركضت مسرعةً إلى حجرتي.

وذات يوم بعد طعام الغداء كنت أجلس أمام والدي، وكان يشرَب القهوة، وجلست أمي ومعها صالحة ناجية هانم يتحدَّثون عن الماضي، فإذا بي أقول:

«آه يا أفندينا! ليتكم منحتُم الأمة الدستور قبل ذلك الوقت».

وتـطلَّع أبي إلي وقال: «ابنتي، أأنتم أيضاً تُخطئون التفكير؟ لقد كنت دائماً مع الدستور، حتى إني كنت أُصِرُّ في الأيام الأولى من حكمي على أن يقبل وكلاء [وزراء] ذلك العهد منحَ الدستور، قد كان تعطلينا له فيما بعد إنما لإدراكنا أن الأمة سوف تتعرض لمضارٍّ كثيرةٍ، فلم يكن قد بقي إلا بعض رمق ـ والعياذُ بالله ـ على انهيار دولتنا، وعلى من يتَّهمونني بأنني لست مع الدستور أن يكونوا واثقين أنه سيأتي يومٌ يدركون فيه أنهم كانوا على خطأ، واعلَمي جيداً يا ابنتي أني منحتُ الأمة هذا الدستور الثاني بمحض إرادتي، ولو أني أردتُ أن أمنعه عن الـ. . .».

ثم توقَّف برهة وقال: «إني أعلم عِلمَ اليقين ماذا يجب عليَّ أن أفعله، وأنا في الأساس كنت قد أمرتُ قبل إعلان الدستور بترجمة القوانين الأساسية لكـل الـدول، فقد كنت أريد اختيار ما يوافِقُنا منها، وأن نكون بهذه الصورة أصحـاب قانـون أساسي يُنقِذ الدولة من الانهيار، ثم أقوم عَقِبَ ذلك بإعلان الدستور، ولكن ما الحِيلة، لم يكتُبِ الله لنا نصيباً».

وهنا اغرَورَقت عيناه بالدمع وراح يقول: «لقد كنت عازماً على أن أكون أباً محنَّكاً على رأس الأمة، حتى أعمل بهذ الصورة في سبيل سلامة الوطن، غير أن أعدائي لم يُتيحوا لي هذه الفرصة، ووضعوا في طريقي شتَّى العقبات، ولفقوا الافتراءات، ثم ظهرت في النهاية (حادثة ٣١ مارس). إنني لم أتجاوز خطوة واحدة حدود ما يفعَلُه أي حاكم دستوري مقيَّد؛ فلم أتجاوز الحدود لا خطوة إلى الأمام ولا إلى الخلف، إلا أنهم كانوا عاجِزين عن طردي منذ البداية بصورة أخرى، إنني أؤمن بالقدر، وهذا الذي حَدَث لنا تقدير إلهي، ولو أني كنت أنا الذي دبَّرت (حادثة ٣١ مارس) لما كنت لوَّثْت نفسي بهذا الشكل، إنني

كنت أعلم جيداً كيف أفعل، ولا بد أن التاريخ سوف يكشف هذه الحقيقة يوماً من الأيام، ولهذا السبب فإن قلبي مطمئن.

ابنتي! إنني لم أشأ - وحقِّ الله - أن يتضارب تُركيَّان، أو أن يضرب أولادي العساكر أحدهم الآخر من أجلي شخصياً، وأن تسيل الدماء، إنني أُحِيل إلى الله كلَّ من تحاملوا عليَّ بهذا الافتراء».

لقد أَسِف والدي كثيراً، وحزنت أنا أيضاً لأنني فتحت هذا الموضوع، وبُهتُّ من الحياء، فكنت لا أتطلَّع إلا إلى قدمي، إلا أن والدي واصلَ حديثه فقال: «ابنتي! إن في بلادنا قحطاً في الرجال، ولم أكن أَرَ أمامي إلا وزيرين وَثِقت في رجاحة عقلهما وذكائهما: أحدهما هو «سعيد باشا»، والآخر هو «كامل باشا». وعلى الرَّغْم أنهما رجلان فاضلان إلا أنهما كانا مثل دُميتين تتحرَّكان بخيوط، إذ كنت كلما أعوزتني الحيلة في أمر من الأمور جئت بأحدهما وطلبتُ الاستفادة من تجارِبه، وها أنا قد صِرتُ ماضياً وتاريخاً، وخلا الميدان لهؤلاء.

ابنتي! إن جميع هؤلاء الضباط الذين تَشهَدين نشؤوا في عهدي، وتخرَّجوا من المدارس، ومثلهم كثيرون تخرَّجوا اليوم من دور العلم والمعرفة عندنا؛ فقد تقدَّمت المعارف عندنا، ولسنا الآن كما كنا قبل ثلاثين عاماً، وإن شاء الله يحكمون ولا تتعرَّض الدولة للمهالك».

وما أن قلت له: «يا أفندينا! إن الذي وضعكم هذا الموضع السيِّىء هو سعيد باشا» حتى ضَحِك بشكل غريب وقال: «ابنتي! إنني أكثرُ الناس معرفة بسعيد باشا، فهو رجل خوَّاف وَجِل، ولا بد أنه وجد نفسه مضطراً لذلك، ولا أظن له قصداً آخر».

ثم الْتَفت إلينا نحن الثلاثة وقال: «تِلكم هي المسألة. ابنتي! ها هم لا يُقدِّمون لنا جريدة أو كتاباً ويُخفُون عنا ما يجري، غير أني أشعر مع الأسف أن

ما نحن ماضون فيه ليس خيراً، ولكن ما جدوى أن نعرف ما يجري؟ إنني أرى عدم العلم أفضل، إنني إنسان رأى وعانَى الكثير، وقد تقدَّم بي العمر ولم تعد طاقتي كسالف العهد، والأفضل لي الآن أن أنسحب وأقضي أيام عمري الأخيرة في العبادة والدعاء للدولة والأمة، فلا تَقُلْن لفظاً يسيء إلى هذا أو ذاك، وَارْضَين بقدركن، فالخير والشر مقدور ولا تنتظرنه من أحد، إنها أمور لا طائِلَ من ورائها، فأنتُنَّ تعلمن أن هناك من بين أجدادنا مَن عانَى أكثر منا، وأن هناك من وَقَعت على رأسه الكوارث الكبيرة، وأن هناك من لم يَرَ بعد خلعه راحة بقدر ما نرى نحن الآن. وها أنا أجلس بين أولادي وعيالي، وأشكر الله على هذا، وأنتُنَّ أيضاً عليكن أن تشكُرْنَ الله، وعليكن بالدعاء للأمة فلا قدَّرَ الله لها زوالاً».

وألقى والدي السيجارة التي بيده في الطفَّاية، ثم نهض على قدميه وهو يقول: «جاء وقتُ الصلاة ولا بد لي من الوضوء» أما أنا فمسحتُ دموع عيني وتركتُ الغرفة.

إنني أكتب هذا الحديث الذي لا يُنسى لوالدي اعتماداً على المذكرات التي كنتُ قد سجَّلتُها ونحن في قصر علاتيني.

الاستيلاء على أموال والدي
المودَعة في البنك

ذات يوم بدأت تَهُبُّ على القصر رياح كآبة وحزن، فقد كانوا يُريدون الاستيلاء على أموال والدي المودعة في البنك الألماني، وكان والدي حزيناً كئيباً، وحَزِنَّا نحن لحزنه.

وكانت توالي حكومة استانبول الخبر بعد الخبر بواسطة راسم بك، وأبي مشغول بكتابة بعض الأوراق، ويتردَّدُ عليه راسم بك مراراً كي يحصل على

إجاباته، وكان والدي يقول: «إنني رَبُّ عائلة كبيرة العدد، وكنت عندما اعتَليت العرش أعطيتُ قسماً من مالي الخاص الذي عملت وكسبته أيام ولايتي للعهد «بقشيشاً للجلوس»، ولم أكن مثل بقية إخوتي عاطلاً، بل عملتُ في مزارعي، وأودعت النقود التي كسبتها من عملي في البنك حتى يأخذها أولادي وعيالي من بعدي، ولقد حافظتُ على المجوهرات الخاصة بالخزينة، فلم أَهَب أحداً شيئاً من مال الدولة، كما لم أُعطِ لأولادي شيئاً من هذه النقود، أو حبة من تلك المجوهرات.

وقد وفَّقني الله في التخفيف من عِبْء ديون الدولة أيام سلطنتي، ولم أمنح أبنائي إلا خاناً واحداً(٥٠)، واشتريتُ بيتاً لكل بنت من بناتي عندما تزوَّجن، ولم أستطع أن أزوِّجَ الأميرات شادية وعائشة ورفيعة، إلا أني مَنَحتُ الأميرة شادية والأميرة عائشة بيتاً لكل منهما، أما الأميرة رفيعة فلم يكُن لها نصيب من ذلك، وصنعتُ تاجاً لكل واحدة من هؤلاء البنات، وجعلت لكلٍّ منهن عشرة آلاف ليرة ثمناً لجهاز زواجهن، وحتى هذه النقود لم تُعطَ لهؤلاء المسكينات وذَهَبت من أيديهن.

أمـا زوجاتي فليس في أيديهن شيءٌ من النقود على الإطلاق، وكذلك أولادي الذكور عبد الرحيم ونور الدين وعابد. وماذا سيحدُث في المستقبل؟ إنني لكلِّ هذه الأسباب لا أستطيع أن أعطيَهم نقودي المودعة في البنك».

وكـان كلمـا أصـرَّ والدي على رفضه، كانوا يزيدون هم من ضغوطهم ويقولون: «لا بد أن تعطونا النقود، إنكم مجبورون على ذلك».

---

(٥٠) الخان الذي تركه لأولاده خرج هو الآخر من يده، وكان ملكاً للأميرة عادلة بنت السلطان محمود الثاني، انتقل إليها عن زوجها محمد علي باشا، فلما توفيت الأميرة ولم تترك خلفاً، انتقل إلى والدي تطبيقاً لقانون العائلة المالكة.

حتى إن راسم بك نفسه كان يشعُر أن حياتنا مهددة بالخطر لهذا السبب، وهدَّد والدي مرة فقال له: «إنهم سيضطرونكم أنتم وبناتكم للنزول إلى البدروم ويحبِسونكم فيه».

كما كان يحكي لعبد الرحيم أفندي بعض الأشياء المخيفة محاولاً إرهابه، ويعاملون العمَّال معاملة سيئة، ويَسعَوْن لتثبيط عزائمهم، واستولى علينا الفزع فكنا نقول: «الله هو الرزَّاق، وعلى أبي أن يُعطِيَهم النقود فينقذ نفسه وينقذنا معه».

كانت رغبةُ والدي أن نذهب إلى استانبول، ونتزوج هناك، كما لم يكن مطمئناً لبقاء عبد الرحيم أفندي في هذا الجو التعس، ولذلك كانوا يقولون: إن هذه الرغبات لن تتحقَّقَ ما لم تعطِنا النقود.

وفي تلك الأثناء أخبرونا أن خطيبي «أحمد نامي بك»(٥١)، وخطيب أختي الأميرة رفيعة «علي فؤاد بك»، توجَّها سوياً إلى الباب العالي، وأخبرا حسين حلمي باشا أنهما يطلبانا، وأجابهما بقوله: «سوف يأتيان، ولكن هناك أمر لا بُدَّ أن ننتهي منه أولاً، وعليكما بالصبر». هذه الحادثة حكاها لي أحمد نامي بك نفسُه فيما بعد.

كان الفزع قد استولى على القصر كله، وبدأنا نشعرُ أن هذه النقود سوف تكون أُسَّ المصائب فوق رؤوسنا، وكنا نقول: إنه على الوالد أن يعطِيَها لهم حتى يسلَم ونسلَم نحن أيضاً، وتوتَّر الجو وأصبح باعثاً على الضيق، حتى لم

---

(٥١) كانت خطبتي على أحمد نامي بك أثناء الصدارة الأخيرة لكامل باشا. وكانوا قد عرضوا على والدي صوراً كثيرة للطالبين، إلا أنني سمعت نصيحة جواد بك واخترت أحمد نامي، وتمت خطبتنا فدخلت على والدي ليلة الاحتفال بالإسراء والمعراج وقبلت يده، وأعلنت الخطبة في صحف اليوم التالي.

يعد أحد قادراً على أن يُطِلَّ برأسه من إحدى النوافذ.

كان والدي يتألَّم لحال أولاده، ويأسف عليهم، ويردِّدُ عبارات اللوم على أنه لم يقسم هذه النقود بين أولاده وزوجاته، ثم يُودِعها بأسمائهم في البنك، وأدرك أنه أخطأ عندما أودعها باسمه موصياً بأن تكون لأولاده من بعده.

لقد كان حزنه شديداً وهو يقول: «إنني شهدت الكثير في حياتي، ومَضى عمري وأنا أكُدُّ وأسعى في الحكم دون أن أنعَم بالراحة والهدوء، لقد كانت ولايتي للعهد أيام سعادة... ماذا سيصير إليه حال أولادي هؤلاء المساكين الأبرياء؟ حتى بناتي الثلاثة هؤلاء، لم يُكتَب لي أن أزوجهن، إن الأولاد يتعذبون بمصيبتي أنا، ويستهلكون حياتهم، إنني لا أريد أبداً أن يَضِيع شبابهم هباءً في هذا المكان، فليذهبوا وليسعدوا بحياتهم، وليذهب ابني أيضاً لتحصيل العلم، انظروا ماذا جرى له، إنه يتلَوَّى من الحدة والعصبية».

والحقيقة أن عبد الرحيم أفندي كان قد وَصَل من اشتداد الحدة والعصبية إلى حال حار معها ماذا يفعل، لقد كان على صلة دائمة بالضباط، ولهذا كان يقع دائماً تحت تأثير كلماتهم المثيرة، حتى صار لا يتحكَّمُ في تصرفاته بشكل من الأشكال، فضلاً عن أنه أُصيب من شدة الضيق بمرض اليَرَقان، وكنا نَنصَحُه بالرجوع عن ذلك، نظراً لأننا كنا أكبر منه سناً، إلا أنه كان قد بَلَغ درجة لا تُجدي معها النصيحة.

وأنا أيضاً كان أنفي ينزِف دماً كل صباح، وتَحَارُ أمي كلما رأت النزيف.

أما أخواتي فقد ذَبَلْن واصفرَّت وجوههن.

والحاصل أن صحتنا جميعاً كانت في تدهور مستمر، ومن الطبيعي أن هذه الأمور لم تَفُت علٰى والدي، فقد كان أباً يوجه كل اهتمامه نحو أولاده، وكانت رؤيتُه لنا على هذه الحال مع ما هو فيه من مصيبة أمراً يَهُزُّه من الأعماق،

وحدث مرةً أنه قدَّم طلباً إلى الحكومة وإلى مجلس المبعوثان، وكان جوابهم التهديد، ولم نَعُد في راحة إذن.

وقالت أمي لوالدي: «أفندينا! أعطِهم النقود وتخلَّص منهم، وادفع عن رأسك بلاءَها لسلامتك وسلامتنا، ومهما كان الأمر فلا بد أننا واجدون كِسرة خبز، وهذا رأي الأولاد أيضاً».

وفي النهاية تقرَّر وسط هذه المخاوف وهذا الاضطراب إعطاؤهم النقود، إذ جعلوا والدي يُوقِّع على ذلك ذات يوم.

غير أن إدارة البنك لم تقبَل هذه الورقة المرسلة إليها بتوقيع الوالد، وأصرُّوا على الحضور إليه، والتوقيع أمام أعينهم، وتسليم النقود له شخصياً. وكانت شروط والدي على النحو التالي:

١ ـ أن يعود عبد الرحيم أفندي إلى استانبول لتحصيل العلم، وأن تذهب الأميرات أيضاً ليتزوَّجْنَ.

٢ ـ منح بعض الحرية للعمال الموجودين معه.

٣ ـ أن يُخَصَّص له قدر كاف من النقود، وشراء قصر علاتيني.

٤ ـ أن يتركوه في راحة حتى وفاته، ويتكفَّل الجيش بحمايته.

وأخبرهم والدي أنه سيعطيهم النقود فيما لو قَبِلوا هذه الشروط. والحقيقة أن العمال كانوا بدؤوا يشكُون مُرَّ الشكوى من حبس حرياتهم.

وأخبروه أنهم قبلوا الشروط، وجاء في النهاية أحد مديري البنك لأخذ التوقيع، وفي ذلك اليوم توشَّح الضباط بحركات التهديد، وراحوا يطوفون أنحاء الحديقة، ويَذرعون الأرض جيئةً وذهاباً أمام النوافذ، وازدادت جركتهم، وكان عبد الرحيم أفندي مجتمعاً هو والعمال في غرفة السلاملك، يجلسون صامتين

وقد هابوا الخروج إلى الحديقة أما نحن فقد جَذَبنا حصير النوافذ نشهد المنظر من خلاله، ونعيش يوماً من الأيام الرهيبة في حياتنا.

وقد ارتدى كل الضباط ملابسهم المدنية يتفحّصون النوافذ بنظراتهم المفزعة، وكانوا في احتداد أكثر من أي وقت مضى، ظَنًّا منهم أنهم يحولون بهذا دون والدي أن يقول للقنصل الألماني ومدير البنك المقرَّر وصولُهما اليوم: إنه يعطيهم هذه النقود كَرْهاً ولاشك أن نساءً مثلنا لا تَجرِبة لهن يتخوَّفن من أوضاع كهذه.

وتقرَّر أن يستقبل والدي القنصل الألماني ومديري البنك أمام المِنضَدة الكبيرة الموضوعة في صالون الطعام الكبير في الطابق الأول. وقد طلب والدي أن يكون عبد الرحيم أفندي حاضراً بجانبه، إلا أن تجنُّبه الضباط وتوتّر أعصابه جعله يقول لوالدي: «لا أستطيع الحضور، سامحوني»، وعلى هذا أمر والدي أن يجلس إلى يمينه ابنُه الصغير عابد أفندي وهو مايزال بعد في الخامسة من عمره، وكان هدفه من ذلك إشعارهم بأن حقَّ هذا البريء وهو في الخامسة من عمره ذهب غدراً، وكنا نحاول أن نشهد من أعلى السلم المشهد الذي سيجري أسفل.

وفي النهاية دخل إلى الصالون القنصل ومن خلفه ثلاثة مديرين وهادي باشا وعلي رضا باشا وراسم بك، وقام القُنصل والمديرون بإلقاء التحية والتعظيم على والدي، فردَّ عليهم التحية، وكانوا يحمِلون معهم ستَّ حقائب كبيرة من النقود والسندات، ثم راحوا يُصفِّفُونها على الأرض.

والتفت المديرون إلى الباشوات وإلى راسم بك ثم قالوا: «إننا نريد الانفراد بجلالته، إذ يلزم أن نتباحَث معه في أمر خاص، وبهذه الصورة فقط يمكننا إتمامُ الإجراءات» فدهش راسم بك والباشوات وراحوا يتطلَّعون أحدهم

إلى الآخر، واضطروا إلى مغادرة الصالون والنزول إلى الحديقة.

في تلك اللحظة قامت القيامة في الحديقة، والْتَفَّ الضباط حول هادي باشا وعلي رضا باشا بزيهم المدني الذي ارتَدَوْه بهدف تعمية الألمان متغاضين عن النظام العسكري واحترام الرتبة الأعلى وغير ذلك، وراحوا يُغَمغِمون بصوت مرتفع: «لماذا تركتوهم يَنفَرِدون به؟» ثم أخذوا يُلقُون السباب على والدي ويُمطِرون إشارات التهديد على نوافذنا، دون اعتبار لرتب الباشوات، حتى شعر الرجلان وكأنهما اقتَرَفا ذنباً عظيماً، كنا نشهد أحوالهم هذه والفزع يأخذ منا كل مأخذ.

وفي النهاية فُتح الباب ورأينا القنصل والمديرين يخرجون، وسيطر الهدوءُ فجأة على الحديقة، ولن أنسى ما حَييت أن القُنصل راح ينصرف دون أن يلقي التحية على أحد ممن حوله، فقد كان واضحاً أن الوضع لم يَرُقْ إليهم، وأعقبه المديرون وساروا بخطوات سريعة نحو العربة التي تنتظرهم عند الزاوية فرَكِبوها، وكان هادي باشا وعلي رضا باشا يُشيعانهم، ومع ذلك لم يلتفتوا إليهما، وانطلقت العربة مسرعة.

وسار والدي نحو باب الشرفة وصاح على الضباط بصوته الجهوري: «خذوها!» فركض عدد من الضباط ودخلوا إلى الصالون وشرعوا يحمِلون الحقائب. وكانت قد أُعدت منذ البداية عربتان من نوع «لاندو» تنتظران عند الزاوية، فوضعوا فيهما الحقائب وقفَزَ سالم الكردي إلى العربة الأولى، بينما ركب الثانية ضابط آخر لا أذكر اسمه الآن، وانطلقت العربتان من الباب متوجهتين نحو «البرج الأبيض».

وعقب تسليم النقود دعانا الوالد إليه، وقال: «أولادي! إنه ليَشُقُّ عليّ كثيراً أنني لم أستطع أن أبنِيَ لأحدكم مستقبلاً، وما حيلتي؟ إنه الحظ والقدر، ولا بد

أن الأمة سوف ترعاكم».

إن الخوف الذي وقع في قلوبنا منذ الصباح الباكر لم يكن في الأصل هيِّناً، ومع ذلك سعدنا بالخلاص، وقلنا لوالدي: «يا أفندينا! سَلِمت لنا، ولتكن النقود فداءً لك» ثم قبَّلنا يده، واغرورقت عيناه بالدمع، وراح يقبلنا هو الآخر، ومسحنا الدمع عن عيوننا، وانصرف كل واحد منا إلى غرفته.

وقد سمعنا فيما بعد أنهم صرفوا إكراميات من هذه النقود لكل ضباط الحرس هؤلاء.

وبعد يوم من تسليم النقود قال راسم بك لوالدي: «سيدي، لقد أُعجبت بثباتكم الذي ظهرتم به وأنتم تقدِّمون النقود، واللهِ لو أني ضيعت عشر ليرات لأُغمي علي حتى لا أجد باب الغرفة التي أجلس فيها، وحرت من الكدر فيما سأفعل». وضَحِك والدي لهذه الكلمات وأجابه بقوله: «راسم بك! المال سجن، يأتي من يدٍ ويخرج من أخرى، وأنتم رجال كبرتم ونشأتم على يدي، أما أنا فقد عشت ورأيت الشيء الكثير، وبالتعبير المعروف «أنا ما بيَّضتُ لحيتي في الطاحونة»، وقد مَنَحني الله هذه النقود وهو الذي استردَّها».

اليوز باشي سالم الكردي يطلق النار من مسدسه على والدي

بعد أسبوع تقريباً من تسليم النقود في قصر علاتيني أطلق يوز باشي المدفعية سالم الكردي أحد ضباط الحرس الرصاص على والدي:

ذات صباح، في العاشرة والنصف تقريباً، خرج والدي إلى الشرفة قبلَ تناول الطعام لتنسُّم الهواء، وراح يطوف أركانها، وأخواتي يجلِسن في غرفتهن، بينما كنت أعزف أنا المندولين في غرفتي، فإذا بي أسمع تحت شرفتي تماماً

صوت إطلاق الرصاص، فصرخت وقلت: «يا إلهي! لقد وَقع ما بِتنا نخشاه».

ورحت أركض على السلم كالمجنونة، فنزلت إلى أسفل، وكان أول من شهدته عيناي هو والدي، يقف منتصباً أمام باب الشرفة، ويحكي الحادثة لأمي وصالحة ناجية هانم، بينما أقبلت زوجاته الأخريات وبناته، فكان يقول: «أطلق سالم الرصاص عليَّ، واختفى بين أشجار الغار الموجودة أمامنا، لقد رأيتُه بعيني، ولما صِحْتُ عليه: أن اخرج، انتصب على قدميه دون أن يُطلق الرصاصة الثانية».

وكان سليم آغا أحد المصاحبين وعامل القهوة علي أفندي وأخي عابد أفندي يتنزَّهون في الحديقة فشهدوا الحادثة؛ اصطدمت الرصاصة بالحائط ثم ارتدَّت إلى الخلف، وسقطت على الحصى الموجود في الحديقة. وصاح أبي على علي أفندي وقال له: «هاك هي الرصاصة سقطت هناك، خذها وناولني إياها». ومع ذلك لم يفعل الرجل، وراح يبكي هلعاً ويقول: «سامحني يا أفندينا، لا أستطيع إحضارها».

وبناءً على هذه الحادثة هرع الضباط فقبضوا على سالم وأخذوه، وطلب الوالد حضور راسم بك على الفور، ولم يكن في تلك الأثناء موجوداً في القصر، فجاء بعدها بقليل، وكان والدي لا يزالُ ينتظر خلف الباب فأشار له على الرصاصة المرمية على الأرض وقال: «أراد سالم أن يضرِبنا، إلا أنه لم يوفَّق في ذلك، وها هي الرصاصة مُلقاة هناك، وقد طلبتها من أحد رجالنا إلا أنه لم يُحضِرها، فأعطوها لي، سوف أحتفظ بها للذكرى». وقال له راسم بك: «إنه لشيءٌ جَلَل، فلا تؤاخذونا، وسوف أطرده الآن من هنا، فلا تنشغلوا» ثم نزل إلى الحديقة والتقط الرصاصة ووَضَعها في جيبه وهو يقول: «لن أُعطِيها لكم» ثم انصرف.

وكان يوجد في القصر بستانيٌّ مُعمَّر، يعمل في حديقة الليمون، وهو رجل رومي يدعى «بـاربو»، شهد الحادثة بتفاصيلها، فوضع يديه على عينيه وراح يُطلق الصيحات، وحكى لنا الآغوات أنه بكى كثيراً.

ولما سألوا سالم الكردي عن سبب فعلته أجابهم بقوله: «حتى نتخلَّص منه جميعاً». وهذا أيضاً علمناه فيما بعد.

إنه في الأصل حظ الوالد: فما من أحد أطعمه إلا ورأى منه الخيانة؛ فهذا الكردي سالم من يكون؟ إنه ابنٌ لعائلة فقيرة أراد أن يدخل العسكرية، ولم يكن له أحد يقدِّم له الطلب، فأفصح عن رغبته لبعض الأشخاص، فنصحه أحدهم أن يتـوجَّه إلى عصمت باشا الطبيب الخصوصي لوالدي، وكان عصمت باشا يُقيم في يكي محله [الحي الجديد] المجاور لسراي يلديز، فكان ينهض في الصباح ويصعد على قدميه سفح يلديز حتى يصل السراي، وكان يحدث أن ينتظره هناك بعض الأشخاص في الطريق ويشرحون له أحوالَهم، فيَعرضها بدوره على السلطان، وقد استطاع بهذه الصورة أن يخدم كثيراً من الناس.

وقد أوصَوا سالماً أن يفعل الشيء بعينه، فراح ينتظر عصمت باشا ذات صباح عند أول السفح، وشَرَح له حاله، فرقَّ له عصمت باشا وقال: «حسن يا بني، سوف أعرض الأمر على أفندينا» وعرضه بالفعل، فأمر والدي بتسجيل اسمه في فرقة «قلالي».

ذلك هو سالم الكردي، نشأ بهذه الصورة، وظَلَّ يترقَّى حتى بلغ رتبة يوز باشي. وراحت أيام وجاءت أيام، وظن الكردي بعقلية المتهافتين على إظهار البطولات، التي كانت (موضة) أيام خلع والدي، أنه سينال شرفاً بالقضاء عليه، فلم يَخجَلْ من إطلاق هذه الرصاصة، وسدَّد بها دين النعمة الذي في عنقه!

□□□□□

قوة الذاكرة عند والدي

كان بين ضباط الحرس جندي يُدعى «اليوز باشي حقي»، أشار إليه أبي ذات يوم وقال لجوهر آغا: «إنني أعرف هذا الولد» فدهش الرجل وقال: «كيف هذا يا أفندينا؟ لا أعتقد ذلك» فضحك والدي وقال: «إنني لا أنسى أبداً مَن أراه ولو مرة واحدة، وأنا واثق أن هذا الولد هو مَنْ أعنيه، عندما زارني الإمبراطور في المرة الأولى كنت قد أمرت الضباط الشباب بتعلُّم اللعب بالسيوف في «جوسق التعليمخـانه» وعرضتُهم على ضيفي، وكان هذا الولد آنذاك شاباً يافعاً يلعَب السيف بمهارة، فأُعجِب به الإمبراطور كثيراً كما أُعجبت أنا به، ولهذا السبب قمت فعلقت بيدي ميدالية ذهبية على صدره، وحقي أفندي هو ذلك الولد، فإذا واجهته يوماً اسأله وانظر ماذا سيقول».

وذات يوم كان يجلس جوهـر آغا في الحديقة، وانتهز فرصة انفراده به وسأله بأسلوب مناسب، فدهش حقي أفندي وقال متردداً: «نعم هو أنا، ولكن كيفَ يحدُث ويتذكَّرُني؟ لقد كنت شاباً آنذاك، أما اليوم فأنا في الأربعين من عمري، وقد شابَ الشعر مني ومرَّت سنوات عديدة، الحقيقة أنني مندهش لقوة ذاكرته»، قال حقي أفندي ذلك ورَجَا الآغا أن لا يخبر أحداً بهذا الأمر.

والحمد لله أن حقي أفندي هو الآخر لم يُطلِق علينا الرصاص.

وصول محمود شوكت باشا إلى قصر علاتيني

ذات يوم دَبَّ النشاط في الحديقة، فهرعنا إلى النوافذ نستطلع الأمر، وإذا بهم يقولون: إن محمود شوكت باشا سوف يأتي للتفتيش، فلما جاءَ إلى الحديقة التَفَّ حوله هادي باشا وضباط الحرس، وراح يَطُوف حول القصر دون أن ينطق كلمـة واحدة، ولم يتطلع بعينيه إلى النوافذ، فكنا نتحدَّث بصوت مرتفع كي

نَلفِتَ نظره.

واستدعى أبي راسم بيك وقال له: «أريد رؤية الباشا، أخبِروه بذلك» غير أن راسم بك عاد مرة ثانية دون أن يأتي بجواب سَلباً أو إيجاباً.

وكان يوجد زقاق مغلَق من الطرف الخلفي على الساحة الكبيرة التي تُواجِهنا، فتحوا عليه باباً من جدار القصر بعد وصول الباشا بقليل، وأقاموا أمامه مسكناً لضباط حرس المناوبة، فكان الضباط غير المناوبين يتناولون طعامهم فيه ويجلسون للراحة.

شهر رمضان الأول في قصر علاتيني وحَبْس علي محسن بك

هَلَّ علينا شهر رمضان وبدأنا جميعاً الصوم، وكان الضباط قد حبسوا الكاتب علي محسن في البدروم.

لم يكن أحد يعلم سبب ذلك، ووقع الخوف في قلوب الآغوات بصورة خاصة، وكانوا يُخفُون الخبر عنا أيضاً، وطلب والدي حضور علي محسن بك، فأجابوه بأنه يَمُرُّ بوعكة، وفي النهاية فهمنا الحقيقة من عبد الرحيم أفندي.

ومرَّ أحد عشر يوماً ولم تكن حتى السكين لتفتح أفواه الآغوات، وفي النهاية سألهم والدي عن صحة علي محسن بك فنَقَلوا إليه الحقيقة، غير أن القائل لم يكن معلوماً.

وتأثّر والدي كثيراً واستدعى راسم بك وقال له: «لماذا حَبستُم علي محسن بك؟ ما هو ذنبه؟» فأجابه راسم بك بقوله: «سيدي، لقد قيل: إنكم تُمْلُون عليه بعض مذكراتكم، وذلك ممنوع، ولهذا السبب حبسناه»، وبناءً على هذا قال له والدي: «أرجوكم، لا تدعوا المسكين في هذه الحال ونحن في شهر رمضان

المبارك، وسوف لا أُملي عليه شيئاً بعد اليوم، إنني لم أتصوَّر أن ذلك جُرم».

وبعد أن قضى الرجل أحدَ عشرَ يوماً حبيساً في البدروم وهو يصوم رمضان ويقرأ القرآن، خرج من السجن ولم يدخل على والدي مرةً ثانية، أو بمعنى أصح لم يَأتوا به إليه.

وذات يوم دخل راسم بك على والدي، وبعد أن تحدَّث معه جاء والدي إلى الداخل وكنا نحن أيضاً هناك، فقال فجأة: «حقيقةً إن هذا الرجل لمديرُ سجنٍ بارع، يعرِف واجبه» ثم ضحك وأضاف يقول: «لو أني تعرَّفت على هذا الرجل قبل ذلك لكنت استخدمته في نفس الوظيفة، فلا أحد أهلٌ لها سواه».

خروجنا من قصر علاتيني

كان أبي يتحدَّث مع عاطف بك الطبيب الخاص للقصر ويقول له: «إن صحة بناتي تتدهور، وأريدك أن تكتب تقريراً وترسله إلى استانبول» وقام عاطف بك هو الآخر فكتب تقريراً وأرسله، وبعد مدة وَصَلنا الإذن بالخروج من علاتيني والذهاب إلى استانبول، وعلى الرَّغم من ترحيبنا بالذهاب إلا أننا تألَّمنا لترك الوالد، وكنت أنا أكثر حزناً وألماً من أختيَّ الأخريين، لأنني كنت في هذه الحالة سأترك أبي وأترك أمي أيضاً.

ونادتني أمي وراحت توجِّهُ إلي بعض النصائح فقالت: «ابنتي! لا تبكي ولا تحزني، وكوني رابطةَ الجأش، فذلك هو قدرنا ولا بد أن تذهبي. إن بقاءك هنا فيه إهدار لشبابك، إذ يجبُ أن يكون لك دار وعيال، ومهما كان مقامك بعيداً عنا لا بد أن تُخبرينا أنك صِرت صاحبة أولاد. وفضلاً عن ذلك لن تستطيعي التكيف مع الجوِّ هنا، فإن حدث وضاع عمرك في هذا السجن وذَبَلت وأنت في سن الشباب ماذا يصير إليه حالي عندئذٍ؟ لا أراني الله ذلك، اذهبي يا بنيتي واسعَدي بحياتك، وعندئذ فقط يستريح بالي».

وكنت كلمـا نزلت إلى أسفل وشاهدت والدي فَرَّت الدموع من عيني، وعدت إلى غرفتي حتى لا يراني على هذه الصورة. . . أنكفِىء على فراشي وأبكي سوء طالِعنا بالساعات. وكان كل يوم من حياتي يمر في ألم وكدر، فهل إذا خرجت من هنا سيكون من نصيبي أن أرى هذين المخلوقين المباركين مرة ثانية؟ وهل سيمر عمري تحسُّراً عليهما؟ وهل لي أن أعرف أخبارهما بعد الآن؟ كيف لي أن أتركهما وأمضي؟ لقد كنت أتقلَّبُ على جمر هذه الأفكار، ولازلت أشعر وأنا أكتب هذه السطور اليوم بالألم والعذاب الذي عانيتُه في تلك الأيام.

واقترب في النهاية يومُ الخروج، وعلمنا أنهم سوف يأخذون حاجياتنا قبلها بيوم، ولم تَعُد لدى طاقة أو تحمل على أن ألمس شيئاً بيدي، وكانت القلفاوات كلشن ودلبسته وملك جهان يُحضِرن حاجياتي سوياً، ولأن ملك جهان كانت مصـابـة بالصداع النصفي فقد تقرَّر أن تصحبني إلى استانبول. وجاء الجنود وأخرجوا حقائبنا وطلبوا منا المفاتيح، وإذا بنا نفهَمُ فيما بعد أن هذا الأمر كانت له حكمة.

ورُحت مساءَ ذلك اليوم أودِّع والدي، فنزلت إلى أسفل أبكي وأرتعد، ثم توقفت مدة عند بابه حتى جمعتُ شَتات نفسي ودخلت إلى غرفته بهدوء.

كان والدي يشعر بالتعب، فجلس على فراشه، وغطى ركبتيه باللحاف، فهرعت نحـوه مبـاشرة وجَثَوْتُ على ركبتيه، وضممت بيدي قدماه من تحت اللحاف ورحت أقبلها والدموع تنهمر من عيني، حتى أوشكت على الاختناق من شدة النحيب. ولم يكن على لساني وقتها إلاّ كلمة: «بابا! بابا!» فأمسك هو رأسي وراح يداعبُ شعري، وقال بصوت مهتز: «تشجَّعي يا بنيتي ولا تبكي» لكنه هو الآخر كان يبكي، وكانت أمي وصالحة ناجية هانم في الغرفة تبكيان وتنتحبان.

وجثوت على الأرض ووضعت رأسي على حديد السرير، وأمضيت هناك ساعـة هي من أتعس ساعات عمري وأكثرها جزعاً. وكان والدي يربِتُ على شعـري ويقول في نفس الوقت: «ابنتي الملاك! إنه قدرنا، اصغي جيداً لما أقول، ولتظلَّ كلماتي في رأسك ولا تنسينها طوالَ عمرك: إن أسرتنا أسرةٌ معذَّبة، مرَّت بها مثل هذه المصائب، ولكن يجب التسليم للقدر، فقد تعذبتم معي تسعة أشهر، ولا أريد أن تُضَحُّوا أكثر من هذا.

ابنتي، إن أعظم نصيحة لك وآخرَها هي أن تحافظي على عِرض العائلة وشرفها أكثر من حفاظك على روحك، ولا تنسَي أبداً أنك ابنتي، واحذَري كل تصرف يُسيء إليَّ، وحافظي على نفسك ولا تُلطِّخي اسمي بالطين.

ابنتي المـلاك! إنـك فتـاة ذكية، ولا أنتظر منك إلا الخير، وأدعو لك بالسعادة، ولتكُن دعواتي من نصيبك.

ابنتي، إن عمَّك اليوم يحتَلُّ مكاني، واحترامك له الآخر، بقدر احترامك وطـاعتـك لي يجعَلُني سعيداً غايةَ السعادة، إنني أطلب منك أن تطيعي كلَّ أوامره، وإذا وجد أخي أنَّ أزواجكن غير مناسبين لدواعٍ سياسية فلا تعتَرِضْن، وكنَّ عفيفات مدى عمركن، وطَلَبي إليكن أن تكتبن لي كثيراً ما أمكن، وتخبرنني بأحوالكن وصحتكن».

وبعـد أن قدم لي نصائحه التي اختَلَطت بدمي، مَدَّ يده إلى المنضدة الصغيرة الموضوعة عند رأسه، وتناول من عليها دبوساً صغيراً من البلاتين كان يعلِّقـه على ربـطة عنقه عند مجيئه من استانبول وناولني إياه وقال: «خذي يا ابنتي! إنه تَذكار إليك» وتناولت الدبوس ثم احتضنتُ قدميه مرة ثانية وقبلتهما، فقال لي: «انقُلي تحياتي إلى أخي، وقولي له: إنني أودعتُكن أمانةً لديه، وهو سيأخذكن إلى السراي ويحميكن، فلا تُقَصِّرن في طاعته».

وتعانقت أيادينا وتبادَلنا القبلات، واختلطت دموعُنا بعضها ببعض، وكانت آخر كلماته: «دعواتي لك بالسعادة والهناء يا بنيتي»، أما أنا فرددت عليه: «كان الله في عونكم يا والدي»، ووصلت إلى حالة كاد أن يُغمى علي فيها، أما لون والدي فقد تحوَّل إلى لون الرماد، وفجأة جذَبَتْني أمي ومعها صالحة ناجية هانم من ذراعي وقالت لي: «ماذا تفعَلين؟ عودي إلى رشدك، إنك تؤلمين أفندينا»، وراحت تشدُّني حتى أخرجتني من الغرفة.

وبعدها طلب أبي القلفة ملك جهان، وبكت هي الأخرى وقبلت قدم أفندينا وودعته. وسمعت أنه قال لها: «لم أقل ذلك لابنتي، فعليك أن تُبلِغي صِهري تحياتي؛ لقد أودعتُها لديه أمانة بعد الله» كما أرسل أيضاً إلى مرضعتي وأوصاها أن لا تفترق عني حتى يفرِّقَ الموت بيننا.

لم يتحـدَّث أبي في ذلـك اليوم معنا فحسب، بل تحدث إلى كل من سيذهبون إلى استانبول واحداً واحداً، وحتى العمال أنفسهم دخلوا عليه وودعوه.

وبعد أن تركت الوالد صعدت إلى غرفتي، وما أن دخلتها حتى أُغمي علي وسقطت على الأرض، وجاءت كلشن ودلبسته ومعهما الكولونيا، فأعادتاني إلى رشدي، وحاولتا الترويح عني.

وأردت أن أودِّع والدتي وكنت أبكي وأصرخ... يا إلهي! كم أنا تعيسة الحظ، أترك أمي وأترك أبي... وفجأة فتح الباب وجاءت أمي، غير أنها لم تدخل وراحت تقول: «ابنتي! اذهبي بالسلامة، أستودِعُك الله، ودعائي لك أن تسعَـدي، فداك مالي وملكي. ولسـوف أظـلُّ مع والدك، فقد وهبتُه روحي، وسأقوم بواجبي حتى النهاية، وما سيقع له فلا بد واقع لي. ابنتي! لتكن دعواتُنا نحن الاثنين من نصيبك، والله حافظك».

أمـا أنـا فلم أكن أقـوى على النهـوض من مكـاني وقلت لها: «تعالَي نتعانق»، إلا أنها جذّبت الباب والدموع تنهمر من عينيها وقالت: «لا أتحمَّل ذلك يا بنيتي، وحسبي أن أراك، وها أنا ماضية إلى والدك، سَعِدت... في أمان الله».

إن ذلـك اليوم الـذي افترقتُ فيه عن أمي وأبي، وقطعت فيه الأمل أن أراهما مرة ثانية، كان يوماً لا يُنسى في حياتي، وفِراقاً يعدِل فراق الموت.

وبينمـا أنـا راقدة في حجرتي كئيبة حزينة جاءت ملك جهان مضطربة وقالت: «أميرتي الشجاعة! لقد رأيتهم الآن من فوق؛ أواه يا أميرتي، لا يجب أن يكون بحوزتك أوراق أو ما يشبه، إنني ذاهبة الآن لأخبر الآخرين» ثم خرجت من الغرفة وانطلقت تركض.

واستبدَّت بي الحَيْرة، وماذا كان يمكن أن أخفيه معي، اللهم إلاَّ بعض الـوُرَيقـات سجلت فيهـا مذكـراتي، ووضعتهـا في حقيبة يدي. وعلى الفور أخرجتها من هذه الحقيبة، وأعطيتها إلى كلشن وقلت لها: «أعطيها إلى أمي، فربما نتقابل يوماً».

وألبسـوني ملابسي بالقـوة، لأول مرة في حياتي سوف أرتـدي العبـاءة (شرشف)، وحتى هذه اللحظة كنا نرتدي اليشمك والخمار.

واستطعتُ بهمة كلشن ودلبسته أن أرتدي الزي الجديد، وجاءت صالحة ناجية هانم، فرُحنا نتعانق ونبكي، وقلت لها: «والدتي[٥٢]! لقد تركتُ لك أمي وأبي أمانة» فأجابتني: «لا تنشغلي أبداً يا أميرتي! إن أمك هي أختي».

والحقيقة أن هذه السيدة كانت هي وأمي أختين وَدُودَتين عاشتا سوياً في

---

(٥٢) كنا نخاطب زوجات الآباء فنقول «يا والدتي» ونحترمهن جميعاً.

وفـاق، وكـانت تُكِنُّ لوالـدتي كل احترام وتقدير، وتعترف لها بكل الحقوق، وتبادلها أمي نفس الشعور، وكانت سيدة حسنة الطباع، رقيقةً ذكية، مخلصة لأولادهـا بقـدر إخلاصها لوالدي، وكنت أحبها منذ إقامتنا في يلديز. ورحتُ فقبَّلت أيضاً أخي الصغير عابد أفندي، وكان المسكين الصغير لا يقابل بكاءَنا إلا بالدهشة والحَيْرة.

وجاءت أيضاً القلفة «سر الجمال» فتعانقنا وكانت تبكي وتقول: «أولاد أفنـدينـا يذهبـون[٥٣]!» وتعـود من ناحية أخـرى تكـرر لنا الدعاءَ تِلو الدعاء. والحاصل أن الذاهبين كانوا يودعون بالبكاء من سيمكثون.

وجاء أيضاً نوري آغا وشُهر الدين آغا، فكانا يودِّعانا من ناحية ويقولان من ناحية أخرى: «هيا يا أميرتي الشجاعة، امضي، إن راسم بك ينتظر عند الباب، وقد أزِف الوقت، إنهم يشيرون بالخروج».

لقـد أقبلت لحظة الفراق إذن، وتسمَّرتُ في مكاني بغير حراك، حتى تأبَّطت ذراعي القلفة ملك جيهان، وأخذتني حتى الباب وهي تقول: «هيا امضي يا أميرتي الشجاعة، هيا الهِمَّة! استعيني بالله».

وكانوا قد أطفؤوا كل مصابيح الغاز في الحديقة، وصِرْنا هذه المرة نخرج في الظلام الحالك على عكس اليوم الذي وَصلنا فيه القصر، وكان راسم بك ينتظر عند نهاية السلم، فراح يتقدَّمنا وهو يشير بيده إلى الطريق، ونزلنا سوياً من السلم الكبير، وتعقَّبنا من الخلف نوري آغا وشهر الدين آغا، وما أن وصلنا إلى مكـان الافتـراق حتى قالا: «بسـلامـة الله، اذهبـوا وامضوا بالتوفيق» ثم راحا يَمسْحـان عيونهمـا التي بلَّلهـا الـدمع بالمناديل، ثم عادا، وصِحنا نحن من خلفهما: «كان الله في عونكم».

---

(٥٣) كانت القلفة «سر الجمال» تنادينا بقولها: «يا وليدة أفندينا العزيز».

وأشار علينا راسم بك بالصعود إلى أعلى، فصَعِدنا من سلم صغير ينتهي إلى غرفة كبيرة تشبه القاعة، مفروشة بأثاث من أثاث دوائر العمال في سراي يلديز، ورحنا نتبادَلُ النظرات من الحَيْرة، وجاء راسم بك إلى باب الحجرة وقال: «لن تخرجوا دون تفتيش». وعلى الفور دخلت سيدتان: إحداهما شابة والأخرى عجوز، فنظرنا إليهما بدهشة ورفضنا التفتيش، ثم توجَّهنا بالسؤال إلى راسم بك: «ما ضَرورة ذلك، فيما تَرَوْن؟» فأجاب الرجل: «لقد احترق فَمُنا من الحليب، ونخشى أن يحرِقنا الزبادي هو الآخر» وغضبنا ووجدنا أنفسنا نقول: «واأسفاه عليكم! يا لكم من أناسٍ لا ضميرَ لهم».

وكنا نستطيعُ أن نقول الكثير، إلا أننا خَشِينا أن يكون ذلك سبباً في جلب متاعبَ أخرى للوالد، فعلى الرغم من رغبتنا في المقاومة إلا أننا صَرَفْنا النظر عنها، مدركين أننا ربما لا يمكننا الخروج من هنا فيما لو حدث عكس ذلك، وكان حسبنا أن قلنا: «فوَّضْنا أمرنا فيكم إلى الله القدير».

وكانت السيدة الشابة إحدى الاثنتين اللتين جاءتا لتفتيشنا هي زوجة راسم بك وعَلِمنا أن الأخرى العجوز هي والدة محمود سعرد.

وأخذوا الأميرة شادية أولاً إلى إحدى الغرف، ثم جاء عليَّ الدور، وأخذوني إلى نفس الغرفة، فماذا رأيت فيها؟ وكانوا قبل يوم قد كتبوا أسماءنا على قمصان النوم التي أخرجوها من بين ملابسنا، وأمرونا أن نخلع ملابسنا ونلبس هذه القمصان، وجعلوا أختي المسكينة الأميرة شادية كما لو كانت خارجة من حمام... انتثر شعرُها وتقطع وجلست على أحد الصناديق الكبيرة، وإذا بها تبكي وتقول: «هل رأيتي يا أختي كيف صار إليه حالي؟» وفعلوا معي أنا الأخرى ما فعلوه معها، وجلست إلى جوارها، ثم جاء الدور على أختي الصغيرة الأميرة رفيعة وثلاث زوجات لوالدي ممن عدن معنا إلى استانبول، وبقية

السيدات الأخريات، فكنا جميعاً وكأننا خارجات من الحمام.

وقد لفَتَت أنظارَنا ونحن جالسات في الغرفة تلك الصناديقُ التي جلسنا عليها، فقد كانت تشبه إلى حد كبير الصناديق الموضوعة في دائرة الملابس في سراي يلدز، ورحنا نتساءل: «إنه لشيءٌ غريب! كيف يحدُث ذلك؟ ما الذي يأتي بصناديق الوالد إلى هنا؟ ولماذا توجد في غرفة الضباط؟ هذا مستحيل، ربما هي مماثلة لها»(٥٤).

وفي النهاية انتهى التفتيشُ وأعطونا ملابسنا، فارتديناها، وقالوا لنا: هيا إلى عرباتكن، تخلَّصنا إذن من أيديهم ورحنا نركض على السلم، واصطف الضباط أمامنا وراحوا يحيُّونَنا... إنه احترام شكلي، ودون أن نرد عليهم التحية انطلقنا نحو العربات وكأنما كنا نريد النجاة بأرواحنا، وكانت العربات إحدى عشرة عربة أعدُّوها لنا، فركب كل اثنين منا واحدة، وأخذتُ القلفة ملك جهان إلى جانبي، وتحرَّكت العربات وراحت تمرق بين طرقات سلانيك، إلا أننا لم نكن لنشهد شيئاً، بل ولم تكن لنا رغبة في ذلك، حتى وصلنا إلى المحطة التي أتينا إليها قبل ذلك مع والدي، وركبنا القطار بصعوبة، كما نَزَلنا منه قبل ذلك بصعوبة، وكانت به عربة ذات صالون، جلسنا فيها ورحنا نمسح دموعنا حزناً على ذكرى الأيام التي أتينا فيها.

---

(٥٤) علمنا فيما بعد أن السلطان رشاد عندما جاء أول مرة إلى يلديز أمر بفتح هذه الصناديق ونظر فيها، فلما رأى بها ملابس وقمصان وصدريات وغير ذلك قال: «هذه الأشياء لأخي، وعليكم أن ترسلوها إلى سلانيك»، هذا في حين أن الأشياء لم تكن ذات قيمة بالمرة، فقد كانت ملابسه القديمة، تجمع كل عامين أو ثلاثة وتوزع على العمال في السراي. وتحسباً لأي احتمال لم يعطوها لوالدي وظلوا يخفونها في مكانها حتى وصل إلى استانبول أثناء حرب البلقان، وعرضوها عليه في سراي بكلربكي داخل أربعة صناديق فقال لهم: «مالي وهذه الأشياء القديمة البالية، وزِّعوها على العمال، أو افعلوا بها ما تشاؤون».

إننا ماضون الآن، وقد تركنا خلفنا والدنا الحبيب، ولم يعد في أيٍّ منا قدرة أو طاقـة، إن أبواب العربات مغلقة بالأقفال أيضاً هذه المرة. هل نحن ماضون إلى سجن آخر؟ كل شيء مجهول، وراسم بك يأتي معنا هو الآخر، ونمضي جميعاً تحت حراسة الجندرمة، وقد تمدَّدنا على المقاعد دون أن ننزع عنا المُلَاءات، وجلَست البنات اللائي بصحبتنا على أرض العربة.

ووصلنـا استـانبول، فصاح علينا جوهر آغا: «استعدُّوا، اقتربت محطة الوصول» وعلى الفور نهضنا ورُحنا نسوي ملابسنا ونستُر رؤوسنا، ووصلنا محطة «السركجي» وتوقَّف القطار.

وفي تلك اللحظات ظَهَر راسم بك وجاء أمام عرباتنا وحيَّانا ثم انسحب ومضى، ورحنا نتطلَّع في حَيْرةٍ إلى ما حولنا. . . إن الحراس يمضون، فإذا بنا نشعر أننا تخلَّصنا من الأسر، ونِلْنا حرياتنا، وذهب عنا الكابوس الذي كان يكتم أنفاسنا مع ذهاب راسم بك.

وهنا أودُّ أن أذكر للتاريخ قائمةً بأسماء العائدين من قصر علاتيني إلى استانبول:

من أولاد السلطان عبد الحميد والدي:

١ ـ عبد الرحيم أفندي.
٢ ـ الأميرة شادية.
٣ ـ أنا [الأميرة عائشة عثمان مؤلفة الكتاب].
٤ ـ الأميرة رفيعة.

من حريم الوالد:

٥ ـ بيوسته هانم [والدة عبد الرحيم أفندي].

٦ ـ سازكار هانم (والدة الأميرة رفيعة).
٧ ـ فاطمة هانم (والدة المرحومة الأميرة خديجة).

القلفـــاوات:

٨ ـ القلفة ملك جهان (جاءت بصحبتي).
٩ ـ القلفة نوبرند (جاءت بصحبة فاطمة هانم).
١٠ ـ القلفة جنان يار (جاءت بصحبة فاطمة هانم).
١١ ـ القلفة جوهريز (جاءت لأنها شابة صغيرة).
١٢ ـ القلفة نورستان (جاءت لأنها شابة صغيرة).

الذكـــور:

١٣ ـ جركس محمد باشا (أخ بيدار قادين) [إحدى زوجات السلطان عبد الحميد].
١٤ ـ الكاتب الخصوصي علي محسن بك (مطروداً).
١٥ ـ الكيلارجي صدقي (جاء لضيقه من الاضطهاد).
١٦ ـ الكيلارجي حقي (جاء لنفس السبب).
١٧ ـ الطباخ مصطفى (جاء لنفس السبب).
١٨ ـ المصاحب الثاني جوهر آغا (جاء لعدم تحمله المشاركة في الأزمة).
١٩ ـ المصاحب سليم آغا (جاء لنفس السبب).

وكان في المحطة جمع غفير من الناس، كان من بينهم عمال السراي القدامى الذين جاؤوا لاستقبالنا، ولمحت عيناي أول ما لمحت مرضعتي وخالتي، راحتا تركُضان نحوي، فتعانقنا، وجاء أخي الصغير نور الدين أفندي

يهرع ناحيتنا، والتَفَّ حول عنقي وسألني متلعثماً: «تيته[٥٥]! كيف حال أبي؟» فمسحتُ على رأسه مداعبةً وقلت له: «بخير يا سكر لا تشغَل بالك، إنه يبعَثُ لك قبلاته ويقول: َعليه أن يقرأ ويجتهد ليصبح رجلاً» فتأوَّه من أعماقه وقال: «وددت لو صحبتُ والدي، لقد ضيعت طربوشي، وكيف كان لي أن أقابله بغير طربوش؟ ومنعني العساكر من الانتقال إلى الطرف الآخر».

وكان واضحاً أنه مازال يعيش أحزان تلك اللحظات، وعانقتني أمه بهيجة هانم الزوجة الخامسة لوالدي، وأعدُّوا لنا العربة، وكانت حماتي[٥٦] تنتظرني هي الأخـرى في المحطة، فقدَّمت لي باقةً من الورد الأبيض أرسلها خطيبي أحمد نامي بك، أيقظت بها في فؤادي الشاب مشاعر الأمل والبهجة.

وعلى الفور ركبنا العربة وتوجهنا إلى قصر ناظم باشا الذي استأجروه في «نشان طاشي»، وما أن وصلت القصر حتى طرحتُ نفسي على الفراش الذي أعدوه لي من قبل، فقد كنت في حالة من الإنهاك نتيجة للمشقة والجوع والآلام النفسية، وجاء إخوتي وأخواتي الكبار، غير أني لم أكن قادرة على التحدث مع أحدهم كما يجب، وجاءت أيضاً بنات السلطان عبد العزيز، واستطعتُ بصعوبة أن أتحدَّث قليلاً معهن.

استـدعوا لي الدكتور «قصابيان» ففحصني وكتب الأدوية اللازمة، ونبَّه عليهم بشدة أن أظل في الفراش لعدة أيام في سكون وهدوء.

لم يصلنا حتى مجرد سلام من عمي السلطان رشاد الذي أودَعَنا أبي أمانةً لديه، وقـال: إنه سيحمينا؛ غير أن عمي كان مُجبراً على ذلك، ولو أنه كان استقبلنا فور وصولنا لكان من الواجب عليه أن يأخذنا إلى السراي، وهذا أمر لا

(٥٥) كان نور الدين أفندي وهو طفل صغير يخاطبني بهذه الكلمة «تيته».

(٥٦) حورية هانم أفندي زوجة إبراهيم فخري بك أحد أشراف بيروت (ن).

يُحبِّذُه الاتحاديون. وأمضيت تلك الليلة في راحة بين عيون كانت تحيطني بحنانها.

وفي صباح اليوم التالي جاءنا الخبر أن المصاحب الأول للسلطان رشاد قد وصل، فنهضتُ واستقبلته، فقال لي: «إن أفندينا يبعَثُ إليكم تحياته الخاصة ويقبِّلكم من عيونكم، ويقول لكم: أهلاً ومرحباً، ويوَدُّ لو علم الأخبار عن صحة أخيه»، وقلت له: «إنني أعـرض شكـري على تحياتـه الشاهانية، وقد أمرني والدي أن أذهب لزيارة جلالته على الفور، ولكنكم تَرَوْنَ أني في وعكة، وقد عادني الطبيب مساءَ الأمس وأوصى بعدم خروجي أسبوعاً، وبمشيئة الله سوف أفي بواجبي فور أن تطيب صحتي، وعندئذ أمرغ وجهي عند تراب عتبة جلالته، وأقـدم بنفسي تحيات الـوالـد إليه. وأود أن أشكـركم بصفة خاصة» وانحنى المصاحب الأول لتحيتي حتى الأرض ثم انصرف.

وفي اليوم الثالث من وصولنا إستانبول جاء راسم بك إلى السلاملك في القصر، وأخبرهم أنه عائد إلى سلانيك، وأوصاهم أن يسألوني هل أرغب في شيء، فبكيتُ وقمت على الفور وكتبت خطاباً لأمي وأبي أخبرتهما فيه أننا وصلنا سالمين، وأنني أقيم الآن في بيت نور الـدين أفندي، ودعواتي لهما بالصحة والعافية، ثم أرسلت الخطاب مفتوحاً إلى راسم بك، ورجوتُه أن أرسل باسمه هو عدة خطابـات أخـرى من حين لآخـر، وعليه أن يسلمها لوالدي، وأن لا يحرمني من سماع الأخبار عن صحتيهما. وكان راسم بك قد أوصاهم أن أرسل الخطابات على عنوان دائرة القيادة العسكرية، ثم انصرف.

كان قد شَغَفني معرفة الصورة التي علموا بها عن وصولنا حتى استقبلونا في استانبول بهذا الجمع الغفير، وبالفعل سألتهم وعلمتُ السبب؛ إذ قيل: إن السلطان رشاد أخبر أخانا الأكبر سليم أفندي بأننا واصلون في الغد؛ فقام الأخير

وأخبر كل أفراد العائلة، وبهذه الصورة وجدتُ الرجال جميعهم مجتمعين في المحطة.

مثولنا بين يدي السلطان

استطعت بعد أسبوع أن أستجمع قُواي، وكان يجب أن أذهب لمقابلة جلالة السلطان؛ فاصطحبت مربيتي وذهبت إلى سراي «طولمه باغجه» مرتدية الزي الرسمي: الخمار واليشمك، لمقابلة عمي السلطان رشاد، فهكذا أوصاني أبي، ولكن لماذا أكذب؟ لقد كان الأمر صعباً عليَّ...

وفور أن دخلت السراي كان أول ما لَفَت نظري هو الفوضى التي كان عليها؛ ولم يكن هناك غير واحدة أو اثنتين من القلفاوات الكاتبات في دائرة الحريم، أما في السلاملك فقد فَتَح لنا الآغوات الباب، والبوابون في هيئة لا تدُلُّ على عناية كبيرة، ولم تَرَ عيناي إلا بعض القلفاوات المعمَّرات منذ زمن في السراي، ظللن ينتقلن من سلطان إلى سلطان حتى وَصَلْن السلطان رشاد، جئن وشرعن يرفَعْن ذيل ثيابي، وكانت عيونهن دامعة، وطيَّبتُ خاطرهن بالسؤال واحدة واحدة، غير أن واحدة منهن لم تجرؤ على التفوه بكلمة واحدة عن والدي؛ فقد ضُربت الأقفال على أفواههن.

وفي تلك الأثناء وصلت «الخزينة دار اسطى» من طرف جلالة السلطان وقالت: «أهلاً ومرحباً أميرتي، أنقل إليك تحيات أفندينا، تفضَّلن استرحن، سوف يستقبلكن السلطان الآن»، وقلت: «له الأمر»، ثم رحت أنتظر، وبعد لحظات جاءت الخزينة دار الثانية وقالت: «أفندينا يطلبكن»؛ فمضينا إلى «دائرة السلطان».

قبل أن تسوء العَلاقة بين والدي والسلطان رشاد، في أشهر رمضان أيام كنت طفلة صغيرة، كان السلطان رشاد يَفِدُ على السراي بين الحين والآخر

فيتباحث مع والدي، وقدَّمني له آنذاك مرة أو مرتين، غير أن صورة عمي وملامحه لم تعلَق بذهني.

وكان جلالته يقف على قدميه في قاعة الاستقبال، وفور أن وصلت إلى الباب انحنيت له تحيةً، ومضيت نحوه وقمتُ بإيفاء كل رسوم التعظيم التي كنت أقوم بها لوالدي؛ فابتسم هو الآخر وراح يتطلَّع إلى وجهي، ونقلتُ إليه وأنا ماأزال واقفة على قدمي تحيات والدي، غير أني لم أستطع أن أذكر له أن الوالد أودَعنا أمانةً لدى ذاته الشاهانية، فلم تخرُج هذه العبارة من فمي؛ لأني كنت أدركت أن قولها لن يُجدِي شيئاً.

وقال لي: «تفضلي بالجلوس أيتها الأميرة»؛ فانتظرت جلوسه وانحنيت تحيةً له، ثم جلست على أريكة هناك، وإذا به يجامِلُني ويقول: «ما شاء الله، أراك أميرة غايةً في الجمال»، ثم أضاف: «إن شاء الله أخونا بصحة وعافية» فأجبته: «نعم أفندينا! لله الحمدُ، صحته بخير، وقد أمرنا ونبَّه علينا مراراً أن نمرِّغَ الوجه على تراب عتبتكم فور وصولنا إستانبول، غير أني بسبب وعكة ألمَّت بي لم أستطع الوفاء بواجبي حتى اليوم»؛ فقال: «إن شاء الله زالت عنكم الوعكة؟»؛ فشكرته وقلت له: إنها زالت.

فسألني يقول: «هل لأخينا طلبات؟» فقلت له: «نعم أفندينا؟ إنه يشكركم على حسن تلطفكم وتعاطفكم، وبسبب مرض بعض القلفاوات والعمال الذين كانوا صَحِبونا إلى سلانيك لم يستطيعوا البقاء في القصر فعادوا، ولم يَبْقَ أحد هناك يقوم على خدمة الوالد، وقد أمرني أن أخبركم برجائه أن ترسلوا بعض الأشخاص، وثِقَتُه كلها إنما هي في ذاتكم الشاهانية»؛ فقال: «بمشيئة الله نحقِّقُ كل رغبات أخينا».

ثم سألني: «أهناك بقِيت والدتكم؟» فأجبته بنعم، وإذا به يتطلَّع إلى

وجهي مشفقاً ويقول: «اطمئني، فسوف أرسل إلى أخي كلَّ من يَطلُب من الرجال» ثم ابتسم وأضاف: «لقد أرسل إليَّ خبراً آخر[٥٧]؛ طلب مني فيه أن أسارِعَ بزواجكم، وبمشيئة الله أقومُ بهذا أيضاً»، فتطلَّعت إلى قدمي خجلاً وقلت: «أمدَّ الله في عمر جلالتكم».

ونهض السلطان على قدميه، فسِرتُ وانحنيتُ عند يديه إيفاءً بواجب التحية والتعظيم، ثم خرجت.

لم أجد في السلطان رشاد بعض الملامح والسمات الخاصة بآل عثمان، غير أنه كان واضحاً في تأدبه ومودته أنه واحد منهم... قيل: إنه كان قبلَ ذلك أشقر اللون، عيناه واسعتان زرقاوان جميلتان، ناصع بياض الوجه واللحية، مستقيم الأنف، عريض الأشداق، غليظ الشفتين... لا تفارقه البسمة وهو يتحدَّث، وكان يبذل العبارات الجميلة الرقيقة، بسيط في حركاته وأطواره، كما هو بسيط في هندامه وملبسه، يرتدي سترة «ردنجوت» سوداء، وطربوشاً طويلاً ينزل حتى أذنيه... شخصية وَقُورة تجعله يبدو أكبر من سنه.

وكنت كلما ذهبت إلى السراي سواء في موضوع زواجي، أو في بعض طلباتي الأخرى، كنت أرى منه دائماً حسنَ الاستقبال، وفي كل مرة كان يحدِّثني بكل الود؛ فقد كان سلطاناً متديناً.

وكما ذكرت سابقاً أن حاجياتي كان مغلقاً عليها في سراي يلديز؛ فطلبت الإذن لإخراجها، فخصَّصوا لنا عربات من «الإصطبل الخاص» نقلت هذه الأشياء إلى منزلي في حي «ببك» وهو المنزل الذي اشتراه لي والدي قبل خلعه عن العرش.

---

(٥٧) أرسل والدي هذا الخبر بواسطة راسم بك، وعلمنا بذلك فيما بعد.

وذهب أحمد نامي بك إلى السراي، ورجا السلطان ضرورة الإسراع في عقد قِراننا، وذهبت أنا وأختي الأميرة رفيعة إلى سراي «طولمة باغجه»، وقام شيخ الإسلام موسى كاظم أفندي بعقد القران في المابين الهمايوني، وبعد شهرين من العقد أُقيم حفل العرس في قصري بحي ببك، واشترك فيه أخواتي والأميرات الأخريات وأصدقاؤنا ومعارفنا، وكانت نفقاته من «خزينة الخاصة»، وأراد السلطان إرسال فريق الموسيقى في السراي غير أني لم أقبل، وتَمَّ زواجنا على هذا النحو بمراسم خاصة، فضلاً عن أننا لم نتَلَقَّ من جلالة السلطان هدية ولو صغيرة، وأبرقت إلى أبي وأمي عن طريق القيادة العسكرية في سلانيك بخبر زواجنا، وتسلَّمت بعدها من أمي خطاباً أعربت فيه عن سرورها وابتهاجها.

وبعد عام من زواجنا رُزقت بولدي عمر، وأبرقت إلى والدي فأخبرتُه، كما ذهب أحمد نامي بك إلى السلطان رشاد وأحاطه علماً بمولودنا، وكنت قبل أن أتلقَّى رد برقيتي لوالدي قد سمَّيتُ ابني عمر، فلما جاءني ردُّ الوالد وجدتُه يطلب مني أن نسمِّيَ المولود «محمد شاكر»، ولأن الرد جاء متأخراً لم نستَطِع أن نأخذ من الاسم إلا كلمة «محمد»، وعليه جعلنا اسم المولود «محمد عمر».

وكانت الجهة التي يتوجه الناس إليها بالطلب أيام سلطنة والدي هي السراي والسلطان نفسه، أما في عهد السلطان رشاد فكان يتوجَّبُ عليهم الرجوع إلى «جمعية الاتحاد والترقي»، ولم يكن قد بَقِي للسطان أي سلطة تقريباً، وصار منح الرتب والمناصب مَنُوطاً بهذه الجمعية فحسب.

لقد كان كبارُ الاتحاديين هم الذين يسيِّرون دَفَّة أمور السلطنة، وكان البعض من الباشوات والبكوات المرائين يتنزلون إلى أدنى الدرجات في تملقهم لهؤلاء الأشخاص، وسيطر على مقدَّرات البلاد بعض ذوي الرتب العالية ممن يُنسَبون للاتحاد والترقي، وراح قسم منهم يملأ جُعباته بالأموال، بينما أغمض

القسم الآخر عيونه عنهم، وكانوا في سبيلهم إلى القضاء على الدولة والإمبراطورية.

وكانت زوجاتهم تسبَحن في الماس ومعاطف الفراء، وتَقُمن بالرحلات تلو الرحلات (إلى ألمانيا في الغالب) ليس إلا من أجل اللهو والمجون، وكنَّ يُنفِقن على رحلاتهن هذه من الثروات المنهوبة من سراي يلديز والسرايات الأخرى، ومن مال والدي الشخصي الذي استولَوا عليه عَنوة باسم «الجيش الثالث»، ومن مجوهرات الأسرة الخاصة التي باعوها في باريس.

كانت هناك أموال وثروات محفوظة في سراي طوب قابي إلى وقت خلع أبي عن العرش تخلَّفتِ عن الأمراء المتوفّين، وكذا متعلقات الأميرات المتوفيات، فتقاسموها فيما بينهم وذهبت إلى جيوبهم، وكان والدي يقول عن هذه الأموال: «إنها أموال الأمة، حافظ عليها أجدادُنا العظام اعتقاداً منهم أنها قد تنفَعُ حين الحاجة، والحفاظُ عليها من أجل أيامنا الصعبة ـ لا قدَّر الله ـ واجب ودَين في أعناقنا» وقد عُنِي والدي أكبر عناية بها؛ ولم يكن ليعطي منها حبة لأحد، أو حتى لأولاده وعياله.

لقد تجاوز الاتحاديون حدودهم كثيراً، وكانت أوامرهم تَصِل حتى «دائرة حريم» السلطان، وكان عمي رجلاً طيباً لَيِّنَ الجانب، رأى نفسه مضطراً لاتباع كلام هؤلاء الرجال، رَضِي أو لم يرض، خشية أن تَقَع على رأسه المصيبة التي وقعت لأخيه.

وكنا نحن أبناء وبنات السلطان عبد الحميد بصفة خاصة يَرُوعنا التردد على السراي والاقتراب من السلطان؛ لأن الوالد كان بمثابة أسير تحت أيدي الاتحاديين، وكان بأيديهم أن يتآمروا عليه كيفما شاؤوا، ولهذا السبب عِشنا بعيداً، اعتقاداً منا أن تصرُّفاً خاطئاً ربما يؤدي إلى تعرض الوالد لأذى، كنا ندخل

من باب السراي؛ ولكن ظَلِلنا متفرِّجين من بعيد دون التدخل في أمور السياسة.

وأستطيعُ أن أقولَ: إن كلَّ هؤلاء الباشوات والبكوات أصحاب القدرة والقوة ممن احتَكَروا الوطنية، وحَصَروها في أنفسهم دون غيرهم، كانوا في الوقت الذي يعيشون فيه عهد «آغوات الأوجاق»، كنا نحن نخطو خطواتِنا بحساب.

□□□□□

القسم الخامس

حياة والدي حتى عودته إلى استانبول من جديد

وصوله إلى استانبول من سلانيك

كانت الدنيا قد تغيَّرت، واختلطت أحوال البلقان، وبدأت تسوء الأمور يوماً بعد يوم، وأحالت المعارك الحزبية أوضاعَنا الداخلية إلى حالة من الاضطراب، وانسحب سعيد باشا الذي أتى بكارثة على رأس الدولة عندما أغفل «اتحاد البلقان» المعادي لنا، وترك مكانه للغازي [المجاهد] أحمد مختار باشا، واشتَعلت حرب البلقان، وكانت نتيجتها الهزيمة، وتعرَّض الروملي للغزو، وكانت سلانيك هي الأخرى على وشك الخروج من أيدينا.

ولما بدأت تتعرض سلانيك للخطر قرَّروا نقل والدي إلى استانبول، وكان هذا الخبر الذي تلقَّيناه روايةً عن رواية أمراً أفقَدنا الراحة، وبدأنا نفكِّر وضاقت نفوسنا، وكان أخشى ما نخشاه آنذاك أن تتعرَّض حياة الوالد لسوء، إذ يجعلون منها فتنة وتأتي المصيبة على رأسه . . . آه يا سلطان عبد العزيز! لقد كانت نهايته دائماً أمام أعيننا. . . ولم نَنْسَ أبداً ذلك.

وفي النهاية سمعنا يوماً أن اثنين من الأصهار ذهبا لإحضار الوالدَ، وأن إمبراطور ألمانيا خصَّص لنقله باخرةَ السفارة (Lorelei) ، وكان هناك من أخبرنا سراً من عمال سراي «طموله باغجه» أنه سيأتي إلى سراي «بكلربكي»، وبدأتُ إذن منذ ذلك اليوم أترصَّدُ بالنظارة المكبِّرة ذلك السراي كل يوم؛ فقد كان يبدو بوضوح من قصري في ببك.

وفي يوم الجمعة أول نوفمبر ١٩١٢م رأيتُ عند الظهيرة الباخرة (Lorelei) وصلت وألقت مراسيها أمام السراي، واقتربت قواربُها من باب الحريم، وعلى الفور أخبرتُ أختي الأميرة نائلة، وعلمت لحظتها أن زوج أختي الداماد عارف حكمت باشا جاء بصحبة والدي، وأنهما وَصَلا إلى سراي بكلربكي، وصار شغلي الشاغل النظر بالنظارة المكبرة إلى السراي. . . وماذا كان يمكنني أن أراه من الخارج؟ غير جدرانه، بل غير أحجاره. . . كانت تبدو مريحة لناظري. . . أنظُر وأفكر. . . ماذا يجري داخله؟ وأبي أين يجلس الآن؟ وأمي في أي جانب منه؟ هل هما مستريحان؟ أم مكتئبان؟ . . .

أول مرة أشهد أبي بالنظارة

وبينما أنا أفكِّر في كل هذا جاءني من أختي الأميرة نائلة ذات مساء خبرٌ قالت فيه: «على أختي أن تأتي إليَّ هذا المساء؛ فعندي لها مفاجأة»، وعلى الفور ركبتُ عربتي وتوجَّهت إليها، فإذا بها تقول: «سأريك أبي هذا المساء»؛ فغمرتني الفرحة ورحت أقبِّلها، ثم تناولنا النظارة المكبرة وبدأنا نتطلَّع نحو حديقة السراي، وكانت تظهر بكاملها من قصر أختي، وكنا نعلم الساعة التي يخرُج فيها والدي إلى الحديقة لتنسُّم الهواء، وأخيراً جاءت اللحظة التي انتظرناه فيها؛ فكنا نراه وباب الحريم يُفتح ويخرج هو منه؛ فكان وكأنه أمامنا، وخرجت أمي من خلفه.

يا إلهي! إنه أبي الحبيب وأمي الحبيبة أراهما، وصرت لا أرى شيئاً من خلال النظارة من كثرة ما بللتها دموع بكائي، وكان والدي يَلُفُّ حول «حجر الركوب»، وظننت ساعتها أنه يرانا كلما وجَّه وجهه ناحيتنا. . . كم سنة مضت ثم كان من نصيبنا أن نراه ولو هذه اللحظات. . . وكنت أشكُر الله وأحمده وتحدوني الرغبة لأن أشبع ناظري من التطلع إليه، وكانت النظارة تقربهما إلي.

وفجأةً راودتني فكرة. . . سوف ألوح إليه بإشارة وليكن ما يكون، وتناولتُ قطعة من القماش الأبيض تُشبه المنديل الكبير، ورُحت ألوح بكل قوتي، وظَللت أفعل ذلك، ثم نظرت بالنظارة بعدها، والتَفَتَ الوالد ناحيتنا وتطلّع، وراح يقول شيئاً لأمي، وقالت له هي الأخرى شيئاً، ورفع يدَه على رأسه كأنّما يُحيِّينا، وفعلت أمي كذلك، ثم عاد كلاهما ودخلا السراي.

لقد كانت رؤيتي لأبي وأمي بصحة وعافية ـ ولو هذا القدر الضّئيل بعد مرور السنوات ـ أكبرَ عَزَاءٍ لي، وباعثاً على فرحي وامتناني.

وعَلِمتُ فيما بعد أنه قال: «عليهم أن لا يَفعلوا ذلك مرة أخرى، لا أريد أن يصيبهم مكروه». ونحن في الأصل لم نكن لنفعل هذا كل يوم، وبهذا القدر كنا نجد العزاء.

كنا قد قدَّمنا ـ إخوة وأخوات وعلى رأسنا أكبر الإخوة محمد سليم أفندي ـ طلباً إلى جلالة السلطان، رَجَوْناه فيه أن يسمح لنا أن نرسل بين الحين والآخر رجالَنا لنعلم أخبار الوالد؛ فكنا نرسل أيام الجمعة آغواتنا إلى راسم بك، نعلمُ بواسطتهم الأخبار ونسأل عن طلباتهم ورغباتهم، ونقدِّم للوالدين بعض ما يطلبون.

وقد طلب أبي مني مرةً أن أحِيك له بعض ألحِفة الكَتّان التي يستخدمها في السراي وأرسلها إليه، وطلبت أمي أن أحيك لها هي الأخرى بعض الملابس وغيرها، وعلى الفور فعلتُ كل ذلك، وقدَّمته بكل السعادة إليهما، وكان طبيعيًّا أن تمر هذه الأشياء على الفحص والمعاينة ثم تنتقل إليهما.

عمر يزور جده

كان ابني عمر في تلك الأثناء طفلاً جميلاً يُشبه الملاك، ويبلغ من العمر عامين ونصف العام، وذات يوم كتبت خطاباً خصوصياً إلى راسم بك رجوتُه فيه

أن أعـرِضَ الـطفـل على والـدَيَّ اللذين اشتقت إليهما منذ سنين، ويبدو أن الخطاب حرَّك مشاعره بحيث وافق، فوجدتُ نفسي أدعو له لأول مرة من صميم قلبي أن يرضى الله عنـه، واتباعاً لترتيب وتنظيم راسم بك سلَّمتُ الطفل إلى مرضعتي ومربيته، ونبَّهت عليهما أن تحملاه إلى باب السراي وتسلِّماه إلى راسم بك، ثم ركبتا العربة وعَبَرتا بالباخرة إلى الطرف المقابل. وكان الطفلُ عاقلاً ذكياً رقيقاً، عوَّدتُه كل صباح أن يأخذ صورة أبي ويقبِّلها؛ فكنت أقول له: «ها هي صورة جدك، جدك الحلو، قبِّلها»، وعلى هذا النحو أصبح عمر يعرف الوالد من صورته.

وسلَّمتا الطفل كما نبهت عليهما إلى راسم بك عند الباب، ولم يكن من طبيعة الطفل أن يَجفِلَ من أحد أو ينفر ويغضب. وقام راسم بك بتسليمه إلى نوري آغا الذي حَمَله إلى دائرة الحريم. وقيل: إن أبي وأمي كانا يجلسان في «القاعة الوردية»، فلما شَهِدا نوري آغا يدخل وعلى صدره طفل جميل سألاه في حَيرة ودهشة: «من يكون هذا الوليد الجميل؟ ومن أين ظهر؟» أجابهما الرجل بقوله: «إنه عمر بك ابن الأميرة عائشة يا أفندينا».

وغمـرت والدي الفرحةُ، فتناوله إلى صدره، ولا بد أن عمر كان يعرف الوالد من صورته، لأنه فور أن رآه قال: «أوه! جَدِّي الحلو»، ثم راح يقبِّل لحيته، وكنت قد علَّقت على صدر الـطفـل سلسلة تحمل صورة الوالد، راح الطفل يمسكهـا بأصـابعه الصغيرة ويُبرِزها له وهو يردد عبارته: «أوه! جدي الحلو»، وَاغْـرَورَقَت عينا أبي بالدمع وهو يقبِّل الطفل من رأسه، ولم يشأ أن يُنزله عن صدره. وقد أقسمت لي أمي وقالت: «لقد عشتُ مع أبيك سنوات طويلة، لم أره يوماً من الأيام يبكي من أعماقه كما بكى هذه اللحظة».

لم تجد أمي فرصةً تقبِّل فيها الطفل؛ فقد ظلت متفرجة، وأهاج الطفل

مشاعر من رأوه على هذه الحال. وبعد أن ظل ساعة كاملة بين أحضان والدي، اضطر نوري آغا أن يقول له: «انتهى الوقتُ يا أفندينا، إن راسم بك لا يدَعُه لنا أكثر من ذلك»؛ فقال له الوالد: «قل لراسم بك أن ينقُل إلى ابنتي بالحرف الواحد كل ما أقوله: يحفظ الله لها ابنها، وينقل إليها شكري على أنها لم تَنسَني وعرَّفتني للطفل، لقد سُرِرت كثيراً على تربيتها له بهذا الشكل، ولا حيلة لي إلا الدعاء، إن شعره جميل، ولكن عليها أن تقصِّرَه؛ فالطفل الذكر يجب أن ينشأ مثل الذكر». وجاء راسم بك بالطفل وسلَّمه إلى مرضعتي بعد أن نقل إليها ما قاله أبي، كما نَقَل سلامه وتحياته.

وفي تلك الأيام رزقني الله بمولودة، فأخبرت والدي بمولدها، فأرسل راسم بك إلى منزلي وأوصاني أن أسميها «عالية»، غير أن الطفلة لم تَعِش مع الأسف؛ فقد فقدتها بعد ذلك اليوم، وجاءني راسم بك أيضاً يحمل تعازي الوالد إليَّ ومشاركته أحزاني، فقد حزن الوالد كثيراً كما حزنت أمي.

عيد الأضحى الأول بعد عودته إلى استانبول

كنا قد بدأنا نتحرَّك إخوة وأخوات، وأردنا أن نزور الوالد بأي صورة، فذهبنا واحداً واحداً إلى السراي، ورجونا جلالة السلطان حتى اضطر في النهاية أن يقبَل رجاءنا. وأرسل إلينا أحد مصاحبيه يَزُف إلينا البشرى بالزيارة ثاني أيام العيد (٢١ نوفمبر ١٩١٢م)؛ فاجتمعنا عند أختنا الكبرى الأميرة زكية، إذ كان قد أخبرنا أننا سنُنقل من هناك إلى «سراي بكلربكي» في الطرف المقابل مباشرة، وأن الترتيبات تَمَّت على ذلك، وسيكون في رفقتنا موظف المابين الثاني «نزهت بك» لمقابلة جلالة السلطان.

وفرحنا وكأنما الدنيا صارت بين أيدينا، وذهبنا في الصباح الباكر إلى قصر أختي الأميرة زكية، فكانت كل الأخوات والأمهات هناك، وبلغت الساعة

العاشرة، والقوارب على أُهبة الاستعداد، وارتدت كل منا اليشمك والخمار، وصحبتنـا القلفـاوات المعمَّـرات. كان القارب الأول لنا ولزوجات السلاطين وأطفـالنـا وكـل أحفـاد الوالد ذكوراً وإناثاً، بينما ركبت القلفاوات في القارب الثاني، وسِرنا حتى اقتربنا من باب السراي الذي يسمى «باب الوالدة» ثم دخلنا.

اصطف الضباط كلهم في الحديقة وعلى رأسهم راسم بك، وقدَّموا لنا التحية هم وبقية العسـاكـر، ثم فُتِحت أبواب دائرة الحريم واستقبلنا مصاحبو الوالد حتى دخلنا.

كان الوالد يقف عند أول السلم الصغير أمام الباب في انتظارنا، وفور أن دخلنا محاولين الحفاظ على ترتيب أقدمياتنا وشرعنا نقبِّلُ يده ونعانقه، اختلطت دمـوعـه بدموعنا، وكنا نقبِّله بنَهم، وبعدها رحت أعانق والدتي . . . مرة ثانية تجمعنا الدنيا، ويا لهذه الدنيا ومالها من دلال غريب! فها نحن بعد مصائب عديدةٍ يُكتَب لنا أن نلتقي مرة ثانية بوالدي.

كنا جميعاً نبكي، وكان هو الوحيد بيننا الأكثر ثباتاً وتماسكاً، فتقدَّمنا هو وقال: «تعالَوا يا أولادي فلننتقل إلى القاعة»، ودخلنا خلفه إلى «القاعة الوردية»، ولم نكن خلال هذا الزحام قد رأينا زوجة راسم بك رئيس الحرس، فالتَفَت الوالد إلينا وقال: «تلكم هي حرم راسم بك رئيس حرسنا، واليوم هي ضيفةٌ علينا، إن راسم بك يُعنَى بنا أكبر عناية، ويحقق لنا كل رغباتنا، وحرمه أيضاً ستكون بيننا، وأريد منكم أن تعاملوها بمودَّة». وقلنا له: «الأمر لكم» ثم رحنا نصافحها، ونحن في الأصل كنا قد رأيناها ليلة أن خرجنا من سلانيك فقلت لها: «كيف حالُك؟ هل أنتم بخير يا سيدتي؟» ونَظَرت إلى الأرض خجلاً وشكرتني، فكانت نظرة والدي إلى حديثنا بهذه الصورة كمن حار ودهش؛ لأنه لم يكن يعلم حتى تلك

اللحظة ماذا حدث لنا ليلة أن غادرنا سلانيك.

جلس والـدي على أريكـة كبيرة وسط القـاعـة، وسَحَبنا نحن المقاعد وجلسنـا حوله، وكانت المسكينة «بدر فلك» الزوجة الأولى تجلس إلى جواره تقبِّـل في يديه وركبتيه وتبكي، بينمـا راح هو يسألنا واحداً واحداً عن أحوالنا وصحتنا ويسأل عن أزواجنا، وطلب إلينا أن تجلس زوجة راسم بك في مقدمتنا مشيراً بنفسه إلى موضعها، وجلست هي الأخرى، وكان واضحاً في نفس الوقت أنها متأثرة لحالنا؛ فقد كانت تبكي وتروح تمسح دموعها بين الحين والآخر.

وأحاط الأحفاد بنين وبنات بوالدي من كل جانب، فجلس بعضهم عند قدميه والبعض الآخر بجوار الأريكة، أما ابني عمر فكان واقفاً بين ركبتيه يحاول أن يقبِض على دخان السيجارة التي يشرَبُها والدي، وكان والدي سعيداً بذلك، يداعِبُه ويمسح على رأسه، أما الأطفال: أورخان وعبد الكريم وعابد، فكانوا يلعبون ويركضون داخل وخارج القاعة.

كان الوالد يسألنا ويكرر السؤال لنا ولأمهاتنا: «هل أنتن مستريحات؟» كما دخلت القلفاوات والمربيات اللائي اصطحبناهن ورُحْن يقبِّلن ذيل ثوبه كما هي التقاليد في السراي، وأعرب أبي عن امتنانه لمجيئهن وجاملهُنَّ واحدة واحدة.

وكنت قد اصطحبت معي خادمتنا المخلصة الخزينة دار الثانية «مهرمنت قلفـه»، فسَعِـد والدي لحضورها كثيراً وقال: «إنني سعيد جداً يا ابنتي لأنك اصطحبتي الخزينة دار الثانية».

وقد كان كل حديثنا على هذه الشاكلة، وماذا كان يمكننا أن نتحدَّث غير ذلك؟ فقد كنا مكرهين على غلق أفواهنا، ومع هذا فانه لو كانت لدينا رغبة في شيء لكان بإمكاننا أن نفعله دون أن يعلم أحد، لا زوجة راسم بك ولا الضباط أنفسهم؛ ولكننا كنا نعلم علم اليقين أن الوالد رَضِي منذ زمان بحظه وقدره، وأنه

يريد أن يمضي بقية عمره مستريحاً، وأنه لا يَوَدُّ أن يتدخَّل في شيء من بعدُ على الإطلاق، لقد كان الله وحده هو معينه على كل المصائب، ويردُّ عنه بالجزاء كل من أساؤوا إليه وافتَرَوْا عليه، وكانت كلما مرَّت الأيام وَضَحت الحقيقة أكثر وأكثر، ولسوف يُظهر التاريخ يوماً أن ما كان يقوله هو الحقيقة.

لقد ضاعت من أيدينا منطقة كبيرة هي «الروملي»، بسبب تطاحن الأحزاب والأشخاص فيما بينهم، وكنا قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى بيوم واحد... أهذا ما كنا سنقوله لوالدي؟ هم في الأصل كانوا يسمَحون له بالاطلاع على الصحف آنذاك، فكان على علم بما يدور في العالم، وليس كما كان الأمر في سلانيك، فهل يستطيع حاكم ذكي محنَّك مثله، حكم البلاد ثلاثةً وثلاثين عاماً أن يفهم إلاَّ أن الأمور لا تسيرُ على ما يرام؟

كان الوالد قد أمرهم بإعداد مأدبة الطعام لنا، حتى إنه نَظَّم بيده المقاعد التي سنجلِس عليها، واختار بنفسه أصناف الطعام، كما أوصى راشد آغا صانع الحلوى أن يصنع لنا بصورة خاصة حلوى «الإخوة السبعة».

ونهض الوالد على قدميه وقال: «هيا يا أولادي، هنيئاً بالطعام الذي أوصيتُ بإعداده لكم» فانتقلنا إلى غرفة الطعام ونحن نقول: «أمدَّ الله في عمركم، لقد حُرِمنا سنين طويلة من نعمة الوالد، ونشكرُ الله على أنْ جمعنا اليوم»، وانتقل هو إلى القاعة وقال: «إنني تناولت طعامي الخفيف، ولهذا لا يجب أن أدخُل بينكم وأفسد عليكم اشتهاءكم، فتناولوا طعامكم كيفما شئتم». وشاركتنا زوجةُ راسم بك هي الأخرى، بينما كان الوالد يرقبنا من الباب، لقد كان الطعامُ شهياً، وكان الوالد سعيداً لسعادتنا.

وبعد تناول الطعام قال لنا: «هيا لتنظروا غرفة نومي» فذهبنا جميعاً وشهدنا الغرفة، وإذا به يقول: «تعلَمون أني لم أستطع أبداً أن أتخلَّى عن عادتي في

عمل حمام كل صباح، والصعود والنزول من هذا السلم يُرهِقُني كثيراً، وأودُّ في هذا المكان الذي أمامكم هناك أن أجعلَهم يقيمون لي حَماماً صغيراً، رسمتُ رسمه التخطيطي، وراسم بك، بارك الله فيه، مهتم بهذا الأمر، وسيقيمونه، وفي المرة القادمة تَرَونَه مقاماً بمشيئة الله».

وفي تلك الأثناء أرسل راسم بك الخبر مع نوري آغا أن وقت خروجنا قد حان، ولست أدري كيف مضى الوقتُ وبلغت الساعة الرابعة.

وبدأنا نحزن وجَثَم على صدورنا الهمُّ، إلا أن والدي قال: «هيا يا أولادي انصرفوا، وإلى اللقاء إن شاء الله في العيد القادم»، وانتقلنا إلى القاعة، وكان والدي يَقِفُ بيننا على قدميه وقال: «سأقول لكم الآن شيئاً: عليكم فورَ خروجكم من هنا أن تتوجّهوا مباشرة إلى السراي، وتَنقُلوا إلى عمكم شكري وامتناني» وراح كل منا ينظر إلى الآخر، وأدرك الوالد أننا لا نَرغَبُ في ذلك، وإذا به يقول: «لا، لا يصِحُّ هذا، ويجب عليكم أن تذهبوا، إنني أريد منكم ذلك»، واضطررنا أن نجيبه بقولنا: «الأمر لكم» رَغْم أننا كنا نعلم ماذا سيحدث لنا، وقد كان والدي راغباً في ذهابنا حتى إنه أضاف قائلاً: «سوف أتعقّبكم بالنظارة المكبرة» فقلنا له: «لا تشغلوا بالكم»، وبدأت دموعُنا تسيل ونحن نقبِّلُ يده، ونتمنى على الله أن يجمعنا ثانية.

وودَّعنا أمي وصالحة ناجية هانم وأخي الصغير محمد عابد أفندي، ثم رُحنا نضع البراقع على وجوهنا، ونستعدُّ للخروج، بينما كان الوالد يطوف بيننا وينظر إلى ملابسنا ويداعب أحفادَه الصغار. وبعد أن انتهت هذه الأمور مشينا حتى السلم الصغير، وخرجنا من الباب فرأينا العساكر مصطفين والقوارب في انتظارنا، وكان الوالد وهو يودِّعُنا قد نبَّه علينا أن نشكر زوجة راسم بك بصفة خاصة، ففعلنا ذلك وركبنا القوارب.

ونـزولاً على رغبـة الـوالـد أمـرنا القوارب أن تتوجه إلى سراي «طولمه باغجه»، وكان يتقدَّمنا موظف المابين الثاني نزهت بك، ولهذا السبب وصل قبلنا وأخبر السراي حتى وصلنا إلى الرصيف وانتظرنا هناك نصف ساعة، غير أن الأبـواب لم تفتـح بشكل من الأشكال، وكان عساكر «بلوك المعية» [الحرس الخاص] يتطلَّعون إلينا في حَيْرة ودهشة.

وفي النهاية جاء من الداخل أحد المصاحبين على مهل وقال: «أفندينا اليوم مشغول جداً، ولن يستطيع أن يستقبلكم، ويقول: عليهم أن يأتوا في يوم آخر». وقد كنا نعلم أن ذلك سوف يحدُث، لأن أوضاع السراي كانت معلومة لنا جميعاً، وقلنا للمصاحب القادم: إننا جئنا تلبيةً لأمر الوالد، فلم يكن منه إلا أن أحْنَى رأسه وهو يُصغي إلينا. ومن يدريك أن عمي السلطان رشاد كان يملك شيئاً، ومن كان يجبُ عليه أن يسأله حتى يمكنه استقبالنا. وعُدنا ثانية إلى قصر الأميرة زكية، ثم ودَّعنا أنفسنا هنـاك وانصرف كل منا إلى منزله.

وبعـد عام آخـر ذهبنـا مرة ثانية وبنفس الصورة لزيارة الوالد في سراي بكلربكي(٥٨)، وبينما نحن جالسون نتحدَّث معه، دخلت قطته اللطيفة «باموق» وقَفَزت على الفور إلى أحضان أبي، فداعبَها قليلاً ثم نزلت وانصرفت، وفي تلك الأثناء التفت الوالد إليَّ وسألني: «لقد كنت تعشقين الحيوان كثيراً، وكان لديك ببغاء، فماذا حدث له؟» فقلت له: «أفندينا! لقد ضاع أثناء الضجة التي حدثت في سراي يلديز، وقد طلبتُه من عمي، إلا أننا لم نستطع العثورَ عليه بشكل من الأشكـال، وأرسل لي ببغاوات أخرى» وضحك والدي وقال: «إذا وجدتُه لك الآن وأنا جالس هنا فماذا تقولين؟» وسألته بدهشة: «كيف يحدُث هذا يا أفندينا؟».

---

(٥٨) كان مسموحاً لنا أن نزوره مرة في السنة في عيد الأضحى، واستمر ذلك حتى وفاته.

وراح يحكي لي فقال: «ذات يوم جاءت ابنة أمين بك أحد ضباط الحرس إلى الحديقة، وأحضرت هذا الببغاء، وكانت تلعَب معه، فلما رأيتُه عرفته، لأنك كما تعلمين أن لهذا الطائر طريقة خاصة في الكلام، وأمرتهم أن يأتوا به، وجعلتُ الطائر أنا ووالدتك يتحدث، ففهمنا أنه ببغاؤك، غير أن المسكين كان قد تأذّى كثيراً وتضرر في أيدي الأطفال، وعليك وأنت خارجة من هنا أن تخبري كلًّا من راسم بك وأمين بك عن طريق نوري آغا أن يأتيا به، وراسم بك يعلَم لأنني كنت قد أخبرته قبل ذلك». وقلت له: «حسن يا أفندينا! سوف أفعل ما أمرتُم».

وقال والدي بابتسامة سعيدة: «لقد أُقيم الحَمامُ، واسترحت إذن، والحقيقة أن راسم بك قد اهتمَّ كثيراً بهذا الأمر، وقيل: إن أحمد باشا والد أنور باشا رجل يفهَم في مثل هذه الأشياء، وقد جاء هنا وتحدَّثت معه، وطَلَبت منه «الاسطى كارلو» الذي يجيد إنشاء الحمامات التي كنت أستخدمها في السراي قديماً تبعا للرسوم التي رسمتها، فأحضروا الرجل وأقاموا الحمام على أحسن ما يكون، وأنا اليوم سعيد، تعالَوا شاهدوه».

وذهبنا سويًّا وشهدنا الحمام، والحقيقة أنه كان شيئاً لطيفاً، إذ استطاع والدي أن يجعلهم يقيمون حماماً عملياً في هذا المكان الضيق، وتمنَّينا له استحماماً سعيداً، وظل يستخدمه حتى وفاته.

وأرسلتُ إلى راسم بك من أخبره بأمر الببغاء، وبعد أسبوع أخذه وجاء به مع أمين بك، وتحدَّثا مع زوجي أحمد نامي بك، فشكرهما عن لساني وأخذت الببغاء، وقدَّمت إلى راسم بك دبوساً ذهبياً مرصَّعاً بالماس، وإلى أمين بك خمساً وعشرين ليرة. وبدأ الببغاء المسكين يتذكر عادتي القديمة خلال عدة إيام وراح يصيح: «الأميرة عائشة، حياتي». حتى هذا الطائر الصغير كان يُكِنُّ مشاعر الحب والإخلاص لكل من عامله بالحسنى.

بدأت زوجة راسم بك هي الأخرى تزورُنا في الأعياد، ولأجل خاطر الوالد كنا نتحدث معها ونقدِّمُ لها الهدايا، وفي إحدى المرات قدَّمتُ أنا لها خاتماً من الماس والياقوت، وهي في الأصل لم تكن سيدة سيئة، بل كانت أمّاً طيبة، وزوجة طيبة، وسيدة بسيطة نقية.

كان من نصيبنا أن نرى الوالد ثلاث مرات بعد عودته من سلانيك إلى إستانبول، وفي تلك الأثناء مرض زوجي أحمد نامي بك، وكنت أنا حاملاً على وشك الولادة مرةً أخرى، وفي حاجة للعلاج والراحة، ثم نَشِبت الحرب العالمية الأولى، فطلبت الإذن من جلالة السلطان للذهاب إلى ألمانيا، واستطعتُ بكل صعوبة أن أحصل على هذا الإذن، وأرسلت خطاباً إلى والدي أخبرتُه فيه أنني على وشك الذهاب إلى ألمانيا ثم سافرت. وعلى الرغم أن هذه الرحلة بدأت بفرحة إلا أنَّها انتهت بحزن وكدر، وسوف أحكي تفاصيلها فيما بعد.

وعـدتُ إلى استانبول بعد وفاة والدي ساكن الجنان، وما سأكتبه هو ما نقلتُه عن لسان والدتي.

حياة والدي في سلانيك بعد انفصالنا عنه

حَكَت والدتي: أننا بعد أن تركناهما وسافرنا إلى استانبول مَرِض الوالد؛ فقد هزَّه من الأعماق ذلك الفراغ الذي خلفه ذهاب أولاده، والصمت الذي خَيَّم على القصر.

وأبي إنسان تعرض للكثير من الاتهامات، وليس كما قالوا عنه: إنه قاسي القلب لا رحمة عنده؛ فقد كان يعفو حتى عن أكبر الذنوب لو رأى أن المذنب بَكى، أو سمع أنه بكى. إنني أرفضُ هذه الاتهامات والافتراءات، وأترك كلَّ من قالوها وكتبوها لضمائرهم.

إن الصفة التي أراها لائقة بمن كتبوا عن والدي أنه كان يقتُل الناس، هي

الافتراء ليس إلاّ، لأنهم فعلوا ذلك دون أن يعلَموا أو يروا شيئاً، بل ولم يذكروا أحياناً ممن سمعوا أو نقلوا، ولم يُثبِتوا ذلك بمشاهد.

أضِف إلى ذلك أن وجود أصحاب المناصب والنياشين والرتب بين هؤلاء المفترين الذين رأى فيهم والدي لياقَتهم لمثل هذه الأشياء، إنما هو دليل آخر يثبت نكرانهم للجميل، والواضح أنهم أُلصقوا بوالدي هذه الاتهامات ليس إلا للتمسح بالاتحاديين أعداء والدي، وأنا باعتباري ابنتَه التي عاشت إلى جانبه سنواتٍ طويلة لم أَرَ أنه عامل أحداً بسوء، كما لم أسمع بذلك؛ فعندما يَفتَقِدُنا والدي الآن وهو على هذه الدرجة من طيبَة القلب ولين الجانب كان لا بد أن يتعرَّض لصدمة نفسية كبيرة.

ولمـا عاد راسم بك من استـانبـول بعد ثلاثة أيام، وأبلغه خبر وصولنا سالمين إلى استانبول، وحمل إليه الخطابات التي كتبناها له، سَعِد بها كثيراً، إلا أنه جزع عندما علم أن أخاه ـ الذي يثق به ـ لم يتكفَّل بنا، ويهتم لأمرنا، لأن والدي نفسه كان قد تكفَّل أخواته الأربعة، وبنات عمه السلطان عبد العزيز الأربعة، وبنات أخيه السلطان مراد الثلاثة، وبنات الأمراء والأميرات الأخريات، وزوَّجهم وأعدَّ لهم بيوتهم، أما بناته هو فقد أصبحن أخيراً دون حماية، وذلك لا شك أمر يحزنه.

واستمـرت تصـرفـات ضباط الحرس وأطوارهم على حالها حتى حرب البلقان، وانتقل والدي من الطابق الأول إلى الطابق الثاني، فجعل من الغرفة ذات الشرفة التي كنتُ أقيم فيها قبل ذلك غرفة لنومه، وجعل من غرفة الأميرة رفيعة الموجودة في الطرف الأيمن غرفةً للجلوس والمعيشة، كما حوَّل إحدى الغرف الصغيرة هناك إلى ورشة نجارة، أحضر فيها بعض الآلات البسيطة، غير أنه لم يفعل بها شيئاً ذا بال، يخرُج في المساء إلى الشرفة فيجلس بها قليلاً

يتنسَّم الهواء وينظر فيما حوله بالنظارة المكبرة، وتجلس أمامه أمي ومعها صالحة ناجية هانم، ولا ينزلون إلى أسفل.

كنا عندما وصلنا استانبول قد أخبرنا السلطان رشاد بحاجة أبي إلى بعض القلفاوات، وأخبرنا هو آنذاك أن يختار والدي من يشاء منهن حتى يُرسِلهن إليه. وقام أخي الكبير محمد سليم أفندي بتجهيز القلفاوات: دلبريال قلفة، وسحر قلفة، ونرجس نهال قلفة، وجهَّزت الأميرة نائلة القلفاوات: جشم بيكان، وكاموران، ودلداد، بينما جهَّزتُ أنا القلفة رنك ملك، والمصاحب القديم جاويد آغا، وعرضناهم جميعاً على جلالة السلطان، وذهبوا إلى الوالد، وبدأت الحركة تدب من جديد في قصر علاتيني.

رحلة السلطان رشاد إلى الروملي

جاء راسم بك ذات يوم، وأحضر لوالدي بعض الجرائد، وروى له عن رحلة السلطان رشاد إلى منطقة الروملي وسلانيك، وقال له والدي آنذاك: «جعلها الله خيراً على الدولة والأمة».

وبعد عدة أيام جاء أيضاً تحسين باشا وأراد مقابلة الوالد، فقابله، وبعد أن حكى وبالغ في وصفه لتفاصيل الرحلة، سأل والدي عن رأيه في هذا الأمر، وأجابه بقوله: «من الطبيعي أني فخور بنجاح أخي؛ فقد أصاب في ذلك، وكنت حتى اليوم محروماً من الاطلاع على الصحف، وإني لسعيد لمعرفتي هذا القدر من الأخبار، وفقه الله لما فيه الخير»، ولم يشأ والدي أن يستفيض مع هذا الرجل، ولهذا دَفَعه عن رأسه بهذا القدر من الحديث.

وكان الوالد قد نفى هذا الباشا ذات يوم إلى حلب، فهو تحسين باشا الذي بدأ من رتبة جندي (نفر) وخان وَطَنه بتسليمه سلانيك لليونانيين في حرب البلقان دون أن تُطلَق رصاصة واحدة، وظهر للناس آنذاك إلى أي مدى كان الوالد محقاً

عندما نفى هذا الرجل.

وبعد أن صَرَفه من مجلسه قال: «إن تحسين باشا رجل سيِّىء؛ فقد كنت محقاً عندما أبعدته، وهو قائد الفيلق، ولكن لا خير فيه لا للدولة ولا للأمة؛ وإن هدفه من مقابلتي الآن هو رغبته في الشماتة والتشفِّي، إذ يعتقد أني أغارُ من أخي الذي أدعو الله أن يرفُقَ به؛ فهم يلعبون به مثل الطفل، وإن هؤلاء الرجال لا يتوقَّفون عن جره من مكان إلى آخر. إنني أعلم جيداً شعب الأرناؤوط [الألبان]، ولن تكون هناك جدوى على الإطلاق من وراء هذه الرحلة، وتحسين باشا واحد من الأرناؤوط، ويعلمُ الله ماذا يدُور في رأسه من طموحات ونوايا فاسدة، والأيام كفيلة بإظهار كل هذا».

وبعد أن مَضت عِدَّة أيام وصل السلطان رشاد إلى سلانيك، وقام الضباط بتزيين القصر بالأعلام والرايات، وأرسلوا الخبر إلى والدي أنهم يريدون الدخول إلى دائرة الحريم ليَشهدوا البواخر من الطابق العلوي لحظة دخولها الميناء، ورَحَّب والدي بهم، فدخلوا، وراح هو الآخر يشهد الباخرة معهم من خلال النظارة المكبرة، حتى إن بعض الضباط لم يستطيعوا أن يتأكَّدوا في أي باخرة جاء السلطان، فعرَّفهم الوالد بسنجق السلطان [علمه الخاص]، وشرح لهم أي البواخر تحمل أخاه.

وقبل أن يدخل السلطان رشاد سلانيك، أبان عن مودته في السؤال عن أخيه.. إنه حسن الأدب والسمو اللذان كانا من ميزات آل عثمان، وحافظ عليها السلاطين فيما بينهم. فقد أرسل السلطان رشاد كاتبه الأول خالد ضيا بك إلى القصر ومعه هادي باشا، واستقبل والدي ذلك الرجل الذي يحمِل إليه سلام أخيه عند الباب، حتى يُعرِبَ له عن احترامه لمقام أخيه الأصغر، وبعد أن تلقَّى السلام وقوفاً على القدمين، طلب إلى الرجل أن ينقل شكره ودعواته بالتوفيق، ثم جلس وأشار إليه بالجلوس أمامه، وحكى إليه أن الحقيبة التي مرَّ ذكرها هي

حقيبة ابنه، وأنه يرجو السلطان أن يأمُرَهم بالبحث عنها.

وكانت صالحة ناجية هانم والدة عابد أفندي قد حزنت كثيراً للوضع الذي صار إليه ابنها نتيجةً لضياع هذه الحقيبة، فهي ثروته الوحيدة، ومدار حياته؛ فأرادت انتهاز فرصة مجيء السلطان رشاد إلى سلانيك، وطلبت من والدي أن يرجُوَه أن يأمر بالبحث عنها؛ فقام والدي هو الآخر وطلب ذلك، ثم رَجَاه أيضاً الحصول على إذن لذهاب عابد أفندي إلى إحدى المدارس في سلانيك، وكان لعابد أفندي الذي بَلَغ عامه السادس في تلك الأثناء عدة صور أخذها له الضباط في حديقة القصر، فأرسلها هي الأخرى إلى أخيه السلطان.

ولست أدري لماذا لم يكتب خالد ضيا بك في مذكراته حقيقة هذه الأمور؛ فقد تحدَّث عن هذه الحقيبة وكأنما أخذوها من يد أمي، بل وذكر أن الملابس التي كان يرتديها والدي كانت من القماش الرخيص جداً، فإذا كان «الخاقان السابق» قد ارتدى مثل هذا القماش الرخيص فمعنى ذلك أنه ارتدى ما وجده تحت يديه، وحينئذٍ على من يكون الخجل يا تُرى؟

كذلك ذكر خالد ضيا أن والدي يستخدِم صِبغاً للحيته، وأنه كان سبباً في تلويث قميصه، وذلك قول يبعث على الحَيْرة، خاصة وأنه يعلم أن والدي لا يمكن أن يستقبل أحداً بقميص ملوث، وهو الرجل الذي يُعنَى بنظافة نفسه، ولم يكن والدي رديءَ الهِندام، ولم يره أحد من حريمه أو حتى أولاده على هذا النحو طوال حياته، ويبدو أن زجاج النظارة التي يستخدمها خالد ضيا بك كان معتماً ملوثاً، بحيث أنه رآه، ذلك اليوم على هذه الصورة، فضلاً عن أنه حرّف مسألة الحقيبة.

وبعد سنوات أخرى مضت، عندما اعتلى السلطان وحيد الدين العرش، قدَّمت والدة عابد أفندي طلباً رَجَتْه فيه البحث عن الحقيبة، واستطاعوا في

النهاية أن يعثُروا عليها مع بعض السندات المالية، أما النقود والمجوهرات فلم يَعرف لها أحد طريقاً، والرجل الذي عَثر على الحقيبة هو أمين باشا الذي كان يعمل آنذاك مفتشاً لخزينة الخاصة، ثم عُيِّن بعد ذلك على القيادة المركزية.

وبعد أن عاد السلطان رشاد من رحلته إلى الروملي تحقَّقت بعض رغبات الوالد، وكان عابد أفندي قد شرع يذهب آنذاك إلى المدرسة، يصحبه إليها محمود سعرد، وسُمِح للقلفاوات أن يخرجن مرة في الأسبوع إلى الحديقة يتنسَّمن الهواء، وللعمال والمصاحبين الآخرين أن يخرجوا مرة في الأسبوع برُفقة بعض الضباط للتنزُّه في المدينة، كما زادت المخصصات المقررة لوالدي فبَلَغت ألف ليرة.

وفاة القلفة «سر الجمال»

قبل أن يسمحوا للقلفاوات بالخروج إلى الحديقة، كانت «سر الجمال» مريضةً، في حاجة إلى تنسُّم الهواء حتى تدفع عن نفسها ضيق التنفس، الذي لم تتخلَّص منه المسكينة بشكل من الأشكال، وأرادت ذات يوم أن تنزل من السلم دون أن يراها أحد لتسير قليلاً عند الخُضرة، ولسوء حظها أن اليوزباشي داود كان يَمُرُّ تلك اللحظة من هناك، فلما رآها انقضَّ عليها وصاح فيها: «ادخلي! ماذا تفعلين هنا؟» واجتمع الضباط في الحال وأخرجوا العجوز المسكينة وكأنما اقترَفت إثماً كبيراً، وراحوا يُحقِّقون معها، حتى عانت منهم الأمَرَّين.

وظلَّت صحة المسكينة بسبب هذا الخوف تتدهور خلال يومين حتى تُوفِّيت، وخَشِي والدي أن يحملوها إلى مقبرة اليهود، فقال: «إن مقبرة خير الدين باشا موجودة هنا، وعليهم أن يدفِنوها هناك» وعلى كل حال فقد فَعلوا لها هذا الجميل، رحمة الله عليها.

اليوزباشي ناظم أفندي

كان عابد أفندي قبل وصول السلطان رشاد إلى سلانيك يدرُس على يد اليوزباشي ناظم أفندي، إذ كان والدي قد أصرَّ على راسم بك أن يجد للطفل معلماً، فكان المعلم ذلك الرجل، وكان الضباط حتى تلك اللحظة يُسيئون معاملة الطفل حتى إنهم أطلقوا عليه بعض الأسماء، فكان ناظم أفندي يذكِّر رفقاءه أن هذا الطفل أميرٌ من الأمراء، ولا يحق أن يعاملوه مثل هذه المعاملة، واستطاع أن يَحُول بينهم وبين هذه التصرفات المشينة وكان الطفلُ لا يعلم شيئاً عن ذلك حتى تلك اللحظة، ولا يُدرك بعد من هم أجداده، فراح ناظم أفندي يعلمه التاريخ ويُلقِّنه بشكل أساسي أن والده واحدٌ من السلاطين، وشرح له الحقائق التي لا يعلَمها، ولقَّنه بعض النصائح، ثم جعله يكتبها في ورقة، ثم قال يومها: «من الصعب أن نقوم بتربية أمير من الأمراء في هذا الجو».

وعلى الرَّغم من أنه اجتهد في تعليمه وتربيته خلال عام، إلا أنه لم يشأ أن يَبْقى في القصر بصورة أو أخرى، وقبل أن يذهبَ قابل والدي ذات يوم خُفْية ثم ودَّعه... جزاه الله عنه خير الجزاء.

حرب البلقان

نَشِبت حرب البلقان وبدأ يسيطر القلق على الضباط، ومع ذلك حاولوا إخفاء هذا على عمال القصر، وكانت تَفِدُ كتائب العساكر إلى الساحة المقابلة للقصر، وكان كلما رآهم والدي على هذه الحالة قال: «شيء غريب» ويأخذ النظارة المكبرة ويَرُوح يشهد الموقف، حتى أدرك أن العساكر في حالة استنفار، وسأل راسم بك عدة مرات: «هذا العدد الكبير من العسكر إلى أين يذهب؟ وماذا يحدُث هنا؟» إلا أن راسم بك كان يجيبه بقوله: «يذهبون إلى التدريب»، غير أن والدي ذَكَر لأمي عدة مرات أن هناك شيئاً، ولكنه لا يفهَمُه.

وكثـرت نقـاط الحراسة حول القصر. وذات يوم زاد عدد العساكر حتى ضاقَت بهم السـاحـة المـوجودة أمام القصر، وأرسل الضباط خبراً أشاروا فيه بإغلاق النوافذ؛ فلما رآهم والدي على هذه الحالة قال «الله الله(*)، إنها تشبه حالة الحرب، جعل الله العاقبة خيراً» ثم راح يفسر الوضع ويقول: «إنهم يُخفُون عنا الأمر، إن هذه الحالة ليست علامةً على خير»، ومن الطبيعي أنه كان قادراً على استشفاف الحقيقة.

وفي يوم من الأيام التي ازدادت فيها الدوريات حول القصر عثر «محمد آغـا البقـري» على بعض من جريدة داخل صندوق الزبالة، ولم يكن يعرف القراءة ولا الكتابة؛ فحملها إلى الآغوات المصاحبين حتىقرؤوها وفهموا أننا في حالة حرب، غير أنهم خشوا أن يشعر والدي بذلك، فلم يذكروا شيئاً من هذا حتى للقلفاوات.

وكان كل شخص حائراً مع أفكاره، أما والدي فكان يسأل: «أهِي الحرب في البلقان؟ ما هذه الحال؟ ومع من نُحارب؟ لا بد أن هناك شيئاً!»، ويفضفض عن همومه مع أمي ومع صالحة ناجية هانم ويقول: «إن أخشى ما كنت أخشاه أيامَ سلطنتي أن تَنشب حرب فيِ البلقان، وقد اجتهدت كثيراً في الحيلولة بيننا وبين ذلك، إنني أسألهم غير أنهم لا يجيبون».

وفي النهـاية، بينما هو يتوجَّه ذات مساء كعادته إلى غرفة نومه مع أمي وصالحه ناجية هانم، كانت بعض الفتيات غير المناوبات في تلك الليـلة ومعهن القلفة «دلبسته» والقلفة «كلشن» يجلسن في الغرفة التي تطل على الباب الكبير في الطابق العلوي، وإذا بهن يسمعن صوت إطلاق النيران أمام الباب، وصوت صراخ في أعقابه يقول: «ضِعتُ يا أمي!»، وسمع البنات الصوت قريباً منهن

(*) لفظ الجلالة، يذكر مكرراً علامة على الدهش والتعجب (المترجم).

وكـأنه خرج من الغرفة فارتعدت فرائصُهن من الرعب، وسقطتْ القلفة دلبسته مغشياً عليها.

وفي تلك الأثناء كان «جولاق إبراهيم» مناوباً في دائرة الضباط، فلما هرع ناحية القصر خرج له محمود سعرد وصاح فيه: «عد وامض». ولما رأى البناتُ هذا المنظر وَقَع الخوف في قلوبهن، غير أنهن لم يخبرن والدي بشيء. وفهموا بعد ذلك أن الحادثة هي قيام أحد أعضاء الجمعية السرية الإرهابية بإطلاق النار على أحد الجنود الأتراك، ولكي يُخفِي الضباط الأمر على من يسألهم قالوا: «إن أحدهم انتحر».

وبعد ليلتين من هذه الحادثة، بينما نام والدي ونام الجميع، جاء شهر الدين آغا وراح يدُقُّ باب الحريم، فنهضت الخزينة دار الثانية التي كانت هناك، وتوجهت ناحية الباب وسألت الطارق: «ماذا هناك؟» فقال لها: «لقد وَصَل راسم بك، ويريد أن يقابـل أفنـدينا الآن»، وعلى ذلك ركضت الخزينة دار الثانية وراحت تطرق باب الغرفة بهدوء، فنهضت والدتي وفَتَحت الباب ثم قالت لها: خير إن شاء الله، فاستيقظ والدي هو الآخر وسألها: ماذا هناك؟ فدخلت الخزينة دار وقالت له: إن راسم بك يريد مقابلته فوراً، وقال هو: «خير إن شاء الله» ثم نهض من فراشه، وارتدى ملابسه بسرعة، ثم انتقل إلى غرفة الجلوس، ونادى راسم بك.

وكان الرجل يدخل الغرفة وقد سيطر عليه الحزن، بينما وَقَفت والدتي مع صالحـة ناجية هانم عند الباب وراحتا تُصغِيان إلى الحديث. وسأله والدي: «ماذا هناك يا راسم بك؟ خير إن شاء الله، ما الذي جاءَ بك في هذه الساعة؟» فردَّ عليه راسم بك قائلاً: «لقد أزعجتكم، ولكني جئت بناءً على الأمر الصادر إلي» ثم أخبره أننا دخلنا في حرب،فلما سأله والدي: مع من دخلنا؟ أجابه: «إننا نحارب أربعة دول، وعلى وشك أن ننهزم» ودهش الوالد ثم قال له: «راسم بك!

إنني لا أفهم ما تقول، أهي حرب مع أربع دول؟ لا أصدِّقُ، كيف يحَدث ويتَّحد اليونانيون مع البلغار؟ والرؤساء المسؤولون ألم يُدرِكوا ذلك؟».

وحكى له كيف كان هو أيام حكمه يتصرَّف بيقظة ليَحُول دون ظهور اتحاد في البلقان ضدَّنا، ثم طلب من راسم بك أن يُطلِعه على المزيد من التفاصيل، فشرح له الرجل الخطوط العريضة ثم قال له: «إن سلانيك على وشك السقوط، ويريدون أن ينقلوكم الى إستانبول»، ودَهِشَ والدي تماماً وقال: «إن سلانيك هي مفتاح استانبول، فهل تُترَك للعدو؟ لن أبرح المكان خطوة واحدة، أعطوني بندقية ولندافع عنها معاً حتى النَّفَس الأخير، وأيضاً جيشانا الثاني والثالث إلى أين ذهبا؟ ومَن مِن القواد يدير هذه الحرب؟ إنني لست ذاهباً من هنا مهما كان الأمر، وعليكم أن تعلموا ذلك».

وتحدَّث والدي باستطراد مع راسم بك في تلك الليلة، حتى بَزَغ الصبح، وهمَّ الرجل بالانصراف. وبعدها قال لأمي: «أترَين؟ يقولون لنا: إن العساكر يتدرَّبون، ألم أقل لكم: إنهم في حالة استنفار استعداداً للحرب؟» ولم يَخلُد والدي للنوم بعد ذلك، وظلَّ يكرر قوله بعدم مغادرة القصر إلى مكان آخر.

وفي ذلك الصباح جاء كلٌّ مِن علي رضا باشا وهادي باشا وقالا له بضرورة مغادرة القصر، وإنه أمر صَدَر إليهما من الحكومة، وحاول والدي الحصول منهما على بعض المعلومات وسألهما: «هل اتفقت الكنائس؟ وهل أخلد سفراؤنا ومُلحَقونا العسكريون للنوم؟ كيف يحدث وتتحد الدول الأربعة ولا يكون لدى الحكومة علم بذلك؟ إنني كنت دائمَ السعي خلال حكمي للحيلولة دون اتحادهم، يا لها من غفلة! أذَلَّ الله من ساقوا البلاد إلى هذه الحال. هذا يعني التخلِّي عن سلانيك الآن دون قتال، لا لن أبرح هذا المكان، إنني أريد المشاركة في الدفاع عنها مثلي اليوم مثل الآخرين، أعطوني سلاحاً ولندافع عنها

حتى الموت». وظلَّ يكرر القول، ويُصِرُّ على رأيه حتى انصرف الرجلان يائسين.

ولما عاد إلى غرفته كان يتمتم حزناً وجزعاً: «إنها كارثة! الإمبراطورية تنهار». وفي تلك الأثناء بدأت تسمع أصوات المدافع، واستولى القلق والاضطراب على كلٍّ من في القصر، ولم يعد الضباط يخجلون إذن من نقل الأخبار إلى الأغوات.

وفي صباح اليوم التالي شهدوا وهم ينظرون من النوافذ العُليا إحدى السفن قادمة، فأخبروا الوالد على الفور، وخرج يشاهدُها بالنظارة المكبرة من شرفة القصر، وإذا به يصيح في دهشة: «إنها سفينة السفارة الألمانية، يا إلهي! ماذا لها هنا؟» وفكر قليلاً ثم قال: «حذاري أن تكون قادمةً لنقلنا» ثم صاح على نوري آغا وأشار إليه ثم قال: «انظر يا نوري، إنني لواثق أنها قادمة لنقلنا» وأجابه نوري آغا: «جعل الله العاقبة خيراً يا أفندينا».

واستولى الفزعُ على من في القصر، وقيل عندها: إنهم يريدون نقل الوالد إلى استانبول، وكان العمال في القصر يُصغُون إلى الضباط فيزداد خوفهم، وينقلون مخاوفَهم إلى النساء في القصر ويقولون لهن: «على أفندينا أن يترك الإصرار ويذهب، وإلا فسوف يكون الوضع وخيماً». وعقب أن اقتربت السفينة من الرصيف رَأَوا عربة خيل من نوع «لاندو» نزل منها الداماد [صهر السلطان] شريف باشا «جاودار أوغلي»، والداماد عارف حكمت باشا.

وعلى الفور قام راسم بك واصطحبهما إلى غرفة الطعام في أسفل القصر، وقام نوري آغا فأخبر والدي، ثم جعلهما يصعَدان إلى أعلى، وكان طبيعياً أن يسعد والدي بلقاء صهريه بعد أن انقطعت أخبارُهما عنه منذ سنوات طويلة، وخاصة عارف حكمت باشا زوج ابنته الحبيبة الأميرة نائلة، غير أنه أَسِف وحزن

في نفس الوقت.

وبكى الرجلان، وكانا قد دخلا إلى مجلسه تبعاً للأصول والتقاليد القديمة؛ فقبّلا يده بحب واحترام، ومن الطبيعي أن هذا الوضع لم يَرُق إلى الضباط. وسألهما والدي نفس الأسئلة وحاولا أن يُقنِعاه، وقالا له: إن الطرق كلها مغلقة، لذلك لا يمكن الذهاب إلى استانبول إلا بواسطة السفن الألمانية، ونجحا في النهاية أن يخدعاه بصعوبة.

وكانت أمي في الأصل ترجُوه هي وصالحة ناجية هانم أن يغادر المكان، نظراً لمهالك البقاء هناك، وقال له صهراه: إنه بقيت ست ساعات على دخول اليونانيين إلى المدينة، وأشارا عليه بضرورة الإسراع في الخروج منها، وبينما هما ينتظران أسفلَ شرعت السيدات والقلفاوات متكاتفات في الاستعداد للخروج مع والدي، ثم قالت له أمي: «أفندينا! يجب أن لا يكون حالُنا كما كنا عليه عند مجيئنا» ثم راحت تعد بعض الملابس والأشياء التي يمكن استخدامُها ووضعتها في صندوق، بينما أعدَّ كل واحد من الآخرين حقيبة لنفسه، وقال لهم بعض الضباط: إنهم سوف يجتهدون في إرسال الأشياء الثقيلة في أعقابهم، وخرج كل عمال وموظفي السراي إلا محمد آغا البقري.

وفور أن استعدَّ والدي للخروج، استدعى راسم بك وسأله قائلاً: «هل لك أن تأتي معي؟» وردَّ عليه الرجل بغاية السعادة: «لا شك أفعل»، كما أخبرهم اليوزباشي محمود سعرد معلم عابد أفندي برغبته في المجيء هو الآخر، واستصوب والدي ذلك، وطَلَب أن يصطحب معه كلاً من راسم بك ووصفي بك ثم قال: «أودُّ لو اصطحبتهم جميعاً»، وعندئذ قَدِم اليوزباشي صالح «بوزوق» مهرولاً وقال: «أرجوك يا راسم بك أن تنقل إلى السلطان رغبتي أنا الآخر في المجيء» وأجابه والدي بقوله: «حسن يا بني، تعال، إنني أودُّ لو اصطحبت

الآخرين أيضاً، غير أنهم يقولون بعدم وجود مكان، وما حيلتي في ذلك؟».

وبقي هناك كلُّ الضباط ما عدا هؤلاء الأربعة، وفي اللحظة التي شَرَع يغادر والدي فيها قصر علاتيني كان الضباط الباقون مصطفين عند السلم الكبير يَقِفُون مع العساكر الآخرين لتحيته.

وسار والدي نحو السلم بخطوات وقورة ثابتة كعادته، ثم التَفَت إلى الضباط وقال لهم: «أتمنَّى أن أراكم سالمين جميعاً في استانبول بإذن الله» وحيَّاهم، ثم صَعِد إلى العربة الأولى، واصطحب إلى جانبه زوجتيه وعابد أفندي، بينما تقاسم صهراه العربات الأخرى مع الضباط والقلفاوات وعمال القصر، وساروا حتى وصلوا إلى الرصيف بين أزِقَّة سلانيك، وبعض الأهالي يصرخون ويبكون: «إلى أين تمضون وتتركوننا؟»، وكانوا قد فرشوا الميناء بالبسط والسجاديد، وجاء الوالي والقواد الباشوات لتوديعهم، وهناك تحدَّث والدي مع بعض الباشوات والبكوات ودعا بقوله: «لا كَتَب الله زوالاً للدولة، ووفَّق الجميع لما فيه الخير».

وعلمت أن القنصل الألماني كان ينتظر هو الآخر، فتحدَّث معه الوالد قليلاً وحياه، ثم اقترب قارب السفينة من البر فاصطحب الوالد زوجتيه وابنه وصهريه، وما أن صعد إليها حتى حياه طاقمها تحية رسمية، وجاء الرُّبَّان وأبلغه تحية الإمبراطور [الألماني] ثم قال له: إن الإمبراطور أمرهم أن يكونوا مستعدين لنقله إلى الجهة التي يُريدها، وأن يكونوا رَهن أمره. كان يتحدَّث مع والدي بالفرنسية، وأبلغه الوالد أن ينقل إلى جلالة الإمبراطور شكره على الصداقة والمودة التي أظهرها، ثم قال له: إنه يريد أن يعود إلى الوطن. وجاء القُنصل الألماني هو الآخر وتحدَّث إلى والدي حديثاً خاصاً، إلا أن الوالد رَدَّ عليه بنفس الجواب.

وبعد أن غادر القنصل السفينة جاء رُبَّانها وطلب من الوالد أمره بالإبحار، فأشـار بيده ناحية استـانبول. وكان يقف عند باب «القُمَّرة» المعدة له جندي ألماني مناوب، كانت مهمته أن لا يسمَح لأحد بالدخول إلى القمرة دون إذن.

ولمـا تحرَّكت السفينة جاء القائد مرة ثانية وقال: «يمكن لجلالتكم إن شئتم أن تصعَدوا إلى ظهر السفينة وتشاهدوا قصر علاتيني وما حوله»، وعلى هذا صَعد الوالد إلى ظهر السفينة وراح يشاهد البلد ويشاهد القصر وهو آسِفٌ كل الأسف، ثم تحدَّث مع الربان قليلاً، وعاد حزيناً إلى قمرته.

الوصول إلى قصر بكلربكي على ظهر الباخرة (لورلي LORELEI)

لقد كان البحر جميلاً، فكانت الرحلة لا بأس بها، غير أن السفينة ما إن دخلت بحر مرمرة حتى بدأ يفعل فعلته، إذ بدأت السفينة تهتَزُّ وأصيب الجميع بدُوار البحـر، وكـانت أمي قد رَقَدت هي وصالحة ناجية هانم ورقدت أغلب القلفاوات، وكان عابد أفندي قد عثر منذ البداية على دمية دب صغيرة وضعوها حرزاً على السفينة، راح يَلعَبُ بها ويُظهرها بين الحين والآخر لأبي سعيداً منتشياً إلى أن رقد هو الآخر في فراشه، إلا أن والدي ظل على حاله ولـم يُصبه الدوار، فاستدعى طبيب السفينة وأشار عليه بعلاج المصابين بالدُّوار، وظل واقفاً على رأس ولـده يُعنَى بأمـره ويعطيه العلاج، وظل الطبيب يتردَّدُ عليهم بين الحين والآخر، يتحدَّث مع والدي ويسأله إذا كان يطلُب شيئاً أو لا.

واستدعى الوالد صهرَيْه، كما استدعى راسم بك بعدهما وتحدَّث معهم، وكان رُبان السفينة قد منع لفترة صعود الضباط إلى ظهرها، فضاقت نفوسُهم لهذا المنع وجلسوا محزونين في قمراتهم.

وفي النهاية رست السفينة في مياه «غليبولي»، فقد كان والدي لا يريد الدخول إلى استانبول ليلاً، ومن ثم راحوا ينتظرون الأمر من الحكومة، فلما جاءهم راحت تسير السفينة نحو مياه قصر بكلربكي، ثم ألقت مراسيها هناك، وقام الألمان فنَقَلوا والدي إلى القصر بقوارب السفينة وأدّوا له التحية الرسمية، وقَبلَها قدَّم الوالد شكره إلى رُبَّان السفينة وطبيبها وطاقَمِها، كما طلب إلى الربان أن ينقل شكره إلى صديقه القديم إمبراطور ألمانيا، ثم غادر السفينة.

وكـان الـدامـاد شريف باشـا قد ودَّع والدي قبل أن يغادر السفينة، أما صهره عارف حكمت باشا فقد اصطحبه حتى قصر بكلربكي وودَّعه هناك ثم عاد.

وما إن نزل والدي إلى الرصيف، وراح يسير نحو الباب الموجود ناحية دائـرة المـابين في القصـر، حتى صاح عليه الجنـدي المنـاوب هناك وقال: «ممنوع!» وردَّ عليه والدي بقوله: «لم أحسب ذلك» ثم أدار وجهه ناحية «باب الوالدة» في دائرة الحريم ودخل.

وفور دخوله قال لنوري آغا الذي يسير خلفه: «ما هذا يا نوري؟ كم هذا المكان رَطِب! سوف نموتُ هنا»، وردَّ عليه الآغا بقوله: «أرجوكم يا أفندينا، لماذا تقولون ذلك؟» وردَّ عليه: «إن والدتي قد تُوفِّيت هنا»، ثم راح يسير مباشرة نحو الغرفة التي كانت تنام فيها أمه وقال: «لقد نامَت أمي هنا، وها أنا أيضاً أختـارُهـا غرفة لنومي» ثم أمره أن يُحضِر حاجياته إليها، كما اختارت زوجتاه غرفتين لنومهما، واختار الآخرون.

وراحوا يُواصِلون حياتهم في هذا القصـر كمـا واصلوهـا من قبـل في سلانيك، وإذا كان هناك شيء من التجديد أو الزيادة فهو تقديمهم الصحفَ له، كما بدؤوا يُلَبُّون بعض رغباته البسيطة. وكما ذكرتُ سابقاً: إننا كنا نرسل آغواتنا

أيام الجمعة ونسأل عن صحة الوالد بواسطة راسم بك.

وبعد مُضِيٍّ أسبوع جاء محمد آغا البقري الذي كان قد تخلَّف في سلانيك ومعه البقرات والأشياء الأخرى، وبدأ القصر يعود إلى حاله القديم، وصار والدي يشغَل وقته بقراءة الصحف، ويتابع منها الأحداث، ويخط بقلمه الرصاص تحت بعض العبارات التي تشدُّه.

وفي الأيام الأولى التي وصل فيها إلى قصر بكلربكي، جاءه خبر من كامل باشا الذي عيَّنوه من جديد صدراً أعظم قال فيه: «إذا كان يتخوَّف من أن تؤثر فيه رطوبة القصر، فإننا نُقيم له إذا شاء مسكناً خاصاً من الأخشاب في حديقة القصر، يُقيم فيه وينعم براحته». وعلى هذا بَعَث إليه الوالد شكره وتحياته، وجاء المهندسون على الفور وحدَّدوا مكان البناء، ثم أخبروا الوالد به، غير أن كامل باشا ما لَبِث أن سقط وتوقف العمل.

وقد اعترف كامل باشا على هذه الصورة بجميل والدي، إذ أراد أن يعمل على راحته، غير أن ذلك كان سبباً في ذيوع الشائعات حوله داخل السراي، ولم يَعُد أحد يستريح له، حتى قيل: إن عمي السلطان رشاد نفسه بدأ يَشُكُّ فيه، حسبما جاء في مذكرات أحمد رشيد بك ناظر الداخلية في وزارة الباشا آنذاك.

في هذه الأثناء قرأ والدي في الصحف ذات صباح وقد تملَّكته الدهشة: أن الباب العالي تعرض لهجوم قُتِل فيه ناظم باشا، وتكتَّم كامل باشا على الحادثة، فأسِف لذلك أسفاً شديداً وقال عندها: «أخشى أن يكون لهذا الوضع تأثيرُه السيِّىء على دول أوربا. إن كامل باشا وزير ذكي، إلا أنه فاشل على الدوام في فكره السياسي، ولم يُحسِن أيضاً اختيار أعضاء وزارته. أما عن ناظم باشا فإنني أعرفه جيداً؛ فهو رجل أناني عنيد، وليس أهلاً لإدارة منصبه، أضِف إلى ذلك أنه كان لدينا قوادٌ عسكريون أكثر حنكة منه، لقد أخطأ كامل باشا... كيف

يأتي للقيادة برجـلٍ مثـل هذا في ظروف حسـاسة مثل هذه الظروف؟» وراح يتحدَّث مع راسم بك حول هذا الأمر.

ومضت أيام قلائل، وقرأ في الصحف عن مقتل محمود شوكت باشا هو الآخر، فاضطربت نفسُه وضاقت روحه وقال يومها: «إن تَكرار مثل هذه الحوادث المؤسفة لا يُنبِىء عن خير، لقد كان محمود شوكت باشا هو المحرِّك للكارثة التي وقعت لي في ٣١ مارس، غير أنه جندي نادر، وهذا شيء لا يُنكَر، وربما كان في استطاعته هو وحدَه أن يُدير هذه الحكومة. . لقد فَعلوا شيئاً مؤسفاً».

هذا في حين أننا سَمِعنا فيما بعد أن حياة والدي في تلك الأيام كانت مهـدَّدَة بالخطر؛ فقد قرَّر جمال باشا ـ بعد أن توهَّم أن مؤيدي السلطان عبد الحميد هم الذين قتلوا محمود شوكت باشا بهدف القيام بانقلاب حكومي ـ أن يقضي فوراً على والدي فيما لو حدثت محاولة ولو بسيطة لإعادته إلى العرش، وصدَرَ الأمر إلى راسم بك، فأحاله هو الآخر إلى رجل وَجَده مناسباً لهذه المهمة هو الملازم ناجي أفندي فقبلها بفَخَار. غير أن معونة الله لوالدي في كل وقت أسعفته هذه المرة أيضاً، ونجا من هذه البلوى.

وعقب مقتل محمود شوكت باشا اتَّهموا المسكين الداماد صالح باشا بأن له يداً في الحادثة وأعدموه، فكان أمراً ضاقت له نفس أبي كثيراً، وحَزِن أكثر وأكثـر عنـدما لم يمكنوه من السؤال عن ابنـة أخيه الأميرة منيرة (زوجة الداماد صالـح باشا)، أو أن يُرسِل إليها مجرد السلام، وآنذاك قال لأمي: «كنت قد أرسلت عامل الثياب عصمت بك إلى أخي كمال الدين أفندي أثناء مرضه أسأل عن صحته، وأرسل أخي إليَّ آنذاك صورة لصالح باشا وقال: إنه اختار هذا الولد لابنته الأميرة منيرة، إنه ابنُ الصدر الأعظم خير الدين باشا التونسي، وقال: إذا رآه أخي مناسباً زوِّجوه الأميرة. وكان أخي المسكين قد أرسل إليَّ خبراً قال فيه: إن له ابنةً وحيدة وإنه يَدَعُها أمانة لدي؛ فلما تُوفِّي زوّجتها وتمنيت لها السعادة. .

لقد فعلوا شيئاً مؤسفاً للبنت المسكينة، والآن يا تُرى ماذا صار إليه حالُها؟ كان الله في عونها».

ولم يكن والدي يعلم شيئاً عن القرار الفظيع الذي أصدروه في حقه بعد مقتل محمود شوكت باشا؛ فعاش مستريحاً.

الحياة في قصر بكلربكي

بدأ عابد أفندي يدرس في «المدرسة الحربية»، ويصحَبُه إليها في ذهابه وعودته محمود سعرد، ولما جاء أوان ختانه أرسل جلالةُ السلطان [محمد رشاد] عدداً من الأطباء، وأشرف والدي بنفسه على إعداد غرفة نومه، وسعد الضباط كثيراً بالحفل الذي أُقيم له، وجاء أصحاب الأولاد منهم بأولادهم وبناتهم إلى القصر، وأُقيمت موائد الطعام.

وقد سمعتُ من بعض الناس أن أبي كان يشهد ألعاب «قره كوز» أثناء الحفل، إلا أن والدتي قالت لي: «لم يبرَح غرفة نومه، وهل لوالدِك أن يجلس بين الأطفال ويشهد القره كوز؟ إنه كَذِب».

وكان لوالدي مبلغ ستين ألف ليرة بَقِيت له مودعة في بنك كريدي ليونيه، فطلبوها هي الأخرى، وأصرَّ هو على بقائها لأولاده، إلا أنهم أَلَحُّوا عليه واستولوا عليها بتوقيعه.

وقيل: إن السلطان رشاد أيام ولايته للعهد كان يرسل إلى والدي طيور الحمام الجميلة، فلما انتقل الوالد إلى قصر بكلربكي تذكَّر السلطان أن أخاه يحب الحمام، فأرسل إليه عدداً منه، كما صنع له تقفيصة جميلة، وفكَّر الوالد أن يرُدَّ له الهدية بأخرى، فنادى راسم بك وقال له: «كنت قديماً أتعامل مع الصائغ (سوري)، وأريد اليوم أن أبعث إلى أخي بهدية صغيرة، وعليك أن

تُحضِر لي من هناك بعض الساعات الذهبية الجميلة».

وبالفعل أحضر عدة ساعات، فاختار أبي أحسَنها، فكانت ساعة ذهبية بطلاء من المِينا الزرقاء، على ركن منها فَصّ صغير وحيد، دفع فيها ثلاث مئة ليرة ثم أرسلها إلى أخيه. ومن الطبيعي أن أثمان مثل هذه الأشياء كانت تُستَقطع من الرواتب المقررة.

وقيل: إن والدي كان مُولَعاً بحب أخينا الأصغر عابد أفندي؛ فقد كان عابد هو ابنه الوحيد الذي عاش إلى جانبه، فكان يستفسر عن دروسه ويُعنَى بتربيته أكبر عناية.

وذات يوم ذهب الأفندي إلى مدرسته، وعند عودته هَبَّت عاصفة جوية وهو على الباخرة، فلم تستطع الرسوَّ في الميناء، وارتطمت بالرمال، ثم راحت تُطلِق إشارات الاستغاثة. وكان والدي يجلس في تلك اللحظات مع والدتي ووالدة عابد أفندي في القاعة، وما أن سمع إشارات الاستغاثة حتى اضطرب حالُه وصاح: «أوّاه؟ ابني في الباخرة» ثم هَرْوَل نحو الباب، بينما أسرع الضباط إلى الرصيف وأرادوا نقل الأفندي بالقارب، إلا أن الأفندي رفض اقتراحهم وراح يقول: «لن أخرج قبل خروج النساء والأطفال»، ولم ينزل إلا بعد نقل الأهالي منها.

وقيل: إن الضباط والأهالي الذين كانوا هناك قدَّروا فيه ـ وهو الطفل الصغير ـ هذا التصرف، ولما جاء إلى القصر وَجَد والدي ينتظره عند الباب فقبَّل يده، وحكى له الحادثة، أما أبي فقد ضمَّه إلى صدره بسعادة وقال له: «أحسنت يا بني، هكذا يجب أن تكون، إنني أفخَرُ بسلوكك هذا».

وكان والدي ينتظرنا نحن البنات عند كل عيد للأضحى. وذات مرة سمحوا لأولاده الذكور بزيارته؛ فذَهب إليه أخي الأكبر محمد سليم أفندي ومعه

أحمد أفندي، وعانقاه ثم قال لمحمد: «إنك أكبر أولادي وكل آمالي فيك» ثم دعـا له، وبكى محمـد سليم حُرَّ البكـاء، أما أحمد أفندي فقد طيب والدي خاطره. ومن الطبيعي أن راسم بك كان حاضراً في هذه المقابلة.

وبعد عدة أيام جاء برهان الدين أفندي؛ فقد كان والدي قد أخبره قبل ذلك برغبته في رؤية أولاده، فحصل على إذن خاص وأرسل إلى القصر حرمه «علية نازلي يار هانم» وولديه محمد فخر الدين وأرطغرل عثمان(٥٩).

وحكوا أن عبد الرحيم أفندي كان يذهب إلى الجبهة (فلسطين)، فكان قبل الذهاب يزور والدي، ويزوره أيضاً عقب عودته ويتحدَّث معه.

أما عبد القادر أفندي فلم يأت على الإطلاق؛ فقد كان من الأصل غاضباً على الدوام من والدي، وكان يقول عن نفسه: إنه «اشتراكي» (سوسياليست)، ويقول: «إن والدي يُرجِّحُ برهان الدين علينا»، وكانت له أفكار وتصرفات عجيبة تميَّز بها، ولا يخجل على الإطلاق من فعل شيء قد لا يرضى أبي عنه؛ فقد كان مثلاً يَحنِي طربوشه على جانب، وتَصِله دائماً عبارات التوبيخ من والدي. وأرسل إليه الوالد عدة مرات أمين بك موظف المابين يُلقِّنه النصائح، ولابد أن إحجامه عن المجيء كان ناشئاً على ما أعتقد من شعوره بانكسار خاطره.

---

(٥٩) كانت «علية نازلي يار» زوجة برهان الدين أفندي قد وصلت إلى سراي والدي عند وفاة الأميرة عادلة بنت السلطان محمود الثاني، وكانت آنذاك في سن السادسة أو السابعة من عمرها، نشـأت على نظام القصر في تربيتها وتعليمها، وربيت على أن تكون زوجة لأخي برهان الدين، فلما بلغت سن الزواج عقد والدي عقدها عليه، ورزقت منه بولديها محمد فخر الدين وعثمان أرطغرل. وكان لوالدي بعد زوجته «بيدار قادين» جارية أيام شبابه تسمى نازلي يار هانم، جهزها وأعتقها ثم زوجها لأحد الرجال من ذوي الرتب العالية. وقد توفيت هذه السيدة ولها ابنة لازالت على قيد الحياة (معلومات عام ١٩٥٥م).

أحداث وقعت لبهيجة هانم الإقبال الخامسة

كان نور الدين أفندي أحد إخوتنا الصغار طفلاً تعساً، فهذا الأخ ـ واسمه الكامل أحمد نور الدين ـ وُلِد توأماً هو ومحمد بدر الدين؛ فظهرت بولادتهما مشكلة: إذ أن التقليد المتبع بين أفراد أسرة آل عثمان أن يعتَلِي العرش دائماً من هو أكبر، وفي هذه الحالة يجب تقديمُ أحد التوأمين على الآخر، فإذا حدث في يوم من الأيام وصادف أن جاء الدور عليهما فسوف ينشأ وضعٌ لم يحدث في تاريخنا وتقاليدنا باعتلائهما العرش معاً، ولهذا السبب وجب اعتبارُ أحد التوأمين أكبر من الآخر، فحسم والدي الأمر بقوله: «في رأيي أنه يجبُ اعتبار أول من تنفس هواء الدنيا هو الأكبر، وعلى هذا فإن نور الدين هو الأكبر، وبدر الدين هو الأصغر». وكان الأخوان يشبه أحدهما الآخر إلى حد بعيد، مثلهما في ذلك مثل معظم التوائم، ولهذا علّقوا لأحدهما شريطاً أحمر، وللثاني شريطاً أزرق، حتى يسهلُ التمييز بينهما، فلما توفي بدر الدين فيما بعد، ظَلَّ نور الدين وحيداً.

وكان بود المسكين نور الدين أن يبقى إلى جانب والدي لو استطاع، وكان لحداثة سنه أضعف من أن يواجه الحياة بعد، وكانت بهيجة هانم أم هذا البريء المسكين ماتزال شابة، ولهذا كانت تجهَل ماذا يجب أن تفعل، فضلاً عن أنه لم يكن لهما منزل خاص بهما؛ إذ كانا يسكنان في بيت بالإيجار، وكانت تَجِدُ صعوبة شديدة في العيش براتب ولدها، لأن التقاليد آنذاك كانت تقتضي كثرة الخدم والحشم، ولهذا أيضاً كانت كثيرة التردُّد على جلالة السلطان، بل ولم تكتَفِ بهذا، فقد كانت تخبر أنور باشا أنها تريد منزلاً، وتُصِرُّ في طلبها على أن يعطوها «قصر مصلاق» الذي كان يملكه والدي أيام ولايته للعهد.

ونتيجة لهذا الإلحاح والطلب الذي لا ينقطع من بهيجة هانم فكَّروا في النهاية في الاحتيال عليها والتخلُّص منها، فذهبوا إليها ذات صباح وقالوا لها:

«إن السلطان عبد الحميد مريض، ويريد أن يراك» وخدعت المسكينة بهذه الأكذوبة، فاصطحبت أختها «تصويرة هانم» وتوجهت إلى قصر بكلربكي؛ فلما رآها والدي دهش للأمر، وانكشف بطبيعة الحال ذلك الفخ الذي نَصبوه لها؛ فقد كان هدفهم أن يَحبِسوها في القصر، وكان المسكين نور الدين آنذاك في الثانية عشر من عمره، فبَقِي دون أحد يرعاه، وكانوا يقولون: إنه على «محمد سليم أفندي» أن يهتم بأمره، وعلى الرَّغْم من أنها قالت لهم: إنها لن تستطيع أن تبقى هناك وتترك ابنها يتيماً هكذا، إلا أن أحداً لم يُعطِ لها أذناً صاغية، وكان أبي يراها على حق، إلا أنها ظلَّت ثلاثة أشهر إلى جانب والدي حبيسة في القصر.

وذات يوم أخبرت والدي عن قلقها على وليدها، وأبلغته عن رغبتها الأكيدة في الذهاب إليه بأي شكل، وأجابها بقوله: «زوجتي! مهما قلت فلن يُصغوا إلي؛ ولهذا فإنني لا أريد التدخل في هذا الأمر، وعليك أن تجدي الحلَّ بنفسك»، وعلى هذا قالت بهيجة هانم: «إذا كان الأمر كذلك فإنني أعلم ما سأفعل».

وارتدت ذات صباح ملابسها، وخرجت إلى السلاملك دون أن يشعر بها أحد، وفُوجِىء بها الضباط، تدخل عليهم غرفتهم وتطلب مقابلة راسم بك، فلما جاء قالت له: «بأيِّ حق وصلاحية تفرِّقون بيني وبين ولدي وتحبسونني هنا، إنني لست أسيرةً لديكم، إننا نعيش عهد الدستور، وعليكم أن تُخرِجوني من هنا فوراً، وإلا فلن أدخل دائرة الحريم قطعياً» ثم جلست هناك.

وعلى هذا سارع راسم بك بإبلاغ الواقعة إلى السلطان وإلى أنور باشا، وفي اليوم التالي جاء الخبر من جلالة السلطان لأبي يسأله: «هل يريدُ خروج بهيجة هانم من القصر؟» وأبلغه أبي بموافقته، ورجاه أن يخصِّصُوا قصره الموجود في «مصلاق» لنور الدين أفندي. وأرسل جلالة السلطان قلفاواته الكاتبات

فأخذن بهيجة هانم بالقارب من قصر بكلربكي بعد أن قبَّلت يد والدي وودعته، وخصَّصوا لنور الدين أفندي قصر مصلاق، فظلَّت معه في هذا القصر حتى خرجت من إستانبول، وهي الآن على قيد الحياة تعيش في نابولي(٦٠).

قطعة من الشعر الفارسي لوالدي

كان الوالد يقضي معظم أوقاته في قصر بكلربكي في قراءة الصحف، وأحياناً في الكتابة، وكان الكدر قد ألَمَّ به يوماً فجلس أمام منضدته وراح يشرَب سيجارته، ثم كتب بعض الأشياء على عُلبة السجائر وتركها هناك، فلما رأته أمي سألته عن الأمر، فقرأ عليها ما كتب والحزن يتملَّكه، ثم راح يشرح لها معناه، وتناولت أمي هذه الرباعية الفارسية وقالت له: إنها تريدالاحتفاظ بها، فضحك وقال لها: «حسن، خُذيها يا زوجتي» وكنت قد عرضتُ هذه القطعة على المؤرخ إسماعيل حامي دانيشمند؛ فطلبها مني، فكتبت تحتها سطرين وقدمتها له بعدما احتفظت بصورة منها(٦١).

---

(٦٠) عادت بهيجة هانم إلى أرض الوطن بعد عام ١٩٥٢م، وهو العام الذي سمح فيه للأميرات بالعودة إلى البلاد، وقد توفيت عام ١٩٦٩م ودفنت في مقبرة يحيى أفندي في حي بشيكطاش باستانبول (ن).

(٦١) لست أدري من نظمه أم أنها من نظم أحد غيره، علقت في ذهنه ووجدها مناسبة لحاله فسجلها على الورق. وقد قام أحد أصدقائنا بعرض هذه القطعة الشعرية على السيد الفاضل البروفسور مينوفي عالم الشرقيات والمستشار الثقافي لإيران في تركيا، فقال البروفسور: إن هذا الشعر لا يصدر عن قلم إيراني، لأن طبيعته غريبة على الشعر الفارسي، ويمكن أن تكون من نظم السلطان عبد الحميد.

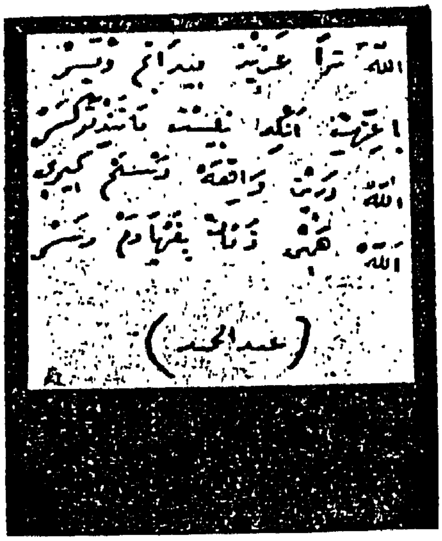

(صورة لقطعة الشعر)

والدي يقدم طلباً إلى نظارة الحربية

كان والدي خلال إقامته في سلانيك قد قدَّم عدة طلبات رجا فيها البحث عن حقيبة أخي الأصغر عابد أفندي وأمه صالحة ناجية هانم والتي تحتوي على نقوده ومجوهراته وسنداته، وفي (٣٠ يونيو/ حزيران ١٣٣٠ [رومي]) قدم طلباً آخر إلى نظارة الحربية، وقد احتَفَظت أمي بمسودة هذا الطلب الذي أملاه والدي على رئيس الحرس راسم بك، وها أنا أدرِجه هنا للتاريخ:

إلى نَظَارة الحربية الجليلة

عَقِب ذهابنا إلى سلانيك في نيسان/ إبريل عام ١٣٢٥ [رومي] كانت قد تشكّلت لجنة برئاسة ناظم بك أمين العاصمة آنذاك بقصد الإشراف على الأمور الخاصة بسراي يلديز، وبعد وصولنا إلى سلانيك بأسبوع أُرسلت إلينا القلفة «ماه أنوار» بقصد البقاء إلى جانبنا، وكان معها آنذاك صندوقان أرادت إحضارهما، إلا أن اللجنة المذكورة أخذتهما منها، وأعطَوْها مضبطة نقدِّم لكم صورتها.

وسوف تعلَمون من الاطلاع على هذه المضبطة أنه كان يوجد داخل الصندوقين المذكورين بعض السندات والنقود وأحجار كريمة مثل العقيق وغيرها، خاصةً بولدي عابد أفندي الموجود اليوم إلى جانبي وحرمي والدته. ولما كانت الطلبات الكثيرة التي قدَّمتُها حتى الآن بواسطة رئيس الحرس راسم بك لم تأتِ بنتيجة، لذلك أرجو من نظارتكم بصورة خاصة إجراء التحقيقات والتدقيقات اللازمة من أجل العثور على الصندوقين، وأَمَلي كبير في استقامة وعدالة الحكومة الحالية، وأملي كبير في جديتكم ونشاطكم اللذين أُعجِبت بهما.

٣٠ حزيران ٣٣٠

السلطان السابق المقيم في
قصر بكلربكي

الحرب العالمية الأولى

كان والـدي يتعقَّبُ بألم ومرارة تطورات الحرب العالمية الأولى، وكان يلجأ إلى راسم بك، يتحدَّث معه ويحصل منه على المعلومات، كما كان يَطَّلِع على الأخبار من خلال الصحف، فيستقبلها أحياناً بالدهشة وأحياناً بالجزع، وكان يقول يومها: «لقد صِرنا ضحية لسفينتين[٦٢]، إن دخولنا الحرب ضد ثلاثة دول كبرى شيء ليس من التعقل، إنني أخشى نتائجها الوخيمة». وكثيراً ما كان يكرر عبارته: «كيف يحدُث هذا؟ إنه جنون».

ولما أُعلن الجهاد سيطرت الدهشة تماماً على والدي، وكان يقول بحزن شديد: «ليس الجهـاد نفسه، ولكن اسمه فقط كان سلاحاً في أيدينا، وكنت أحياناً كلما أردت تهديد سفراء الدول الأجنبية أقول لهم: «إن بين شفتي خليفة

---

(٦٢) (Goeben) و (Brestlau) هما السفينتان اللتان أطلق عليهما فيما بعد باللغة التركية ياووز وميديللي (ن).

الإسلام كلمة واحدة، لا قَدَّر الله أن تخرج». إننا لا نملِكُ من الجهاد إلا الاسم فهو قوة بلا بدن، وكيف لهم أن ينهضوا بهذا الأمر، وهل تنخدع إنكلترا لهذا؟».

وزاد قلقُـه أكثـر وأكثـر عنـدما اعتدى الإنكليز والفرنسيون على «جناق قلعـه»، حتى إن الأخبار بدأت تقول: إن السلطان سينتقل إلى قونيه، ويُنقل والدي إلى بورصه.

رسالة من السلطان رشاد إلى والدي

وتحقَّقت هذه الأخبـار، وجاءت في أعقابها رسالة شفوية من السلطان رشاد إلى والدي، قال فيها: «على أخي أن يستعدَّ: إذ يجب نقلُه إلى بورصة، أما أنا فسأذهب إلى قونيه» وما إن جاء ذلك إلى مسامعه حتى نَهَض على قدميه غاضباً وصـاح: «مـاذا يفعـل أخي؟ لا يجبُ على أحـد أن يترك العاصمة، وخصوصاً هو، إذ يتحتَّمُ عليه أن يظل هنا حتى الموت، والأسرة كلها صغيرها وكبيرها يجب أن تدافع عن البلاد حتى الموت، وهل نعجز عن أن نكون أنداداً لآخر أباطرة بيزنطة؟ أبداً لن أغادر استانبول، وأنا راض بالموت هنا».

كان الحزن يسيطر على كل أفرادِ الأسرة العثمانية في تلك الأيام، لأن الشائعات التي تناقلها الناس آنذاك كانت عجيبة غريبة، كقولهم مثلاً: «سوف يبقى أفرادُ الأسرة من النساء في استانبول، ويغادِرها الرجال فحسب»، وغير ذلك من الأشياء التي لا يستسيغها العقل، حتى إن زوجي أحمد نامي بك ذهب إلى «المابين» وراح يصرخ فيهم: «كيف يحدُث مثل هذا».

ونحمـد الله أنـه لم تكن هناك ضرورة لهذا؛ فقد كانت بطولة العساكر الأتـراك التي لا نظيرَ لهـا ودفـاعهم عن «جناق قلعه» كفيلاً بإنقاذ العاصمة، وتغاضى من أوعَزوا لجلالة السلطان بهذه الفكرة الخاطئة عن أفكارهم، وبهذه الصورة ظل كل واحد في مكانه.

استضافة أتاتورك في قصر بكلربكي

نَزَل مصطفى كمال بك أثناء الحرب العالمية الأولى ضيفاً على صالح بك (بوزوق) أحد ضباط الحرس في القصر، وما إن رآه والدي من النافذة حتى سألهم: مَن يكون هذا الضابط الوسيم؟ ولما عَلِم أنه ينزل هنا ضيفاً قال يومها: «إنه لا يُشبه الضباط الآخرين، ولابد أنه شخص آخر يختلف عنهم».

وقد قيل: إن مصطفى كمال بك كان خلال إقامته هذه يجلس في الحديقة، ويتحدَّث مع أخي عابد أفندي، حتى إنه أهدى إليه زوجاً من صغار الغُزلان، فرح أبي بهما كثيراً عندما عرضهما عليه عابد أفندي.

لقاء بين والدي وأنور باشا

للمرة الثالثة كان يجيءُ إمبراطور ألمانيا إلى إستانبول، ودُعي عابد أفندي إلى السراي ليشارك في مراسم الاستقبال، وسَعِد والدي لهذه الدعوة، وكان في الأصل يرسل ابنه عابد إلى جلالة السلطان في الأعياد والاحتفالات الرسمية.

وكان مجيء أنور باشا لمقابلة والدي يتم للمرة الأولى من أجل إبلاغه تحيات الإمبراطور؛ فاستعرض الضباط والعساكر المصطفين لتحيته في الحديقة ونزع سيفه أولاً، ثم دخل لمقابلة الوالد بكل الأدب والاحترام، واستقبله الوالد واقفاً على قدميه، فأبلغه الباشا تحيات جلالة السلطان أولاً، ثم تحيات الإمبراطور، وردَّ أبي عليه التحية وحمَّله شكره إلى الإمبراطور على وده القديم، وشكره الآن أيضاً على المودة التي أبداها لأخيه.

وبعد ذلك أشار على أنور باشا بالجلوس، وراح يتحدَّث معه بكل الود والإطراء، وحصل منه على معلومات مستفيضة حول أحداث الحرب العالمية، ووجَّه إليه بعض الأسئلة، ثم حمَّله السلام إلى الأميرة ناجية ابنة أخيه وزوجة

أنور باشا، ثم سأله: «لقد كانت رائعةَ الجمال في صغرها، وابنتها[٦٣] أيضاً هل تشبهها؟» وقال له بعدها: «أوَدُّ لو تعرض علي صورتها وسوف أكون سعيداً» وأبلغه دعواته بسلامة الأمة والدولة وحسن استعدادها للحرب، ثم انتهى أول لقاء بينهما على هذا النحو.

وجاء أنور باشا مرة ثانية، وآنذاك تحدَّث أيضاً عن الحرب، وسأل والدي عن رأيه فأجابه بقوله: «إن السفينة يقودُها رُبَّانُها، وهو وحده الذي يمكنه اكتشاف الجهة التي ستأتي منها العاصفة، وتحديد موضع الخطر، وعلى هذا يقود سفينته؛ فكيف يفهم هذا من هو خارج السفينة؟ وفي هذه الحالة ماذا يُمكنني أن أقدِّم من أفكار، أو أقترح من تدابير، وقد لا أستطيع إزاء الحالة الراهنة قول شيء بعد أن تجرَّدْتُ من كل شيء، وحسبنا التفكير فيما يمكن أن تفعله ألمانيا والنمسا والمجر ضد الدول المسيطرة على البحار».

وبعد أن انصرف أنور باشا قال أبي: «لم يكن هناك شك على الإطلاق في أن تنشب حرب عمومية في يوم من الأيام، غير أن تدخُّلَنا فيها كان جهلاً عظيماً وسوء تدبر، وسلامتنا كانت في البقاء على الحياد، ومادمنا قد وصلنا إلى هذه الحال فسوف نمضي معها حتى النهاية، ولا حِيلة لنا في ذلك»، ثم راح يدعو والحزن يتملَّكُه: «أذَلَّ الله من ساقوا الدولة إلى هذه الحال!».

وذات صباح طالع في الصحف أن السلطان رشاد مريضٌ، وأنه ستُجرى له عملية جراحية؛ فقام على الفور ونادى راسم بك، ثم أرسله إلى أخيه وأبلغه قلقه الشديد عليه ودعواته إلى الله أن يُسبِغَ عليه الصحة والعافية. وعاد راسم بك في المساء، وأبلغه أن العملية تمَّتْ بنجاح، وعندها قال والدي: «الحمدُ لله

(٦٣) «ماه بيكر هانم» هي الابنة الكبرى لأنور باشا، وهي خريجة كلية الطب، تزوجت بالدكتور فكرت أوركوبلي ثم طلقت منه، وتعيش الآن في استانبول (ن).

العلي القدير، حفظ الله أخي».

وبعد هذه الحادثة كان يُرسل راسم بك بين الحين والآخر إلى السراي للسؤال عن أخيه، وكان السلطان رشاد سعيداً بذلك، يرُدُّ عليه هو الآخر سلامه وتحياته.

وذهبت أنا أيضاً أثناء العملية الجراحية إلى الحريم الهمايوني، وسألت عن جلالته.

مرض الوالد ووفاته

كنت آنذاك في سويسرة، ورزقني الله ابني الثاني عثمان، فأبلغت هذه البشرى والدي في برقية أرسلتها إليه، وجاءني الردُّ عليها حاملاً توقيع راسم بك يُخبِرني فيه بسعادته لهذا الخبر، ولازالت هذه البرقية محفوظة لدي، وكتبت الصحف السويسرية آنذاك عن ميلادِ حفيدٍ للسلطان عبد الحميد الثاني، وبدأت تَصِلُني التهاني من كل صوب.

ولم يَعُد والدي كسابق عهده، فقد تدهورت صحته آنذاك، وصار يشكو من الإرهاق، وهو الذي كان يَملِكُ بدناً في حيوية الشباب، وكان جُلُّ شكواه من الجهاز الهضمي، وكان يثق في العلاج الذيَ يقدمه له الدكتور عاطف بك، فقد كان مسكِّناً لآلامه.

وقبل وفاته بثلاثة أيام، ارتدى ملابسه كالمعتاد، رغم حديثه عن الإرهاق، وراح يتجوَّلُ دون هوادة.

وفي التاسع من فبراير/ شباط مساء السبت عام ١٩١٨ جلس على مائدة الطعام كعادته مع زوجتيه، ثم تحدَّث عن فُقدانه شهيته، وتناول قطعة من الكوفته، وملعقتين من القَرْع، وطبقاً من المهلبية.

وما إن نهض على قدميه حتى أشار إلى صدره وقال لأمي: «أشعر بالم في الطرف الأيسر يمتدُّ حتى الطرف الأيمن»، وشاءت أمي أن تستدعي الطبيب في الحال، إلا أنه للأسف كان قد حَصَل على إذن من والدي وذهب إلى منزله، ولهذا لم يتيسّر استدعاؤه.

وفكّر راسم بك في استدعاء طبيب آخر، فأرسل يستدعي «الكسياندس أفندي» طبيب محمد وحيد الدين أفندي [السلطان وحيد الدين فيما بعد]، الأخ الأصغر لوالدي، والذي كان يقيم في تلك الناحية، وبعد أن فَحَصه هذا الطبيب أبلَغ راسم بك أن مرضه بوادر سل خطير، واستخدم يومَها عبارة: «إن مرض السلطان خطير قدر خطر السلطان نفسه».

وعلى هذا قام راسم بك على الفور وأبلغ السلطان رشاد وأنور باشا حقيقة الوضع، وكان الدكتور عاطف بك موجوداً في تلك الأثناء، ففحص الوالد هو الآخر ووصل إلى نفس الرأي، فاستدعوا على الفور نشأت عمر بك أحد الأطباء المشهورين وجعلوه يفحصه.

كانت حالةُ الوالد غايةً في الخطورة، ولم يكن ميسراً آنذاك تلك الأدوية المؤثرة التي توجد الآن، ولم يَنَم أحد في القصر حتى الصباح، وكان كلما دخل الدكتور عاطف بك وخرج من عنده تعقّبه عابد أفندي.

ولما أصبح الصبح قال الوالد: «أوه! ما أسرع الصباح!»، وأشار بإعداد الحَمّام الذي اعتاده كل صِباح، وحاولوا معه أن يصرِف النظر عنه لمرضه، إلا أنه أصَرَّ على طلبه وقال: «إن تحرموني من حقي في الحمام فلن أسامِحكم أبداً».

وعلى هذا راحت المسكينة «كلشن» تُعِدُّ الحمام والدموع في عينيها، وتأبّطَ ذراعَ أمي وسار حتى الحمام على غير رغبة الطبيب، وعقب خروجه منه

بدأ يتصبَّبُ عرقاً، وراحت أمي تتبادل النظرات هي وصالحة ناجية هانم، وتُخفِيان الدمع في عيونهما حزناً على هذه الحال التي لا تُنبىء عن خير، وجلس أبي، ثم وضعوا له وسادة تحت إبطه كي يتَّكِىء عليها، ثم صلى ركعتي الصبح، وشرب اللبن بعد أن خَلَطه كعادته بالمياه المعدنية ثم قال: «الحمدُ لك يا ربي! إني أحسن حالاً» وتأبَّط ذراع أمي ثانية ودخل غرفة نومه.

وأبلغوه في تلك الأثناء أن جلالة السلطان يبعَثُ إليه سلامه، وأن الأطباء وصلوا؛ فقال: «لا، إنني لا أريد أطباء، إنني بخير» ثم سأل: من يكونون هؤلاء الأطباء؟ وكرَّر رفضه لهم، فلما قالت له أمي: «أرجوك يا أفندينا! لا تُغضِب أخاك، واسمح لهم أن يفحصوك مرة واحدة» قال هو: «صحيح! ربما يغضب أخي، فليأتوا إذن».

ودخل الأطباء: عاقل مختار بك ورفعت بك السلانيكي وعاطف بك والكسيانديس أفندي، وجاء أيضاً عابد أفندي ووقف بعينيه الدامعتين أمام والدي، فلما رآه والدي على هذه الحال قال له: «لا تبكِ يا بني، إنني بخير فلا تحزن» وذكر للأطباء أنه ربما حدث له ذلك نتيجةً لأنه أفرط مساء الأمس في الطعام(٦٤)، وطلب إليهم أن يأخذوا منه بعض الدم حتى يمكنه التنفس بسهولة،

---

(٦٤) جاء في بعض المقالات التي ظهرت إثر وفاة والدي أنه أكل خمس قطع من الكفتة وقطعة «كوتلت» وسمكة وفطيرتين وقدراً من حلوى دقيق الأرز. والحقيقة أن والدي لم يكن حتى وهو في كامل صحته ليأكل هذا القدر من الأشياء الكثيرة المتباينة، وقد أقسمت والدتي أنه تناول قطعة واحدة من الكفتة وقليلاً من حلوى القرع وطبقاً من حلوى دقيق الأرز ثم نهض. وتقول أمي: إن قوله للأطباء: إنه أكل كثيراً، إنما ليعزِّي نفسه. ولو أنه لا جرم في أن يأكل الإنسان بقدر ما تتَّسع معدته إلا أنني أشير هنا إلى أن الحقيقة عكس ذلك، لأن أمي هي الشخص الوحيد الذي كان بجانبه في ذلك اليوم ورأت ماذا أكل، بل قالت أيضاً: إنه كان فاقداً شهيته يومها.

ولما فَصَدوه قال: «نعم، أشعر أني أحسن» واقترحوا حَقنَه بالمورفين، إلا أنه رفض هذا الاقتراح.

وبينما كان الأطباءُ خارجين من الغرفة تخلَّف عنهم راسم بك، واقترب من والدي وقبَّل يدَه، ثم فاض الدمعُ من عينيه وقال له: «سلطاني! سامِحني في حقك»، وتطلَّع والدي إلى وجهه بدهشة، ولم ينطِق بكلمة.

وبعد أن غادر الأطباء الغرفة ودخلت أمي مع صالحة ناجية هانم ابتسم أبي لهما وقال: «إن راسم بك قَطع أمله فينا، فقد قبَّل يدي وطلب إلي أن أسامحه في حقي» ثم تأوَّه وأضاف يقول: «لقد أسدَلُوا ستارة سوداء على كل خدماتي، وليس لي حق لدى أحدٍ حتى أطالبه به»، وفاضت عيناه بالدمع، فبادَرَتْه والدتي آنذاك بقولها: «أفندينا! مَرِضتم قبل ذلك بما هو أخطر، وبمشيئة الله تطيبون أيضاً هذه المرة، وحقُّكم لا بد باق عند الله».

وفَهِم السلطان رشاد من الأطباء أنه لا أملَ في حياة والدي؛ فأرسل إلى أخي الأكبر محمد سليم أفندي مَنْ أبلغه أن أباه مريض مرضاً شديداً، وأن عليهم جميعاً أن يذهبوا إليه على الفور ويَرَوْه.

ولما دخلت القلفة «دلبريال» وأخبرتهم بوصول محمد سليم أفندي وأحمد أفندي، همَّ والدي وقال: «فلينتظرا قليلاً» ثم طلب فنجاناً من القهوة، وتأبَّط ذراع أمي ثم استوى فجلس وقال لشُهر الدين آغا: «ناولني القهوة حتى أشربها».

وكان وكأنما يودِّع مَن حوله آنذاك؛ إذ أمسك يد أمي وقبّل راحتها أولاً وقال لها: «جزاك الله خيراً»، ثم أمسك بيد صالحة ناجية هانم وودَّعها وهو يقول: «سامِحيني في حقك»، وقال للقلفة كلشن الواقفة عند قدَمَيه: «ابنتي! جزاك الله خيراً»، ثم أخذ رَشفَةً من القهوة، وقبل أن يأخذ الثانية انسكبت على كفِّ أمي وقال بصوت عال: «الله». ثم سقطت رأسُه على ذراعَي أمي.

فصرخت أمي عندها قائلةً: «لقد أغمي على أفندينا، دعوا الطبيب يُسعِفه»، وهرع الدكتور عاطف بك وأدرك الحقيقة المفجعة، إلا أنه لم يذكر شيئاً لمن في الغرفة، إذ كانوا لا يزالون بعدُ في غفلتهم.

كانت أمي لاتزال تحتَضِنُ أبي بين ذراعيها، ولا تريد أن تتركه للدكتور عاطف بك؛ فقال لها: «اتركيه لي، إنه مُغشى عليه، وسوف أقوم له بالعلاج اللازم، وعليكم أن تخرجوا فوراً» وهمَّ فأخرجها مع عابد أفندي بعُنف، ثم التفت إلى القلفة دلبريال وصاح فيها: «لماذا تتسمَّرين؟ هيا أحضِري لي قطعة من الشاش حتى نُلثِّمه».

وكان شُهر الدين آغا ـ ذلك المخلص ـ يقفُ عند الباب دون أن يعلم حقيقة ما جرى، فصرخ وقال: «آه، راح أفندينا!» ثم سقط مغشيّاً عليه. في تلك اللحظة عَلَت أصواتُ البكاء والصراخ من داخل القصر، وانطلق عابد يبكي ويقول: «لا أصدق، لقد كان يجلس الآن في فراشه!»، ودخل ضباط الحرس وقدَّموا له التحية الأخيرة. وبهذه الصورة ارتحل والدي إلى الدار الآخرة (الأحد ١٠ فبراير/ شباط ١٩١٨م).

وحكت أمي أيضاً: أن زوجته الأولى والزوجات الأخريات والأميرات جِئْن يبكين إلى قصر بكلربكي، ودخل الضباطُ غرفة الوالد، وأخرجوا كل من فيها، ثم أخذوا يتناوبون الحراسة فيها اثنين اثنين، وقيل: إن زكريا أفندي أحد الضباط جلس يَتلُو القرآن عند رأس الوالد حتى الصباح، وباتت القلفاوات الكاتبات القادمات من طرف جلالة السلطان في القصر هذه الليلة، كما فعل الأمراء أيضاً، فكان كل واحد يفترش الأرض ويبكي حتى أصبح الصباح.

وكتب بعضُ الناس يومَها كيف تمَّت مراسم الجنازة، وكيف كان يصرُخ الأهالي ويقولون: «أبونا! لمن تَتركنا وتمضي؟».

وأجِـدُني في حِلٍّ من الاستطراد في ذلك. وحسبكم أن تقرؤوا ما كتبه المؤرخ عبد الرحمن شرف.

ففي صبـاح اليوم التالي شرع يدخُل الجميع عليه غرفته وفي مقدمتهم أمي: فألقَـوا عليه النـظرة الأخيرة وودَّعـوه، ثم حمل الضباط نعشه واصطف العساكر في الحديقة لتحيته.

وفور أن خرجت الجنازة قام راسم بك وشمَّع غرفته في الحال، ورفعوا الحظر في تلك اللحظة على دخول القصر؛ فبدأ الناس من المعارف والعمال والموظفين القدامى يَتوافَدُون عليه.

وبعد يومين، أي: يوم الثلاثاء ١٢ فبراير/ شباط ١٩١٨، وَصَل إلى قصر بكلربكي أنور باشا على رأس هيئة، وقام راسم بك ففتح الغرفة، وفَتَحت الهيئة خزانة كانت تقف عند السرير الذي كان ينامُ عليه والدي، وأخرجوا الحقيبة التي كان قد أتى بها من سراي يلديز (وهي الحقيبة التي أخذتها أمي من فوق المنضدة في المابين الصغير) ثم فتحوها وأخرجوا منها طوماراً من الأوراق، ودفتراً[٦٥] هو المذكرات التي كتبها والدي، وعُلبة في شكل مصحف ذات «بريّمة» مختومة بخاتمه، وما إن فتحوها حتى وَجَدُوها مليئة بالمجوهرات.

أما الأوراق والدفتر فقد طواهما أنور باشا ووضعهما في جيب معطفه، وقالوا: إن هذه الأوراق هي الأوراق التي أخذها من البنك الألماني عندما كان في سلانيك، ومن بنك كريدي ليونيه عندما كان في قصر بكلربكي... كلام. ثم فَتَحوا كل الخزائن وفتشوا حتى جيوب الملابس، ولم يعثُروا على شيء آخر. ولم يَنْسَ أنور باشا عند انصرافه أن يطلب أيضاً أختام الوالد.

---

(٦٥) هذا الدفتر ليس له غلاف، وهو عبارة عن أوراق جمعت إلى بعضها البعض.

كان والدي قبيل وفاته قد سَلَّم والدتي الأختام، وطلب منها أن تحتفظ بهـا، فلما سأل أنور باشا عنها اضطروا أن يخبروه أنها لدى أمي، إلا أنها لم تسلِّمها للهيئة، وعلى هذا هدَّدُوها بالحبس في قصر بكلربكي، فقالت لهم: «لن أعطيها لأحد إلا لولده الأكبر» وبالفعل سلَّمتها إلى محمد سليم أفندي، إلا أنهم شرعوا يهدِّدُونه هو الآخر، حتى وجد الحل في النهاية؛ إذ تركوها له شريطة أن تُوضَـع في ظرف ولا يُفتح، غير أنهم أخذوا نسخة منها لأنفسهم، وظلَّت الأختام الأصلية في حوزة محمد سليم أفندي إلى أن تُوفِّي، ولست أدري ماذا صار إليه أمـرُ هذه الأختام وعند من بقيت. . . إنه أمر مجهول، ود الناس لو حفظت هذه الأختام أيضاً في المتحف.

حمل أنور باشا الحقيبة التي عَثر عليها في الخزانة التي كانت موضوعة عند رأس والدي إلى السلطان رشاد، فقال السلطان: «إن هذه الحقيبة ليست لي، وهي ملك أخي، ويجب تسليمُها إلى أولاده». وعلى هذا تمَّ تسليمُها إلى محمد سليم أفندي.

وسمعنا فيما بعد أن سليم أفندي وهو يتسلَّم الحقيبة كانت مقطوعة من أسفل، ومع ذلك وزعت محتوياتها، وكان نصيبُ كل واحد منا ما قيمته عشرة آلاف ليرة من المجوهرات، ونصيب كل زوجة ما قيمته خمسة آلاف ليرة، وكنت أنا في سويسرة آنذاك، ولذلك أودَعوا لي نصيبي في خزانتي حتى عدت. وعلى هذا النحو خُتِم ذلك المشهد.

كيف تلقَّيت خبر الوفاة وجئت استانبول

كنت عنـد وفـاة والـدي أُقيم في جنيف بسـويسرة، وسمعنا هذا الخبر المفجع من خلال الصحف، فقد نشروه آنذاك في ملحق خاص في نفس اليوم؛ فبدأت تَفِدُ عليَّ العائلات التركية المقيمة هناك، وتصلني برقيات التعزية من كل

حَدب وصوب، وطبيعي أني لا أجد الآن ضرورة لتصوير أحزاني وآلامي وقتها.

وقبل أن تمضي عدة شهور جاءني خبر وفاة عمي السلطان رشاد في الثالث من يونيه/ تموز ١٩١٨، وتولّى عرش السلطنة عمي الأصغر محمد وحيد الدين باسم «محمد السادس».

وكنت أعاني الأمرّين في إرسال الخطابات إلى استانبول، أو في الحصول على خبر منها، نتيجة لإغلاق الطرق آنذاك؛ فكنت لا أعلم شيئاً عن والدتي ولا أجد سبيلاً للعودة إلى بلدي رَغْمَ رغبتي الشديدة في ذلك، حتى إني بدأت أعاني من ضِيق ذات اليد؛ فرُحتُ أبيع ما كان في حوزتي من بعض المجوهرات الصغيرة، وأستَدِين من أصدقائي هناك، وأترقَّبُ متلهفة إلى انفتاح الطرق.

وفي تلك الأثناء فَسَدت العَلاقة بيني وبين زوجي أحمد نامي بك؛ فهو يريد الذهاب إلى بيروت، ورأسي تضيق بالمشاكل الكثيرة؛ فأخي الأصغر نور الدين أفندي الذي كان يدرس في ألمانيا طَرَدُوه منها بعد هزيمتهم في الحرب، وجاء إلى سويسرة، وكان من الطبيعي أن آخذه إلى جانبي... والخلاصة أني كنت في حالة لا أُحسَد عليها.

وفي النهاية انفتحت الطرق لأول مرة؛ فذهب زوجي إلى بيروت، بينما ذهب كلُّ الأمراء الموجودين في سويسرة إلى استانبول، أما أنا فقد جازفت بالذهاب إلى إستانبول عن طريق البحر، رغم الخوف من الألغام البحرية، وأخذتُ ابني عمر الذي كان في السابعة من عمره آنذاك وابني عثمان الذي يبلغ عاماً من عمره، واصطحبتُ معهما المربين.

وأعددنا أنفسنا لتحمُّلِ كل المصاعب، وذهبنا إلى ميلانو، ومن هناك إلى روما، ثم مكثنا بها أربعةَ عشر يوماً، وبدأنا السفر بعدها إلى استانبول عن طريق «برنديزي».

زواجي الثاني

أصدر محمد السادس أمره أن تسكُن أمي هي وعابد أفندي في سراي يلديز، بعد أن ظَلاَّ مدة بلا مسكن أو مأوى، ولم تكن بلدي كما تركتُها من قبل؛ فقد كانت تحت الاحتلال، وماذا كان بوسعي غير الحزن والألم؟ وفي النهاية تلاقيتُ مع أمي، وحكت لي كيف تُوفِّي أبي، وهي التفاصيلُ التي علمتها بعد وصولي وذكرتها نقلاً عنها.

ولما اضطررت للانفصال عن أحمد نامي بك دَعَت الضرورة أن أبلغ السلطان ذلك؛ فذهبتُ لمقابلته وأحطته علماً بوضعي، فقام جلالته وأحال الأمر إلى شيخ الإسلام آنذاك نوري أفندي، فلما حصلتُ من قضاء استانبول على «وثيقة الطلاق»، صَدَر القرار بانفساخ عقد زواجنا.

ومرَّ عام بعدها، وانتهت مدة العِدَّة، فقدمت طلبي إلى السلطان، ورجوته أن يأذن بزواجي من محمد علي رؤوف بك، الذي كنت أعرف عائلته من قديم، فهو ابن المشير رؤوف باشا، وحصلت على الإذن، وقام شيخُ الإسلام نوري أفندي فعَقَد لنا عقد الزواج في مبنى «المابين الهمايوني».

وقد تلقَّى زوجي تعليمه في «سانت باربيه» بفرنسا، وشاء أن يلتحق بالسلك العسكري، فأرسله والدي إلى ألمانيا؛ حتى أنهى تعليمَه هناك، ثم دخل الحياة العسكرية كواحد من رجال البلاط «ياوران» لوالدي، وحارب على الجبهة في حرب البلقان، وظلَّ يعمل بعدها ضمن «ياوران» السلطان رشاد، فلما جاء السلطان محمد السادس أبقاه في وظيفته. وقد كان جندياً محبًّا لوطنه، بكى عندما أُحِيل إلى المعاش وكان برتبة قائم مقام.

لقد كان همنا المشترك والوحيد هو الحالة التي تردَّت فيها البلاد، وأراد الإنجليز احتلال منزلي آنذاك، فجاء مساعد الجنرال «هارينغتون» وحاول طَرْدَنا

منه، فقاومتهم وأفصحت لهم عن رفضي أن أعطيهم إياه، وقلت لهم يومها: «تستطيعون بالقوة أن تخرجونني من منزلي، فأنتم قادرون على ذلك، ولكني أنصب خيمة في الحديقة وأعيش فيها، وأبعث برقية إلى ملكتكم»؛ فمضوا وانصرفوا، وأحمد الله أنهم لم يأتوا ثانيةً لإزعاجنا.

مغادرتي أرض الوطن

وفي النهاية، مع ذهاب محمد السادس، اعتلى عبد المجيد أفندي عرش الخلافة الإسلامية، وقام بدعوة كل أفراد أسرة آل عثمان رجالاً ونساءً، شباباً وشيوخاً، وقدَّم لهم مأدبة عشاء ضخمة في سراي «طولمه باغجه»، وتناولنا الطعام سوياً، فكانت أول مرة في تاريخ الأسرة، ثم إذا بها تصبح الأخيرة أيضاً.

وكنت منذ زمن طويل أهوى جمع قوائم الطعام؛ فأخذت قائمة طعام ذلك المساء، ولازلت أحتفظ بها للذكرى بين مجموعتي.

ولم تمض أيامُنا بعد ذلك على ما يرام، وكنا نتوقع في كل لحظة كارثة تقع على رؤوسنا، ونبكي على سوء طالِعنا... وفي النهاية أقبلت الأيام التي بِتْنا نخشاها، واضطررنا لترك بلدنا ووطننا الحبيب... وإلى أيِّ الديار نحن ماضون؟ إننا خُلِقنا من طين تركيا وترابها... أجسادنا وعظامنا هي عجين ذلك التراب، وكيف لنا أن نموت في ديار الغربة... إنهم يطردُوننا من أوطاننا بلا إثم أو جريرة، يا له من شيء مفجع(*).

ولم نكن نحن مثل أميرات أوربا أناساً نعرف الحياة وندرك غوائلها، وزاد الطين بِلَّة أننا كنا أيضاً لا نملك مالاً أو ثروة؛ فكلُّ أموالنا وأملاكنا هي الدُّور التي كانت تأوينا، وكنا بالرواتب التي وَهَبتنا الأمة إياها نصرف منها على الخدم،

(*) تشير الأميرة إلى قرار إخراج كل أفراد أسرة آل عثمان خارج تركيا بعد إلغاء السلطنة (١٩٢٣) ثم الخلافة الإسلامية سنة (١٩٢٤) (المترجم).

والبـاقي نَصـرِفُـه في أوجـه الخير؛ فلـم نكن نعطي المال قيمة، وكان عطاؤُنا للإنسانية ذاتها، فهكذا خَبَرنا الحياة وهكذا عشنا، والآن ماذا يمكننا أن نفعلَ في ديار الغربة دون مسكن أو مأوى؟ وما هو مصيرنا؟ إن ذَنبَنا الوحيد هو أننا أفرادُ الأسرة العثمانية.

وشـرعنـا نفتـح أبـوابنـا، ونبيع بالمزاد أثاث بيوتنا، استعداداً للرحيل، وبالطبع لـم نستطع أن نبيع الأثاث بقيمته الحقيقية؛ فقد كنا ـ من ناحية ـ في عجلةٍ من أمرنا، ونجهل مثل هذه الأمور من ناحية أخرى، وكم سنة يستطيع أصحابُ أولاد وعيال مثلنا أن يعيشوا بهذه النقود التي جمعناها؟

على هذه الصورة تركنا وطننا، والدمعُ في عيوننا، وكان ابني الأكبر عمر نامي آنذاك في الثانية عشر من عمره، وابني الثاني عثمان نامي في السادسة من عمره، بينما كان الأصغر عبد الحميد رؤوف في الثانية من عمره. وهل كان من السهل تربية وتنشئة هؤلاء الأطفال؟ وهل لا يبكي دماً فؤادُ أم مثلي أدركتها مثل هذه المصاعب؟

وفكّرت ملياً مع زوجي محمد علي رؤوف بك، واقتنعنا أن أنسب الأماكن التي يمكننا الرحيل إليها هي فرنسا، على الأقل لن نعاني من مشكلة اللغة، وأستطيع أن أُتيح الفرصة لأولادي حتى يتعلموا ويتربَّوا بصورة أفضل. . . إذاً ليس في أيدينا أغلى ولا أعز من أولادنا بعد اليوم، وعلينا أن نعتادَ الحِرمان، ونعيش لهؤلاء الأطفال ليس إلا.

وحملنا هذه الأفكار، وشرعنا نرحَلُ إلى فرنسا، وأُعطَـوْا كل واحد منا ألف ليرة لنفقات الطريق، وسمحوا لنا أيضاً أن نرحل مع حاجياتنا، وذهبنا مباشرة إلى باريس، ونزلنا على فندق «كيرس».

وفي تلك الآونة كانت ألعاب أولمبياد عام ١٩٢٤ مقامة في باريس، ومن

ثَمَّ كان العثور على منزل يناسب إمكانياتنا أو مكان نأوي إليه أمراً شاقاً.

غير أن الفرنسيين أبانوا لنا عن مودتهم، وذلَّلوا لنا الصعوبات، ولهذا فإني أشكر لهم هذا الفضل.

وكان زوجي يعرِف فرنسا جيداً؛ فرأى أنه من الأنسب استئجار منزل في ضواحي المدينة، حتى يساعدنا ذلك في تعليم الأولاد، وضماناً لحياة أكثر راحة.

واستطعنا لحسن الحظ أن نستأجر بيتاً صغيراً في «Virofle» قرب فرساي يتناسب وكلَّ ظروفنا، وانتقلنا إليه في اليوم الثامن عشر بعد وصولنا فرنسا، ونجحتُ في تسجيل ابني الأكبر عمر في إحدى المدارس على الفور، فكان قيده في ثانوية Hoche في فرساي، أما عن الطفلين الآخرين فكانا لا يزالان صغيرين بعد.

إن تربية الأطفال في مدينة مثل باريس أمرٌ ليس يسيراً، وكان يمكنهم التمتُّع بكل أنواع اللهو واللعب، إلا أنهم كانوا مجبرين على الاعتدال، ومصادقة أطفال عائلات طيبة تعرَّفْنا عليها في باريس، وكان علينا نحن الوالدَيْن أن نرعاهم، وليس ممكناً أن يعيش الإنسان في مدينة مثل باريس ولا ينهَل من فنونها وثقافتها.

وها نحن قد سَعَينا على تنشئة أولادنا بهذه الصورة، فأنهى ولدي عمر ثانوية «Hoche»، ثم سجَّل اسمه للالتحاق بكلية حقوق باريس، وتزوَّج بسعادت هانم ابنة الميرلوا سعيد باشا نجل كامل باشا وابنة عمته، ثم سافر إلى بيروت، وبدأ حياته العملية هناك.

وجاءنا بعد مدة من الزمن نبأُ وفاة أخي الأكبر محمد سليم أفندي في

بيروت؛ فشعرت عندها بالأسى والحزن من جديد؛ فقد فَقَدت العائلةُ كبيرها الغالي.

وبعدها بقليل ارتحَلَتْ أيضاً أختي الحبيبة الأميرة رفيعة في سن الشباب في بيروت، فكان هذا الحادث أيضاً باعثاً على ازدياد آلامي وأحزاني.

وبينما أنا أتشوَّى بهذه الأحزان فقدتُ أيضاً شريك حياتي وزوجي الحبيب محمـد علي رؤوف بك، وإني لعاجزة أن أصوِّرَ كما يجبُ مدى سوء طالعي وحياتي مع الـوحدة. وقد كان زوجي العزيز هو ـ للإسف ـ أول من تُوفِّي في باريس من الرجال المنسوبين لأسرة آل عثمان، وراح ضحية لوعته وشوقه إلى وطنه، وكيف لي أن أصور مدى الألم والحزن الذي شعرت به عند رحيله. . . لست أدري.

كنا عندما نذهب إلى جامع باريس نتحدَّث ونتناقش مع الوزير المغربي، «بن غابريت» [هكذا]؛ فقد كان عالماً فاضلاً، ونهض هذا الرجل لإسعافي، فقام على تجهيز وتكفين زوجي شرعياً، ولَفَّه بالعلم التركي، ثم نقل نعشَه إلى الجامع، واشترك في مراسم الجنازة أصدقاؤنا الفرنسيون في «Virofle» والبوليس وهيئة من رجـال المـطافىء، وأقـام عليه الصـلاة العـربُ المسلمون هناك، وسمحت الحكومة بدفنه في مقبرة المسلمين في «Bobigny»، وصار لهذا السبب تخصيص مكان لدفن الأتراك هناك. وزوجي يَرقُد الآن في تلك المقبرة، رحمه الله رحمة واسعة.

وبعد وفاته صِرتُ أحمل وحدي العبء الكبير على كاهلي، وقد فقدتُ بفقده عون شريك الحياة الذي منحني العزاء والسلوى.

وفي تلك الأثناء كنا نعيش ما قبل الحرب العالمية الثانية بيوم، وكنت قد عَزَمْتُ بكل قواي على أن يتمِّمَ ولدي الثاني عثمان تعليمه، لأن ولدي الثالث

عبد الحميد رؤوف كان طفلاً مصاباً بعجز، وكان عجز هذا المسكين جانباً من أتعس الجوانب في حياتي.

وبينما الحياة تمضي بنا هكذا نَشِبت الحرب العالمية الثانية، وأُغلقت الطرق، وصدمتنا الكارثة بكل أبعادها، وكان ولدي عمر يعمل ويرسل لي بعض النقود، فلما حدث هذا عدمت أيضاً هذا المورد، والآن ماذا عساي أن أفعل؟ إن ولدي عثمان لايزال في الثامنة عشر من عمره، ويلزمه الذهاب إلى المدرسة مدة حتى ينتهي من تعليمه، أما عبد الحميد فكان عاجزاً مريضاً، فكيف لنا أن نتخلَّص من هذه المصائب؟

بعتُ كل ما وجدته بين يدي، واستطعنا أن نعيش به مدة، ولكن هذا لا يكفي، فأمضيت بعض الوقت في نسخ لوحة كُتِب عليها تعويذة «إن الله مع الصابرين» ورحت أبيعها مع بعض الطغراوات... أعد هذه اللوحات نهاراً، ويأتي عثمان في المساء فيحملها إلى الشوارع ويبيعها، ومضينا مدة على هذه الصورة.

وكنت منذ شبابي المبكر أهوى جمع الطوابع، واجتمع لدي منها مجموعة ضخمة، فتحدَّثتُ عنها ذات يوم مع أحد الأصدقاء، وكان يعلم حالي فسألني: «إن تبيعيها فسوف تحصلين على مبلغ طيب، فهل أنت راضية؟» وقبلت على الفور، فجاءني ذات يوم بشاب سوري، وعرضتُ عليه المجموعة، فقال: إنه يدفع فيها مليوناً من الفرنكات، فقبلت دون تردد.

وما إن سلمته المجموعة وتسلَّمت المبلغ حتى وجدتني أبكي دون رغبة مني؛ فقد كانت هوايتي منذ أعوام طوال، وكنت بعت أشياء كثيرة، حتى مجوهراتي وماساتي الثمينة، وما سالت دمعة من عيني على أي منها، إلا الطوابع، تَعِبت في جمعها، وبذلت فيها ساعاتي وأيامي، واجتهدت في العثور

على عيوبها وأخطائها. . . وها هي الآن تطير من يدي بعد كل هذا العناء، ولكن حسبي أن أُنقِذ بها أولادي على الأقل.

وبهذه النقود أمضينا سنوات الحرب الست، ونجحنا في الحصول على الخبز حتى من السوق السوداء، وحمداً لله أنه أسعفَنا بمعونته.

وتوفِّي أخي أحمد أفندي أثناء الحرب العالمية الثانية في إحدى المستشفيات، وسمعت من الإذاعة في أحد الأيام التي أعقبت ذلك نبأ وفاة أخي عبد القادر هو الآخر في إحدى ملاجىء بلغاريا، ويمكنكم تصوُّرُ مدى جزعي إزاء مثل هذه الأنباء المفاجئة.

وفي أواخر أيام الحرب تُوفِّي أيضاً خليفة الإسلام عبد المجيد أفندي، وكان آخر رئيس للعائلة؛ ولذلك كان حزنُنا عليه كبيراً، وها أنا أقُصُّ عليكم نبأ وفاته تفصيلاً.

رحيل خليفة الإسلام عبد المجيد

تقرر أن يرحل الجيش الألماني عن باريس.

وكان الفرنسيون في حَيْرة من أمرهم؛ فقد فرحوا للجلاء من ناحية، وأُصيبوا بالخوف والرعب من ناحية أخرى، إذ تقرَّرَ أن يدخل الجنرال ديغول، وكانت الجيوش الأمريكية والإنجليزية تزحف في الطريق، ولكن هل يجلو الألمان عن باريس دون إراقة للدماء يا ترى؟ لقد راح الناس ينتظرون بين فرح ورعب، ولا يبرَحُون منازلهم إلى الشوارع، وآوى كل إنسان إلى مسكنه، وخَيَّم الهدوء حتى صاروا لا يتحدَّثون إلى بعضهم البعض.

وكان الجنود في تنظيمات الميلشيا، والمؤيدون للجنرال بيتان «Pétain»، والأشخاص الذين لهم اتصالات مع الألمان، والنساء اللائي صادقن قوات

هذه هي آخر القوات المتبقية هناك، وكانوا منذ أسبوع قد أخلُوا المنازل التي احتلوها بين الأزقة والشوارع.

والآن فإن العَبور من بين هذه القوات المارة مجازفة تكتنفها المخاطر، وأبواب ونوافذ البيوت أصلاً مغلقة، ولا أثر للحياة في الشوارع، ورحنا نحتمي خلف باب أحد المباني في طرف منعزل، وانتظرنا حتى مرَّ الألمان، وكنا نخشى أن يرانا أحد آنذاك؛ فقد كان ممكناً والعياذُ بالله أن يحدث سوء فهم ويقع مكروه، ولو أن هوياتنا معنا، فقد كنا لا نتركها أصلاً منذ نشوب الحرب، ومع ذلك فإنه كان من الممكن أن يحدث شيء في لحظات عصيبة كهذه.

وانتظرنا هناك ساعة على وجه التخمين، حتى انقطع دابر العساكر، فانتهزنا هذه الفرصة وعبرنا مسرعين نحو شارع «فيزاندري»، وكنت أركض من على الأرصفة متأبطة ذراع ولدي حتى بلغنا طريق «سوشيه» ووصلنا في النهاية إلى شارع «مارشال مونوري»، وكان هذا المكان أصلاً مركزاً للقيادة الألمانية. وكان الناس قد صبغوا واجهات كل المنازل الواقعة على الطريق بمختلف الألوان، ووضعوا أغصان الأشجار فوق سطوحها تمويهاً على الطائرات... وهذه المنازل الآن صارت خالية، ولم يعد هناك أثر للعساكر بعد أن كان يزدحم بهم المكان... مما يعني أنهم رحلوا تماماً.

ووصلنا منزل الخليفة، وكان يخيطه السكون من الخارج، ووجدنا باب الحديقة مواربـاً، فدخلنا وتنفسّنا الصُّعَداء، وضغطنا على جرس الشقة، ووجدتني بلا إرادة أسأل الخادم الأرمني الذي فتح الباب لنا: «ماذا حدث؟»، فأجابني: «آه يا سيدتي، لقد حدث المكتوب»، وكنا قد صعدنا حتى منتصف السلم الحجري الكبير، وإذا بالخزينة دار المخلصة «بهروزه هانم» تقابلنا بالصياح والعويل: «آه يا أميرتي! تعالي، تعالي وألقي نظرة على عمك... لقد

رحل وفر كالطائر من أيدينا»، وكانت تضربُ رأسها على درابزين السلم، وتبكي وتنتحب.

وتـوجهنا نحو غرفة زوجته الثانية «مهستي»[٦٦]، وكان مغشياً عليها، ثم عادت إلى وعيها بعد قليل، وكانت ترقد وسط بحر من دموع عينيها، وتجلس إلى جانبهـا حرم حسين نقيب بك تحـاول إفـاقتهـا بالكـولـونيا، فبكينا وقبّلنا يدها. . . لقد استقرَّت هذه المرارة في قلوبنا جميعاً واعتدناها . . . وصِرْنا نبكي ونتبادل عبارات التعازي.

وذهبنـا من هنـاك إلى الزوجة الأولى «شهسوار»[٦٧]، فلما رأتنا سألت: «كيف حال أفندينا؟» وكانت متوترة الأعصاب لا تدري شيئاً عن الدنيا، وهي في الأصل مريضة منذ مدة، ولا تدرك مصيبة اليوم، وسَيطر عليها الاضطراب ظنًّا منها أن سيدها مريض. ولم أجد الكلمات التي أقولها لها، وخرجنا من عندها ببعض عبارات التسلِّي . . . لقد دَمَّرت قلوبَنا هذه المصائب.

وحـانت اللحظة كي ندخل ونلقي النظرة الأخيرة على جلالة الخليفة، فدخلنـا الغرفة، وكان يرقُد ممدّاً بطوله على سرير ضخم (لاكيه) على الطراز الياباني، مغطّىً حتى وجهه بمُلاءة من الكَتّان الأبيض، وجلست «بهروزه هانم» على الأرض عند قدميه، وأسندت رأسها على السرير، تبكي وتتنهد.

واقتربنا والدموع في عيوننا، وقدمنا له التحية التي كنا نقدِّمُها له في حياته، وذكرت لهم بعدها أني أريد مشاهدة وجهه؛ فسحَبَت بهروزه هانم الغطاء عنه، وكشفت عن وجـه الخليفة النُّوراني الجميل، بشعره الأبيض ولحيته، وذكَّرني بالسلطان عبـد العـزيز، ولَفَت نظري تلك الحُمـرة الوردية التي علت وجنتيه

(٦٦) هي والدة الأميرة: «در شهوار».

(٦٧) هي والدة عمر فاروق أفندي.

وبشرته البيضاء في الأصل، وأستطيع أن أقول: إن وجهه الذي كان جميلاً في حياته، قد تضاعَفَ جمالاً الآن. . . عيناه مُسبَلتان مستغرقتان في نومٍ هادىء عميق، وارتَخَت ذراعاه إلى جانبيه، فحَزِنت عليه كثيراً، وانحنَيتُ أقبِّلُ الغطاء الذي يستُره، وقلت لحظتها: «عمي التعس! لقد ارتحَلْتَ تحسُّراً على وطنك وأولادك، جعل الله الجنة مَثْواك».

وكانت ابنته الأميرة «درشهوار» في الهند، بينما كان ابنه عمر الفاروق في مصر، وكانا لا يستطيعان الحضورَ إليه بسبب الحرب، فكانت حسرة الخليفة عليهما من ناحية، وحسرته في البعد عن وطنه من ناحية أخرى.

وغَطّوا وجهه ثانية، وجلستُ بدموعي هناك ثم تَلَوْتُ سورة يس وسورة الإخلاص ثلاثاً، وختمتها بالفاتحة، ثم غادرت الغرفة.

***

وقرَّرنا أن نظل هناك حتى تقام مراسم الجنازة، وكان رفعها أمراً شاقّاً؛ لأن الألمان كانوا قد غادروا باريس ودخل الأمريكيون، فكانت الفوضى تسيطر على البلاد، وكان مع الخليفةِ كاتبه حسين نقيب بك الذي غادر البلاد بصحبته يتعقَّبُ هذا الأمر هنا وهناك، ولم يدَّخِر وُسعاً من أجله.

وأبرقوا إلى ولده وابنته، وكانا يريدان أن يُدفَن تبعاً لوصيته، ولهذا شاءا أن يُحفَظ جسده قبل الدفن، فقرَّروا أن يوضع في غرفة صغيرة داخل جامع باريس.

واستدعوا طبيبه الخاص البروفسور «ياقوفيل»(٦٨) حتى يقوم بتحنيطه، فجاء هو وتلامذته المُعِيدون، وفعلوا اللازم لبقاء الجسد مدة طويلة. . . وأعد التابوت.

---

(٦٨) لم يتعرض الألمان بالأذى لهذا البروفسور اليهودي نظراً لأنه كان من أكبر المتخصصين في أمراض القلب.

وكـان يلزم آنذاك تغسيله تبعاً لأصول الشريعة الإسلامية، إلا أنّ أحداً سوانـاً لم يكن موجـوداً هناك من العائلة؛ فقام أخي نور الدين أفندي وولدي عثمان وحسين نقيب بك بنقل الجسد إلى الحَمَّام، فكان حسين وعثمان يَقُومان بغسله، بينما يَصُبُّ نور الدين الماء، ثم قام ثلاثتهم أيضاً بتكفينـه، ووضعوه في تابوت، عانوا في إعداده شتى المصاعب، ثم غطوه بالشال.

وعقب ذلك قمنا نحن السيدات فدخلنا الغرفة، وكانت الزوجةُ الأولى قد حضرت هي الأخرى وسألت فور دخولها: «أين سيدي؟» وما إن رأت التابوت حتى هَرولت نحوه ورَمَت بنفسها فوقَه ثم سقطت إلى جانبه. . . فقد أدركت الآن فقط مرارة الحقيقة بكل معانيها.

وهَممتُ على الفـور فأمسكت بذراعهـا وقلت لهـا: «حاولي الثبات يا والدتي»، ثم أخذتُها إلى غرفتها، ولن أنسى ما حييت تلك الحالة التي كانت عليها. . . فكم أخذ الغمُّ والحزن كل مأخذ من هذه المسكينة التعسة، وكم كانت شغلنا الشاغل لساعات عدة.

أمـا زوجـاتـه الأخـريات فكـان حال الواحدة منهن أسوأ من الأخرى، ووصلت إحدى العربات لحمل النَّعش، فنقلوه إلى أسفل، ونزلنا نحن من خلفه بصراخنا ودموعنا حتى وضعوه على العربة، وذهب معه نور الدين أفندي وابني عثمان وحسين نقيب بك حتى الجامع، أما نحن فقد مَكثنا هناك في حالة يُرثَى لها.

وكنت وهم يغسلون جسد الخليفة قد تذكّرت شيئاً فقلت لهم: «قُصُّوا خُصلة من شعـره واتـركـوها لأولاده حتى يحتَفِظوا بها للذكرى»، ففعلوا ذلك وأعطوا الخصلة لزوجته «مهستي». والسبب الذي ألهمني هذه الفكرة هو أني كنت أتحدَّثُ ذات يوم مع الخليفة فإذا به يقول لي: «السيدة الأميرة! إنني عَثرت

على بعض من شعر والدي، واحتفظت به، إنه بالنسبة لي تذكار مبارك» فلما سألته كيف عثر على هذه الشعرات؟ قال: «كنت أحتفظ بطربوش والدي، وعثرت داخله عليها، فأخرجتها منه بحذر شديد، ووضعتها في ظرف» فكان ذلك الحديث الذي دار بيننا هو الذي تذكرته وهم يغسلون جسده؛ فجعلتهم يقُصُّون خصلة من شعره ويحتفظون بها.

ففي ذلك اليوم شيّعنا تلك الشخصية الكبيرة في العائلة، وصارت ذكرى من ذكرياتها.

وقد كنت دائمة اللقاء مع الخليفة، وكان يَهوى الرسم والموسيقى؛ وله من بين مؤلفاته الموسيقية الإفرنجية الجميلة كونشترو جميل من عدة قطع تركية موزعة توزيعاً هرمونياً، وقطعة موسيقية من أغاني النني «Berseuse» جميلة.

وكان هناك فتى تخرّج من معهد الموسيقى الفرنسي بترتيب الأول يُدعَى غيتان ديتاي Gaetan Detaille كان يعزف هذه المؤلفات بمهارة؛ فقد كان فناناً كبيراً، وأنا أيضاً كنت أحرص على حضور مثل هذه الجمعيات الموسيقية، وكنت أعزف بصحبة غيتان مقطوعة الـ «Berseuse».

ولَحّنت للخليفة أحد المارشات وقدمته له، فلما سمعه وأُعجب به قال يومها: «ماذا يمكنني أن أقدِّم لأميرة مثلك؟ ولا يقدم لك إلا أحد التقاسيم» وبالفعل كتب تقسيماً وأرسله إليَّ، كما قدم لي في نفس الوقت لوحتين من أعماله.

وكنت بين الحين والآخر أقدِّم له بعض لوحاتي البسيطة المتواضعة، وغيرها من الأعمال الفنية الأخرى، وأجدُ منه دوماً كل التقدير والتشجيع. لقد عاش الخليفة حتى آخر أيامه فناناً مجاملاً ودوداً يُحبُّ وطنه، وتوفِّي ودخل التاريخ بهذه الصفات.

ظهرت كثير من الروايات حول وفاة الخليفة، وشائعات أيضاً تقول: إنه مات من شدة الفـزع؛ فقـد قيل: إن الألمان أطلقوا النيران على غرفة أسفل منزله، فارتعد الخليفة ومات. وإذا كان لهذه الرواية حظ من الحقيقة فلها أيضاً حظ من الكذب، والحقيقة أن النيران أُطلقت على المنزل، إلا أن وفاة الخليفة لم تكن لهذا السبب.

لقد كان طريق «شوسيه» منطقة عسكرية، ومن الطبيعي أن تحدث عند رحيل الألمـان من هناك بعض التظاهرات والتجاوزات، ولم يحدُث ذلك في الشارع الذي يسكن فيه الخليفة فحسب، بل حدث في كل المواقع التي كان يحتَلُّها الجنود، فضلاً عن أن إطلاق النيران على المنزل كان قبل وفاة الخليفة بأسبوع، ولم يكن هذا التصرف موجَّهاً ضد شخصه، بل كان ضد حركة المقاومة السرية.

ومثل هذه الأحداث كانت تقع في الحي الذي نسكنُه نحن أيضاً؛ فقد حدث أن هجموا على أحد الكاراجات المجاورة، وقَبَضوا على ستة وثلاثين فرداً من المقاومة، وأعدموهم رمياً بالرصاص، كذلك بدأ عهد أخذ الثأر بعد دخول الأمريكان، وراح مؤيدو الألمان يبحثون عن مكان يختبئون فيه هنا وهناك، وكل من يُقبَض عليه منهم كانوا يجرُّونه في الشوارع ويُذِيقُونه ألوان العذاب، ويقصُّون شعور النساء منهم ويختمون على جباههن، ويفعلون بهم كل الأشياء القبيحة، فلا أحد يستطيع أن يبرَح منزله، واستمرَّ الحال على ذلك أكثر من شهر حتى هدأت الأمور.

وكـانوا يقصِفون باريس بالقنابل كل مساء تقريباً، وكلما اشتد القصف الجوي تناثرت الشظايا على شرفات منازلنا، وكثيراً ما كنا نقوم بجمع هذه الشظايا عَقِب الخروج من المخابىء، وقد كان الخليفة يَقطُن في منزل قريب من «حديقة

بولندا»، فكان من الطبيعي أن تسقط عليه الشظايا بكثرة، وفي عدة مرات عرض عليَّ قطع المقذوقات وقال: «إنني أجمع هذه القطع لأجعل منها مجموعة».

إنه لا توجد هناك عَلاقة على الإطلاق بين وفاة الخليفة وهذا القصف، أو النيران التي أُطلقت على منزله، فقد توفِّي على النحو التالي:

بعد أن نهض صباحاً من فراشه، أحسَّ أنه متعب، فجلَس على المقعد الكبير الموجود في غرفة نومه، وتناول بعض الفطور، ولما شَعَر بعد مضي ساعة بضيق في صدره قامت زوجتُـه على الفور فاتَّصلت تلفونياً بمتخصص القلب المشهور الذي يعالِجُه منذ سنوات وهو البروفسور «ياقوفيل»، وجاء الدكتور ثم انصرف، وبعد انصرافه تعرَّض الخليفة للأزمة من جديد، فقام الخدم يركُضون خلف الـدكتـور، وعـاد من منتصف الطريق، فإذا بالخليفة قد تُوفِّي . . . إنه القضاء ولا مَفرَّ منه.

وبعد عام من وفاته لَحِقت به زوجته الأولى «شهسوار»، ودُفِنت في مقبرة المسلمين «Bobigny» في باريس، ولازالت زوجته «مهستي» على قيد الحياة، وقد ذَهَبت إلى جانب ابنتها الأميرة «درشهوار» في لندن، وهي الآن تعيش معها.

وقد دفن كل من توفِّي من عائلتنا في باريس في المقبرة المذكورة، وهو مكان كانت الحكومة الفرنسية قد أهدته إلى المغاربة، وكان زوجي محمد علي بك أول من دُفِن فيها من الأتراك، فقد قمت عندما توفِّي عام **١٩٣٧** بتقديم طلب لدفنه هناك، وطلبي هذا كان أول طلب قدَّمَته العائلة لهذا الغرض، ودفن كل من توفِّي بعده من العائلة في نفس المكان، ومن الطبيعي أن هذه المقبرة لكل المسلمين هناك أيضاً.

وقـد كان الخليفة وهو على قيد الحياة يذهب أيام الجمعة إلى الجامع الموجود في «Place Monge» لأداء الصلاة، وكذلك أيام الأعياد بصورة منتظمة،

وكانت الجماعات المسلمة المقيمة هناك تقدِّمُ له التهاني، كما ذهبنا نحن أيضاً عدة مرات لهذا الجامع الذي أقامه المغاربة.

وفي هذا الجامع وضعوا جسدَ الخليفة في حجرة صغيرة على منضدة، وغطوها بكسوة خضراء، ووضعوا فوق نعشه قماشاً من الجوخ الأخضر، ثم وضعوا طربوشه عند رأس النعش ومعه مصحف كريم. وتركوا النوافذ مفتوحة، ووضعوا داخل النعش أُنبوب من البلاستيك جعلوا طرفه الأول مفتوحاً، ووضعوا الطرف الثاني داخل زجاجة مياه، وظل النعش على هذه الحال.

وقد قمتُ بزيارته عدة مرات خلال المدة التي قضيتُها في باريس، وقرأتُ الفاتحة على روحه، وظلّ النعش على حاله حتى جئت استانبول، ثم نَقَلوه فيما بعدُ إلى المدينة المنورة ودفن هناك.

وفيات أخرى وعودة إلى الوطن

قبل أن يمضي وقت طويل توفِّي أخي الصغير نور الدين أفندي، وقد جَرَت مصيبة هذا الولد أمام ناظري، ورأيت بأم رأسي كيف ذهب ضحية الحِرمان، مما كان باعثاً آخر لزيادة حزني، واستطعنا مع كل المصاعب أن نرسل زوجته «عندليب هانم» إلى استانبول.

ثم كان سكوت أخي عبد الرحيم أفندي على همومه وآلامه، ومحاولته الحفاظ على كبريائه، ثم انتحاره فيما بعد حادثاً هزَّنا جميعاً من الأعماق.

وكان أخي برهان الدين أفندي يعيشُ في رَغَد في أمريكا، ثم توفِّي هو الآخر وفاة طبيعية، وحاولت زوجته القديمة أن تنقل جسده إلى استانبول، إلا أنَّ الظروف لم تسمح، فنقلوه إلى الشام.

تلك هي عائلتنا، لفيف من البشر بغير مسكن ولا مأوى، بغير أرضٍ ولا

وطن، وقد ظلَّ تاريخها خارج أرض الوطن مجموعة من حوادث الوفاة والانتحار الأليمة. وكان الفرنسيون يُشفِقون لحالنا ويتجنَّبون جرح مشاعرنا، وساعدونا على كل ما طلبناه، ولكن ماذا كان يمكننا أن ننتظر منهم؟ وماذا كان يمكننا أن نصنع إزاء أنَّ تركيا دخلت الحرب ضد فرنسا؟

لقد كان إحساسنا بأننا رعايا لدى دولة أجنبية شيئاً ثقيلاً على نفوسنا، وأمراً يَمَسُّ كرامتنا.

وبعد أن نجونا من غائلة هذه الحرب بكل مصاعبها، واستطاع ابني عثمان أن يُنهِي دراسته، فكَّرت في أمر زواجه، وكان المرحوم محمد علي بك ابن المرحوم أحمد راتب باشا يعيش منذ سنوات طويلة في باريس، وحدث بين ابنته الكبرى «عادلة هانم»(٦٩) وبين ابني عثمان نوعٌ من الاستلطاف؛ فحاولت اغتنام هذه الفرصة وزوجتُهما، وبهذه الصورة شرع يَشُقُّ طريقه في الحياة، وهو الآن يعيشُ في تونس ويعمل مهندس أجهزة أشعة تصوير.

وبهذه الصورة أمكن إنقاذ الولدين، وأفخَر الآن بأني صِرت جدة، ولي من ابني الأكبر عمر حفيدة جميلة مثل الملاك تُسمَّى «عائشة رابعة»، وحفيدتان من ابني الأصغر عثمان، أكبرهما تسمى «مديحة شكرية»، وُلِدت عندما كنت في باريس، والثانية هي «فتحية نعمت»، ولدت عام ١٩٥٣م(٧٠)، ولهذا سمَّيتها بهذا الاسم.

أما ولدي المسكين عبد الحميد فسوف يظلُّ محتاجاً لرعايتي وعافيتي، وقد حكم عليَّ القدر أن أعمل طول العمر لأجل راحة وسعادة هذا الولد التعس،

---

(٦٩) توفيت عادلة هانم في تونس في ٤ أغسطس ١٩٥٨م ودفنت هناك (ن).

(٧٠) أطلق عليها هذا الاسم لأن ميلادها صادف الاحتفال بمرور خمس مئة عام على (فتح) استانبول (ن).

وسوف تظلُّ نفسي معذبة به أبداً؛ للحزن الذي يتركه في قلبي إحساسي نحوه بحنان الأمومة.

وبينما نحن نتشوّى بهذه الحياة الأليمة طالعتُ بفرحة غامرة ذات يوم في الصحف أن حكومة الجمهورية الحالية سوف تسمَحُ لنا بالعودة إلى أرض الوطن، وكنت أتُوق شوقاً إلى رؤية أمي العجوز منذ تسعة وعشرين عاماً، لقد كانت ترى أنها لا تستطيع أن تأتي أمراً بعد وفاة والدي لم يكن يُحبُّه وهو على قيد الحياة؛ فكانت ترى في الذهاب إلى أوربا خلال هذه السنوات الرهيبة الماضية وزيارتها لي أمراً يخالِفُ قناعتها وضميرها، وهذا ما حال بيني وبين اللقاء بها، وكنت أدرك فيها هذه المشاعر السامية، وظللت مرتبطة بها بكل الحنان والتقدير؛ فقد وجدتها على حق.

والآن وقد انفتحت الطرق، فإن أعظم ما تَسمو به آمالي أن ألتقي بها، وأعود إلى وطني، وأمرِّغَ وجهي في ترابه العزيز. ورَغْم كل الصعاب التي كانت تُكبِّلني انطلقت إلى المطار على الفور، وعدتُ إلى أرض الوطن، ولن أنسى ما حييت تلك السعادة والدهشة التي شعرت بها وأنا أنزل من الطائرة وأجد نفسي فوق أرض الوطن.

ولازلت أشعر حتى هذه اللحظة بثِقل وعذاب تسعة وعشرين عاماً عِشتها بعيداً عن وطني، كنت قد قطعت فيها الأمل تماماً من أن تَمَسَّ قدماي يوماً ترابه المقدس، وكانت أُولى الكلمات التي نَطقت بها وأنا أرمي بنفسي بين أحضان أمي، وتختلط دموع الشوق من عيوننا ببعضها البعض هي: «لا قدَّر الله زوال الوطن ولا زوال الأمة»، وسوف تظل هذه العبارة هي آخر كلماتي حتى نهاية العمر.

وأودُّ وأنا أنهي مذكراتي أن أوجِّهَ شكري الجزيل إلى حكومة الجمهورية

الحالية على سماحها لي بعودتي إلى أرض الوطن.

مرقى سرنجه بك

٢٩ أغسطس ١٩٥٥م

□□□□□

الأميرة عائشة مع والدتها مشفقة قادين أفندي

(صورة من أرشيف مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستانبول)

القسم السادس

زَوْجَاتُ السُّلطان عبد الحميد الثّاني وأولاده

زوجات السلطان عبد الحميد الثاني وأولاده

السلطان عبد الحميد هو الحاكم الرابع والثلاثون، تِبعاً للجدول الرسمي للسلطنة العثمانية، وخليفة الإسلام السادس والعشرون. وُلِد في قصر «جراغان» في استانبول في الحادي والعشرين من سبتمبر/ أيلول عام ١٨٤٢، وتوفِّي في قصر «بكلربكي» في استانبول أيضاً في العاشر من فبراير/ شباط عام ١٩١٨م.

وهو ابن السلطان والخليفة العثماني عبد المجيد خان من زوجته الثانية «تيرمزكان قادين»، فهو الابن الثامن بين أبنائه عموماً، والثاني في الذكور، والثاني أيضاً بين أبناء عبد المجيد الذين تولَّوا السلطنة والخلافة.

وكان يقال بين القلفاوات الجركسيات في السراي: إن أمه تيرمزكان جاءت من قفقاسيا من قبيلة «شابصيخ» الجركسية، أما المعادون له فكانوا يقولون افتراءً على الجدة المسكينة: إنها أرمنية الأصل.

وبهذا القدر فحسب يمكننا أن نحظى بمعرفة نسب زوجات السلطان عبد المجيد خان، ولا وسيلة أخرى غير ما تَذكُره الجواري في السراي ممن تعرف إحداهن الأخرى في بلادهن وقراهن، وليس هناك قيودات أو سجلات أخرى، وكل ما سمعتُه وعرفته من القلفاوات المعمَّرات اللائي يعرفن جدتي لا يزيدُ عن هذا، والأشياء المعروفة عن أمهات إخوة أبي وأخواته الكبار والصغار ليست إلاَّ

الحكايات التي رَوَتها القلفاوات المعمرات في السراي.

وقد رُزِقت الزوجة الثانية تيرمزكان بثلاثة أطفال: أكبرهم هي الأميرة نعيمة، التي توفِّيت بمرض الجُدري، أما أصغرهم عابد أفندي فقد توفِّي وهو طفل صغير (وقد تحدثت عنهما قبلاً بالتفصيل).

وكان عبد الحميد الثاني هو الوارث الثالث للعرش، فلما تُوفِّي والده عام ١٨٦١م وتولَّى الحكم عمه عبد العزيز أصبح الوارث الثاني، ولما جلس أخوه الأكبر مراد خان الخامس على العرش في ٣٠ مايو عام ١٨٧٦م أصبح هو وليًّا للعهد.

وفي الحادي والثلاثين من أغسطس عام ١٨٧٦م تولَّى عرش السلطنة والخلافة، وظل يحكم اثنين وثلاثين عاماً وسبعة شهور وسبعة وعشرين يوماً، وخُلِع عن العرش بقرار صدر من مجلس وطني ـ تشكَّل من مجلسَي المبعوثان والأعيان ـ استناداً إلى فتوى بخلعه في السابع والشعرين من إبريل/ نيسان عام ١٩٠٩م، وقضى بقية عمره في سلانيك حتى عام ١٩١٢، ثم قصر بكلربكي في استانبول حتى تُوفِّي فيه، ودُفِن في اليوم التالي (١١ فبراير/ شباط ١٩١٨م) في ضريح جده السلطان محمود الثاني.

وأم السلطان عبد الحميد «تيرمزكان قادين» وُلِدت في قفقاسيا من قبيلة «شابصيخ» إحدى قبائل الجراكسة، وجاءت مثل نظيراتها إلى استانبول، ودخلت بين زوجات السلطان عبد المجيد عام ١٨٣٩م، وتُوفِّيت في قصر بكلربكي، ودُفنت في ضريح الجامع الجديد «يكي جامع» في استانبول.

وقد تزوَّج السلطان عبد الحميد الثاني مثل أغلب أسلافه وأخلافه من نساء الجواري، فمنهن من حصلت على رتبة «قادين أفندي»، ومن حصلت على رتبة

«إقبال»، ورزق من اثنتي عشرة منهن بسبعةَ عشر مولوداً، وهم حسب مواليدهم على النحو التالي :

الأميرة علوية	من السيدة نازك أدا	(قادين)
محمد سليم أفندي	من السيدة بدر فلك	(قادين)
الأميرة زكية	من السيدة بدر فلك	(قادين)
الأميرة نعيمة	من السيدة بيدار	(قادين)
عبد القادر أفندي	من السيدة بيدار	(قادين)
أحمد أفندي	من السيدة بدر فلك	(قادين)
الأميرة نائلة	من السيدة دلبسند	(قادين)
برهان الدين أفندي	من السيدة مزيدة	(قادين)
الأميرة شادية	من السيدة أمثال نور	(قادين)
الأميرة عائشة	من السيدة مشفقة	(قادين)
الأميرة رفيعة	من السيدة سازكار	(إقبال)
عبد الرحيم أفندي	من السيدة بيوسته	(إقبال)
الأميرة خديجة	من السيدة فاطمة بسند	(إقبال)
نور الدين أفندي (توأم)	من السيدة بهيجة	(إقبال)
بدر الدين أفندي (توأم)	من السيدة بهيجة	(إقبال)
محمد عابد أفندي	من السيدة صالحة ناجية	(إقبال)
الأميرة سامية	من السيدة صالحة ناجية	(إقبال)

وعَقِب أن تولّى السلطان عبد الحميد العرش حصلت أربع من زوجاته على رتبـة (قادين أفندي)؛ فكانت السيدة «نازك أدا» هي الباش قادين [أي :

الزوجة الأولى]، والسيدة بدر فلك هي الزوجة الثانية، والسيدة نور أفسون هي الثالثة، والسيدة بيدار هي الرابعة.

وقد حصلت السيدة «نازك أدا» على رتبة «باش قادين» باعتبارها أولى الزوجات اللائي تزوج بهن، وحافظت على هذه الرتبة حتى وفاتها في إستانبول، وحازت هذه الرتبة من بعدها الزوجة الثانية «بدر فلك» وظلَّت عليها طوال مدة سلطنة السلطان عبد الحميد.

وقد طلَّق السيدة «نور أفسون» وزوجها للأثوابجي الثاني صفوت بك، وتوفِّيت وهي على ذمته.

وعلى هذا صارت السيدة بيدار هي الزوجة الثانية، بينما صارت السيدة دلبسند الزوجة الثالثة، وأصبحت السيدة مزيدة هي الزوجة الرابعة. وعقب وفاة الأخيرتين أصبحت السيدة نور أمثال هي الزوجة الثالثة، وصارت السيدة مشفقة هي الرابعة، أما السيدات سازكار وبيوسته وفاطمة بسند وبهيجة وصالحة ناجية فكن إقبالات.

وبعد أن خرجت الأسرة العثمانية من تركيا، توفِّيت السيدات بدر فلك وبيدار وأمثال نور، وتَمَّ دفنُهن في إستانبول، أما السيدة سازكار فقد دُفنت في الشام، ودفنت السيدة بيوسته في باريس، بينما دُفنت السيدة فاطمة بسند في إستانبول، وقبل صدور القانون الخاص بطرد الأسرة العثمانية بشهر واحد توفِّيت السيدة صالحة ناجية في الرابع من فبراير/ شباط ١٩٢٤م ودُفِنت في ضريح السلطان محمود [الثاني].

ولاتزال السيدة مشفقة أمي ـ وقد حملت لقب «قايي» ـ تعيش في إستانبول في المنزل رقم (٥٣) عند مرقى سرنجه بك، أما السيدة بهيجة إحدى

الإقبالات ـ ولقبها «معان» ـ فهي تعيش الآن في نابولي بإيطاليا[٧١].

وقد ذكرت أن السلطان عبد الحميد رُزِق بسبعة عشر مولوداً: ثمانية منهم ذكور، وتسعة إناث، ثلاثة عشر منهم هم بترتيب أعمارهم: محمد سليم أفندي، والأميرة زكية، والأميرة نعيمة، وعبد القادر أفندي، وأحمد أفندي، والأميرة نائلة، وبرهان الدين أفندي، والأميرة شادية، والأميرة عائشة، والأميرة رفيعة، وعبد الرحيم أفندي، ونور الدين أفندي، ومحمد عابد أفندي. وهؤلاء عاشوا وأدركوا سن الرُّشْد.

وتوفِّي أربعة في سن الطفولة هم: الأميرة علوية، والأميرة خديجة، وبدر الدين أفندي، والأميرة سامية.

والأطفال الثلاثة الأُوَل أي: الأميرة علوية ومحمد سليم أفندي والأميرة زكية، رُزِق بهم السلطان عبد الحميد أيام كان أميراً، بينما رُزِق بالباقين أيام سلطنته، ولم يُرزق بمولود بعد خلعه عن العرش.

□□□□□

---

(٧١) توفيت مشفقة هانم عام ١٩٦١م، وتوفيت بهيجة هانم عام ١٩٦٩م، وكلتاهما مدفونتان في مقبرة يحيى أفندي في بشيكطاش باستانبول (ن).

أولاد السلطان عبد الحميد الثاني

١ - أول عيال السلطان عبد الحميد هي الأميرة علوية، وُلِدت في استانبول بقصـر «طـولمه باغجه» عام ١٨٦٨م، وتوفيت عام ١٨٧٥م عقب حادثة اشتعال النيران في جسدها أيام كان والدي وليّاً ثانياً للعهد.

٢ - ومولوده الثاني وأول أبناء الذكور: هو محمد سليم أفندي، وُلد في استانبول بقصر «طولمه باغجه» عام ١٨٧٠م، وقد توفّي بعد أن غادر أرض الوطن في جونيه ببيروت عام ١٩٣٧م، ودُفِن بالشام في ضريح جامع السلطان سليم.

٣ - وثـالثـة عيالـه: هي ابنتـه الثانية الأميرة زكية، وُلدت في استانبول بقصر «طولمه باغجه» عام ١٨٧٢م، وبعد أن انفصلت عن أرض الوطن توفّيت بمدينة «بو» بفرنسا عام ١٩٥٠م، والمكان الذي دُفِنت به ليس معلوماً. وكانت قد تزوّجت عام ١٨٨٩م بنور الدين باشا نجل الغازي [المجاهد] عثمان باشا بطل «بلاونه».

٤ - ورابـع أبنـائه وثالثة بناته: هي الأميرة نعيمة، وُلدت في استانبول بقصر «طولمه باغجه» عام ١٨٧٦م، وكانت قد غادرت أرض الوطن إلى مدينة تيران بألبانيا، وتوفّيت في تاريخ غير معلوم أثناء الحرب العالمية الثانية، ويُعتَقد أنها مدفونة في مدينة تيران. وكانت قد تزوّجت عام ١٨٩٨م بكمال الدين باشا الابن الثاني للغازي عثمان باشا، ثم طُلِّقت منه وتزوجت عام ١٩٠٤م بالوزير إشـقُودْرَالي جلال الدين باشا، وتوفّيت أرملة.

٥ - وخامس أبنائه وثاني أولاده الذكور: هو محمد عبد القادر أفندي، وُلد في استانبول بسراي يلديز عام ١٨٧٨م، وغادر أرض الوطن إلى بلغاريا، ثم توفّي في صوفيا من الرعب الذي وقع أثناء غارة جوية أيام الحرب العالمية

الثانية، وهو مدفون هناك.

وقد كان عبد القادر أفندي إنساناً طليق الفكر، سريع الغضب، مُفرِطاً في كل شيء، لدرجة أنه كان لا يثبت على رأي، وعاش حياته على هذه الشاكلة.

وكان يعزِف الكمان بمهارة، تعلم عزفه على يد عازف الكمان الأول في الموسيقات الهمايونية «فوندرا بك»، وكان يكتسب عيشه عازفاً أول للكمان في إحدى الفرق الموسيقية أثناء وجوده في بودابست، ثم انتقل بعد ذلك إلى بلغاريا، وهناك باعَ كل متاعه حتى الكمان، وأراد الملك بوريس أن يساعده فأسند إليه وظيفة قبّاني حتى استطاع بها أن يكسب عيشه.

وبينما تمُرُّ به الحياة هكذا حدثت غارة جوية، ولجأ إلى أحد المخابىء، ونتيجةً للرعب الذي استولى على كل مَن في المخبأ، توقّف قلبه، فسقط على الأرض، ومات ميتة مفجعة.

وكان عبد القادر أفندي قد طَلَّق زوجته الأولى السيدة «مثل ملك»، وتزوج السيدة «سخندان»، ثم طلقها هي الأخرى وتزوج بالسيدة «مهربان»، وبعد خلع السلطان عبد الحميد رُزِق بمولود من السيدة مهربان في قصر الأميرة نعيمة سمّاه: أورخان.

٦ - وسادس أبناء السلطان عبد الحميد، وثالث الذكور: هو أحمد نوري أفندي، وُلِد في استانبول عام ١٨٧٨م بسراي يلديز، غادر تركيا إلى فرنسا، ووافاه الأجل هناك فدُفِن بها بعد أن عانى المسكين من العَوَز والضيق إلى حد بعيد، وساعده أحد الشبان الروم الذي فَعل فيه أحمد معروفاً ذات يوم.

وكان ذكيّاً، إلا أن احتداده وعصبيته كانا مما جعلاه يعيشُ حياة تَعِسة

على الـدوام، وكان يُجيد الرسم، تعلمه في السراي على يد من يدعى «فاليري»، فكان يرسم لوحات ملونة فوق ألواح الزجاج، واستطاع بمناسبة مرور خمسـة وعشرين عاماً على اعتلاء والدي العرش أن يقدِّم له هدية حماماً في حجم خيمة صغيرة يمكن حمله إلى أي مكان، وظلَّ يصنع فيه أياماً حتى وُفِّق فيه، فقد كان يعشق الاشتغال بمثل هذه الأشياء، وقد ظل هذا الحمام محفوظاً في السراي.

٧ ـ وسـابـع أبنـائـه ورابعـة بناته: هي الأميرة نائلة، ولدت في سراي يلديز باستـانبـول عام ١٨٨٤م، وقـد تزوجت بعارف حكمت باشا أحد وزراء ووكلاء الدولة العثمانية عام ١٩٠٤م، ثم غادرت الوطن إلى بيروت وعاشت هناك أرملة، فلما عادت إلى تركيا استوطنت «قزل طوبراق»، وتوفِّيت عام ١٩٥٧م.

٨ ـ وثامن الأنجال ورابع الذكور: هو محمد برهان الدين أفندي، وُلد في سراي يلديز عام ١٨٨٥م، وخرج في رحلة إلى أوربا، فلما أُعلنت الجمهورية التركية حال ذلك دون عودته إلى الوطن، ووافاه أجله بولاية نيويورك في أمريكا، وحملوا جسده إلى الشام، ودُفن في ضريح جامع السلطان سليم.

ولم يعـانِ برهـان الدين من الفاقة والحرمان مثل بقية إخوته؛ فقد كانت زوجته المدام جارفيس من أصحاب الثروات، وكان هو أميراً ذكياً عَذْب الحديث، يفهم كل شيء، ويجيد عزف البيانو والرسم، وصاحب روح فنانة، فضلاً عن أنه كان شابّاً وسيماً.

٩ ـ وتاسع الأنجال وخامسة البنات: هي الأميرة شادية، وُلدت في سراي يلديز عام ١٨٨٦م، وتـزوجت عام ١٩١٠م بفـاخـر بك ابن فيضي بك أحـد المـوظفين في استـانبـول، ثم ترمَّلت، وغـادرت الوطن إلى باريس عام

١٩٣١، وهناك تزوجت برشاد خالص بك أحد السفراء، ثم ترمّلت ثانية وعادت إلى استانبول[٧٢].

١٠ ـوعاشر الأنجال وسادسة البنات: هي الأميرة عائشة، ولدت بسراي يلديز في استانبول عام ١٨٨٧م، تزوّجت أولاً بفخري بك زاده أحد أشراف بيروت عام ١٩١٠م، ثم بأحمد نامي بك رئيس جمهورية سورية، وفي عام ١٩٢١م طُلِّقت منه وتزوجت بالقائم مقام محمد علي بك ابن رؤوف باشا أحد الوكلاء ومشير الخاصة، وغادرت معه أرض الوطن إلى فرنسا، ثم ترمّلت منه عام ١٩٣٧م، وهي الآن تعيش في استانبول[٧٣].

١١ ـوحادي عشر الأنجال وسابعة البنات: هي الأميرة رفيعة، وُلدت في سراي يلديز عام ١٨٩١م، وتزوجت عام ١٩١٠م في استانبول بعلي فؤاد بك ابن المشير أيوب باشا، وغادرت تركيا، ووافاها الأجلُ في بيروت عام ١٩٣٨م، ودُفِنت بالشام في ضريح جامع السلطان سليم.

١٢ ـوالنجل الثاني عشر والابن الخامس: هو عبد الرحيم خيري أفندي، وُلد في سراي يلديز عام ١٨٩٤م ودخل المدارس العسكرية، وظلّ يترقّى حتى وصل رتبة ميرالاي (عقيد)، وفي عام ١٩١٩م تزوج بالأميرة «نبيلة أمينة» من العائلة الملكية في مصر، وغادر الوطن إلى فرنسا وطلّق زوجته في باريس عام ١٩٢٣م، وانتحر في العشرين من يناير ١٩٥٢م، في فندق سانت هونوريه في باريس، ودُفِن بمقبرة المسلمين هناك.

---

(٧٢) توفيت الأميرة شادية عام ١٩٧٧م، وهي مدفونة في ضريح السلطان محمود الكائن في شارع «ديوان يولي» في استانبول (ن).

(٧٣) توفيت الأميرة عائشة (عثمان أوغلي) مؤلفة الكتاب في ١٠ أغسطس ١٩٦٠م، ودفنت في مقبرة يحيى أفندي في حي بشيكطاش باستانبول (ن).

١٣ -والمولود الثالث عشر، والابنة الثامنة : هي الأميرة خديجة، وُلدت في سراي يلديز عام ١٨٩٧م، وتوفِّيت دون أن تكمل عاماً من عمرها نتيجة لمرض أصابها، ودُفِنت في مقبرة يحيى أفندي. وقد أقيمت مستشفى الأطفال (حالياً مستشفى شيشلي للأطفال) تخليداً لذكراها.

١٤ و١٥ - والنجلان الرابع عشر والخامس عشر، والابنان السادس والسابع : هما التوأمان أحمد نور الدين ومحمد بدر الدين، وُلدا في سراي يلديز عام ١٩٠١م، ثم توفِّي الثاني نتيجة لمرض أصابه عام ١٩٠٣م، والتحق أحمد نور الدين بالمدارس العسكرية وصار ضابطاً، ثم غادر الوطن إلى باريس، وتوفِّي مريضاً عام ١٩٤٥م ودفن هناك في مقبرة المسلمين.

١٦ -والنجل السادس عشر والابن الثامن : هو محمد عابد أفندي، ولد في سراي يلديز ١٩٠٥م، ودخل المدارس العسكرية وصار ضابطاً، ثم غادر الوطن إلى باريس، وهناك التحق بكلية الحقوق وتعلّم الفارسية من قسم اللغات الشرقية، وفي عام ١٩٣٦م تزوج في تيران بالأميرة سنية إحدى أخوات الملك الألباني «أحمد زوغو»، ثم طلَّقها عام ١٩٤٨م، وهو يعيش الآن في باريس[٧٤].

١٧ -والمولود السابع عشر والابنة التاسعة : هي الأميرة سامية، آخر أنجال السلطان عبد الحميد، توفِّيت وهي ماتزال طفلة صغيرة نتيجة لمرض أصابها، ودُفِنت في مقبرة يحيى أفندي.

□□□□□

(٧٤) توفي عابد أفندي في بيروت عام ١٩٧٢م ودفن في ضريح جامع السلطان سليم بدمشق الشام (ن).

أحفاد السلطان عبد الحميد الثاني
من أولاده الذكور

محمد سليم أفندي : له بنت وولدان .

عبد القادر أفندي : له ابن وبنتان .

برهان الدين أفندي : له ولدان .

عبد الرحيم أفندي : له بنت .

ولم يُرزَق أولاده الآخرون بأولاد .

□□□□□

زوجات محمد سليم أفندي وأولاده

زوجة محمد سليم الأولى هي السيدة «اريالِه» المولودة في سوخوم [Sohum] عام ١٨٧٠م، وهي الأخت الصغرى لزوجة محمد السادس الأولى «باش قادين» من عائلة كورجية، وقد رُزق منها محمد سليم أفندي بطفلته الأولى، وهي الأميرة نميقة عام ١٨٨٨م، ورُزق منها بطفل آخر إلا أنه لم يَعِشْ طويلاً، أما السيدة «اريالِه» نفسها فقد توفِّيت في استانبول عام ١٩٠٤م.

وتزوج محمد سليم بعدها بالسيدة «بروين» ثم بالسيدة «أفلاكيار» ووافاهما الأجل في جونيه ببيروت، وكانت السيدة «نيلوفر» هي زوجته الرابعة، وظلت في استانبول بعد مغادرة الأسرة العثمانية تركيا فطُلِّقت، وتوفيت بعد أن تزوجت مرة ثانية.

وقد رزق محمد سليم من السيدة «نيلوفر» بمولود في سراي يلديز عام ١٩٠٦م سماه عبد الكريم، التحق بالمدارس العسكرية وعُيِّن ضابطاً في الجيش العثماني، فلما أُعلنت الجمهورية أقدم على محاولة لم يحدُث مثلها في تاريخ الأسرة العثمانية، إذ سعى لإقامة دولة تركية مستقلة في تركستان الصينية، إلا أنه لم يوفَّق في ذلك، وعاد عن طريق أمريكا، وانتحر في الفندق الذي نزل فيه في نيويورك في الثالث من أغسطس عام ١٩٣٥م، وهناك احتمال ضعيف أنْ يكون موته نتيجةً لمؤامرة، وقد دُفِن في نيويورك.

وقد تزوج عبد الكريم أفندي أوائل عام ١٩٣٠م بفتاة مارونية من مواليد بيروت عام ١٩١١م، فأسلمت وتسمت باسم «نعمت»، وهي تعيش الآن أرملة هناك[٧٥].

---

(٧٥) توفيت نعمت هانم في ٤ أغسطس ١٩٨١م (ن).

وقد رُزِق منها عبد الكريم بطفلين في الشام: أحدهما هاورن ولد عام ١٩٣٠م، والثاني دوندار ولد عام ١٩٣٢م، ولازال هذان الشابان يعيشان الآن في الشام، ولم يتزوَّجا بعد(٧٦).

وأول أطفال محمد سليم أفندي ـ أي الأميرة نميقة ـ هي أكبر أحفاد السلطان عبد الحميد، وقد تزوَّجت في استانبول عام ١٩١١م بالمهندس كنعان بك ابن إبراهيم باشا الأرناؤوطي، الذي عمل مدة أيام الدستور الثاني في نَظَارة الغابات والمعادن والزراعة، ثم في المديرية العامة للمعادن، فلما تركت الأسرة العثمانية البلاد رَحَلت معه، ثم عادت بعد صدور القانون الأخير، واستقرَّت في استانبول ثم انتقلت إلى أنقرة(٧٧).

زوجات عبد القادر أفندي وأولاده

عبد القادر أفندي هو ثاني أمراء السلطان عبد الحميد، تزوَّج خمس مرات، وانفصل عن زوجاته الثلاثة الأولى. وأُولى زوجاته هي السيدة «مثل ملك»، والثانية هي السيدة «سخندان» التي طلَّقها وتزوج بعدها بالسيدة «مهربان»، فرُزِق منها بابنه أورخان أفندي في قصر الأميرة نعيمة باستانبول، ثم انفصل عنها هي الأخرى، وتعيش الآن في مصر(٧٨).

وزوجة عبد القادر الرابعة، وهي السيدة ماجدة ابنة القائم مقام مصطفى شريف بك، تزوَّج بها في استانبول عام ١٩١٣م. وقد توفِّيت السيدة ماجدة في

---

(٧٦) يعيش «هارون آل عثمان» في استانبول، وله ولدان: أورخان وعبد الحميد قاييخان، وبنت تسمى نورهان. أما «دوندار آل عثمان» فهو متزوج ولم يرزق بطفل، ويعيش الآن في دمشق (ن).

(٧٧) توفيت الأميرة نميقة عثمان أوغلي عام ١٩٦٩م (ن).

(٧٨) قيل: إن مهربان هانم توفيت في مصر بين عامي ١٩٥٥ و ١٩٥٦م (ن).

فينا عام ١٩٣٤م ودفنت هناك. ورُزق منها عبد القادر بطفلين: أكبرهما أرطغرل نجيب، والأصغر علاء الدين.

وزوجته الخامسة هي السيدة «مزيّت» ابنة القائم مقام مجيد بك، ومن مواليد كريت عام ١٩٠٨م، تزوَّج بها في استانبول عام ١٩٢٢م، ورُزق منها بطفلتين: هما الأميرة «بيدار»، والأميرة «نسلشاه صفّت»، ثم تُوفّي عبد القادر وعادت هي إلى أرض الوطن، فهي تعيش الآن في تركيا.

وعلى هذا يكون عبد القادر قد رُزق بثلاثة ذكور وابنتين: أورخان أفندي من السيدة مهربان، وأرطغرل نجيب أفندي وعلاء الدين أفندي من السيدة ماجدة، والأميرة بيدار والأميرة نسلشاه صفت من السيدة مزيت.

وقد وُلد أورخان الابن الأكبر عام ١٩٠٩م في استانبول، ولما تركت الأسرة العثمانية أرضَ الوطن ذهب مع والده إلى المجر، وقد تزوَّج بالسيدة «نافعة» من عائلة يَكَن المصرية التي تعيش الآن في مصر (وهذه السيدة أخت محسن يكن بك صهر الأميرة زكية بنت السلطان عبد الحميد الثاني)، ثم انفصل عنها وتزوَّج بفتاة من عائلة «سورنيه» في فرنسا. وقد رُزق من زوجته الأولى بابنته الأميرة نجلاء، ومن زوجته الثانية بابنه سليم أفندي.

وقد تزوجت الأميرة نجلاء بسعيد بك أحد أمراء الأسرة الملكية في مصر، ثم انفصلت عنه بعد عام، أما سليم أفندي فلا زال يدرُس في باريس(٧٩).

والابن الثاني لعبد القادر أفندي أرطغرل أفندي وُلد في استانبول عام ١٩١٤م، وذهب مع والده إلى المجر ودرس الطبَّ هناك، ويعمل الآن طبيباً في

---

(٧٩) انفصل أورخان أفندي عثمان أوغلي عن والدة سليم أفندي، وتزوج للمرة الثالثة، ويعيش الآن في مدينة نيس بفرنسا. أما سليم أفندي فهو يعيش مع والدته في باريس (ن).

فينـا، وتزوَّج بفتاة نمساوية كانت تعمل ممرضة، ورُزِق منها بولد وبنت: هما سليم وليلى.

والابن الثالث الذي رُزِق به عبد القادر أفندي في استانبول، وهو علاء الدين، يُعتَقد أنه الآن في بلغاريا، ولا يعلم أحد هل هو متزوج أم لا يزال أعزبَ(٨٠)؟

أما الأميرة بيدار، فقد وُلِدت في إستانبول ورحلت مع أبيها إلى المجر، وتوفِّيت هناك ودفنت في ضريح «كل بابا».

والمولود الخامس والأخير هو الابنة الثانية الأميرة نسلشاه صفّت، وُلِدت عام ١٩٢٤م في بودابست وتزوَّجت قبل عام أو عامين في القاهرة بعوني رضا بك، وسمعنا أنها رُزِقت منه بمولود(٨١).

زوجة أحمد أفندي

أحمد أفندي الأمير الثالث بين أبناء السلطان عبد الحميد الثاني، تزوَّج في استانبول بالسيدة فخرية ابنة أحد البكباشية الجراكسة، وكما ذكرتُ سابقاً لم تُرزَق بمولود، ولما تركت الأسرة العثمانية تركيا ورحلت السيدة فخرية عن البلاد مع زوجها، تُوفِّيت في نيس ودفنت في ضريح جامع السلطان سليم بالشام.

زوجات برهان الدين أفندي وأولاده

برهان الدين أفندي هو الأمير الرابع بين أبناء السلطان عبد الحميد، تزوَّج

---

(٨٠) نعتقد أن الوالدة جانبت الصواب هنا، إذ نعلم جيداً أن أرطغرل نجيب أفندي مفقود، لأن علاء الدين أفندي يعيش الآن في صوفيا، ولنا أقرباء يراسلونه (ن).

(٨١) تسكن الأميرة «نسلشاه صفت» في حي «كوزتبه» في استانبول، ولها ولدان: أحدهما صالح والآخر عمر (ن).

في إستانبول بالسيدة «علية نازليار» ابنة جركس حسين بك المؤلودة في ١٨٩٢، ورُزِق منها بطفلين، ثم انفصل عنها وتزوجت بغيره.

وأول أبنـاء برهـان الدين أفندي من السيدة علية نازليار هو محمد فخر الدين، والثاني هو أرطغرل عثمان.

وقد تزوَّج برهان الدين بعد هذه السيدة مرتين أخريين بسيدتين أمريكيتين، فكـانت السيدة الثانية منهما غنية تُدعى جارفيس، وتُوفِّي وهي على ذمته عام ١٩٤٩م، أما هي فقد توفِّيت في الحادي عشر من مايو ١٩٥٢م.

والابن الأكبـر لبرهان الدين أفندي، أي: محمد فخر الدين، وُلِد في إستانبول عام ١٩١١م، وتزوج في باريس عام ١٩٣٣م بفتاة تُسمَّى ليلى (Lilly) ابنة تاجر من أثينا يدعى «بابا دوبولوس»، ثم لقيت حتفها أثناء الحرب العالمية الثانية في غارة جوية على أثينا التي ذهبت لزيارتها، ولم يُرزَق منها فخر الدين بمولود، فتزوَّج مرة ثانية. وكان فخر الدين رساماً جيداً[٨٢].

أما عثمان أرطغرل أفندي فقد وُلِد في إستانبول عام ١٩١٢م، وهو يعيش الآن في نيويورك ويعمل بالتجارة، وأعتقد أنه تزوَّج عام ١٩٤٦م بفتاة من جنوب إفريقيا، وليس له ولد.

زوجة عبد الرحيم أفندي وابنته

عبـد الـرحيم خيري أفنـدي هو الأمير الخامس بين أبناء السلطان عبد الحميد الثاني، وقد تزوَّج بالأميرة أمينة التي ولدت في إستانبول، وأبوها عباس حليم باشا من أصهار العائلة الخديوية في مصر وأحد نُظَّار الدولة العثمانية، وطُلِّقت من عبد الرحيم في باريس عام ١٩٢٣م وتزوجت برجل غيره، أما هو

(٨٢) توفي في أمريكا (ن).

فظل أعزب.

وقد رُزِق عبد الرحيم بابنة وحيدة هي الأميرة «مهرشاه سلجوق» التي وُلدت في استانبول عام ١٩٢٠م، وتزوجت بمن يُدعى غزولي راتب بك أحد أبناء إبراهيم راتب بك من سفراء المملكة المصرية، وابن الأميرة «مهوش» بنت البرنس إبراهيم باشا من نفس العائلة. ورُزِقت منه بثلاثة أطفال: الأولى هي خديجة، والثاني توركان الذي مات طفلاً، والطفل الثالث هو إبراهيم طوران(٨٣).

زوجة أحمد نور الدين أفندي

أحمد نور الدين هو الأمير السادس بين أبناء السلطان عبد الحميد، تزوَّج في إستانبول عام ١٩١٩م بالسيدة «عائشة عندليب» ابنة حسني باشا أحد ياوران السلطان عبد الحميد والمولودة في «اطه بازاري» عام ١٩٠٢م وقد توفِّي نور الدين دون أن يُرزَق منها بولد، وعادت بعد وفاته إلى تركيا، ولازالت تعيش في استانبول دون زواج.

زوجة محمد عابد أفندي

محمد عابد هو الأمير السابع والأخير بين أبناء السلطان عبد الحميد، تزوَّج عام ١٩٣٦م في تيران عاصمة دولة ألبانيا الملكية آنذاك بالأميرة سنية أخت الملك أحمد زوغو، ووقع الطَّلاق بينهما في باريس عام ١٩٤٨م، وتزوَّج كل منهما مرة ثانية. وتعيش الأميرة سنية الآن إلى جانب أخيها الملك المخلوع(٨٤)،

---

(٨٣) انفصلت الأميرة «مهرشاه سلجوق» عن راتب بك، وتزوجت بإبراهيم عاصم بك المصري ثم توفيت في موناكو عام ١٩٨٢م (ن).

(٨٤) وصلنا خبر جاء فيه: أن البرنسيسة سنية توفيت في مصر (ن).

بينما لم يُرزَق محمد عابد بمولود حتى الآن.

بعد هذا العرض نُوجز القول ونضيف أن أربعة من أبناء السلطان عبد الحميد الثاني ممن كانوا أصحاب ذرية رُزِقوا عشرة أنجال؛ ستة ذكور وأربع إناث، تُوفِّي منهم أمير وأميرة.

وقد رزق الأمراء أحفاد السلطان بستة أنجال؛ أربعة ذكور وبنتان.

□□□□□

أحفاد السلطان عبد الحميد الثاني من بناته

تزوج من بنـات السلطان عبـد الحميد ممَّن بَلَغْن سن الـرشـد كل من الأميرات زكية ونعيمة ونائلة وشادية وعائشة ورفيعة، وتزوجت الأميرات زكية ونائلة ورفيعة مرة واحدة، بينما تزوجت الأميرات نعيمة وشادية وعائشة مرتين.

أولاد الأميرة زكية

الأميرة زكية هي كُبرى بنات السلطان عبد الحميد، وزوجُها هو نور الدين باشا ابن الغازي [المجاهد] عثمان باشا.

وقد رُزِقت منه بطفلتين: الأولى هي علوية؛ تُوفِّيت بعد ثمانية شهور، والثانية هي فاطمـة عالية، وُلِـدت في إستـانبول عام ١٨٩٣م، وتزوجت في استانبول أيضاً بأحد أفراد عائلة يكن المصرية عام ١٩١١م وهو محسن بك، وتعيش الآن في مدينة «بو» بفرنسا[٨٥]، ورُزِقت بولدين أثناء إقامتها في استانبول: أحدهما يدعى عثمان، والثاني يدعى صالح، وقد تزوَّج عثمان بك بابنة الكونت روزنبرغ.

وتوفِّيت الأميرة زكية في مدينة «بو» في سن الثامنة والسبعين، ولست أدري كيف أتحدَّثُ عن الضيق والآلام اللذين عانتهما هذه السيدة؛ فقد عاشت بقية عمرها في فندق صغير، ولازلتُ أحتفظ حتى الآن بخطاباتها الحزينة إلي؛ فهي قطعـة من مشـاعر هذه السيدة الملاك ذات الروح العالية، وإنني لعاجزة عن وصف ذلك الصبر والتحمل الذي أبدته تجاه الجفاء وهي في سن الشيخوخة، وكان كلُّ عزائها وسلواها ذلك الحنان الذي كانت تراه من بنتها الحبيبة فاطمة عالية، ولم يكن بهـا من قصـور إلا الـطيبة الزائدة في قلبها، وكانت ترى أن

---

(٨٥) توفيت في ١٤ يناير ١٩٧٢م (ن).

معاناتها الفقر والحرمان إنما هو من سوء طالعها، وظلّت هكذا حتى أغلقت عينيها على الحياة.

أولاد الأميرة نعيمة

الأميرة نعيمة هي ثانية بنات السلطان عبد الحميد، وزوجها الأول هو كمال الدين باشا ابن الغازي عثمان باشا، رُزِقت منه بولد وبنت، الولد هو محمد جاهد بك، ولد في استانبول وتزوّج بالأميرة درية إحدى بنات ضياء الدين أفندي ابن السلطان رشاد، فلما توفّيت الأميرة درية في استانبول تزوج بخالتها السيدة «لاورانس هانم» ورُزِق منها في نيس بولد سماه بولند، ويعيش الآن جاهد بك مع زوجته وولده في مقاطعة سافوا بفرنسا[٨٦].

أما ابنة الأميرة نعيمة فهي السيدة عادلة، وُلدت في استانبول عام ١٩٠١م، وتزوّجت بشوكت أفندي ابن سيف الدين أفندي أحد أولاد السلطان عبد العزيز خان، ورُزِقت منه بطفلة سمتها «نزاهت»، ثم انفصلت عنه وتزوّجت برجل مصري الجنسية، وقد سمعنا أنها رزقت منه بعدة أولاد.

والزوج الثاني للأميرة نعيمة هو جلال الدين باشا، وبعد أن غادرت أرض الوطن باعت كلّ ما كان تحت يدها، مثلها مثل كل الآخرين، ولم تتردَّد لحظة عن تقديم شتى التضحيات من أجل علاج زوجها من مرض سلس البول الذي استَمَرَّ معه أربع سنوات، وعقب وفاته ذهبت إلى تيران. وعلى الرغم من انتقال بعض الأراضي - التي تركها - إلى ملكيتها، إلا أنها لم تستَفِد منها بعد تطبيق الشيوعية هناك، ثم توفيت.

□□□□□

---

(٨٦) توفي م. جاهد عثمان بك نتيجة لحادثة اصطدام سيارة في استانبول عام ١٩٧٦م (ن).

الأميرة نائلة

الأميرة نائلة هي البنت الثالثة بين بنات السلطان عبد الحميد الثاني، تزوَّجت بعارف حكمت باشا، ولم تُرزَق كما ذكرت بمولود.

ابنة الأميرة شادية

الزوج الأول الذي تزوجته الأميرة شادية البنت الرابعة بين بنات السلطان عبد الحميد هو فاخر بك، وقد رُزقت منه بطفلة في استانبول عام ١٩١٤م سمَّتها سامية، وتزوجت برجل أمريكي يدعى «لاري أبوداكا»، وقد اهتَدى هذا الرجل للإسلام.

أولاد الأميرة عائشة

رُزقت الأميرة عائشة البنت الخامسة بين بنات السلطان عبد الحميد بولدَيْن وبنت من زوجها الأول أحمد نامي بك، وولد آخر من زوجها الثاني محمد علي بك

وُلد ابنها الأول عمر نامي بك في استانبول عام ١٩١١م، ودرس القانون في باريس، وهو يعيش الآن في لبنان(٨٧). وقد تزوَّج في بيروت عام ١٩٣٣م بالسيدة سعادت ابنة سعيد باشا نَجْل كامل باشا، ورُزِق منها بطفلة سماها عائشة رابعة.

وكانت الأميرة عائشة قد رزقت عام ١٩١٣م بمولودة سمتها عالية، إلا أنها لم تُكمِل عدة أيام، وتوفيت ودفنت في مقبرة يحيى أفندي.

والابن الثاني للأميرة عائشة هو عثمان نامي بك، ولد في سويسرة عام

---

(٨٧) تزوج عمر نامي بك ـ بعد وفاة زوجته الأولى ـ بالسيدة يولا في استانبول، وهي التي تنسب لعائلة سعد في بيروت، وقد عاد إلى تركيا منذ عام ١٩٧٥ (ن).

١٩١٨م، ودرس هندسة أجهزة التصوير بالأشعة في باريس، ويحمل الآن الجنسية اللبنانية. وقد تزوَّج في باريس بالسيدة عادلة بنت محمد علي بك ابن راتب باشا والي الحجاز، وهو الآن في تونس. وقد رُزق من هذه الزِّيجة بطفلتيه مديحة شكرية وفتحية نعمت، وقد ماتت السيدة عادلة وهي تلد طفلتها «عادلة»، وتزوج عثمان نامي بعدها بفتاة ألمانية(٨٨).

والابن الثالث للأميرة عائشة هو عبد الحميد رؤوف بك، رُزقَت به من زوجها الثاني محمد علي بك في إستانبول عام ١٩٢٢م، وهو يعيش الآن إلى جانب أمه، وصارا يحملان الجنسية التركية(٨٩).

أولاد الأميرة رفيعة

تزوَّجت الأميرة رفيعة سادسة بنات السلطان عبد الحميد بعلي فؤاد بك، ورزقت منه ببنتين؛ أكبرهما ربيعة التي وُلِدت في إستانبول، ولازالت تعيش فيها حتى الآن دون زواج، والثانية وهي حميدة، وُلدت أيضاً في إستانبول، وتوفِّيت نتيجة لحادثة في نيس، ودفنت في الشام.

ونرى خُلاصةً لهذا العرض: أن للسلطان عبد الحميد الثاني عشرةَ أحفاد من بناته؛ أربعة ذكور وستّ إناث، توفِّيت ثلاث منهن، والآخرون مازالوا أحياء يُرزَقون.

وقد رزق هؤلاء الأحفاد أيضاً بولدين وأربعة بنات، إلا أن حفيدة منهم هي

(٨٨) عاد عثمان نامي بك إلى أرض الوطن عام ١٩٧٥م، ويعيش في استانبول مع قرينته السيدة «روترو» من عائلة غرانزوف. وله منها ابنتان أخريان: إحداهما «كلنور»، والثانية «آيتن» (ن).

(٨٩) توفي عبد الحميد رؤوف بك في استانبول في ١٠ مارس ١٩٨١م، ويرقد الآن في أحضان الوالدة في مقبرة يحيى أفندي في بشيكطاش (ن).

ابنة أمير من الأمراء المنسوبين لفرع السلطان عبد العزيز.

أولاد الأميرات من أبناء السلطان عبد الحميد

١ ـ رزقت الأميرة نميقة ابنة محمد سليم أول الأمراء بين أبناء السلطان عبد الحميد بأربعة أولاد من زوجها كنعان بك، الثلاثة الأُوَل منهم، أي: فتحية وإبراهيم وكاظم وُلِدوا في إستانبول، أما ساطعة فقد ولدت في باريس، والأربعة متزوجون، وللثلاثة الأُوَل منهم أولاد.

٢ ـ ورزقت الأميرة نسلشاه صفّت الابنة الصغرى لعبد القادر ثاني الأمراء بين أبناء السلطان عبد الحميد بولد سمته «صالح» من زوجها عوني بك.

٣ ـ ورزقت الأميرة مهرشاه سلجوق ابنة عبد الرحيم خيري خامس أمراء السلطان عبد الحميد بثلاثة أولادٍ من زوجها راتب غزولي بك: هم خديجة وتوركان وإبراهيم طوران بك. وقد توفِّيت الابنة توركان.

٤ ـ وتزوَّجت الأميرة نجلاء بنت أورخان أفندي نجل عبد القادر أفندي، إلا أنها لم تُرزَق بولد[٩٠].

□□□□□

---

(٩٠) متزوجة الآن برجل يدعى جرمان، ولها ولد يسمى جم (ن).

القسم السابع
خطاب إلى جميل باشا

خطاب إلى جميل باشا

أرى الآن من الواجب علي أن أتحدَّث قليلاً عن السطور التي كتبها في حق والدي أحدُ أمناء العاصمة القدامى، الجراح جميل باشا، في كتابه الذي نشره عام ١٩٥١م تحت عنوان: «مذكراتي لثمانين عاماً»(٩١).

إن الباشا الذي عَرفناه رئيساً لبلدية إستانبول حتى الآن تحدَّث في مذكراته عن كثير من خدمـاته الطبية والسياسية، وأبان عن أنه كان شخصية هامة خلال الفترة الأخيرة، فهو أيضاً بالإضافة إلى ذلك، سواء بالسطور التي تناقِض بعضها بعضاً، وسواء بالادعاءات التي تخالف الحقيقة والواقع، قد جعل من مذكراته بأكملها «عملاً لا يمكن تصديقه».

وإذا لزم الأمر أن نصدِّقَ هذه المذكرات فلا بد أن نصدق بالتالي أن جميل باشا كان الناصح المرشد لوالدي، كما كان أيضاً ناصحاً مرشداً لعمي السلطان رشـاد، فمـدرسةُ الطب العسكرية التي هي الآن مدرسة حيدر باشا الثانوية، ومستشفى حميدية للأطفـال التي هي الآن مستشفى شيشلي للأطفـال، إنما أقـامهمـا والدي ـ كما يدَّعي الباشا ـ بإيعاز ونصيحة منه! . . . كذلك مجلس

---

(٩١) هذا القسم (السابع) أعددته على أن يكون جواباً إلى جميل باشا، غير أنه لم تكن هناك فرصة لنشره، ورأيت من المفيد إضافته إلى مذكراتي، إلا أن وفاة جميل باشا سبقت ظهور الكتاب.

شورى السلطنة الذي جمعه السلطان رشاد أيام حرب البلقان كان عملاً من همة الباشا! . . حتى إن السلطان وحيد الدين عَرَض عليه الصدارة العظمى، إلا أنه لم يقبَلْها! . . .

ولأن هؤلاء السلاطين الثلاثة ليسوا الآن على قيد الحياة، فلن يَجِدَ الباشا أحداً يكذِّبه، ومن حسن الحظ أنه يكذِّب نفسه بنفسه، ويُعلِن عن كونه واحداً من المصابين بداء العظمة؛ وانظروا الجملة التالية التي ذكرها في الصحيفة (١٤٨) من مذكراته، إذ يقول: «كنت أفكِّرُ أني لم أستطع أن أحُول دون حدوث الحرب».

إن الحرب التي لم يستطع الباشا أن يحول دون حدوثها هي حرب البلقان، والباشا الذي توهَّم في نفسه القدرة على الحيلولة دون حدوثها هو الطبيب الخاص للسلطان رشاد! إن جميل باشا الذي يُطلِق ادعاءً يحلِّق عالياً إلى هذا الحد ـ متناسياً وظيفته وموقعه ـ لا يجد الأمر غير طبيعي بالنسبة له عندما يَذكُر أنه هو الذي أقام مدرسة الطب العسكري وغيرها من بقية الأعمال الكبيرة. ولكن ماذا نفعلُ والحقيقة ليست كذلك؟ والباشا نفسه يعترف دون إدراك منه أن الحقيقة شيء آخر.

ونراه يقول في الصحيفة (٢٧) مثلاً: «لم يكن السلطان راضياً عن خروج أحد من البلاد، وخاصة الشباب والأطباء» ثم يعود فيقول في الصحيفة التالية: «لقد أحدث خطاب شيخ الإسلام تأثيره، وعلى هذا عرفنا الطريق إلى أوربا، ولكن في الوقت الذي كان يحصُل فيه أصدقائي الذاهبون إلى هناك على رواتب سخية كنت أنا مكتفياً براتبي عن رتبة يوزباشي ونقود والدي»؛ فهو يعترفُ هنا بأن أطباء كثيرين غيره أُرسلوا إلى أوربا، وأنهم كانوا يحصلون على رواتب سخية.

والاعتراف لا يبقى عند هذا الحد؛ فاجتماع سانت ـ كلود الذي ذكره في الصفحات (٣٥ ـ ٣٧) من مذكراته هو اعتراف قَدَّمه جميل باشا ـ دون أن يشعر ـ عن تسامح السلطان عبد الحميد؛ فهو يحكي أن الطلاب المسلمين عَقَدُوا اجتماعاً في مطعم ذي حديقة في سانت ـ كلود وتحدَّث كل واحد منهم مؤيداً السلطان عبد الحميد، بينما قام هو وألقى محاضرة فيهم عن استبداد السلطان، مما جعل سفيرَنا في باريس يستدعيه بعد أيامٍ قلائل ويبلغه بالأمر القادم من المابين عن ضرورة عودته إلى استانبول، ثم يستدعيه بعد عدة إيام أخرى ويبلِغُه أنه «تَمَّ العفو عنه نظراً لأنه طالب مجتهد».

وهـذه الـواقعة لا شك تُثبِت تسامح والدي، في الوقت الذي تُدِين فيه جميل باشا بصورة مشينة؛ فلم يكن قيامه بالحديث ضد رئيس دولته في اجتماع لا يحضُـره الطلاب الأتراك فحسب، بل يحضره الطلاب المسلمون من دول أخـرى تصـرفـاً غير طيب، فضـلاً عن أن قَبُـولـه فيمـا بعـد للنياشين والرتب والإحسانات التي أنعَم بها عليه ذلك الحاكم، الذي عَدَّه حاكماً سيئاً مستبدّاً، أمر لا يمكن تفسيره وإيضاحه حملاً على جدية الباشا أبداً.

ولكن مذكرات جميل باشا لا تَقِفُ عند حد تلفيق الأكاذيب فحسب، بل تتجـاوز ذلـك إلى ما هو أبعد؛ فالقسم الذي كتبه فيها تحت عنوان: «مرض الجَمْرة الخبيثة في السراي» في الصفحات (٦٠ ـ ٦٤) إن هو إلا ادِّعاءات باطلة من أولها إلى آخرها.

لقد أجرى الباشا عملية جراحية من مرض الجمرة الخبيثة لمربيتي «ديل أسـرار قلفـة» التي وُلِـدت أنـا على يديها وكبرت في أحضانها، وهي إحدى القلفـاوات الـلائي جئن إلى السـراي في أواخر عهد السلطان عبد المجيد، وشَهِدت عصر السلطان عبد العزيز، وخَدَمت حتى يوسف عز الدين أفندي وأخته

الأميرة صالحة وأمها الزوجة الأولى «در نو»، فهي واحدة من أقدم العاملات في السراي، ومع ذلك عرَّض لها جميل باشا عدة مرات، ووصفها بأنها «معشوقة السلطان عبد الحميد المحببة إليه»، ووصفها في مقدمة الصفحة (٦٢) بأنها «المعشوقة الأولى». ولم ير أحد في السراي ألقاباً من مثل: «معشوقة أولى ومعشوقة ثانية. . .» ولا حتى سمعنا بها، وكلها تلفيقاتٌ وأمور هي من خيَال الباشا، أراد بها أن يرفَع من قدر نفسه.

وكنت قد تحدثت قبل أن أقرأ كتاب جميل باشا عن المرض الذي أُصِيبت به مربيتي عند معرِض حديثي عن ذكريات الطفولة، وسمعت من أمي ومن قلفاوات السراي أن الجرَّاح أمين باشا شخَّص مرضها بأنه الجمرة الخبيثة، وعرض الأمر على والدي، فأحاله هو الآخر إلى جميل باشا نظراً لأنه أحد الجراحين الذين درسوا في أوربا.

وهنا تعمل مخيلة جميل باشا بشكل رومانتيكي؛ فيقول: إنه عندما أراد أن يرى الجرح، بدأ آغوات الحريم في التذمر والاحتجاج بقولهم: «كيف لنا أن نُجبِر السيدة على كشف جسدها؟» ووصفهم بأنهم «فلاحون»، ثم يدعي أنه قال لهم ـ بناءً على هذا ـ: «أنا لا أستطيع تحمُّلَ مسؤولية هذا العمل، اعرِضوا الأمر على أفندينا واحصلوا منه على الإذن» وأن والدي أجابهم بقوله: «جميل باشا معدود بين أفراد عائلتي، ودائرة الحريم ليست محرمة عليه»، وعلى ذلك تَمَّ فحص المريضة!

ولا بد أن الباشا ـ بعد مرور زمن طويل على الحادثة وتقدُّم العمر به ـ نَسِي على كل حال، فأضاف من مخيلته بعض الأشياء، لأن الأطباء عندما كانت تمرض إحدى زوجات السلاطين في السراي ـ وليس القلفاوات ـ كانوا يفحصونهن بمنتهى السهولة، ولا أحد يعترض على ذلك، بل لا يستطيع أن يعترض.

وكـانت الـزوجـات عنـدما يتوجَّبُ فحص إحداهن يُغطَّى أعلاها بأحد الشيلان، وتقف إلى جوارها إحدى القلفاوات، بينما ينتظر آغوات الحريم عند الباب، فلم يكن بالسراي آغوات عُدِموا التربية يصرخون في وجه جميل باشا ويعترضون عليه كما يدَّعي، فهم على درجةٍ عالية من التربية، وأناس يعلمون جيداً عادات السراي وتقاليده، كما أنهم لعلمهم بأصول البروتوكول لا يُلقِّبون إحدى القلفاوات بلقب «هانم أفندي حضر تلري»، مما يوضح أن جميل باشا لم يرو الصدق، والنقطة الوحيدة التي يحتمل صدقها هي سؤال والدي له عن إمكانية علاج الجمرة دون إجراء عملية جراحية؛ فلم تكن العمليات الجراحية آنذاك غير ذي خطورة كما هو الحال الآن، وكان قلقُ والدي من العملية يومها في محله، والغـريب أن يقـول جميل باشـا: «إن العملية كانت أمـراً يخشاه السلطان عبد الحميد».

أُجريت العملية للمرأة المسكينة ليلاً، وكانت تعاني من ضيق التنفس، فكان من الطبيعي جداً أن يحرص والدي على حياتها، فأرسل إلى جميل باشا مَن أخبره أن يجري لها العملية دون تخدير، ولكنه لم يَدْعُه إليه لا قبل العملية ولا بعدها، كما لم يذكر أيضاً عبارة: «إنه معدود من بين أفراد العائلة»، وهذا القول الملفَّق إن هو إلا استمرار لأقواله الملفقة حول اعتراض آغوات الحريم على توقيع الكشف الطبي ونتيجة لها، والأمر ليس إلا عرض من أعراض العقدة النفسية في رغبته أن يكون مقرَّباً للسلطان عبد الحميد بقدر أحد أفراد العائلة.

يتمتَّع الباشا بقدرة بارعة على التخيل، ولهذا يريد أن يضع والدي موضع الرجل الجاهل عديم التجربة الذي لا خُبْرَ له عن شيء؛ ويحكي الحكاية التالية في الصفحات (٦٢ ـ ٦٤) من كتابه، فيدَّعِي أن والدي استدعاه وسأله عن كيفية انتقال العدوى بالجمرة، وعندما علم والدي أنها «بلَدْغ الذباب» عاد وسأله: ما هو سبيل الذباب إلى ظهر القلفة، ثم علم منه أن العدوى انتقلت عن طريق ذبابة

في الحمام، ولهذا يَدَّعي أنه أمر بهدم الحمام، فأخبره جميل باشا ـ كما يدَّعي ـ أنه «لا داعي لهدم الحمام، وأنه يمكن قتلُ الذباب عن طريق مادة الكبريت»، وأن السلطان عندما رَضِي بذلك أصدر أوامره إلى الباش حكيم عصمت باشا «بالقبض على الذبابة التي تَحمِل عدوى الجَمْرة حية»، وعليه راح عصمت باشا يتسلَّق الدرج في الحمام وفي يده ما يُشبه المغرفة الكبيرة، بها شبكة لصيد السمك وشرع يصيد الذباب، وعندما لم يُفلِح في ذلك اصطدم بجميل باشا، مما جعل الأخير يدخُل مجلس السلطان بعد أداء مراسم تحية الجمعة ويُقنِعه، ويُنقِذ بذلك عصمت باشا من صيد الذباب!!.

وهل يظن جميل باشا أن القارىء يصدِّقُ هذه المضحكات؟ وهل السلطان عبد الحميد طفل حتى يعتقد أن الذبابة ناقلة العدوى سوف تَظَلُّ هناك في الحمام رَغمَ مرور عدة أيام؟ وإذا حدث وقبضوا على تلك الذبابة، ماذا سيكون مصيرُها؟ إن عصمت باشا كان طبيباً للوالدة سلطان «برتونيال»، وكان رجلاً مستقيماً مخلِصاً لوالدي، وإذا فَرَضْنا فرضاً مستحيلاً أن والدي أصدر أمره «بالقبض على الذبابة»، فهل كان يَعجِزُ الرجل عن الرد باستحالة ذلك وعدم لزومه؟ والواضح أن جميل باشا يحكي أشياء لا يمكن أن يقبَلَها العقل.

بل وهناك دليل آخر على أن هذه الحكاية ملفَّقة من أولها إلى آخرها، وهو ادعاؤه بأنه «دخل على السلطان بعد أداء مراسم تحية الجمعة، وأنقذ عصمت باشا من صيد الذباب»؛ إذ أن من عادة والدي أن لا يستقبِلَ أحداً بعد هذه المراسم، اللهم إلا تباحثه مع السفراء المشاركين في المراسم فحسب.

وإذا تركنا ضعف ذاكرته جانباً، فإن هذه الموهبة في الاختراع عند الباشا لكفيلة بأن تجعلَنَا نوصيه ليس بكتابة مذكرات، بل بكتابة الهزليات مثل موليير، غير أن الموهبة الفنية الموجودة عند موليير لا تُوجَد عنده؛ ولهذا فإن هزلياته سوف

تتشابَه هي الأخرى بمذكراته، ومن ثَمَّ لا نوصيه بهذا.

ولن أستطيع أن أذكر المزيد إزاء الإيماءات القبيحة التي أومأ بها في حق مربيتي، ولكني أوصي القارىء أن يَجُول بناظرَيْه بين الصفحات التي تتحدَّث عن جميل باشا في المذكرات التي نشرها عام ١٩٣٠م أحمد مختار بك أحد أقربائه، وأضيف إلى ذلك: أن مربيتي عاشت بِكراً طوال حياتها وماتت بكراً، وأن السراي كان يوجد به الكثيرات من المسنات مثلها.

إن شَغف جميل باشا بالمزاح وموهبته في الاختراع لم يَنحَصِرا فقط في حادثة مرض الجمرة هذا، بل نشهدهما في مواضعَ أخرى من كتابه، فالقِسم الذي يتحدَّثُ فيه عن حياته في باريس في الصحيفة (٣٢) هو من هذا القبيل، إذ يقول: إنه عندما انقطعت لفترة رواتبُه ورواتب زملائه الذين يدرسُون الطبَّ هناك، توجَّهوا إلى سفيرنا في باريس، فلما لم يَمُدَّ لهم يد العون أبرَقوا بالبرقية التالية إلى السلطان:

«منذ ثلاثةِ أشهر ونصف ونحن لا نتقاضَى رواتبنا، وصِرْنا في أشد الحاجة، فنحن جائعون في ظلكم الشاهاني...».

ومثلُ هذه البرقية لم يكن من الممكن الإبراقُ بها، ليس فقط للسلطان عبد الحميد، بل حتى لناظر (وزير) من أقل الرُّتَب، وجميل باشا بهذه السطور التي كتبها لإضحاك قارئيه يكون قد خَدَم التاريخ! فهو من حقه أن لا يُحِبَّ السلطان عبد الحميد، بل ويمكن أن يكون عدوّاً له، غير أنه ليس من حقه وهو يقول: «أخدم التاريخ» أن يزيِّف الحقائق ويستهزىء بالآخرين، إن ما يليق بالطبيب قبل كل شيء أن يكون جادّاً.

ولو أن هذه البرقية أُرسلت كما يدعي، لكانت بغير شك مدعاة لإجراء تحقيق، نظراً لأنها تحمل معنى السبِّ العلني، ويُجبرُ كاتبها على العودة إلى

البلاد، وبما أن شيئاً من ذلك لم يحدث، فإنه يظهر واضحاً أن نصَّ البرقية لم يكن بالشكـل الذي ذكره جميل باشا، ومع هذا فقد قام السلطان خلال أربع وعشرين ساعة بالعون الذي لم يَرَوْه من السفير، كما اعترف هو نفسه، قام به السلطان الذي لم يحبَّه جميل باشا وقال عنه: إنه «مستبدٌ وعدو للحرية». . .

إن مذكـرات جميل باشـا تَعِـجُّ بالادعاءات التي لا يَقبَـلُها حتى من لا يعـرفون تاريخ تلك الفترة، ولا يعرفون عادات وتقاليد السراي؛ إنني أدعوكم لقراءة السطور التالية في الصحيفة (٧٦):

«لقـد كان يجـامِلُني كثيراً نظراً لأني جرَّاح، خشية أن يقـع يوماً تحت مِبْضَعي، حتى إنه كان يخاطبني باستمرار بلقب «باشا حضر تلري»، أليس ذلك غريباً».

والشيء الغريب حقاً أن يرى جميل باشا الغرابة في أن يخاطِبَه السلطان بلقب «باشا حضرتلري»، وقد كان والدي يخاطِبُ جميع الباشوات بلقب باشا حضرتلري، فلم يكن الأمر امتيازاً خاصّاً بجميل باشا، وكان يخاطب الكل حتى القلفاوات بضمير الجمع «أنتم»، ولا غرابةَ في ذلك؛ لأن أدب السلطان عبد الحميد مما يَتَّفِق عليه الجميع، وكون هذا الأدب ناشيء عنده لخوفه من «أن يحتاج يوماً لجميل باشا» إنما هو شيء من أوهام وتخيلات الباشا نفسه ليس إلاّ، وهل يعتَقِد أنه هو الجراح الوحيد في الدنيا، ولا أحد سواه؟ فهل ينسى الباشا أن السلطان حين مرضِه الكبير كتب إلى صديقه الحميم إمبراطور ألمانيا، وطَلَب منه إرسال البروفسور برغمان والدكتور بيير؟

وإذا كان جميل باشا قد صار واحداً من المقرَّبين، وجيء به إلى السراي لفحص المرضى فيه، فهو مَدِينٌ بهذا الشرف لكونه صهر جمال الدين أفندي شيخ الإسـلام، ولم يره والدي إلا مرةً أو مرتين؛ فقد كان موجوداً إلى جانب

الجـراح حسن بك مرةً عنـد إجراء عملية الخِتان لأخي الأصغـر المرحوم عبد الـرحيم، واستقبله السلطان مرةً ثانية بعـد إجـرائـه عملية الفتق لأخي الأكبر المرحوم أحمد أفندي، حتى إن والدي كان يفكِّر وقتها في استدعاء طبيب من أوربـا لإجراء هذه العملية، غير أنه لم يشأ أن يقول أحدهم: «وهل لا يوجدُ طبيب في البلاد قادر على إجراء عملية فتق عادية» فأمر جميل باشا بإجرائها.

هاكم جميل باشا، وقد استطاع أن يَرى والدي في هاتين المرتين، أو ربما أكثـر من هاتين المـرتين، وليس كما يَدَّعِي أو يتصور. والدليلُ على ذلك أنه يعترف بهذا دون إدراك منه في الصحيفة (١٨١) من كتابه، إذ يقول:

«لقد كانت لي صلاتٌ بكل أفراد الأسرة الملكية تقريباً، بسبب العمليات الجراحية التي أجريتُها للأمراء والأميرات، غير أن صلتي بالسلطان عبد الحميد واتِّصالي به كان يَتِمُّ دائماً بصورة غير مباشرة؛ فقد كان الدخولُ عليه حَدثاً جَلَلاً، ولم يكن يحدُث ذلك إلا بين الحين والآخر».

إن هذا الاعتراف الذي يمثِّل واحداً من أوضح الأمثلة على التناقضات الموجودة في مذكراته، هو اعتراف أعتقدُ أن الله ساق الباشا للإدلاء به، غير أن في هذا أيضاً شيئاً من المبالغة، إذ لم يَقُم جميل باشا بإجراء عمليات للأميرات إلا للأميرة صالحة فقط، ولم يوافِق والدي على قيامه بإجراء العملية لها إلا بناءً على رغبة زوجها أحمد ذو الكفل باشا، فهي الوحيدة التي أجرى لها جميل باشا عملية جراحية، أما عن الأمراء فلم يقُم بإجراء عملية إلا للأمير أحمد أفندي، وهي عملية الفَتْق كما ذكرتُ سابقاً، وكان موجوداً أيضاً أثناء ختان الأمير عبد الرحيم أفندي، ولم يكن أبداً «الدكتور الخصوصي لوالدي» كما يدَّعي.

وقـد كان ألكساندر قمبور أوغلي، ونور الدين باشا، وراسخ بك، هم الأطباء المكلَّفون بإجراء العمليات في السراي، وكان جميل باشا مكلَّفاً بإجراء

بعض العمليات لبعض القلفاوات في السـراي، إلى أن تَمَّ إنشاء «مستشفى حميدية للأطفال»، وربما لهذا اعتقد هو أنه الطبيب الخاص للسلطان، أما بعد إتمام إنشاء المستشفى المذكورة فقد تولّى كلٌّ من نور الدين باشا وراسخ بك مهمة إجراء العمليات للقلفاوات في المستشفى، وكانت القلفاوات يَنفُرْن من جميل باشا، لأنه كان قد قام بعملية نزع كيس دُهْنِي من رقبة القلفة «فرياديل» إحدى قلفاوات الأميرة نعيمة، فلما تُوفِّيت المسكينة مساءَ ذلك اليوم صِرْن لا يثقن في الباشا.

وفي الصحيفة (٧٧) من مذكراته قال: إنه «طُرِد من مجلس والدي عندما أراد أن يُشعِل سيجارته وهو واقف على قدميه، وخشية والدي من ذلك»، وهذا أيضاً كذب؛ لأنه لم يحدُث أن دعاه والدي إلى مجلسه وتحدَّث معه طويلاً، حتى تكون هناك فرصة لأن يُشعل له سيجارته، ومن ثَمَّ يطرده.

وكما ذكرت سابقاً أن والدي تحدَّث معه مرتين أو ثلاث، وكانت الأحاديث قصيرة جداً ورسمية، ولم يحدُث أبداً أن طرده من مجلسه، ولم يكن من عادة والدي أن يتحدَّث طويلاً مع أحد، وخاصةً في الأمور التي تتعلَّق بصحته غير أطبائه الخصوصيين الذين يعرفهم ويَثِقُ فيهم، وكان يجعل أطباءه الخصوصيين يجلسـون أمـامه ثم يتحدَّث معهم، وعلى رأس هؤلاء كان يوجد «ماورورياني باشـا»، وهذا الرجلُ كان طبيبه الخاص منذ كان أميراً، ويأتي بعده الأطباء: عارف باشا وعصمت باشا وسعيد باشا وإبراهيم باشا ومقيم باشا ونافذ باشا وعمر باشا، وهؤلاء الباشوات في الحقيقة كان بإمكانهم أن يدخُلوا مجلس والدي، ويتحدَّثُوا إليه ويناقشوه أمر صحته.

كذلك كان الجراح أمين باشا واحداً من أطبائه الخصوصيين، وواحداً من الـذين ظَلُّوا على خدمتـه منذ كان أميراً، كما أدخل والدي أيام مرضه الأخير

الجراح نُور الدين باشا واحداً بين أطبائه الخصوصيين. فهؤلاء الباشوات هم الذين عملوا سنواتٍ طِوالاً أطباء خصوصيين إلى جانب والدي، يدخُلون عليه مجلسه ويُشعِلون له سيجارته عند الاقتضاء، ولم يحدُث أن طَرَد أحداً منهم لأنه نهض يشعل له سيجارته، كما يدَّعي جميل باشا، ولم نشهد أو نسمع أن أحداً من غير هؤلاء شاركه مجلسه.

وقد كان هناك في «دائرة المابين» بالسراي أطباء كثيرون، لا أتذكَّرُ اليوم أسماءهم، قاموا بخدماتهم الطبية سواء في دائرة الحريم وسواء في السراي كله، غير أنهم لم يدخُلوا على السلطان مجلسه.

إن ترقية جميل باشا حتى رتبة مشير ـ على الرَّغْمِ من أنه لم يكن واحداً من الذين قاموا بخدمة عظيمة للوطن والأمة، وإنما لأنه قام بإحدى العمليات الجراحية البسيطة لأحد الأمراء ـ هي عنايةٌ وتلطُّف من حاكم لم يَجِد الباشا حرجاً في افتراء الكذب عليه والتنكر لجميله، ولابد أنَّ القراء يقدِّرون ذلك حقَّ قدره.

وإن قيام الاتحاديين بسحب رتبة المشيرية من جميل باشا أيامَ الدستور لا بد أنه جاء ثقيلاً على قلبه؛ إذ توسَّل كثيراً إلى المرحوم السلطان رشاد حتى حصل منه على رتبة «مير ميرانلق» أي: أمير أمراء، فاستطاع بذلك أن يحافظ على لقب الباشوية.

أما أعظم الافتراءات التي ألقاها جميل باشا في حقِّ والدي فهي في الصحيفة (٧٥) من كتابه، إذ يدَّعي فيها أن والدي قضى على حياة ثلاثة أشخاص خلال مدة حكمه: أولهم مدحت باشا، وثانيهم واحد من آغوات الحريم، وثالثهم واحد من عمال الحدائق، يقول: إنه قتله بيده في حديقة «يلديز».

إن الحزن الذي شَعرتُ به لوصفه والدي بأنه «قاتل قَضَى على الرجل بمسدسه»، وهو الذي عُرِف عنه تجنبه دائماً لإراقة الدماء، حزن لا حدودَ له. وقـد سعى الاتحـاديون في البـداية لتشـويه صورة السلطان من أجـل تثبيت مواقعهم، وأذاعوا دعاياتٍ عن والدي أنه «أمر بإلقاء المئات من الشباب خريجي المدارس الحربية والطبية في البحر»، ونحن إذا نحَّينا ذلك جانباً لوَجَدْنا أن أحداً لم يَفتَرِ على والدي مثل هذا الافتراء العظيم الذي فعله جميل باشا، وخاصة عندما يَصدُر الافتراء من رجل مثقف، لا شك يكون ثقيلاً على نفس صاحبه.

وأجد من الدَّين في عنقي أن أردَّ على هذه الأكاذيب والافتراءات، ذَوْداً عن شرف والدي، وتبصيراً للناس بالمعرفة الصحيحة لحوادث التاريخ:

إن وفـاة مدحت باشا نقطة من النقاط التي لازالت مظلمةً بين أحداث التاريخ، ولا يقبَلُ العقل والمنطق في الأساس أن يقوم والدي ـ وهو الذي أصدر عفوَه حتى عن الذين تآمروا بإلقاء القُنبلة عليه ـ ويوعِز بقتل الباشا في الطائف بعد أعوام طويلة من عفوه عنه، رَغْمَ قرار المحكمة بإعدامه، ولو أن والدي فعل مثل هذه الجناية لكان الصدرُ الأعظم سعيد باشا أحد الذين لعبوا دوراً في خلعه ـ ذكر ذلك ولو بطريق التلميح على الأقل في مذكراته التي تفيضُ بما كتبه ضد والدي ـ وقد كان والدي يُبدي حزنه وأسفه كلما دار الحديث حول هذه المسألة، ويقول: «إن هذه الحادثة واحدةٌ من حوادث طالعي السيِّىء، أذلَّهم الله، لقد دبَّرها لي أعدائي حتى يُلطِّخوا سمعتي».

إن هذه الحادثة لازالت تُنسَبُ مسؤوليتها لوالدي بافتراءات الاتحاديين، وإنني لمؤمنة أن التاريخ سوف يكشِفُ يوماً عن حقيقتها.

أمـا عن آغـا الحـريم الـذي شُنِق فهـو: نديم آغـا الحبشي، أحـد المصاحبين، والسبب في شنقه أنه قَتَل المصاحب الآخر فيروز آغا أحد أبناء

جلدته، وكان والدي يستخدِم نديم آغا دائماً في مجلسه، إذ كان ذكاؤه اللمَّاح سبباً جعل والدي يعطِف عليه ويدلِّله، فشجعه ذلك على التسلط على بقية زملائه. وقد قيل: إن منصب فيروز آغا عندما كان في الحبشة كان أعلى من منصب نديم، مما جعلهما على خلاف مستمر.

فقد صَدَر في يوم من الأيام أمر تعيين المحاسب الأول شرف الدين آغا في رتبة «آغا دار السعادة»، فاجتمع كل المصاحبين على شرف هذه المناسبة وأرادوا إقامة وليمة، وكان نديم آغا من الحاضرين بينهم، فذهبوا إلى «كاغدخانه» وظلُّوا يأكلون ويشربون حتى المساء، ثم عادوا في ساعة متأخرة من الليل إلى سراي يلديز، وقيل: إن نديماً شرب حتى الثمالة، فلما وصل «دائرة المصاحبين» وتقابل عندها مع فيروز آغا، وكان وقت مناوبته، أراد أن يمازِحه ويُدخِل الرعب في قلبه، ولأنه لم يكن في وعيه فقد جاء مزاحه ثقيلاً سخيفاً، إذ سحب مسدسه، وراح يطارِد فيروز وهو يصيح «سوف أقتلك!»، فكان فيروز يحاول الهرب ويطارده نديم وهو يطلق القهقهات، وفي النهاية أطلق النار من مسدسه، ربما لأنه نَقَم عليه، أو لأنه لم يكن في وعيه فأرداه قتيلاً.

ولا بد أنه عاد إلى وعيه عندما رأى صديقه يموت أمامَ عينيه، إذ وضع سلاحه في جيبه وراح يُهرول ناحية «دائرة السلطان»، وكان يجيب على أسئلة «التفكجية» والحراس عندما رأوه وسألوه: إلى أين؟ بقوله: «سأذهب إلى أفندينا، لديَّ ما أقولُه له»، فلم يمنعوه لعِلمهم أنه واحدٌ من المصاحبين المحببين إلى السلطان، ويمكنه دائماً أن يدخُل عليه مجلسه.

وكان والدي آنذاك في غرفة نومه، دخلها قبلَ لحظات، وكانت عادته قبل النوم أن يدعَ أحداً يقرأ عليه كتاباً، إلا أن عصمت بك الذي يقومُ بهذه المهمة كان متوعِّكاً، فأخذ مكانه في تلك الليلة «الحاج محمود أفندي مدير المسيرة».

فلمـا دَقَّ نديم البـاب، وسأله والدي: من تكون؟ وعرَّفه بنفسه، شعر والدي من مجيئه في تلك الساعة المتأخرة من الليل أن هناك أمراً هامّاً، فأشار على الحاج محمود أن يفتح الباب ثم سأل نديماً عن سبب مجيئه، فأجابه على الفور: «لقد قتلتُ فيروز، وجئت أخبر أفندينا» فإذا بوالدي تستولي عليه الدهشة ويصيح فيه: «ماذا تَهذي؟»، ولما لم يَجِد منه إلا نفس الإجابة طرده من الغرفة وسلَّمه إلى الحراس الواقفين على بابها.

وفي المحكمة جَرَت محاكمة نديم آغا، وصدر عليه الحكم بالإعدام، وصـدَّق والـدي على الحكم، ولـو شاء لخففـه عنه، غير أن نفوره من القتل وانزعاجه لأن تُصبِح حمايته لرجل عَطَف عليه مثلاً سيئاً فيما بعد، أُضِف إلى ذلك: أن اقتحامه عليه مخدعه بشكل وقح، واعترافه بجنايته بأسلوب لا يليق، وبلهجة الواثق من العفو، كان عاملاً في تصديق الوالد على حكم الإعدام. ومع هذا فقد سمعنا منه مراتٍ عديدة فيما بعد أسفه وحزنه على موت نديم.

أما حكاية «البستاني الذي قَتَله والدي بيده» كما يدَّعي جميل باشا، فهي شبيهـة بحكـايات ألف ليلة وليلة، إذ يقـول في السطور التي كتبها حولَ هذه الحكاية ما نصه:

«أما البستاني فقد شاء أن يقدِّمَ بيديه طلباً إلى السلطان وهو في حديقة يلديز، فتـرصَّد طريقه، وخرج إليه ويدُه إلى صدره حتى يعطِيَه الطلب، فلما تخوَّف السلطان عبد الحميد من حركة البستاني المسكين، وظنَّ أنه يريد قتله! أخرج مسدسه الذي لا يفارِقه دائماً، وأطلق عليه النار، فخَرَّ البستاني قتيلاً في الحال».

ويا لَه من افتراء لا يَحتَمل حتى أبسط قواعد النقد، لأنه لم يحدُث أبداً أن تنزَّه والدي في حديقة يلديز بمفرده، وكانت له ساعات معينة يخرج فيها إلى

الحديقة، ولا بد عندها أن يصحَبَه عدد من موظفي المابين والمصاحبين، بل وبعض الباشوات، فضلاً عن الخفراء الأرناؤوط والحراس المسلحين بالبنادق عند الأبواب وفي كل رُكن من أركان الحديقة، وعساكر «بلوك المعية» الذين يقفون عند كل خطوة فيها. فالحديقةُ كلها، بل وجدرانها التي تحيط بدائرة الحريم يحرسها «التفكجية» ليلَ نهار. وليس صوت المسدس، بل إن سماع أي ضوضاء يجعلُ العديد منهم يسارعون على الفور بالتوجه إلى مصدرها حيثما كانت، وكلُّ نوافذ دائرة الحريم كانت تطلُّ على الحديقة، والخفراء الأرناؤوط يذرعون الأرض حولنا جِيئة وذهاباً.

لقد كان يوجد ثلاثة من البستانية يهتمون بأمر الزهور أمام دائرة والدي الخاصة، وينظفون الحديقة، هم: أدهم آغا، وعلي آغا، ومرتضى آغا، أما بقية البستانية فلم يكن أحد منهم يستطيع الاقتراب من الدائرة الخاصة.

أما دائرةُ الحريم فقد كان يدخُلها في الساعة العاشرة تقريباً كل صباح عمال الطيور والبستانية وعمال الحَمّامات تحت إشراف سبعة أو ثمانية من آغوات الحريم، وهم يصيحون معاً قائلين: «دستورا!»، ويقومون بأعمالهم فيها، وبعد ساعة يخرجون دفعة واحدة ثم ينصرفون.

هذه هي حال السراي ومدى صرامة النظام فيه، فكيف تُرتكب هذه الجناية في الوقت الذي ليس من عادة والدي على الإطلاق أن يتنزه بمفرده، ثم لا يشهدها أحد أو يسمع أحد صوت المسدس؟ إن هذه الحادثة التي يقال: إنها وقعت في وَضَح النهار، لو كانت صحيحة لسمع بها آغوات الحريم وبعض الحراس، حتى ولو كانوا يَغُطُّون في النوم، أضف إلى ذلك: أن الشيء الذي لم يقبله ضمير والدي يوماً من الأيام هو إراقةُ الدماء. ولو كان من طبيعته أن يقتل إنساناً بيده ولا يتهيَّبُ سفك الدماء، لكان بوسعه عن طريق القوة الموجودة بين

يديه أن يشتت شمل «جيش الحركة»، ولَمَا ضيَّعَ عرشه.

وهنـاك دليل آخـر على أن هذه الحـادثـة ملفَّقـة، وهـو الكلمات التي استخدمها عن رغبة البستاني في تقديم الطلب لوالدي، وترصُّدُه لطريقه، ثم قتله عندما قابله وشاء أن يُدخِل يده في صدرِه ليخرج الطلب.

وقد كان للبستانية أن يقدموا طلباتهم إلى السلطان، ولكن كان لهذا الأمر أيضاً أصول وسلسلة من المراتب؛ إذ يقدِّمونها أولاً إلى رئيس البستانية، فيرسلها الرئيس إلى المابين بواسطة أحد الآغوات. أضف إلى ذلك: أن الرجل الذي يتـرصد طريق السلطان ليقدم له طلباً، يمسكه في يده ولا يُخفِيه في صدره. وخلاصة القول: أن هذه الجناية ـ التي لم يذكر جميل باشا ممن سمعها ـ هي كما نرى من صنع خيال الباشا نفسه.

وما السبب إذن يا تُرى في إلقاء أمين العاصمة السابق لهذه الافتراءات؟ أعتقدُ أن السبب هو وقوعُه فريسةً للخوف؛ لأن الدعايات الضخمة التي رَوَّجَ لها الاتحاديون ضد والدي لازالت آثارُها عالقةً بالأذهان حتى الآن، ولازالوا يكتُبون ضدَّه من حين لآخر، ويَدَّعون عليه ما يدَّعون.

أمـا جميل باشـا فهـو رجـل حَصَـل على رتبة المشير، وعلى النياشين المرصعة من هذا السلطان الذي كَتَب ضده، والمحتمل أنه فعل ذلك لخوفه من أن يظهَرَ بمظهر رجل السلطان، فضلاً عن بعض الحسابات القديمة.

والثابت من اعتراف الباشا نفسِه أن شعوره بالخوف مبالَغٌ فيه، فالحادثة التي رواها في الصفحات (٧٣ ـ ٧٥) من مذكراته تؤكِّد ذلك، إذ يقول: «إنه ظنَّ أن السفينـة الإنجليزية الراسية على الشاطىء أمام قصره الصيفي جاءت لتَنقُلَه إلى المنفى، وأنه حاول الفِرار إلى منزل القنصل الفرنسي الملاصق لقصره».

وهنـاك حادثـة أخـرى ذكرها في صفحة (٧٩) وروى فيها «أنه ظنَّ أن المريض الذي يعالِجه مجنون؛ فانطلق يهرول في الشارع».

فتلك الحوادثُ تُظهِر للعِيان مدى العُقْم الشديد عند «جميل طوبوزلي» في موضوع الجسارة والجرأة.

لا شيء إذن يدعو للدهشة أن يتصرَّف السلطان عبد الحميد الهَلُوع في شبـابه، بحَيْطَة وحذر في شيخوخته، أو أن ندهَش لهجوم الآخرين عليه بعد علمهم أنه مضى ولن يستطيع الرد عليهم.

ما قَدَرُوك حقَّ قدرِك في حياتك
يا والدي . . . عبد الحميد خان؛
وهل يَدُوم ـ لأحد كان ـ اعتبار
في دنيا هي عَرَضٌ فان . . .

عائشة عثمان أوغلي

□□□□□

القسم الثامن

بعض صور الكتاب

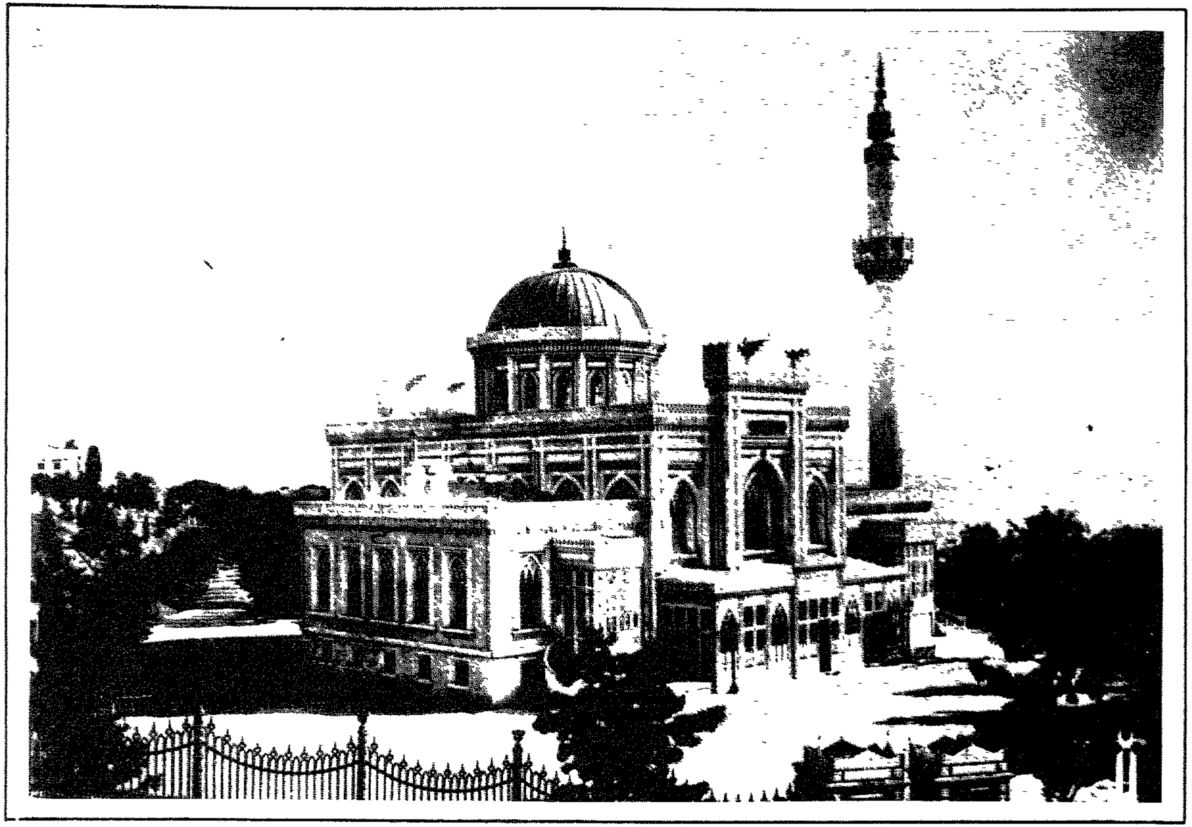

صورة لجامع حميدية «يلديز» قبل مائة عام تقريباً

(من أرشيف مركز الأبحاث)

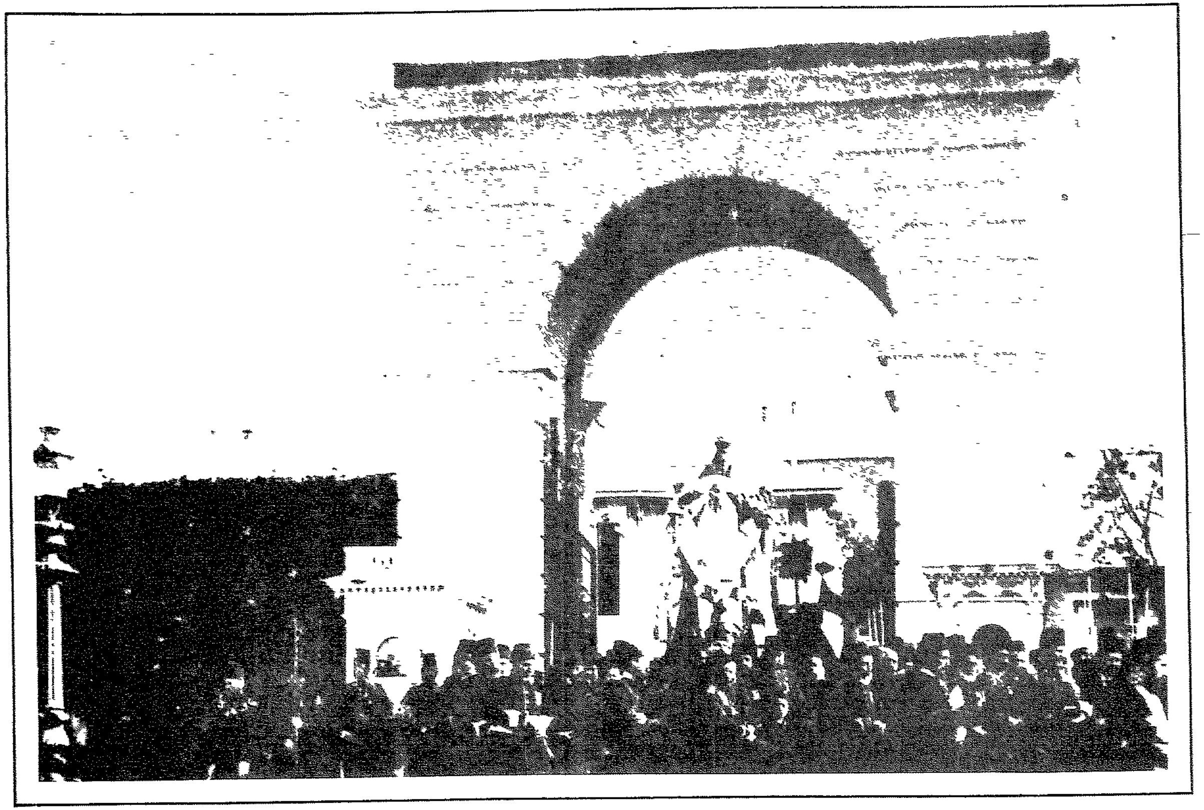

المحمل الشريف وهو يخرج مع موكبه من سراي يلديز متوجهاً إلى الأراضي الحجازية

(من أرشيف مركز الأبحاث)

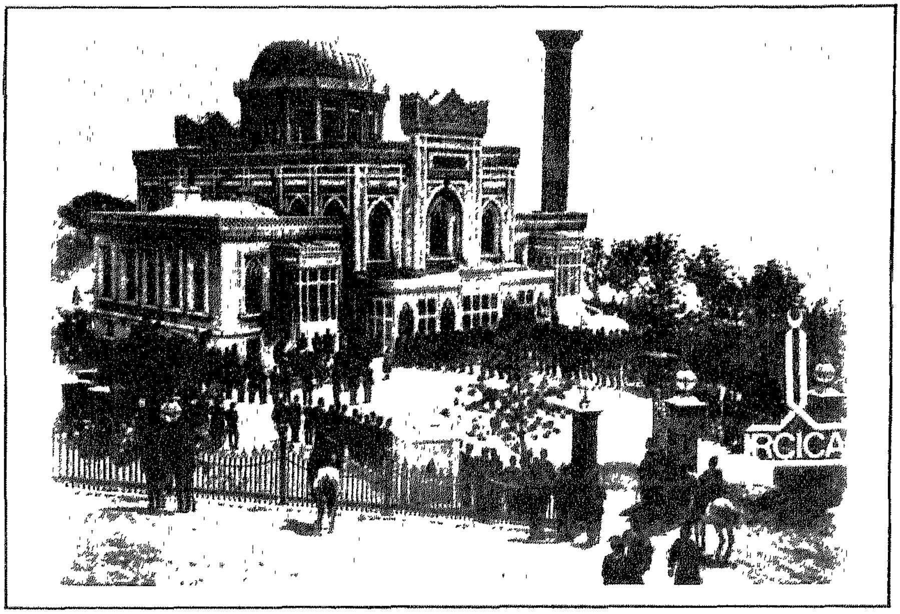

صورة لجامع حميدية الذي أنشأه السلطان عبد الحميد. ويلاحظ عند خروجه من صلاة الجمعة وموكب التحية من كبار موظفي الدولة والضباط والجنود (من أرشيف مركز الأبحاث)

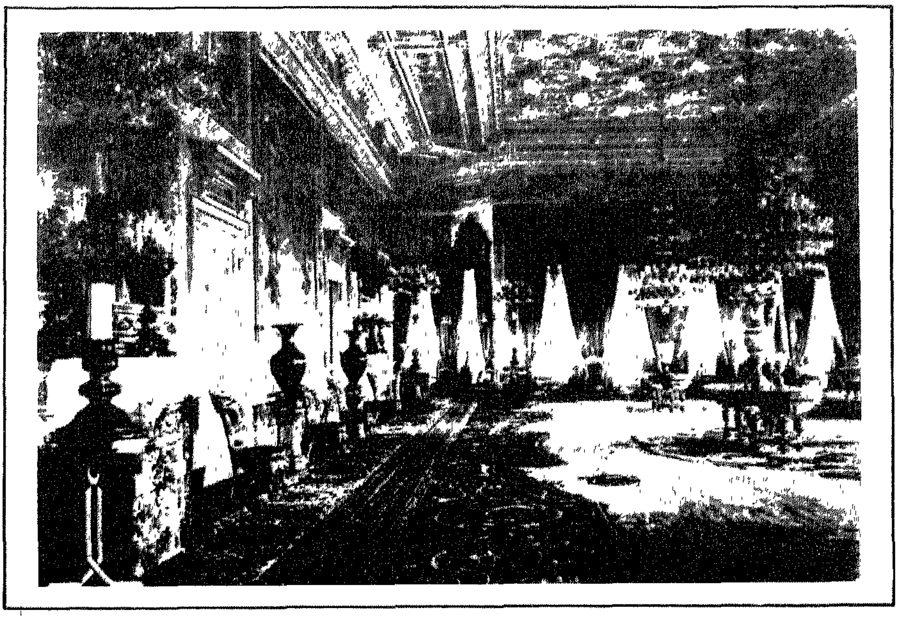

قاعة قصر «شاله» في سراي يلديز

(من أرشيف مركز الأبحاث)

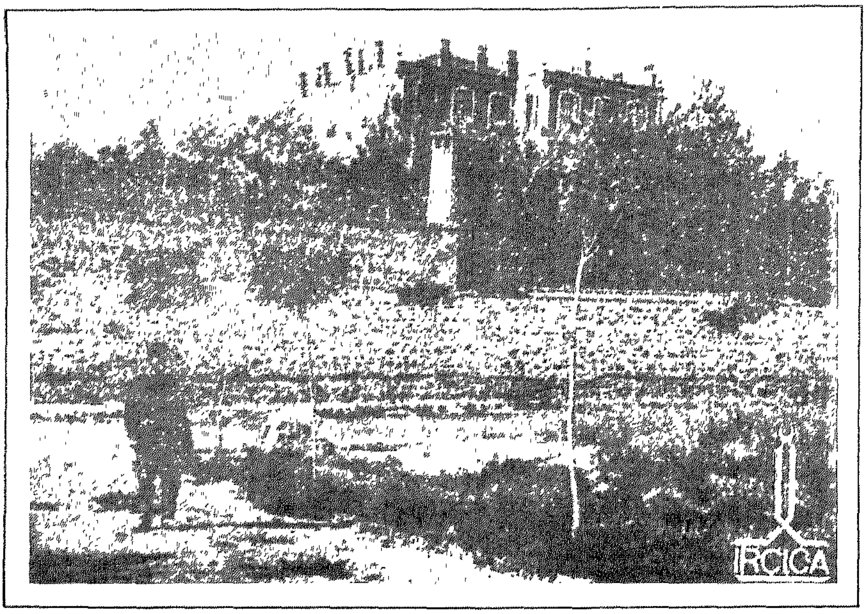

قصر علاتيني في سلانيك

(من أرشيف مركز الأبحاث)

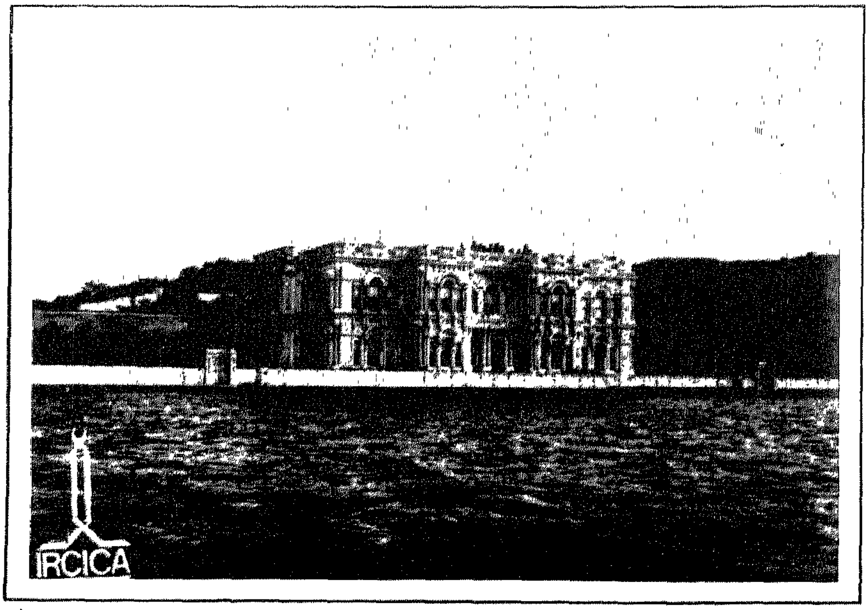

صورة لقصر بكلربكي من البسفور في استانبول

(من أرشيف مركز الأبحاث)

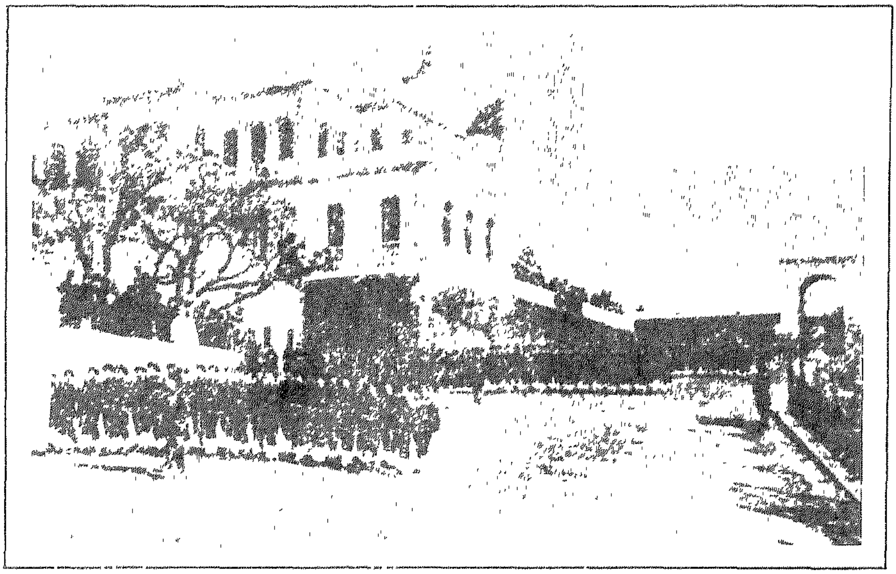

صورة للعرض العسكري الذي كان يجري عقب مراسم تحية الجمعة أمام سراي يلديز وكان السلطان يشهده من دائرة الحابين، بينما يشهده السفراء والقناصل من وراء الأسوار في الجانب الأيسر (نقلاً عن مجلة حيات التركية)

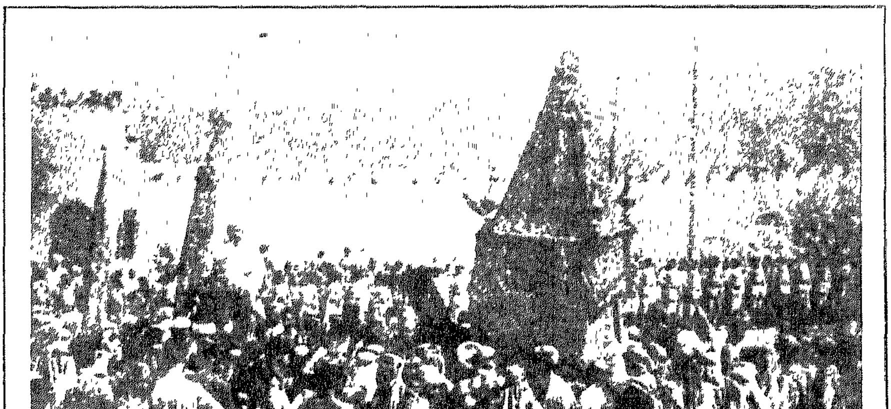

موكب الصُّرة أو المحمل النبوي الشريف عند وصوله إلى المدينة المنورة

(مكتبة سراي طوب قابي تحت رقم R.587)

صورة لقاعة المعايدات في سراي يلديز ويُرى السلطان عبد الحميد الثاني واقفاً أمام كرسي العرش وفي مواجهته شيخ الإسلام، وعلى الجانبين كبار رجالات الدولة والضيوف يرفعون أيديهم بالدعاء عقب انتهاء مراسم المعايدة (نقلاً عن مجلة حيات التركيه)

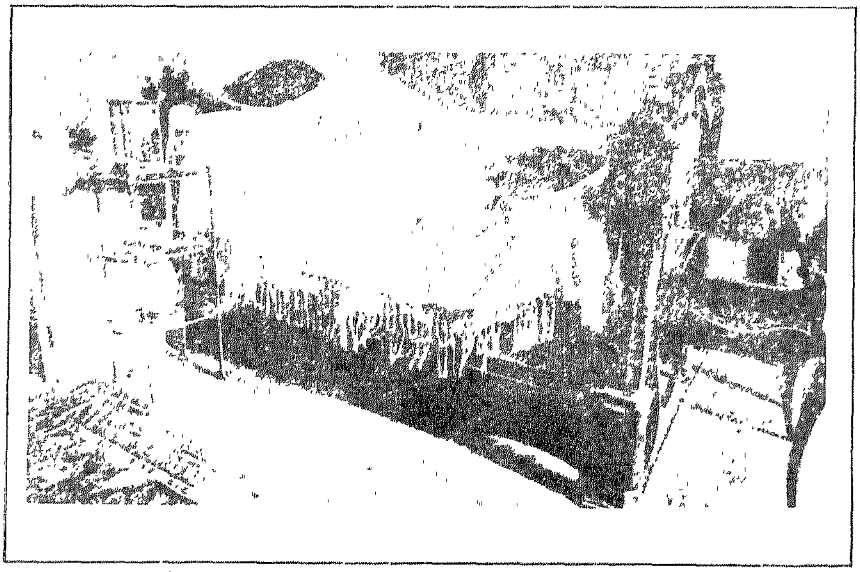

غرفة نوم السلطان عبد الحميد الثاني في قصر «مَصْلاق» عندما كان ولياً للعهد. ويلاحظ الحرفان (ع ح) على السجادة المعلقة على الحائط وعلى الكرسي أيمن الصورة. وهي العلامة المميزة التي كانت توضع على أشياء السلطان عبد الحميد (نقلاً عن مجلة حيات التركية)

صورتـان توضحـان الـروح الوطنية العالية التي نشأ عليها محمد عابد أفندي. فعلى الورقة الملصقة فوق صورة مدينة سلانيك كتبت الفقرة التالية بالتركية. «وأنا اذكر سلانيك، تلك المدينة اللطيفة، تتجسم أمام ناظري سماء الروملي، بريئة.. حزينة.. تئن في أغلال الأسر إن حسراتي على سلانيك هي حسرات كل الوطن الأسير.. الأمير محمد عابد»
أما الشعر المكتوب على السبورة في الصورة الثانية فيقول:

الثأر

لا تنس الإهانة التي رأيتها، واعلم
ما في أحشاءك من نقمة، دَعْها تتوارى في جنبيك.
ولا تنس!
لا تبك، ودمعك كفكفه..
وترصد خطوات الزمن، ولا تنس!
لا تنس البلغار أو الصرب أو اليونان
واجعلها تكتب بالنار على قلبك ذاك الحقد!
ولا تنس الدم المسفوك كالسيل.
أما إن مت فليُكْتب ذاك على قبرك

خط وصية المصحف الشريف الذي مر ذكره في الكتاب، وتقول: «أوقفت مشفقة قادين أفندي هذا المصحف وتبرعت به حتى يتلى منه على روح ساكن الفردوس الغازي السلطان عبد الحميد خان الثاني، في ٢٩ شعبان المعظم ١٣٣٧هـ»

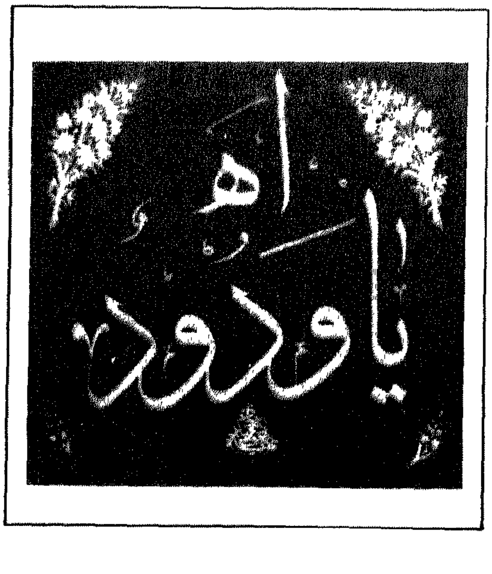

لوحة كتبها السلطان عبد الحميد الثاني ويلاحظ توقيعه أسفلها (نقلاً عن مجلة حيات التركية)

السلطان عبد الحميد عند الخروج من جامع يلديز «حميدية» بعد أداء صلاة الجمعة ضمن مراسم التحية الخاصة بذلك اليوم (تحية يوم الجمعة)

خط الأميرة عائشة بعد خمسة شهور من تعلمها القراءة والكتابة

جنازة السلطان عبد الحميد الثاني، يسير في مقدمتها محمد وحيد الدين (السلطان محمد السادس فيما بعد) يلبس نظارة وإلى جانبه عبد المجيد أفندي (آخر خليفة)، أما الذي ينظر إلى اليسار مرتديا زياً رسمياً فهو محمود ضياء الدين الابن الأكبر للسلطان رشاد

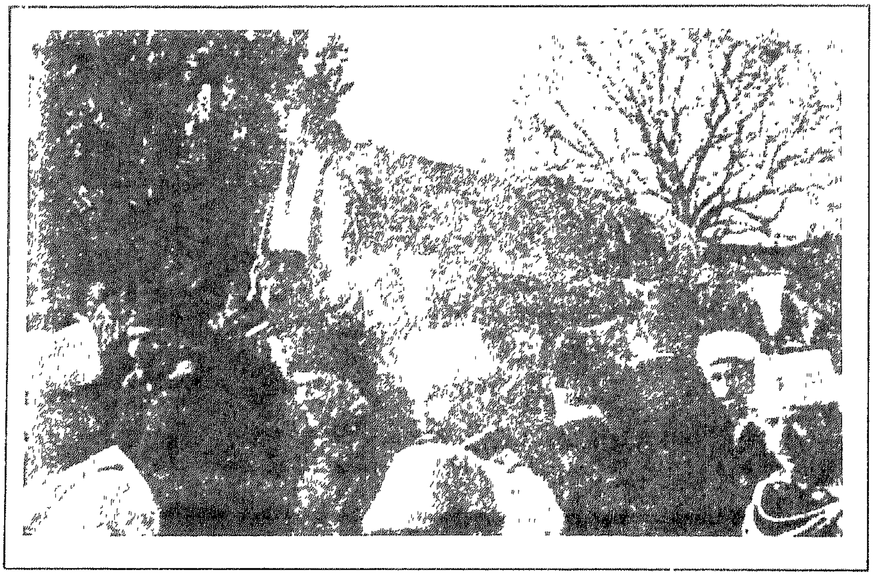

نعش السلطان عبد الحميد الثاني، يحمله الرجال على أكتافهم (١٠ شباط/ فبراير ١٩١٨م)

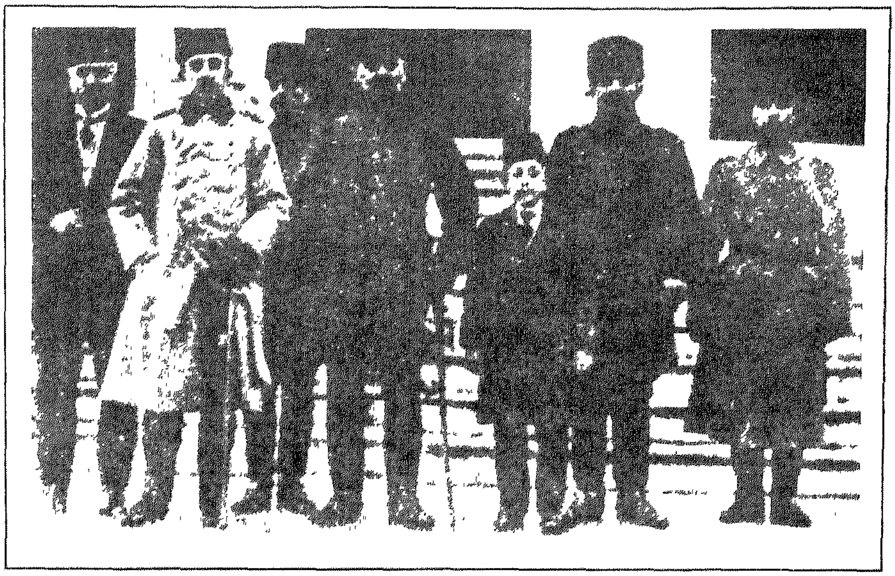

صورة أمام سراي بكلربكي في أوائل عام ١٩١٧ . والضابط الواقف في الوسط هو العقيد راسم جلال الدين بك رئيس الحرس وإلى جانبه من اليسار الضابط عبد الرحيم أفندي ابن السلطان عبد الحميد ومن اليمين عابد أفندي أخوه الأصغر وهو في الثانية عشر من عمره وخلفه محمود سعرد. والباقون هم الطبيب وضباط الحرس

● **Ayşe Sultan** (Osmanoğlu)'ın 12 ve 72 yaşındaki resimleri.

الأميرة عائشة (عثمان أوغلي) بنت السلطان عبد الحميد مؤلفة الكتاب وهي في الثانية عشرة والسبعين من عمرها

في أوسط الصورة الرسام المشهور أحمد شكري باشا أحد الياوران. وبين ذراعيه عبد القادر أفندي الابن الثاني للسلطان عبد الحميد، أما الرجل الآخر فهو خورشيد بك مربي الأمراء. والبنت الواقفة بين الرجلين هي البنت الثانية للسلطان عبد العزيز الأميرة ناظمة، وفي الصف الأمامي من اليسار: محمد سليم أفندي أول أبناء السلطان عبد الحميد، ثم ابنته الثانية نعيمة، وابنته الكبرى زكية، ثم إبراهيم توفيق من أحفاد السلطان عبد المجيد، ثم الأميرة أسماء البنت الثالثة للسلطان عبد العزيز، ثم عبد المجيد أفندي (آخر خليفة) وهو الذي يضع يده على صدره، وإلى جواره أخوه شوكت. وأمامهم من الأطفال: سيف الدين الابن الأصغر للسلطان عبد العزيز وأخت سيف الدين الأميرة أمينة

أربعة من أبناء السلطان عبد الحميد الثاني

عبد الفادر أفندي

محمد سليم أفندي

عبد الرحيم خيري أفندي

نور الدين أفندي

أربعة من إخوة السلطان عبد الحميد الثاني (نقلاً عن مجلة حيات التركية)

سليمان أفندي

برهان الدين أفندي

نور الدين أفندي

كمال الدين أفندي

تسعة أولاد وثماني بنات رزق بهم السلطان عبد الحميد الثاني من اثنتي عشرة زوجة، أربع

(نقلاً عن جريدة

الأمير عابد أفندي — الأميرة رفيمة — الأمير برهان الدين أفندي

الأميرة عائشة (عثمان أوغلي) — الأمير بدر الدين أفندي — الأميرة نائلة (عثمان أوغلي)

ستهن برتبة (قادين أفندي) وثماني برتبة (إقبال). وهذه صور لبعض هؤلاء الأولاد والبنات

حياب، التركيه)

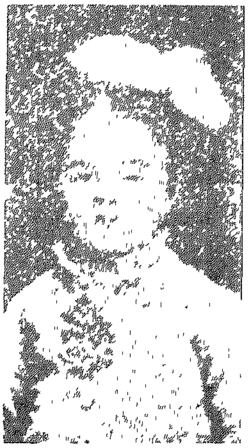

الأميرة زكية

الأمير سليم أفندي

الأميرة علوية

الأمير نور الدين أفندي

الأميرة نعيمة

الأمير عبد القادر أفندي

أربعة من آل عثمان هم (من اليسار)

- الأمير محمد سليم أفندي الابن الأول للسلطان عبد الحميد
- الأميرة ركية أخته
- الأميرة أسماء بنت السلطان عبد العزيز
- الأمير شوكت أخوها

(من اليسار) عبد الكريم أفندي ابن الأمير سليم أفندي ثم في الوسط عابد أفندي ابن السلطان عبد الحميد ثم أورخان أفندي ابن عبد القادر أفندي

الأميرة نميقة وعبد الكريم أفندي
أبناء محمد سليم أفندي، الابن
الأكبر بين أبناء السلطان عبد
الحميد الثاني

على اليمين الأميرة سلجوق ابنة
عبد الرحيم أفندي أحد أبناء
السلطان عبد الحميد وعلى
اليسار الأميرة فاطمة هانم بنت
الأميرة زكية بنت السلطان عبد
الحميد

أربعة من بنات السلطان عبد الحميد الثاني

الأميرة نائلة (في طفولتها)

الأميرة نعيمة

الأميرة رفيعة

الأميرة شادية

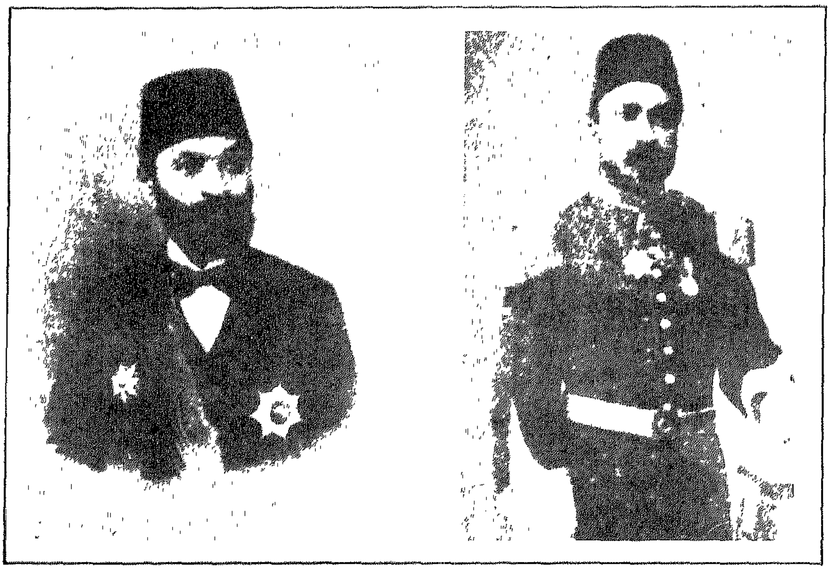

(على اليمين) أمين بك موظف المابين من الدرجة الرفيعة.

(وعلى اليسار) عزت باشا سكرتير ثاني المابين (وزير)

الأميرة مديحة — الأميرة بهيجة

من أخوات السلطان عبد الحميد (نقلاً عن مجلة حيات التركية)

من أخوات السلطان عبد الحميد الثاني
(نقلاً عن مجلة حيات التركية)

الأميرة نائلة

الأميرة سنيحة

الأميرة فاطمة

الأميرة عائشة مؤلفة الكتاب وإلى جوارها زوجها الثاني محمد علي رؤوف بك، وأمها مشفقة قادين أفندي التي تجلس وعلى حجرها عبد الحميد رؤوف، وإلى اليسار عمر نامي بك وإلى اليمين عثمان نامي بك عام ١٩٢٣م

الأميـرة فاطمـة علّيـة هانم من أحـفاد السلطان عبـد الحميـد وهي ابنـة نور الـدين باشـا ابن الغـازي عثمان باشا، وأمها هي الأميـره زكيـة البنت الكبـرى للسلطان عبـد الحميـد وقـد تزوجت فاطمة عليّة بمحسن بك المصري

(نقلاً عن مجلة حيات التركية)

صورة للوالـدة باشـا أم خديوي مصر عباس حلمي الثاني في (شبابها)

(نقلاً عن مجلة حيات التركية)

السلطان عبد الحميد الثاني

(نقلاً عن مجلة حيات التركية)

السلطان عبد الحميد الثاني

(نقلاً عن كتاب Gorup Isittiklerim

لعلي فؤاد تورك كلدي «أنقرة

١٩٤٩»)

صورة للسلطان عبد الحميد الثاني ظهرت في جريدة L'illust-ration في ٢٢ أغسطس ١٩٠٨ وكُتب أسفلها. عبد الحميد السلطان الرابع والثلاثون س السلاطين العثمانيين . حاقان الحواقين وهو اليوم الحاكم الدستوري

السلطان عبد الحميد الثاني
(١٨٣٦ - ١٩١٨م)

آخر الخلفاء العثمانيين عبد المجيد أفندي (١٨٦٨ - ١٩٤٤م)
(من أرشيف مركز الأبحاث)

آخر الخلفاء العثمانيين
عبد المجيد أفندي

فهرس المحتويات

الصحيفة

بين يدي الترجمة: عمر نامي وعثمان نامي ٥

تقديم: الأستاذ الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلي ٧

نبذة عن حياة السلطان عبد الحميد الثاني ١١

مقدمة الطبعة الثانية (التركية): عمر نامي وعثمان نامي ٥٥

مقدمة المؤلفة ٥٧

القسم الأول

والدي وسراي يلديز ٦١

والدة أبي ٦٦

رابّة والدي ٦٨

ذكريات عن طفولة أبي ٧٤

طبائع أبي وعاداته ٧٧

أوقات طعامه وطريقته في الجلوس على المائدة

والأطعمة المفضلة لديه ٨٢

علاقاتنا بالوالد وعنايته بتربيتنا ٨٣

شغف والدي بالموسيقى ٨٥

شغف الوالد بالرسم والنجارة ٨٦

حب الوالد للرياضة والفروسية ٨٧

طريقة الوالد في شرب القهوة ٨٩
قراءتهم الكتب عليه في الليل ٩٠
حوادث وقعت لوالدي ٩١
مدفأة الوالد وخلاف بسيط بسببها بينه
وبين السلطان عبد العزيز ٩٣
باكورة الأولاد وباكورة الأحزان ٩٤
إخوة آخرون ماتوا في سن مبكرة ٩٧
خادمات والدي ٩٩
والدي وسعيد باشا ١٠١
موظفو المابين ١٠٣
طفل يلقونه على عربة الوالد ١٠٥
مرض الوالد ١٠٦
أخوات الوالد ١٠٩
زيارات الأمراء ١١٢
زيارات امبراطور ألمانيا ١١٢
الاستعراض العسكري ١١٦
حديث الوالد عن الامبراطور الألماني ١١٨
زيارة شاه إيران ١٢١
حادثة القنبلة (٢١ تموز/ يوليه ١٩٠٥م) ١٢٣
مواكب تقديم التحية ١٢٧
ليالي الأعياد الدينية في السراي ١٣٣
حفلات عرس الأميرات ١٣٦
أفراح الختان ١٤٢

المسرح في السراي ١٤٣
الأعياد في السراي ١٤٨
زلزال في عيد الأضحى ١٥٤
الذكرى الخامسة والعشرون على اعتلاء العرش وميلاد السلطان ... ١٥٥
عادات السراي ١٥٨
مصاحبو السلطان وآغا دار السعادة ١٦٥
فريق آغوات الأوجاق في الحريم الهمايوني ١٦٩
شهر رمضان في السراي ١٧١
عمة والدي : الأميرة عادلة ١٧٥
عمي مراد الخامس ١٧٨
الزلزال الكبير (١٠ تموز/ يوليه ١٨٩٤م) ١٨٠
الحرب اليونانية (١٨٩٧م) ١٨١
مطلع العام الهجري في السراي ١٨٤
عيد النّوروز ١٨٥
حريق في السراي ١٨٦

القسم الثاني
حياتي وذكرياتي ١٩١

أشياء سمعتها عن ولادتي ١٩٣
حياة الوالدة ١٩٤
أحداث قبل ولادتي وبعدها ١٩٦
الجوسق الجديد ١٩٧
قصة ١٩٨
رفيقاتي في اللعب ١٩٩

أول ما بدأت أتعلم ٢٠٠
أحاسيس الطفولة ٢٠٢
بدايتي مع البيانو ٢٠٢
قط والدي المرقَّط ٢٠٤
ذهابنا إلى الصدر الأعظم جواد باشا ٢٠٥
استخدامي للنقاب ٢٠٧
ذكريات أخرى من طفولتي ٢٠٩
وفاة مربيتي ٢١٢
نديمتي ٢١٣

القسم الثالث

العهد الدستوري ٢١٥

إعلان الدستور ٢١٧
مراسم تحية الجمعة الأولى بعد إعلان الدستور
(٣١/ تموز/ يوليه ١٩٠٨م) ٢٢٠
كامل باشا صدراً أعظم للمرة الثالثة ٢٢٧
حفل غداء للمبعوثين ٢٢٨
حادثة ٣١ مارس (١٣ نيسان) ٢٣٠
خلع والدي عن العرش (الثلاثاء ٢٧ نيسان/ إبريل ١٩٠٩م) ٢٣٥

القسم الرابع

تسعة شهور من حياتي داخل قصر علاتيني في سلانيك ٢٥٣

دخولنا قصر علاتيني ٢٥٥
أول أيامنا في سلانيك ٢٥٩
وصول حاجياتنا ٢٦١

تعيين اليوزباشي راسم بك على الحرس الخاص ٢٦٧
وصول ساندانسكي إلى علاتيني ٢٦٩
حنان والدي ٢٧٠
الاستيلاء على أموال والدي المودعة في البنك ٢٧٤
اليوزباشي سالم الكردي يطلق النار على والدي ٢٨١
قوة الذاكرة عند والدي ٢٨٤
وصول محمود شوكت باشا إلى قصر علاتيني ٢٨٤
شهر رمضان الأول في قصر علاتيني وحبس علي محسن بك ٢٨٥
خروجنا من قصر علاتيني ٢٨٦
مثولنا بين يدي السلطان ٢٩٨

القسم الخامس

حياة والدي حتى عودته إلى استانبول من جديد ٣٠٥
وصوله إلى استانبول من سلانيك ٣٠٧
أول مرة أشهد أبي بالنظارة ٣٠٨
عمر يزور جده ٣٠٩
عيد الأضحى الأول بعد عودته إلى استانبول ٣١١
حياة والدي في سلانيك بعد انفصالنا عنه ٣١٨
رحلة السلطان رشاد إلى الروملي ٣٢٠
وفاة القلفة «سر الجمال» ٣٢٣
اليوزباشي ناظم أفندي ٣٢٤
حرب البلقان ٣٢٤
الوصول إلى قصر بكلربكي على ظهر الباخرة لورلي ٣٣١
الحياة في قصر بكلربكي ٣٣٥

أحداث وقعت لبهيجة هانم الإقبال الخامسة ٣٣٨
قطعة من الشعر الفارسي لوالدي ٣٤٠
والدي يقدم طلباً إلى نظارة الحربية ٣٤١
الحرب العالمية الأولى ٣٤٢
رسالة من السلطان رشاد إلى والدي ٣٤٣
استضافة أتاتورك في قصر بكلربكي ٣٤٤
لقاء بين والدي وأنور باشا ٣٤٤
مرض الوالد ووفاته ٣٤٦
كيف تلقيتُ خبر الوفاة وجئت استانبول ٣٥٢
زواجي الثاني ٣٥٤
مغادرتي أرض الوطن ٣٥٥
رحيل خليفة الإسلام عبد المجيد ٣٦٠
وفيات أخرى وعودة إلى الوطن ٣٦٩

القسم السادس

زوجات السلطان عبد الحميد الثاني وأولاده ٣٧٥
زوجات السلطان عبد الحميد الثاني ٣٧٧
أولاد السلطان عبد الحميد ٣٨٢
أحفاد السلطان عبد الحميد الثاني من أولاده الذكور ٣٨٧
زوجات محمد سليم أفندي وأولاده ٣٨٨
زوجات عبد القادر أفندي وأولاده ٣٨٩
زوجة أحمد أفندي ٣٩١
زوجات برهان الدين أفندي وأولاده ٣٩١
زوجة عبد الرحيم أفندي وابنته ٣٩٢

زوجة أحمد نور الدين أفندي ٣٩٣
زوجة محمد عابد أفندي ٣٩٣
أحفاد السلطان عبد الحميد الثاني من بناته ٣٩٥
أولاد الأميرة زكية ٣٩٥
أولاد الأميرة نعيمة ٣٩٦
الأميرة نائلة ٢٩٧
ابنة الأميرة شادية ٣٩٧
أولاد الأميرة عائشة ٣٩٧
أولاد الأميرة رفيعة ٣٩٨
أولاد الأميرات من أبناء السلطان عبد الحميد ٣٩٩

القسم السابع

خطاب إلى جميل باشا ٤٠١

خطاب إلى جميل باشا .... ٤٠٣ ـ ٤١٩

القسم الثامن

ملحق/ بعض صور الكتاب ٤٢١

□□□□□

تطلب جميع منشوراتنا من :

الشركة المتّحدة للتوزيع

بيروت - شارع سوريّا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٨١٥١١٢-٣١٩٠٣٩ - ص.ب: ٧٤٦٠ - برقيا: بيوشران